الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة ابن خلدون- تيارت-
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
قسم التاريخ

دة. نعيمة طيب بوجمعة

مطبوعة بيداغوجية في مقياس:

تاريخ إفريقيا جنوب الصحراء

موجهة لطلبة السنة الثالثة تاريخ عام ليسانس / السداسي الخامس

السنة الجامعية:1445-1446هـ/2023-2024م

جامعة ابن خلدون- تيارت-

كلية العلوم الانسانية والاجتماعية

قسم التاريخ

السداسي الخامس

مطبوعة بيداغوجية دة. نعيمة طيب بوجمعة
اسم المادة: تاريخ إفريقيا جنوب الصحراء
مستوى المادة: الثالثة ليسانس تاريخ عام
مدة التدريس: 14 أسبوع

الأساتذة المسؤولين
الاسم واللقب: نعيمة طيب بوجمعة
الرتبة: محاضر أ
كلية العلوم الانسانية والاجتماعية

الطلبة المعنيون
الكلية أو المعهد: كلية العلوم الانسانية والاجتماعية
القسم: التاريخ
السنة: الثالثة
تخصص: ليسانس تاريخ عام

معلومات عن المادة:

تاريخ إفريقيا جنوب الصحراء
المستوى: الثالثة
تخصص: ليسانس تاريخ عام
السداسي: الخامس
الوحدة البيداغوجية: وحدة تعليم استكشافية
المعامل: 1
الرصيد: 2
نافدة التواصل: naima.tayebboudjema@univ-tiaret.dz

طرق التدريس

حجم الساعات الأسبوعية
دروس: 1سا 30د
أعمال موجهة: /
أعمال تطبيقية: /
عمل شخصي: /
الإجمالي: 1سا 30د

عناوين المحاوروالمحاضرات:

الأسبوع	برنامج التدريس
المحورالأول: المجال الجغرافي والبشري لإفريقيا جنوب الصحراء و أقسام السكان	
(1)	المحاضرة الأولى: المجال الجغرافي لإفريقيا جنوب الصحراء
(2)	المحاضرة الثانية: المجال البشري لإفريقيا جنوب الصحراء وأقسام السكان
المحورالثاني: ممالك السودان الغربي	
(3)	المحاضرة الثالثة: مملكة غانة
(4)	المحاضرة الرابعة: ممالك السينيغامبيا مملكة التكرور
(5)	المحاضرة الخامسة: مملكة مالي الإسلامية
(6)	المحاضرة السادسة: مملكة السنغاي
المحورالثالث: ممالك السودان الأوسط	
(7)	المحاضرة السابعة: مملكة الكانم برنو
(8)	المحاضرة الثامنة: ممالك بلاد الحوصا/ الهاوسا
المحورالرابع: ممالك السودان الشرقي	
(9)	المحاضرة التاسعة: بلاد النوبة
(10)	المحاضرة العاشرة: مملكة الفُونج الإسلامية
(11)	المحاضرة الحادية عشر: مملكة دارفور
(12)	المحاضرة الثانية: الحبشة وممالك الطراز
المحورالخامس: انتشارالإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء	
(13)	المحاضرة الثالثة عشر: دور الدعاة والتجار والهجرات في نشر الإسلام
(14)	المحاضرة الرابعة عشر: الطرق الصوفية والحركات الإسلامية الحديثة

مفردات مقياس تاريخ إفريقيا جنوب الصحراء ضمن مشروع عرض تكوين الليسانس المعتمد:

التعريف بالمادة:

اسم المادة: تاريخ إفريبا جنوب الصحراء

اسم الوحدة: الوحدة التعليمية استكشافية

السداسي: الخامس

الرصيد: 1

المعامل: 2

الحجم الساعي الأسبوعي: ساعة ونصف

المحاور الأساسية للمادة:

- **تحديد الموقع والسكان (المجال الجغرافي والبشري لإفريقيا جنوب الصحراء و أقسامها السكانية).**
- **ممالك السودان الغربي (غانة، التكرور، مالي، سنغاي).**
- **ممالك السودان الأوسط (كانم برنو، ممالك الهاوسا).**
- **ممالك السودان الشرقي (النوبة، الفونج، دارفور، أكسوم في الحبشة).**
- **انتشار الإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء (دور التجار والفقهاء، دور الهجرة، دور الطرق الصوفية، الحركات الإسلامية الحديثة).**

طريقة التقييم: مر اقبة مستمرة، امتحان

امتحان كتابي في نهاية السداسي.

موضوع المقياس

إن مقياس " **تاريخ إفريقيا جنوب الصحراء**" يغطي الفترة الممتدة ما بين القرن الثاني إلى القرن الثالث عشر الهجريين/ القرن الثامن إلى القرن التاسع عشر الميلاديين، بدأ انتشار الإسلام في هذه المنطقة بداية من القرن الثاني الهجري، بفضل جهود الدعاة والفقهاء والتجار إذ شهدت هذه المنطقة دخول الإسلام إليها وتأسيس العديد من الممالك الإسلامية حتى نهاية هذه الفترة المدروسة التي شهدت هجمة استعمارية أوربية شرسة تمكنت في نهاية المطاف من فرض سيطرتها عليها.

هذا المقياس هو وحدة تعليم استكشافية، موجه لطلبة السنة الثالثة ليسانس تاريخ عام السداسي الخامس، وهو مادة سداسية، يتم من خلاله التعرف على تاريخ إفريقيا جنوب الصحراء أو ما يعرف بإفريقيا السوداء، وسنتعرض من خلاله مختلف الشعوب الافريقية وأهم الممالك السودانية التي قامت فيه ومظاهرها الحضارية، كما سنتطرق إلى مسألة انتشار الاسلام، والحركات الاسلامية الاصلاحية التي عرفتها المنطقة.

لذا سنحاول من خلال هذه المحاضرات إعطاء صورة واضحة عن أهم الأحداث التي شهدتها المنطقة خلال الفترة المحددة أعلاه، وهي فترة مهمة من تاريخ إفريقيا الإسلامية كما ذكرت من قبل. والتي يمكن من خلالها نستطيع فهم المتغيرات والتطورات التي شهدتها المنطقة في العصر الوسيط والحديث صعودا ونزولا لمسلمي هذه المنطقة ودورهم في نشر وتكريس مبادئ الإسلام بين شعوب المنطقة، إلى جانب ذلك أردت في ذات الوقت جعلها مدخلا يلج من خلاله الطالب في أعماق هذا التاريخ عبر الوصول السريع إلى ما متوفر من مصادر ومراجع تخص موضوع المقياس.

يتطلب هذا المقياس إلمام الطلبة بمجموعة من المفاهيم والمعلومات القبلية السابقة حتى يتمكنوا من فهم و متابعة هذا المقياس خاصة وأنعم لم يدرسوه في مراحل التعليم الأولى (الابتدائي، المتوسط، الثانوي)، ومن بين أهم هذه المكتسبات:

1. الالمام بلغة أجنبية على الأقل إلى جانب اللغة العربية، لأن معظم الدراسات كتبت باللغات الأجنبية (الفرنسية الانجليزية والبرتغالية).
2. معرفة مصطلحات معينة مثل إفريقيا ودولها، الزنج، السودان، البيضان، بلاد النوبة والحبشة والسينيغامبيا وغيرها.
3. معرفة أهم المصادر المشهورة مثل ابن حوقل، البكري، ابن بطوطة، الحسن الوزان، عبد الرحمن السعدي، محمود كعت، البرتلي، أحمد بابا التنبكتي.
4. الاطلاع المسبق بشكل عام و سطحي على الاقل على الطرق الصوفية والحركات الإصلاحية و دورها في إفريقيا.
5. معرفة بخريطة القارة الافريقية.

وجاء تركيزنا في هذه المحاضرات على أهم التطورات التاريخية التي شهدها منطقة إفريقيا جنوب الصحراء. مع الأخذ بعين الاعتبار المحاور المحددة للمقياس. فتم تسليط الضوء من خلال صفحات السند على عدة مواضيع، ففي المحور الأول المعنون بـ: **(المجال الجغرافي والبشري لإفريقيا جنوب الصحراء و أقسام السكان)** حاولنا استعراض أهمية الموقع الجغرافي والخارطة السكانية فضلا عن أصول سكان المنطقة وانتماءاتهم الاثنية وكل ما يتعلق بهذين الأمرين.

بينما جرى التركيز في المحور الثاني (**ممالك السودان الغربي**) على الممالك الإسلامية التي نشأت في منطقة السودان الغربي، وبيان دورها السياسي والثقافي والاقتصادي في المنطقة. وهي ممالك (غانة، تكرور، مالي، سنغاي). أما المحور الثالث (**ممالك السودان الأوسط**) فقد ركز على دراسة التطورات التي شهدتها ممالك (كانم-برنو، ممالك الهوسا) وبيان مدى تأثيرها في نشر الدين

الاسلامي والحراك السياسي والاقتصادي الذي كانت تشهده المنطقة. في حين تناول المحور الرابع (**ممالك السودان الشرقي**) أهم التطورات والإحداث السياسية التي شهدها هذا الإقليم بشرق إفريقيا ونقصد به الهضبة الحبشية والسودان، ولاسيما ما تتعلق بدوله الإسلامية (النوبة، الفونج، دارفور، ممالك الحبشة)، ومملكة أكسوم التي تعتبر مملكة مسيحية بدأت في الأفول أمام انتشار الإسلام، والممالك الإسلامية التي قامت في الشرق والجنوب الشرقي للحبشة مكانها هي ما يعرف بممالك الحبشة، منها: مملكة شوا الإسلامية التي قامت بقلب الهضبة الحبشية، وسبع ممالك أخرى تأسست في شرق الحبشة سميت بـ"ممالك الطراز الإسلامي" لأنها على جانب البحر كالطراز له، وهي عبارة عن إمارات صغيرة حكمت جزء كبيرا من بلاد الحبشة وساهت بشكل كبير في نشر الدين الإسلامي، منها: مملكة داورو، مملكة شرخا، مملكة هدية، مملكة بالي.

والمحور الخامس والأخير يتعلق بـ: (**انتشار الإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء**) قد ركزنا من خلاله على بيان دور الفقهاء والتجار المسلمين في نشر الإسلام وتوعية سكان منطقة إفريقيا جنوب الصحراء (بلاد السودان على العموم)، وكذلك جرى الحديث عن الهجرات العربية والبربرية ودور الطرق الصوفية في ترسيخ مفاهيم الدين الإسلام في صفوف السودانيين، وختمنا حدثنا في الإشارة إلى الحركات الإسلامية الحديثة التي شهدتها المنطقة خلال القرن 19م.

وفي الختام أتمنى أن أكون قد وفقنا في تقديم عمل يساهم في توسيع الدراية التاريخية لطلبتنا الأعزاء بخصوص تاريخ إفريقيا جنوب الصحراء، فنحن نعلم بأن هذه المحاضرات لن تغطي كل تاريخ إفريقيا جنوب الصحراء سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وثقافيا، لكن على الأقل توجههم للطريق الصحيح لمن أراد التعمق في دراسة تاريخ المنطقة والأثر الذي تركه انتشار الإسلام بها، والتغييرات التي عرفتها التركيبة الاجتماعية للساكنة.

والله الموفق

أستاذة المقياس

دة. نعيمة طيب بوجمعة

2024/5/30

المحور الأول

المجال الجغرافي والبشري لإفريقيا جنوب الصحراء و أقسام السكان

المحاضرة الأولى: المجال الجغرافي لإفريقيا جنوب الصحراء

1- تسمية بلاد السودان:

"بلاد السودان" في عرف الجغرافيين والرحالة العرب إذا أطلقت يراد بها على العموم أقاليم السودان الثلاث المعروفة، وهي: **السودان الغربي** يشمل حاليا حوض السنغال وغامبيا وفولتا العليا (بوركينا فاسو) والنيجر الأوسط، و**السودان الشرقي** يمتد من البحر الأحمر شرقا حتى إقليم دارفور غربا أي هو المنطقة التي تشمل مناطق النيل وروافده جنوب بلاد النوبة، و**السودان الأوسط** يشمل المناطق المحيطة ببحيرة تشاد.

وعلى الرغم من الإشكالات الواردة حول مصطلح السودان؛ فإنه قد ساد وانتشر في الكتابات العربية، ومنها انتقل إلى كتابات علماء المنطقة، فقد وردت لفظة السودان في عناوين مؤلفاتهم، واحتفظت الأدبيات الكلونيالية بالمفهوم التاريخي للمصطلح في الكتابات العربية والمحلية. وأدرك الجغرافيون والمؤرخون العرب أن المجال السوداني متعدد الخصائص، ولعل هذا هو السر في انتشار مصطلح "بلاد السودان" بصيغة الجمع عندهم؛ بدلا من بلد بصيغة الإفراد، وعليه؛ فقد حاولوا تقسيم المجال السوداني إلى أقسام مختلفة، والاعتبار الذي اعتمدوه في التقسيم ليس جهويا؛ بل سوسيو-سياسي؛ لأنهم لم يتعاملوا مع الفضاء الجغرافي مجردا عما يتجسد فيه من تشكيلات بشرية وسياسية، ولذلك تجدهم في الغالب يقسمون المنطقة إلى ممالك، فيتحدثون عن غَانَة وتكرور وملي وكوكو والزغاوة والبجة والحبشة والزنج....ولا يعني هذا أن البعد الجهوي لم يكن حاضرا عند الكتاب العرب؛ ولكن المقصود أن التقسيم الجهوي للمنطقة بدأ يتبلور ويأخذ الصبغة الاصطلاحية في الأدبيات الكلونيالية، ومنها توغل إلى البحث التاريخي المعاصر[1].

مع سنة عام 1870م شاع استخدام اسم السودان في المكاتبات الرسمية، فشمل كل الأقاليم الواقعة شمال البحيرات العظمى وحتى القرن الأفريقي والسواحل الصومالية، وفي فترة الاستعمار الأوروبي كان هناك السودان الفرنسي، والسودان الإنجليزي المصري وسقطت كلمة بلاد، وبعد الاستقلال عادت بلاد السودان الفرنسي لأسمائها القديمة، بينما أبقى سودان وادي النيل على اسم السودان لجمهوريتهم بعد الاستقلال[2].

خريطة بلاد السودان (أفريقيا جنوب الصحراء) نقلا عن حسين بوبيدي

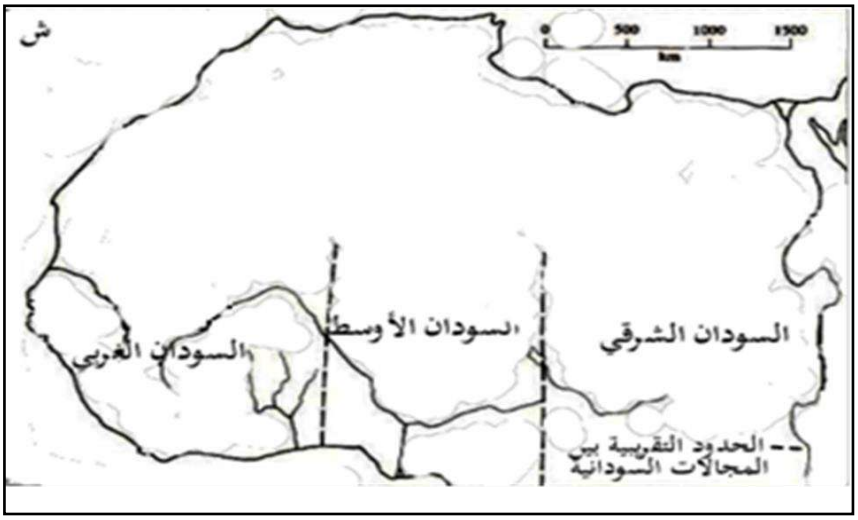

[1]- مصطفى أنجاي، "من كانم إلى صوكوتو موجز التاريخ السياسي للسودان الأوسط". مجلة قراءات إفريقية، الخرطوم، السنة 14،ع 35، جانفي 2018م، ص 17.

[2]- عبد الله البشير الفكي، "قراءة في صورة شعوب القرن الافريقي في كتابات الرحالة والجغرافيين العرب والمسلمين وتأثيراتها الممتدة". صحيفة التغيير الإلكترونية، بتاريخ: 4/8/ 2013م، الرابط

https://www.altaghyeer.info

أولا: السودان الغربي:

عرف باسم "**غرب إفريقيا**" أو "**إفريقيا الغربية**" في الكتابات الأجنبية، ولكن التسمية استعملت استعمالات جزئية، أما عن أصل التسمية فهو مستوحى من لون بشرة سكان المنطقة، فالسودان تعني الجنس الأسود وهذا في مقابله "بلاد البيضان" أو "بلاد البربر"[1]، فأطلقت تسمية السودان على الأقوام التي تقطن جنوب الصحراء الكبرى، والعرب هم أول من أطلق هذا اللفظ على كل السود الإفريقيين[2].

الموقع الجغرافي:

بعد الاطلاع على أقوال الرحالة والجغرافيين والمؤرخين نخلص إلى أن بلاد السودان الغربي يحدها شمالا الصحراء الكبرى، وشرقا الكاميرون وبحيرة تشاد، ومن الجنوب الشرقي الغابات الاستوائية، أما من ناحية الغرب فهي تتاخم المحيط الأطلسي، ومن الجنوب خليج غينيا، أي ما يعرف حاليا بمنطقة حوض السنغال وغامبيا وفولتا العليا والنيجر الأوسط والأعلى[3]. أما الموقع الفلكي فهو محصور ما بين دائرتي عرض 11° و17° شمال خط الاستواء وخط طول 10° شرقا و17° غربا[4].

وتشمل حاليا كل من السنغال وغامبيا ومالي وموريتانيا وغينيا والنيجر، والساحل العلوي والداخلي لثلثي سيراليون وداخل ليبيريا؛ والمناطق الغربية والشمالية والشمالية الشرقية لبوركينا فاسو؛ والنصف الشمالي للدول الساحلية في نيجيريا وبنين وتوغو وغانا وكوت ديفوار.

أ- التضاريس:

بموجب وقوع بلاد السودان الغربي ضمن النطاق الصحراوي فإن معظم أراضيها رملية ما عدى الأقاليم الواقعة بمحاذاة نهري النيجر والسنغال وروافدهما، وكان لهذا الموقع دور في تنوع تضاريس الإقليم واختلافها من منطقة إلى أخرى. تتخللها هضاب وجبال منها سلسلة جبال سيقوجاو، وهجار وآهير وجبال أورار الشرقية الغربية، وترتفع بعض أماكن الصحراء إلى 6.000 قدم فوق سطح البحر كما تنخفض إلى مائة قدم 100 قدم تحت سطح البحر[5].

أما هضابه منها هضبة النيجر، فيما تقع السهول شرق بلاد الهاوسا وتشكل منخفض بحيرة التشاد إضافة للسهول الممتدة على ضفاف نهري النيجر والسنغال، كما توجد العروق بالمنطقة المتاخمة للصحراء الكبرى شمالا، أي مابين بلاد المغرب جنوبا وبلاد السودان الغربي شمالا[6].

أما بالنسبة للجبال فتعتبر فوتا جالون أهم المناطق الجبلية، تمتد من غينيا إلى وكناكري وغرب ليبيريا وشمال سيراليون، ويعتبر جبل نيمبا (Nimba) الذي يقع في جنوب غينيا كناكري قرب الحدود مع ليبيريا وساحل العاج، أعلى قمم جبال فوتا جالون قرب حدود السنغال يبلغ ارتفاعه 1.538م، أما المنطقة الوسطى من هذه الجبال فتقوم في دولة التوغو متوسط ارتفاعها 900م. أما

---

[1]- عبد الرحمن ابن خلدون، **المقدمة**. بيروت، دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، ط1، 1968م، ص ص 20-21.

[2]- مبروك الدالي الهادي، **التاريخ السياسي والاقتصادي لإفريقيا في ما وراء الصحراء من نهاية القرن الخامس إلى بداية القرن الثامن عشر**. القاهرة، الدار المصرية اللبنانية، ط1، 1999م، ص 17.

[3]- أحمد طاهر، **إفريقيا فصول بين الماضي والحاضر**. القاهرة، دار المعارف، د.ت.ن، ص 66.

[4]- محمد علي باري وسعيد إبراهيم كريدية، **المسلمون في غرب إفريقيا (تاريخ وحضارة)**. بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 2007م، ص 19.

[5]- مبروك الدالي الهادي، المرجع السابق، ص 19.

[6]- دنيس بولم، **الحضارات الإفريقية**. تر: علي شاهين، بيروت، دار مكتبة الحياة، د.ت.ن، ص 54

الشواطئ الرملية فتبدأ في غينيا وتنتهي في نيجيريا، مشكلة بعض الخلجان التي تؤلف موانئ صالحة لرسو السفن مثل أبيجان في ساحل العاج[1].

ب- المناخ:

يسود الإقليم المناخ الصحراوي الجاف، الذي يتميز بارتفاع درجات الحرارة إلا أن به شيئا من الرطوبة، وبشكل خاص في الأراضي الواقعة بمحاذاة نهري النيجر والسنغال الذي يجري بالقرب من حافة الصحراء الجنوبية إضافة إلى الأقاليم المجاورة[2].

أما بالنسبة لمصادر المياه فتعتبر كتلة فوتا جالون مصدرا رئيسا للمياه، نظرا لكثرة أمطارها ولطبيعة تركيبها الجيولوجي، الذي يسمح بتخزين المياه، وتنبع منها أشهر الأنهار، ولعل من أهمها نهر النيجر الذي يبلغ طوله حوالي 4.200 كلم وينبع من الحدود غينيا كوناكري مع سيراليون، يرفد كثيرا من الأنهار ويمر في كل من غينيا ومالي والنيجر ثم يتجه إلى نيجيريا ليصب في دلتا كبيرة وهو صالح للملاحة ومصدر هام لصيد السمك[3]، وعندما يصل إلى تمبكت (بمالي) تتحد مجاريه وتصنع ثنية عظيمة يتجه بعدها نحو الجنوب ليصب في المحيط الأطلسي، وأطلق عليه المستعمرون الأوائل اسم "أنهار الزيت" (Rivers Oil) على مجموع الأنهار المتصلة به لأن المنطقة اشتهرت بإنتاج أجود أنواع الزيوت، ويكاد المؤرخون والجغرافيون يجمعون على أن نهر النيجر هو فرع من نهر النيل المصري فسموه نيل غانا ويقصدون به نهر النيجر، ومن بين الجغرافيين الذين استعملوا هذا المصطلح **الدمشقي** الذي سماه "نهر غانة" لأنه يمر بمملكة غانة[4].

وثاني نهر مهم هو نهر السنغال الذي يبلغ طوله 1.600كم، وينبع من وسط غينيا كوناكري، ويصب في المحيط الأطلسي عند مدينة سان لوي (saint louis) السنغالية، وهو صالح للملاحة، ومصدر سقاية للأراضي الواقعة على ضفتيه. وهو نهر قليل العمق، ويتجه شمالا ثم غربا نحو المحيط الأطلسي، وسماه العرب بالنيل السوداني أو النيل الكبير، أما السودانيون فسمو كل رافد من روافده باسم المنطقة التي يمر بها، وعندما اكتشفه البرتغاليون أطلقوا عليه اسم "سينا" أو "ساناغا" ثم تحول إلى سنغال، ويعتبر مصدرا هاما للمياه والملاحة النهرية وتعتبر أراضيه مصدرا للذهب[5].

أما نهر غامبيا فهو نهر صالح للملاحة يبلغ طوله 465 كم، كم أنه طريق مهم للمواصلات يخترق منطقة السافانا، والمناطق المحيطة به عبارة عن سهول خصبة صالحة لزراعة الفول السوداني، ويمكن استعمال القوارب في نهر كازامانس (Casamance) الذي يقع بالسنغال، ويبلغ طوله 320 كم، أما نهر سالوم (Saloum) بالسنغال يبلغ طوله 250 كم ويصب في المحيط الأطلسي. وجميع الأنهار المذكورة أعلاه لا تفصل بينها مرتفعات كبيرة، الأمر الذي سهل على الأفراد والتجار وغيرهم رسم المسالك التجارية النهرية القابلة للملاحة بكل سهولة، مما سهل عليهم مسألة الانتقال والسفر[6].

أما بالنسبة للرياح فنظرا لطبيعة المناخ الصحراوي الجاف فهي غير مستقرة فقد تصل سرعتها إلى درجة كبيرة، مما ينتج عنها تفتت الصخور وتعري سطح الأرض وعرقلة مجرى الحياة اليومية، وهو ما ذكره **ابن سعيد المغربي**، عندما قال: "لا ماء ولا مرعى ولا عمارة، بل رمال سائلة، وطرق مظللة طامسة وأكثر ما يكون فيه اللمط صابر على العطش...وأول ما يلقاك من هذا الجزء

---

[1]- باري محمد فاضل وكربدية سعيد إبراهيم، المرجع السابق، ص ص 21-22.

[2]- زكري عبد الرحمن، **تاريخ الدولة الإسلامية السودانية في إفريقيا الغربية**. القاهرة، المؤسسة العربية الحديثة، 1974م، ص 9.

[3]- إسماعيل العربي، **الصحراء الكبرى وشواطئها**. الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط1، 1983م، ص 22.

[4]- شمس الدين الدمشقي، **نخبة الدهر في عجائب البروالبحر**. بيتربورغ، المطبعة الأكاديمية للإمبراطورية المقدسة، 1926م، ص 50.

[5]- إسماعيل العربي، المرجع السابق، ص 22.

[6]- المرجع نفسه، ص 22.

صحراء سير التي يقطعها المسافرون ما بين سجلماسة وغانة...يكابدون شدة العطش ووهج الحر وربما هبت رياح جنوبية ونشفت الحياة التي بالقرب"[1]، في حديثه عن الرياح التي تمتد ما بين غانة وسجلماسة.

ثروات المنطقة:

تميزت بلدان غرب إفريقيا بمميزات اقتصادية مهمة تمثلت في تنوع مناخها، وخصوبة تربتها، ووفرة الثروة الحيوانية بغاباتها والثروة السمكية بسواحلها الأطلسية وأنهارها الداخلية (السنغال-النيجر)، هذا فضلا عن كونها خزانا للمعادن النفيسة كالذهب والنحاس والحديد، التي شكلت رواجا مهما في تجارة القوافل الصحراوية التي ربطت بين غرب إفريقيا وشمالها في العصور الوسطى. وعن هذه التجارة المربحة تحدث عدد من الجغرافيين والرحالة العرب، أمثال ابن بطوطة وابن حوقل الذي أشار إلى غنى أهل غانة جراء امتلاكهم لمعدن الذهب بقوله: "وغانة أيسر من على وجه الأرض من ملوكها بما لديهم من الأموال المدخرة من التبر المثار"[2].

كما كانت المنطقة إلى جانب مؤهلاتها الاقتصادية وثرواتها الطبيعية التي أسالت لعاب الأوربيين، ميدانا للتثاقف والتلاقح الفكري والروحي، فقد تأثر هذا المجال النائي والبعيد عن مظاهر الحضارة الإسلامية وتأثيراتها عبر التجارة التي فتحت باب الصلات بين التجار المسلمين والتجار الوثنيين؛ حيث تعرف الرعايا السودان على مضامين رسالة إسلامية سماوية خالدة؛ غايتها إسعاد الناس دنيا وأخرى، فبوصول طلائع الفتح الإسلامي إلى مشارف الصحراء، انتشر الدين بهذه الربوع على يد تُجَّار الخوارج ودعاة المالكية فيما بعد، فتمّ إخراجها من وثنيتها وعزلتها، وربطها بالحضارة العالمية التي ينشدها الإسلام، وتكوين ممالك سودانية عتيدة ارتبط اسمها بالإسلام[3].

ثانيا: السودان الأوسط:

بلاد السودان الأوسط هي تلك المناطق الشاسعة الممتدة من الضفاف الشرقية للنيجر الأوسط حتى منطقة بحيرة تشاد، ثم المناطق التي تلي ذلك شرقا، حتى بلاد دارفور ووادي غرب جمهورية السودان. وكلمة السودان الأوسط يمكن أن تكون مرادفة لكلمة "وسط قارة أفريقيا" أي المنطقة الوسطى من القارة. وحسب الدراسات التاريخة المعاصرة؛ يقع السودان الأوسط في المناطق المحيطة بحوض بحيرة تشاد، والتي قامت فيها ممالك: (كانم-برنو، إمارات الهوسا، مملكة باغرم، وادي، صوكوتو)، وتشمل حاليا أجزاء من دول: تشاد والنيجر ونيجيريا والكاميرون وإفريقيا الوسطى.

السطح والمناخ:

تميل أرض تشاد بشكل عام نحو الجنوب الغربي، ويتألف سطحها من هضاب وسهول وجبال وصحاري وفيها عدة أنهر وبحيرات وغابات، ويعتبر نهري شاري ولوغون المجمع الرئيسي للمياه في تشاد، يلتقيان في أنجمينا ويصبان في بحيرة تشاد عند التقاء الحدود مع نيجيريا والنيجر والكامرون، وتتميز هذه البحيرة بأنها ذات تصريف داخلي. وتمتد منطقة تشاد مناخيا إلي إقليمين واضحين تفصلهما دائرة عرض 8- 23 شمال خط الإستواء وخطي طول 14-24 شرق خط غرينتش. وتقسم مناخيا إلى إقليمين واضحين تفصلهما دائرة عرض 14,5 شمالا، فإلى الشمال من هذا الخط تظهر االظروف الصحراوية الحقيقة، فلا تهطل في هذا الإقليم سوي بعض الأمطار، كلها في فصل واحد، ويقل طوله عن ثلاثة أشهر، وقد تهطل بعض الأمطار على مرتفعات تبستي وتسمح بنمو بعض الحشائش لفترة قصيرة، والسمة المميزة لهذا الإقليم إنتشار الواحات التي تقوم بها الزراعة خاصة عن مقدمات مرتفعات

---

[1]- ابن سعيد المغربي، **كتاب الجغرافيا**. تح: إسماعيل العربي، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، ط2، 1982م، ص 113.

[2]- أبو القاسم النصيبي ابن حوقل، **صورة الأرض**. بيروت، دار مكتبة الحياة، 1979م، ص 98.

[3]- الحسين حديدي، "المماليك الإسلامية بغرب افريقيا وإشعاع الحياة الفكرية بها في العصر الوسيط وبداية الحديث". مجلة قراءات إفريقية، السنة 14،ع: 35، جانفي 2018م،ص 17.

تبستي. أما الجنوب في دائرة العرض 14,5 شمالا فيطول فصل المطر فيه، تسمح هذه الظروف بنمو الحشائش السافانا وغابات جافة، وبالاستمرار جنوبا حتى الحدود مع جمهورية إفريقيا الوسطي يتزايد طول فصل المطر من 6-7 أشهر، أما رياحها فكلها شمالية شرقية جافة، تحمل معها السحب والأتربة أحيانا أخرى[1].

ثالثا: السودان الشرقي والقرن الإفريقي:

1- الإطار الجغرافي:

تمتد منطقة شرق أفريقيا من إريتريا والحبشة شمالا حتى موزمبيق جنوبا، لتشمل الصومال وكينيا وتنزانيا، وهذه الأقاليم تنتشر بها سلسلة من الهضاب والمرتفعات، أهمها هضبة الحبشة التي يبلغ ارتفاعها أكثر من ستة آلاف قدم، تأخذ في الارتفاع كلما اتجهنا شرقا حيث يصل الارتفاع ثمانية آلاف قدم، ثم تنحدر تدريجيا صوب الغرب متجهة نحو سهول السودان. ولقد فرضت هذه الطبيعة الجغرافية على المناطق الساحلية أن تنعزل عن المناطق الداخلية، وأن تتجه شرقا نحو الجزيرة العربية والمحيط الهندي عبر مضيق باب المندب. أما مصطلح القرن الإفريقي لم يرد ذكره في كتابات الرحالة والجغرافيين؛ وإنما وردت الإشارات إلى شعوبه وديارهم وبلدانهم مثل: بلاد الحبشة، ديار البجة، بلاد النوبة، البجة والزغاوة... إلخ، وإلى بعض المدن والقرى مثل: مقديشو، عيذاب، زيلع، باضع، دهلَك، قرية سمهر الحبشية، دنقلا، سوبا، علوة، وسواكن... إلخ. كما ورد ذكر ممالكهم وبعض ملوكهم مثل: ملك النوبة كابيل/كاسل، وملك الحبشة النجاشي، ...إلخ. فمصطلح القرن الإفريقي كما هو معلوم مصطلح حديث.

فمصطلح القرن الإفريقي (شبه الجزيرة الصومالية) يختلف مفهومه اليوم عند الجغرافيين عن الأنثروبولوجيين وعلماء اللسانيات، كما يختلف عن مفهوم الساسة وتقسيمات السياسية الدولية، فالمصطلح لا يشكل مفهوما أصيلا نابعا من التطور التاريخي والحضاري لسكان المنطقة، وإنما هو مدرك جغرافي يرتبط بالموقع على الخريطة، فالموقع يتسم بأهمية إستراتيجية بالغة، إلى جانب أنه يطل على ممرات مائية حيوية، وهي: المحيط الهندي، خليج عدن، البحر الأحمر ومضيق باب المندب. فالمقصود بالمصطلح هو تلك المنطقة التي تضم دول: إثيوبيا، الصومال، جيبوتي، إرتيريا والسودان، وهي دول متداخلة جغرافيا وتاريخيا وسياسيا وكذلك مجموعاتها السكانية، وعرف إقليمها بأسماء عديدة، ولم يستخدم الرحالة والجغرافيون من بين هذه الأسماء الخمسة سوى اسم السودان والحبشة، ولكنهم أشاروا إلى المنطقة وشعوبها من خلال الأقوام والأماكن[2].

وخلال القرون الثلاثة الأولى للإسلام لم تكن معرفة العرب والمسلمين بأفريقية السوداء، وبالطبع منطقة القرن الإفريقي، تعتمد على معاينات الرحالة والجغرافيين ومشاهداتهم بقدر اعتمادها على الأخبار والمرويات التي تدور على ألسنة التجار والمسافرين وسواهم من الأسرى والرقيق المجلوبين من تلك الأصقاع المترامية الأطراف[3]. وجل مؤلفات الرحالة والجغرافيين تضمنت إفادات ووصف وإشارات متفاوتة في حجمها ونوعها وزمانها عن شعوب منطقة القرن الإفريقي وبلدانها، فالمنطقة تقع مجاورة للجزيرة العربية، وتربط بين المنطقتين روابط وصلات منذ فجر التاريخ[4].

ولصغر حجم الفاصل البحري كانت السواحل المواجهة لليمن بشرق إفريقيا تعيش بيئة عربية واحدة ما بين القرنين العاشر والسابع قبل الميلاد، ومع نشاط الطريق البحري للتجارة منذ القرن الثاني قبل الميلاد بدأت الهجرات وتصاعدت ما بين 3000

---

[1]- محمود شاكر، **تشاد**. بيروت، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 1292هـ/1972م، ط1، ص ص: 21-22.

[2]- عبد الله البشير الفكي، المرجع السابق، ص: 1.

[3]- قاسم وهب، "أخبار النوبة والبجة في مصنفات الجغرافيين العرب خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين (التاسع والعاشر للميلاد". السودان وإفريقيا في مدونات رحالة الشرق والغرب، ندوة الرحالة العرب والمسلمين، دورة ابن حوقل، أبوظبي، دار السويدي للنشر والتوزيع، 2006، ط1، ص 17.

[4]- عبد الله الفكي البشير، المرجع السابق، ص: 2.

إلى 1500 ق.م، وفي القرنين السابقين للميلاد عبر الحميريون وبعض الحضارمة البحر الأحمر واستقروا في الحبشة وتوغل بعضهم حتى بلاد النوبة وصاهروا قبائل البجة[1].

ومع ظهور الإسلام زادت تلك الهجرات، وسلك العرب المسلمون إلى القارة الأفريقية نفس الطرق التي سار عليها أجدادهم من قبل من أجل التجارة أو الهجرة، فمن الخليج العربي عن طريق مضيق باب المندب، وكل طرق البحر الأحمر إلى الحبشة وأعالي النيل الأزرق وأرتيريا وسودان وادي النيل، وعبر المحيط الهندي إلى الساحل الشرقي لإفريقيا، ومن ثم إلى وسطها[2] فضلا عن أن الإسلام زاد لاحقا من الهجرات العكسية بسبب التوجه إلى الأراضي المقدسة لأداء فريضتي الحج والعمرة، كما كان لموانىء منطقة القرن الإفريقي دور عظيم في عبور الحجاج من وإلى الأراضي المقدسة، ومن ضمن هؤلاء من وصلتنا كتاباتهم من الذين سجلوا ملاحظاتهم ودونوا مشاهداتهم، كان فيهم المؤرخ والجغرافي والتاجر والسائح والفقيه والشاعر وموظف البلاط والديوان، ومن بين أشهر الرحالة والجغرافيين الذين زاروا المنطقة ابن خرداذبه، الإصطخري، ابن حوقل، ابن سليم الأسواني، ناصر خسرو، الإدريسي، ابن جبير وابن بطوطة، ويرى البعض أن الرحالة المغاربة كان لهم الفضل الأكبر في كشف مجاهل تلك المنطقة ومناطق بلاد السودان الأخرى، وأرجع البعض إهتمامهم ببلاد السودان وتقع ضمنها بالطبع منطقة القرن الإفريقي، إلى الأسباب الآتية:

- لأنهم أقرب إلى أواسط إفريقية من المشارقة.
- لأن علماء الدين والفقهاء المالكية من المغاربة كانوا ينزلون تلك البلاد لنشر الدين والمذهب.
- لأن التجارة متصلة بين الشمال الإفريقي ووسطه.

ومن المهم الإشارة إلى أن الرحالة والجغرافيين لم يغطوا في زياراتهم وكتاباتهم كل منطقة القرن الإفريقي؛ وإنما زاروا بعضها، وكتبوا عن بعض نواحيها مع اختلاف في حجم كتاباتهم عنها، وكذا الفواصل الزمنية في زيارتهم لها أو كتابتهم عنها، فالمنطقة في القرن 8هـ/14م لم تكن كما كانت في القرن 4هـ/10م أو ما بعده[3].

خريطة القرن الإفريقي

[1]- جوزيف أومارا وخديجة صفوت، "سرديات رحلات العبور التاريخية وأسلمة سلطنة الفونج في القرن السادس عشر ، أثر بعض تنويعات الرحالة والتجار على التاريخ الإسلامي والتاريخ الشعبي"، السودان وإفريقيا في مدونات رحالة الشرق والغرب، ندوة الرحالة العرب والمسلمين، دورة ابن حوقل، أبوظبي، دار السويدي للنشر والتوزيع، ط1، 2006م، ص ص 68-69.

[2]- يوسف فضل حسن، **انتشارالإسلام في إفريقيا**. الخرطوم، أعمال الخدمات السريعة، 1979م، ص ص 2-3.

[3]- عبد الرحمن حميدة، **أعلام الجغرافيين العرب ومقتطفات من آثارهم**. دمشق، دار الفكر، 1995م، ص 41،61.

أ- تضاريس المنطقة:

الأخذود الإفريقي العظيم (Great Rift Valley): يخترق الإقليم من الجنوب إلى الشمال، ويمتد عبر عدة دول إفريقية كينيا وتنزانيا وأوغندا ومالاوي، به عدة بحيرات كبحيرة فكتوريا وتنجانيقا، من جباله المرتفعة جبال كينيا التي يصل لرتفاعها إلى 5.248 م، وأغلب أراضي الأخذود عبارة عن هضبة مرتفعة واسعة تترك سهلا ساحليا به عدة مرتفعات.

أما السهول أهمها السهل الساحلي الضيق المنخفض، تربته خصبة فيضية.

ب- المناخ:

إقليم إستوائي: يشمل شمال تنزانيا وكينيا به بحيرة فكتوريا، يتميز بسقوط الأمطار طوال السنة، غطاء نباتي كثيف.

إقليم المناخ المداري: يمثل معظم أجزاء تنزانيا وسواحل الصومال، به أمطار صيفية متذبذبة.

مناخ الهضاب والمرتفعات: حرارته معتدلة، كمية معتبرة من الأمطار، وخط الثلج به دائم على القمم التي تفوق ارتفاع 5.000 م خاصة بوسط كينيا ووسط أثيوبيا.

إقليم المناخ الصحراوي: يشمل شمال كينيا وجنوب أثيوبيا والصومال، قليل التساقط.

إقليم المناخ الساحلي الموسمي: إقليم حار ورطب، أمطاره موسمية تأتي بها الرياح الموسمية الجنوبية الشرقية، تكثر به الغابات الإستوائية على السواحل الشمالية لبحيرة فكتوريا –السافانا-

ومن الجزر التي تقع شرق القارة في المحيط الهندي، نذكر مدغشقر أكبرها، وزنجبار والسيشل وجزر القمر ورينيون وموريشيوس.

خريطة الأقاليم المناخية لبلاد السودان (أفريقيا جنوب الصحراء) نقلا عن حسين بوبيدي

المحاضرة الثانية: المجال البشري لإفريقيا جنوب الصحراء و أقسام السكان

ينتمي معظم سكان القارة فيما عدا سكان الشمال منها إلى ثلاث مجموعات كبرى، وهي:

أولا- مجموعة الشعوب السودانية.

ثانيا- مجموعة شعوب البانتو.

ثالثا- مجموعة الشعوب الحامية والسامية.

كل مجموعة من هذه المجموعات الثلاث الكبرى هي مجموعة أساسية كبرى تمثل قبائل عديدة تتغلب على غيرها من الشعوب التي تعيش بينها إما منفصلة أو مندمجة معا، وإلى جانب هذه المجموعات الثلاث الكبرى تعيش ثلات مجموعات صغرى، وهي: قبائل الخوي خوي والساءان في الركن الجنوبي من القارة، مجموعة البيجامي (Pygmée) أي الأقزام وهم موزعون في مجموعات صغرى داخل الغابات الاستوائية لإفريقيا الوسطى، قبائل الملاجاش (مدغشقر) وتتكلم لغات مالايزية وأندنوسية.

خريطة توزع القبائل الإفريقية بالسودان الغربي والأوسط (نقلا عن أحمد الشكري)

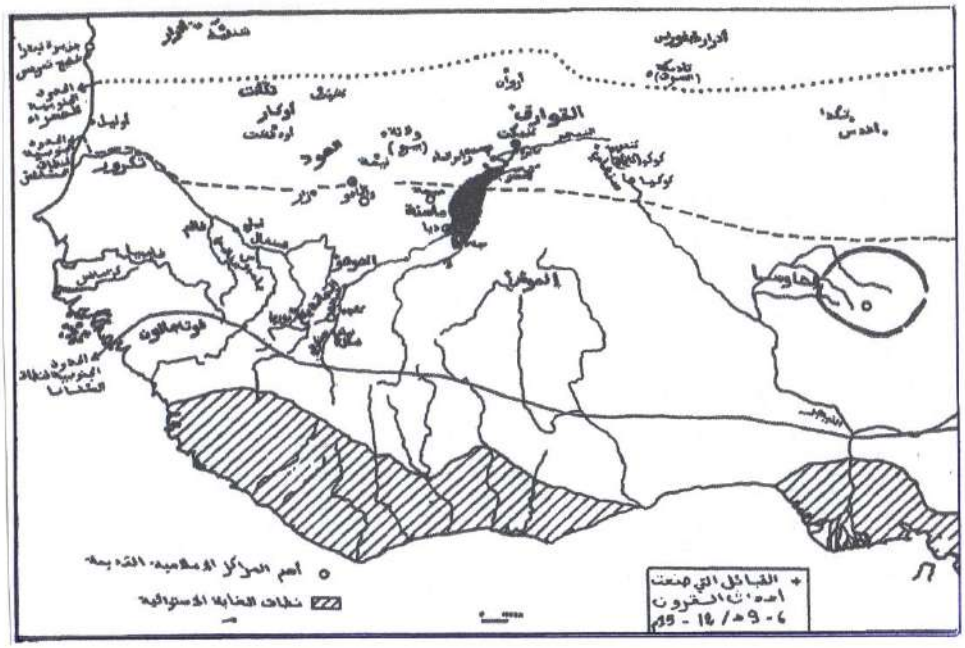

أولا- مجموعة الشعوب السودانية:

هي تلك المجموعة التي تعيش في أقاليم السودان الغربي والأوسط، وهم عبارة عن مئات القبائل والشعوب التي تتكلم اللغات السودانية[1]، أما شعوب هذه المنطقة ينقسمون إلى خمسة شعوب، وكل شعب منها ينقسم بدوره إلى مجموعة قبائل، والشعوب، هي: شعوب السودان الغربي، شعوب السودان الأوسط، شعوب السينيغامبيا، شعوب غينيا العليا، وشعوب أداماوا ومناطق ما بين الكونغو والنيل.

واحد: شعوب السودان الغربي:

من الصعب ذكر جميع قبائل بلاد السودان الغربي فهي قبائل متعددة، ولكل واحدة منها زعيم يرأسها ونظامها الخاص بها، وأول من كتب عن غرب أفريقيا من العرب هو المؤرخ وهب بن منبه في مؤلفه "الهجرة العظمى"، جاء فيه أن أهل بلاد السودان

[1]- عطية مخزوم الفيتوري، **دراسات في تاريخ شرق إفريقيا وجنوب الصحراء مرحلة انتشارالإسلام**. بنغازي، 1997م، ص 31.

يرجعون في أصلهم إلى نسل كوش بن حام بن نوح، تفرعت منه قران في شرق القارة ومنها اتجهوا صوب الغرب[1]، وهو ما ذهب إليه القزويني، أما ابن عبد الحكم وابن خلدون ذهبا كلاهما إلى أن أصل السكان يرجع إلى أبناء حام بن نوح.

وتقسم معظم غالبية سكان السودان الغربي إلى ثلاث قوميات كبرى، وهي: **ماندينجو، صنغاي**، وهم شعوب إفريقية كبرى تمكنت من الصمود أثناء الصراع، أما القومية الرابعة فتشكلت من الشعوب القادمة للمنطقة وهم "**الفلان**" أو "الفوللا" وهي شعوب رعوية تحولت إلى شعب سوداني بعد أن اتخذت من اللغة السودانية لغة لها، كما أخذت عنهم بعض المظاهر الحضارية وبعض العادات، وأغلب هذه القوميات والشعوب اعتنقت الإسلام في فترات تاريخية متعددة، وكان للمغرب الأقصى دور مهم في نشر الاسلام بينهم[2].

1- الماندينجو/الماندينغ:

عرفت قبائل الماندينجو أيضا باسم الماندي، وهم عبارة عن مجموع من القبائل السودانية الإفريقية التي تجمعهم روابط لغوية وحضارية مشتركة[3]، والذين امتزجوا فيما بينهم خلال الألف سنة الأخيرة قبل الميلاد على أقل تقدير، وشكلوا غالبية سكان الأقاليم الواقعة بين الروافد العليا لثلاث أنهار رئيسة في الغرب وهي السنغال غامبيا وأعالي النيجر، أي أنهم انتشروا في جميع أقاليم السودان الغربي الواقعة في جنوب السنغال وأعالي النيجر أي من المحيط إلى قلب نيجيريا، فهم ينتشرون في كامل منطقة السودان الغربي (جنوب السنغال، النيجر الأعلى، من سواحل المحيط الأطلسي إلى غاية جمهورية نيجيريا الحالية)، يتحدد مجالهم الجغرافي من الغرب مرتفعات فوتا جالون، ومن الجنوب غابات جنوب غينيا ومن الشرق والشمال غابات السافانا السودانية ولم تتوافر عنهم معلومات ذات أهمية إلا مع القرن 6هـ/12م.

والماندينجو هم العناصر الأساسية لشعوب دويلات غرب السودان في غانا ومالي، ويعتبرون أنفسهم من أنشأوا مملكة مالي، وهذا عند اعتناق رؤسائهم للإسلام مع بداية القرن 7هـ/13م[4]، والماندينغ يمثلون الشعب السوداني الخالص، حيث ينقسم شعب المانيدينغ أو الماندي إلى ثلاث مجموعات فرعية وهي:

- ماندينغ الشمال: ويعرفون بماندي تان (Mandi-tan) ويمثله شعبا "البوزو" و"السوننكي" أو "السراكولي"، كما أن الديولا (Dioula) أو "الجيولا" ينحدرون من سلالة السوننكي لكنهم انفصلوا عنهم قبل أن يختلطوا مع شعوب الساحل من الساميين والموريين.
- ماندينغ الوسط: يتفرعون إلى أربع مجموعات وهي؛ كاغورو (Kagoro) ؛ البامانا أو البمبارا (Bambara)، ؛ الخاسونكي. المالنكي(Malinké) والماندي؛ يعتبر المالنكي فرع من فروع الماندينغ وهم سكان مالي.
- السينوفو: يعد شعب السينوفو شعبا أصيلا في المنطقة سواء في النيجر الأعلى أو السنغال وكوت ديفوار الحالية.

---

[1]- دفسن بازل، **إفريقيا تحت أضواء جديدة**. تر: جمال أحمد، بيروت، دار الثقافة، ط1، 1961م، ص 102.

[2]- عطية مخزوم الفيتوري، المرجع السابق، ص ص 23-24.

[3]- نعيم قداح، **حضارة الإسلام وحضارة أوربا في إفريقيا الغربية**. الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط2، د.ت.ن، ص 18.

[4]- عطية مخزوم الفيتوري، المرجع السابق، ص 24.

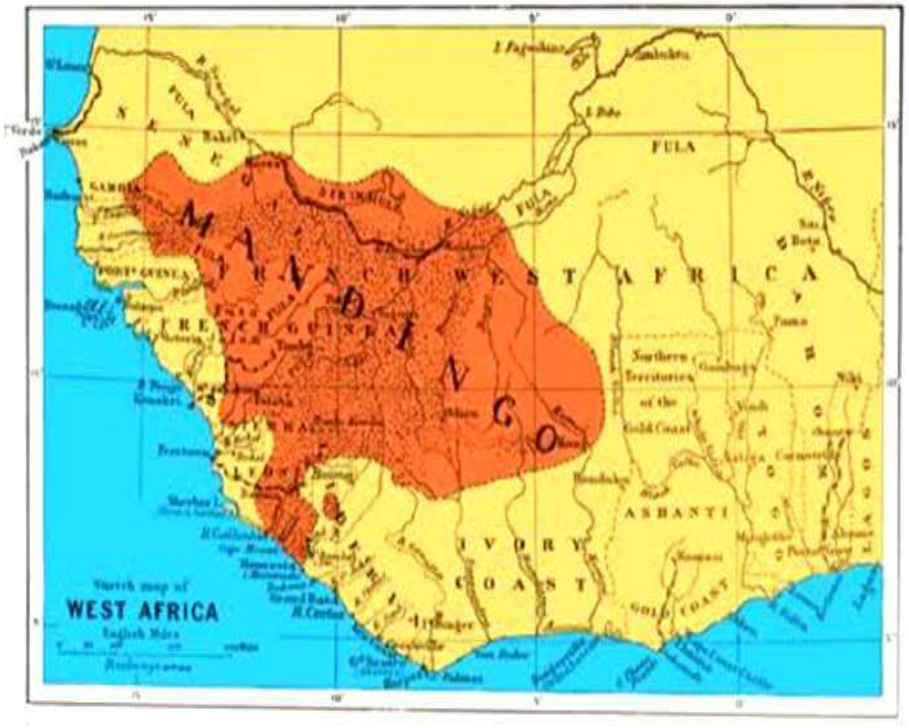

أ– الديولا (Doyoula):

تواجدوا بغينيا بيساو[1]، وحافظ غالبيتهم على دياناتهم القديمة لفترة من الزمن، ولكن سرعان ما أسلموا نتيجة اتصالهم بشعوب المالينكي[2]. واشتهروا بالتجارة وبفضلها انتشروا في مناطق ساحل العاج، وساحل الذهب والتوغو[3].

ب- السوننكة:

هم أكثر الشعوب أهمية وحيوية بين شعوب الماندي، فقد هيمنوا على تاريخ المنطقة خلال العصر الوسيط، عرفوا أيضا باسم "السيراكول" (Sérakoulé) التي تعني عند قبائل الولوف "الرجال الحمر". سكنوا في البداية في الصحراء ثم انتقلوا إلى السواحل الغربية للمحيط الأطلسي، وبعدها توغلوا جنوب الصحراء في المناطق الواسعة الممتدة ما بين أعالي نهر السنغال في الغرب وبحيرات النيجر، واعتنقوا الإسلام في وقت مبكر[4]. واستوطنوا المنطقة الساحلية المحاذية للصحراء من الجنوب، وموطنهم الأصلي هو منطقة وكدو التي انتشر منها إلى المناطق المجاورة، وهم أيضا خليط من شعوب الصحراء والساحل وحوض النيجر، تمازجت وانصهرت مع الوقت بعد أن اجتمعت نواة هذا الشعب الأصلية وهي الكنكارة، وخلال الفترة الممتدة من القرن 2-5هـ (8-11م)، كان السوننكة من أكبر وأقوى العصبيات السودانية في غرب إفريقيا[5].

جـ- الماندنكة: (Mandinka):

يعتبرون من الزراع المهرة وانتشر الإسلام بينهم منذ القرن 8هـ/14م على طول كل من مالي غينيا بيساو والسنغال[6].

---

[1]- عطا الله شوقي وإبراهيم الجمل إبراهيم، **تاريخ المسلمين بإفريقية ومشكلاتهم**. القاهرة، دار الثقافة للنشر، ط1، 1996م، ص 45.

[2]- Josèphe CUOQ, **les musulmans en Afrique**. Paris, E[d] Larousse, 1978, P 127.

[3]- Robert CORNEVIN, **Histoire des Peuples de L'Afrique Noir**. Paris, E[d] Berger-Levrauts, 1962, P 241.

[4]- حسن أحمد محمود، **الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا**. القاهرة، دار الفكر العربي، ط1، 2002م، ص 173. عصمت عبد اللطيف دندش، **دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا السمراء**. الجزائر، وزارة الثقافة، ط1، 2007م، ص 46.

[5]- ولد الحسين الناني، **صحراء الملثمين دراسة لتاريخ موريتانيا وتفاعلها مع محيطها الإقليمي خلال العصر الوسيط من منتصف القرن 2هـ/8م الى نهاية القرن 5هـ/11م**. تقديم محمد حجي، بيروت، دار المدار الإسلامي، ط1، 2007م، ص 408.

[6]- Josèphe CUOQ, Op.Cit, P 126.

د- البامبارا:

ينتشرون في واد النيجر الأعلى والسنغال الأعلى[1]، كما عرفوا أيضا باسم "بامانا" (Bamana)، وهم وثنيون قدموا من أعالي ساحل العاج نحو النيجر خلال القرن 6هـ/12م، وتوغلوا شرقا نحو حوضي نهري النيجر وباني منذ القرن 7هـ/13م. وكانوا في الأصل ينتسبون إلى إمبراطورية مالي، ولكن بعد هزيمة ملوكها على أيدي الأساكي بدأت قبيلة صغيرة منهم تظهر في منطقة سيقو (Ségou)، حيث أسست مملكتها الخاصة بعد أن انضم إليهم فلان ماسينا فتجاوروا مع السولينكي والبوزو (Bozou) على ضفاف نهر النيجر[2]. وتمكن البامبارا خلال القرن 11هـ/17م من الانفصال عن مملكة مالي وإمارة تمبكتو التي كان يحكمها باشاوات مراكش، وتحولت هذه الإمارة الصغيرة في عهد أحد ملوكها إلى دولة كبيرة منظمة غاية التنظيم، ورفض قسم من قبائل البامبارا أن يعترف بهذا الملك وترك بلاده وهاجر صوب الشمال الغربي وأسس مملكة كارتا. وحاليا تنتشر قبائل البامبارا على طول النيجر الأعلى والسنغال الأعلى وفي وادي نهر غامبيا وفي المناطق الداخلية من جمهورية غينيا ومالي[3].

وكانت لهذه القبائل مكانة كبيرة في إفريقيا الغربية بفضل سعة بلادهم وكثرة عددهم، فالماندينجو هم أرباب التجارة ما بين الساحل الأطلسي الغربي وما بين النيجر الأعلى وتجارتهم هي الملح وجوزة الكولة، وانتشرت لغتهم إلى ما وراء حدود بلادهم بفضل تجارتهم، وامتزاجهم مع مختلف القبائل، لذلك أصبح من الصعب جدا معرفة أصل هذه القبائل.

2- سنغاي/ صنغاي (Songhay):

يقال لهم أيضا سنغهاي وصنغاي، استوطنوا حدود الغابات الاستوائية في سنوات الميلاد، ثم انتقلوا إلى الشمال مع منطقة النيجر الأوسط وفي القرن 2هـ/7م حيث كانت مساكنها تمتد حول المنطقة المجاورة لنهر النيجر عند ثنيته أو ما يعرف بالنيجر الأوسط بحوالي 150 كم، فسكنوا الأقاليم الواقعة جنوب مدينة تمبكت الممتدة على ضفتي نهر النيجر إلى الشمال من داهومي عند مدينة داندي إلى جنوب فولتا العليا (بوركينا فاسو) وشمال نيجيريا، وهي المنطقة الإنتقالية بين عالم الماندينغ والسودان الأوسط [4].

[4].

من أهم عشائرهم **عشيرة ألدو** الذين امتهنوا الصيد النهري صيد الأسماك وزراعة الدخان[5]، عشيرتي **كورروميا وكولومانص** مارستا النشاط الزراعي، وعشيرة **السوركو والكو** مارسوا الصيد البري. واختلطت بتلك العشائر مجموعات من المهاجرين الماندينجو القادمين من الغرب فضلا عن مجموعات صنهاجية هاجرت من صحراء الملثمين خلال القرن 1هـ/7م، وتجاوزت منعطف نهر النيجر جنوبا لتدخل ضمن تلك العشائر وتشكل معا شعب الصنغاي[6].

ومن جهة أخرى يذكر البعض أنها هاجرت مع قبائل البربر التي اعتادت الانتقال جنوبا بحثا عن الرزق وهي من قبائل لمطة التي استطاعت أن تستقر حول النيجر في القرن 2هـ/8م، وبسطت نفوذها على أهالي تلك المناطق، وهناك أقوال تذهب إلى القول بأن شعب سنغاي جاؤوا أصلا من مصر وسكنوا مدينة أغاديس أولا حيث وصلتهم هجرات جديدة من صعيد مصر، ومع هذه الهجرات تحركوا نحو حوض نهر النيجر الأوسط حيث استقروا هناك وبسطوا نفوذهم. أما اليوم فإن قبائل السنغاي تتوزع بين جمهوريتي مالي والنيجر في المناطق المحيطة بمدينة جاو، وتوجد منهم أقليات في مدينة أغاديس، تمبكت، جني، وشمال البنين (داهومي سابقا).

1- نعيم قداح، المرجع السابق، ص 18.

2- Robert CORNEVIN, Op.Cit, P 242, 258.

3- حسن إبراهيم حسن، **انتشارالإسلام في القارة الإفريقية**. القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ط2، 1963م، ص 126.

4- إسماعيل العربي، **حاضر الدول الإسلامية**. الجزائر، مؤسسة الكتاب، ط1، 1984م، ص 242.

5- عبد القادر زبادية، **الحضارة العربية والتأثيرالأوروبي في إفريقيا الغربية جنوب الصحراء**. الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط1، 1989م، ص 11، 20.

6- ولد الحسين الناني، المرجع السابق، ص ص 407-408.

مما سبق ذكره نتوصل إلى أن هذه القبائل جاءت من الشمال واستقرت حول حوض النيجر ولم تكن زنجية الأصل. وأما الإسلام فقد بدأ يتسرب بينها عن طريق العلاقات التجارية التي نشأت بينها وبين بلاد المغرب الإسلامي، أو عن طريق حركة القوافل المستمرة من الطرق الصحراوية، أو عن طريق هجرات القبائل الرعوية وتحركاتها سواء كانت قبائل عربية أو بربرية، كما تجدر الإشارة إلى أن الأسر المهاجرة إلى سنغاي أوائل القرن 8هـ/14م اختلطت دماؤها بدماء أهل البلاد الأصليين التي كانت بطبعها مسلمة، واتخذت هذه القبائل التي بسطت نفوذها على أهالي تلك المناطق من مدينة كوكو عاصمة لها[1].

3- اليوروبا (Les Yoroubas, Yorubas):

تعتبر من أعرق قبائل المنطقة نظرا لتنوع قبائلها وتعددها إضافة إلى هجراتهم المختلفة، والتي بفضلها أصبحوا يسيطرون على الجنوب الشرقي من النيجر وصولا إلى غاية داهومي، وتتوزع قبائلهم في الجنوب الغربي من النيجر، غير أن البعض منهم يوجد في الإقليم الشمالي. أما عن أصلهم افيه اختلاف هناك من يرى بأنهم جاؤوا من مكة، ورأي آخر يقول بأنهم قدموا من صعيد مصر ودليلهم أن طريقتهم في دفن موتاهم تشبه طريقة القدماء المصريين[2]. ورواية أخرى تقول بأنهم جاؤوا من أعالي النيل وأسسوا مدينة إيفي (Ifi) التي تعتبر مدينتهم المقدسة[3].

الرواية العربية فهي روايتان: **الأولى** ترجع أصلهم إلى النمرود بن كنعان [4]، والرواية الثانية يقول أصحابها أن اليوروبا قدموا قدموا من بلاد العرب بعد أن ضغط قبائل يعرب بن قحطان، فهاجروا موطنهم الأصلي واتجهوا نحو غرب إفريقيا، وأخذوا يتقدمون في سيرهم حتى وصلوا إلى مدينة باربا فنزلوا بها، ولهذا يدعي اليوروبا أن كل قبائل السودان قد انحدرت منهم، وبالتالي استقروا بعد الهجرتين الأولى ما بين القرن 2-4هـ/6-10م والثانية خلال القرن 7هـ/13م واسم "يوروبا" هو تحوير لاسم "يعرب"[5].

وأسس اليوروبا ملكا خاصا بهم امتد من مصب نهر النيجر شرقا حتى بلاد الداهومي غربا، فانتشروا إلى غاية التوغو ونواحي داسا (Dassa)، يتو (Ketto)، ساكيتي (Sakité) وسافي (Savi)، ونجدهم أيضا بنيجيريا بالناحية الشمالية خاصة وبضواحي أبيوكوتا

---

[1]- عبد الفتاح مقلد الغنيمي ، **حركة المد الإسلامي في غربي إفريقيا**. القاهرة، مكتبة نهضة الشرق، ط1، 1985م، ص ص 107-108.

[2]- حسن إبراهيم حسن، المرجع السابق، ص: 125.

[3] - Josèphe CUOQ, Op.Cit, P 245.

[4]- علي أيوب ناجي، المرجع السابق، ص 43.

[5]- حسن إبراهيم حسن، المرجع السابق، ص 126.

(Abeokuta)، إيجيبي (Igibé)، أوندو (Ondo) وأويو (Oyou)[1]. ويطلق على ملكهم اسم "**الأفين**"، وكان زعماء قبائلهم يحضون بالتقدير والاحترام إذ كان يسود اعتقاد بأنهم من سلالة السماء، وانتشر الإسلام بينهم بفضل قبائل الفلاني[2].

5- الفولاني، الفلان، الفلاني (Les peuls):

تعتبر من أهم القبائل الإفريقية من حيث التأثير والانتشار، واختلف المؤرخون حول أصلهم، فمن المهم معرفة أصول هؤلاء المحاربين الرعاة الذين كان لهم دور هام في تاريخ المنطقة من السنغال إلى غاية الكاميرون، لذا نجد العديد من النظريات والروايات حول هذه المسألة منها الرواية المحلية والعربية والغربية، إضافة لرواية علماء الأجناس واللغات. ويرى **لويس توكسي** بأنه من الأفضل الأخذ بنظريات علماء الأجناس واللسانيات الذين اعتمدوا على العلم لإثبات نظرياتهم من خلال دراسة أنثربولوجية للفولانيين ودراسة لغوية للغاتهم ولهجاتهم، والأقرب إلى الصواب حسب دراسات علماء اللغة والأجناس أن الفلان من أصل حامي كوشي ولغتهم أيضا وبالتالي فهم من أصول إثيوبية.

المهم أنهم مجموعة كبيرة من القبائل الرعوية البدوية، ولغتهم السودانية، وقد أصبحوا خلال مراحل تاريخهم من أهم القوميات الكبرى في السودان الغربي والأوسط. وفي بداية الأمر هاجروا إلى غرب السودان ثم إلى السودان الأوسط واحتلوا أقاليم السنغال الأوسط حيث أقاموا هناك دولة صغيرة لهم ومنها تسربوا نحو الشرق والجنوب، وفي نهاية القرن 13م وصلوا إلى غرب إفريقيا وأصبحوا تابعين لإمبراطورية غانا التي زحف عليها المرابطون فيما بعد، فاعتنق معظم الفلان الموجودين بها الإسلام، وبعد استيلاء مالي على غانا في نهاية ق 13م أصبحوا جزءا من المملكة الجديدة وازداد انتشار الإسلام بينهم، وبعد سقوط مالي خضعوا لإمبراطورية سنغاي وبعد سقوطها إثر الزحف المراكشي زادت مكانتهم لأن المراكشيين لم يوطدوا حكمهم هناك، فاندفعوا نحو الشرق وانتشروا كرعاة بين القرى الزراعية، ونشط التجار وازدادوا قوة مع ق 16م بوجود إمارات الهاوسا التي استقروا بها[3].

وتمكنوا من تأسيس إمبراطورية كبيرة أين اهتموا بالزراعة فعادت عليهم بفوائد اقتصادية كبيرة، مكنتهم من التطور، ونشطت التجارة وتوسعت الأسواق. وقطنوا بالمناطق التي سكن بها الولوف وأخذوا اسمهم الجديد الولوف بعد أن كان اسمهم "البوفر"، وبعد أن أسلموا شاركوا عبد الله بن ياسين في جهاده وكثر تواجدهم بالسنغال، ثم سلك الفلانيون طريق الجنوب في رحلاتهم ثم اتجهوا نحو الشرق انطلاقا من السنغال إلى غينيا في فوتاجالون ثم إلى مالي ثم فولتا العليا فالنيجر وأخيرا نيجيريا حيث أسسوا دولة سوكوتو بزعامة عثمان بن فودي الفلاني واختلطوا مع قبيلة البوفر الموجودة بالمنطقة قبلهم، وتصاهروا فنتج عنصر بشري جديد لا هم فلان ولا هم بوفر بل هم التكرور، يطلقون على أنفسهم اسم "فولبي"

---

[1]- Robert CORNEVIN, Op.Cit, P 382.

[2]- حسن إبراهيم حسن، المرجع السابق، ص 125.

[3]- عطية مخزوم الفيتوري، المرجع السابق، ص 28.

إثنان: شعوب السودان الأوسط:

أدت عملية انتشار الدويلات الكبرى في وسط السودان (كانم، برنو، باغرمي، واداي، دارفور) إلى ظهور الشعوب الكبرى من الأمم البدائية والاتحادات القبلية التي كونت عناصر إتنوغرافية مختلفة، وكان لإسلامهم تأثير كبير على المنطقة إذ وجد الإسلام بين العرب والقائل السودانية، وهي: كانوري، كانيمبو، باجرومي، داينون ودارفوريون. وحملت هذه الشعوب الطابع السوداني المميز ورغم ذلك فقد عمتهم لمسات إتنوغرافية عربية وشملتهم حضارة العرب، وبالمقابل هناك قبائل حافظت على وثنيتها ولم تصبح عضوا في أسرة الشعوب الأساسية الكبرى لتلك الدول فاحتفظت باستقلالها الكامل، وخضع البعض منهم للسلطة السياسية لحكام الشعوب الحاكمة في السودان الأوسط ولكنهم احتفظوا في الوقت نفسه بطابعهم السوداني وحضارتهم[1].

1- شعب الهاوسا/ الحاوصا/ الهاوصا:

ورد ذكر الهاوسا في بعض المراجع باسم "الحوصا"، ومعنى كلمة الهاوسا حسب علماء اللغة "راكب الثور"، وقيل الهاوسا هي لغة، فكلمة الهاوسا مدلول لغوي لا جنسي. والهاوسا عبارة عن مجموعة من القبائل والجماعات المنتشرة في غرب أفريقيا وهي قبائل تعيش بشمال نيجيريا سيطروا قديما على مساحات كبيرة تمتد من الصحراء الكبرى شمالا إلى خليج غينيا جنوبا، ومن تشاد والكامرون شرقا إلى أعالي الفولتا غربا، ولكن يتركزون أساسا في نيجيريا وينتشرون في مقاطعات سوكوتو، كانو، كاتسينا، زاريا وباوتشي وذلك بين الصحراء الكبرى شمالا والبرنو شرقا ومنحنى نهر النيجر غربا والمناطق الساحلية لخليج غانا الكبير جنوبا.

ومنذ العصور القديمة كان الهاوسا يختلفون عن القبائل السودانية نتيجة تفوقهم في الصناعة اليدوية خاصة الصناعات النسيجية، كما قاموا بنشاط تجاري مزدهر مع الشعوب الأخرى، وتمكن تجارهم بفضلها من الوصول بتجارهم إلى غاية القسطنطينية والقاهرة. كما خالط الهاوسا عناصر بربرية من الشمال وأخرى عربية من الشرق، وبفضل هذا التمازج والاتصال أصبحت لديهم لغتهم الخاصة التي استخدموها في التجارة والمعاملات الخارجية والعلاقات الدبلوماسية في غرب إفريقيا، وانتشرت على نطاق واسع في غرب القارة فهي لينقي فرنكا (Lingue franca) أي لغة المعاملات التجارية والمالية، وأصبحت اللغة الهوسوية اللغة الثالثة في إفريقيا بعد العربية والسواحلية. ودانت قبائل الهوسا بالوثنية قبل أن تتحول في القرن 7هـ/13م إلى الإسلام الذي انتشر انتشارا واسعا وترك أثارا بعيدة في حياة هذه القبائل الاجتماعية والدينية، كما أنها وقفت موقف الحذر من الاستعمار البريطاني ونفرت من الثقافة الغربية، ولم تجد المسحية منفذا بينها بفضل قوة انتشار الإسلام بها.

[1]- الفيتوري عطية مخزوم، المرجع السابق، ص: 28، 32.

2- شعب الكانوري:

كانت منازله على الضفة اليمنى لنهر شاري، ويمثلون عنصرا وسطا بين التيبو "تيدا" في التبستى والزنوج، ولغتهم لها صلة بالتيبو (التوبو) من جهة ولغة المابا سكان ودَّاي من جهة أخرى، وقد ادعى أحد الدارسين النمساويين أن أصل الكانوري يعود إلى السومريين الذين حكموا بابل القديمة. ويتميز الكانوري بأنهم أهل أخلاق وجلد بالمقارنة مع العناصر الزنجية، وأغلبهم يشتغلون بالزراعة وهي زراعة على العموم تقليدية في بلادهم ولكن في أماكن أخرى خارج بلادهم أثبتوا أنهم مزارعون أكفاء، ولكنهم يمارسون بعض الحرف كصناعة السلال والفخار والحديد، ويربي بعضهم الأبقار والبعض الآخر الضأن، وبعضهم ماهر في الحياكة. ويتبع أغلب الكانوري الطريقة التجانية على الرغم من أنهم يحتفظون ببعض الخرافات كالشعوذة والسحر والعين الشريرة، ويوجد بينهم عدد كبير من السحرة[1].

3- التوبو:(Toubou)

أو التيدا لأن اسم التوبو أو التبو الذي أطلق عليهم من قبل الأوربيين، وعرفوا باسم الكتشر في بحر الغزال، والتوبو من سكان كوار سكنوا منطقة متواضعة في غرب كوار تمتد إلى مرتفعات الهجار، كما انتشروا في فزان وامتدوا في جبال التبستي وما يجاورها، ومجموعات منهم وجدت في بحر الغزال وفي بلاد الكانم، ويتكلمون لغة خاصة بهم خاصة بهم وهي الدازاقا (Dazaga) أو التدلقيا (Tedega) التي تنتمي للغات الصحراوية.

وينقسم التوبو إلى فرعين فرع في تبستي والثاني في بوركر وإيندي، وكل فرع ينقسم إلى مجموعة قبائل مختلفة حيث يضم الفرع الأول أربع مجموعات والثاني أربع عشر قبيلة. والتوبو ليسوا بيضا صرحاء ولا سودا خالصين وإنما هم شعب هجين أسلموا منذ زمن طويل، وكان منه الدعاة، كما أنهم عملوا أدلاء للقوافل وخدمة التجار. وإلى جانب هذه القوميات الكبرى لشعوب السودان الغربي وجدت قبائل أخرى كبرى وصغرى التي أسلمت مصيرها للشعوب الحاكمة للمنطقة.

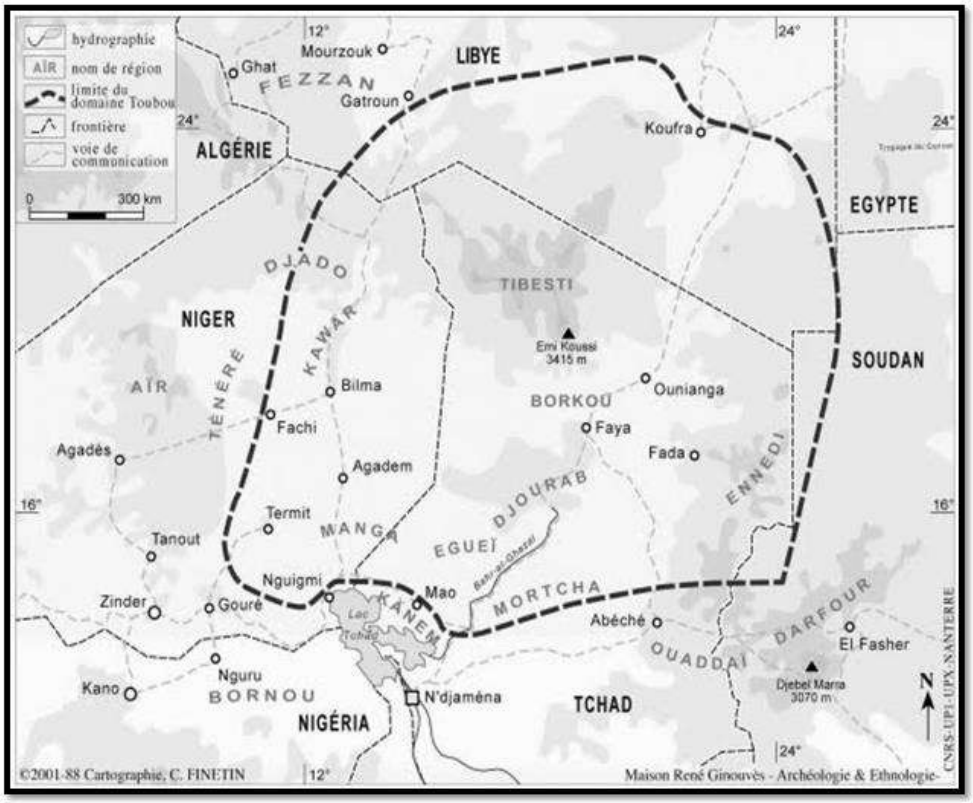

[1]- مزدلفة عمر محمد ثاني، المرجع السابق، ص ص: 14-15.

4- شعب السو/ الصو/ الساو:

شعب الساو أو الصو من أهم وأقدم الشعوب التي سكنت بالسودان الأوسط، كان موجودا في مناطق مختلفة من السودان الأوسط، وتم اخضاعه خلال القرنيين السابع والثامن للميلاد من طرف مهاجرين قادمين من حوض النيل وبرقة وفزان[1]. وهناك اختلاف كبير في أصوله، ويعتقد أن شعب الساو هم أسلاف شعب كوتوكو الموجودين حاليا في تشاد، حيث أن كوتوكو يستخدمون لفظة ساو للدلالة على أسلافهم، وحسب الروايات المحلية؛ فإن ساو كانوا منذ القرن 1هـ/7م مستقرين في منطقة كوار، ومنها بسطوا سيطرتهم ابتداء من القرن 4هـ/10م على كل الأقاليم الواقعة بين بحيرة فتري (جنوب دولة تشاد) وبلاد الماسا (شمال دولة كاميرون). ويعتقد أنه تم طرد الساو إلى الجنوب زمن تأسيس مملكة كانم، وأن سلاطين برنو عملوا على القضاء عليهم، الأمر الذي تمكنوا منه زمن السلطان إدريس ألوما (ق 11هـ/17م)، وهذه الفترة توافق زمن اختفاء الساو كشعب واحد منظم من تاريخ المنطقة حيث لم يعد لهم وجود[2].

5- شعب الزغاوة:

من أقدم الشعوب التي وصلت إلى بحيرة تشاد، ونجحوا بحكم تكاثرهم في المنطقة من إنشاء مملكة واسعة الأطراف فيما بين تشاد غربا إلى النوبة شرقا، ولكن الاختلاف هو حول أصولهم البعيدة، حيث يرجع بعضهم إلى الحميريين عرب الجنوب، ويعود بهم البعض إلى البربر، ويرى آخرون أنهم زحفوا من هضبة دارفور غربي دولة السودان، واستقروا في حوض بحيرة تشاد وأسسوا مملكة عرفت باسمهم، امتدت من تخوم الواحات الليبية إلى الحدود الغربية لدارفور. وهم في أصلهم البعيد حسب حسين مؤنس فرع من قبيلة زغاوة فحرف الاسم، وهاجرت هذه القبيلة من مناطقها على ساحل البحر المتوسط إلى بلاد الجريد جنوب تونس ثم إلى طرابلس ومنها أخذوا طريق فزان وكوار إلى إقليم تشاد ثم اتجهوا شرقا فاستقروا في إقليم دار فور، وأعطوا اسمهم لجزء كبير منه، ودخلوا حاملين معهم الإسلام والثقافة العربية الإسلامية فأنشأوا المساجد مما ساهم في نشر الاسلام في السودانيين النيلي والتشادي[3].

[1]- الناني ولد الحسين، المرجع السابق، ص: 409.

[2]- أنجاي مصطفى، المرجع السابق، ص: 17.

[3]- الفيتوري عطية مخزوم، المرجع السابق، ص: 222.

وعلى خلاف شعب الساو لا يزال للزغاوة وجود مستمر للآن بدولتي تشاد وغرب السودان، وكان العرب على اتصال كبير بشعب الزغاوة؛ لاستيطانهم في طرق القوافل التجارية العابرة للصحراء من ليبيا ومنطقة وادي النيل، إلى منطقة بحيرة تشاد والسودان الغربي، ولذلك ورد اسمهم عند كثير من مؤرخي وجغرافيي العالم الإسلامي من أمثال ابن حوقل، اليعقوبي، البكري، الإدريسي، ابن سعيد وابن خلدون وغيرهم. وعلى الرغم من أن مؤسسي مدينة كانم بالسودان الأوسط غير معروفين على سبيل التحديد؛ فإن من المؤكد أن الزغاوة من أوائل سكان هذه المدينة، فحسب المعلومات التي أوردها اليعقوبي وغيره فإن الزغاوة كانوا حكام كانم في ق 2هـ/8م، واستمر حكم الزغاوة لمملكة كانم إلى فترة سيطرة السيفيين (أو السيفاويين) عليها سنة 1075م، فلجؤوا تحت ضغط الحكام الجدد إلى الشرق.

6- شعب الكانمبو:

لفظة كانمبو تتضمن معنى جغرافيا، لأنها تعني "أهل الغرب"، ويسمي الهوسا هذا الشعب بـ "بري بري" (Beriberi)، والتي تعني في لغتهم المغاربة. وهناك روايات مختلفة عن أصولهم من أشهرها تلك التي تعتبرهم من سلالة الملك اليمني سيف بن ذي يزن، وينفي كثير من المؤرخين هذه النسبة، ويعتبرون الشعب الكانمبي خليطا من المجموعات الإثنية ذات الأصول النيلية والنيلو-تشادية، كما يعتبرهم آخرون من أصول بربرية.

في نهايات القرن 5هـ/11م اعتنق ملوك كانم الإسلام، واجتهدوا في نشره في المملكة، وخاضوا في سبيل ذلك معارك كثيرة ضد القبائل الوثنية. وفي القرن 8هـ/14م؛ بدأ الضعف يدب في المملكة بسبب الاضطرابات الداخلية والخارجية، فاضطر بعض السيفيين إلى اللجوء لبرنو غربي بحيرة تشاد، وأسسوا هناك مملكة برنو، التي قويت حتى بسطت سيطرتها على كانم، وأصبحت المملكة بعد استيعابها لكانم تعرف باسم "مملكة برنو"، واستمرت في الوجود إلى نهايات القرن 13هـ/19م حين اقتسمتها فرنسا وبريطانيا وألمانيا فيما بينها[1].

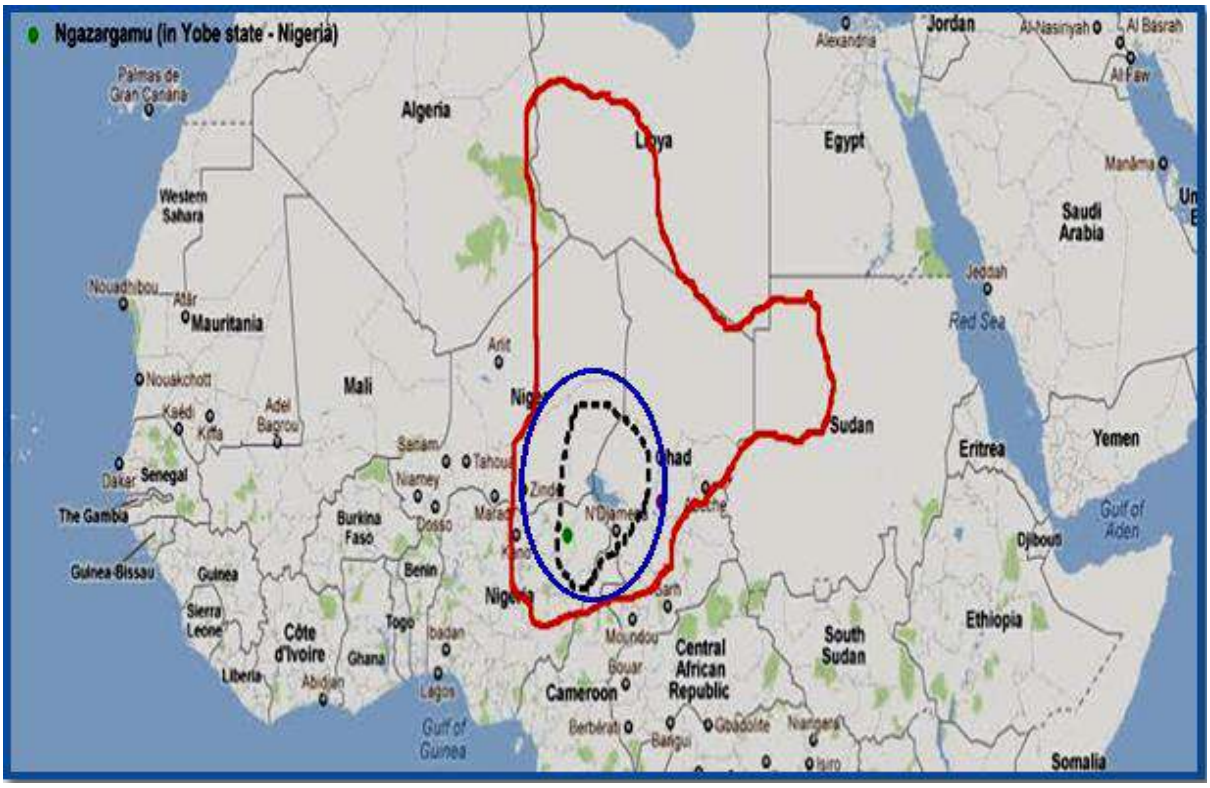

[1]- مصطفى أنجاي، المرجع السابق، ص ص 18-19.

ثالثا- شعوب السينيغامبيا:

وهي مجموعة الشعوب التي هاجرت إلى الغرب وإلى حوض نهري السنغال وغامبيا، والذين شكلوا اتحادات قوية أو ضعيفة، وقاموا بإنشاء دويلاتهم التي كانت متاخمة لدول الماندينجو، وفي فترة متأخرة مجاورة لدول قبائل الفوللا، وناضلوا لقرون طويلة من أجل استقلالهم ثم ضد إغارات القبائل الموربة الوافدة من الشمال وضد الغزاة الأوربيين على مناطق الساحل، وتتكون من قبائل الولوف والسرير والتكرور التي انتشر الإسلام بينها خلال القرن 5هـ/11م[1].

1- قبائل الولوف: (Ouolofs , Yoloffs, Ghiolofs, Wolofs)

عرفوا في الكتابات الأوربية باسم الولوف[2]،حيث يشكلون اتحادات قوية أو ضعيفة، حيث قاموا بإنشاء دويلات بدائية التنظيم، متاخمة للماندينغو وقبائل الفولاتة ومن أهم شعوبها نجد؛ أن هؤلاء احتلوا مناطق شاسعة بين نهري السنغال وغامبيا، ولكنهم أجبروا على الخروج منها بعد غارات قبائل الطراز المغربية، وتركزوا في ست تشكيلات الدولية: أوالوا، باوول، كايور، سنيه، سالوم. والولوف يرأسها رئيس منتخب، وكل الرؤساء ارتبطوا بالولاء للرئيس الأعلى للولوف، وانقسموا إلى أربع طبقات رئيسة، وهي: أرستقراطية الأحرار وأرباب العمل والحرف اليدوية والمغنون ثم العبيد الذين كان لهم حق تملك العقارات. ويعتبر الولوف من أهم العناصر السكانية لبلاد السودان الغربي، فهم يمثلون ثالث تجمع من حيث العدد والأهمية، يتميزون بسواد بشرتهم وطول قاماتهم وصلابة أجسامهم[3]. وكانت معظم قبائل وشعوب السينيغامبا ماعدا الماندينجو والفوللا تخضع لحد ما لنفوذ الولوف، حتى قبائل السيرير الذين يتمركون في الناحية الجنوبية كانوا مرتبطون بهم ارتباطا وثيقا[4].

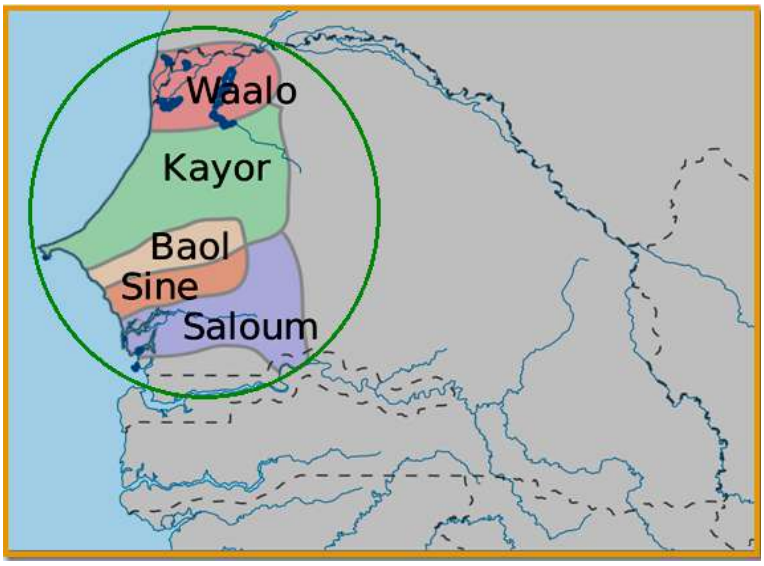

2- قبائل السِّيرير (Sérère):

يقال لهم أيضا "السرير" وترجع تسميتهم إلى اللغة الفولانية التي تعني "المتفرقين"، نزلوا على طول ضفتي نهري السنغال وغامبيا إلى جنوب الرأس الأخضر بجوار قبائل التكرور، واستوطنوا المنطقة التي شيدت عليها داكار الحالية والمناطق المجاورة لها

---

[1]- عطا الله شوقي وإبراهيم الجمل، المرجع السابق، ص 102.

[2]- يمثل الولوف حاليا ثلث السكان بدولة سنغال وهم مستقرون بالجهة الغربية من البلاد، أسلموا في القرن 13هـ/19م، وأصبح غالبيتهم من أتباع أمادوا يامير سنة 1886م واتبعوا الطريقة الموريدية.

Josèphe CUOQ, Op.Cit, P 124.

[3]- MAGE, Op.Cit, P 5.

[4]- عطية مخزوم الفيتوري، المرجع السابق، ص 33.

بالإضافة إلى أعالي نهر غامبيا[1]، وهم جيران الولوف من الجهة الجنوب، وكانوا مرتبطين بهم ارتباطا وثيقا، واختلطوا بالماندينجو، وكانت لغة الولوف هي اللغة الرسمية لدويلات السيرر، كما أنهم يتحدثون لهجة سان سان (Sin Sin).

أما عن أصلهم فهم كغيرهم من القبائل الإفريقية اختلفت الروايات في أمرهم، ذكر عالم الآثار الفرنسي دولافوس أنهم قدموا من فوتا السنغالية إثر ضغط القبائل البربرية فاتجهوا لبلاد الولوف ومنها إلى جنوب السين (Sine)، أما الدكتور فارنو (Verneau)، فيرى بأنهم من السنغال حيث احتلوا مناطق شاسعة منها ولكنهم خضعوا لسيطرة الولوف، فاتجهوا نحو السين وغامبيا وكونوا غالبية سكان بيال (Bael)، وبعدها تصاهروا مع ساليم الغرب (Salaem) وساليم الأدنى مع القرن 7هـ/13م، ونتيجة لتوسعات قبائل الماندينجو ببلاد السرير اتجه هؤلاء نحو بلاد الجلف وكايور (Cayour) خوفا من انتشار الإسلام بمنطقتهم وبقوا خاضعين لسيطرة الماندينغ، وانقسموا إلى فرعين: "نون" (Nones) و"سين" (Sine). وأسلم زعماؤهم (الطبقة الحاكمة) ما بين سنتي 1860م-1872م[2].

3- التكرور:

هم أكثر شعوب المجموعة صلة بالصحراء وأقدمها تأثرا بالاسلام، عرفوا بالتكرور جمعها "تكارة" أو "تكاررة" و "تكرور" ومنه جاء اللفظ الفرنسي توكولور (Takrur, Toucouleurs) أو الساراكولي (Sarakhoulé)[3]. وسموا بذلك نسبة للبلاد التي سكنوها قديما "التكرور" التي تقع شمال حوض السنغال الأسفل، وهي فوتا السنغالية (Fouta Sénégalaise)، وعادة عندما يذكر الكتاب الإنجليز والفرنسيين لفظ التكرور يقصدون به الشعب الذي يعيش على ضفاف هذا نهر فوتا سنغومايو، وهي المنطقة التي تعرف حاليا بالسنغال وموريتانيا. لكن إبراهيم جوب يرفض ذلك لأن كلمة تكرور هي اسم مدينة مملكتهم، سكنوا الجزء الأكبر من ضفاف النهر من بندو وبلاد فوتا على جانبي نهر السنغال، وإن كان أكثرها على الجانب الأيسر من النهر أين توجد أقاليم: دمار، تورو، لاو، بوسيه، جنار. وأصبحت كلمة تكرور مرادفة لهم لكلمة سوداني وقد تبعهم في هذا المؤرخون السودانيون الذين كتبوا بالعربية، والواقع أن التكرور تدل على ما يعرف حاليا بالسنغال وموريتانيا[4].

وتوزعوا أضا في منطقة سيغو وبلاد نهر النيجر الأعلى، واستقبلت مواطن نفوذهم شعب الفلان بعد هجرته إليها فأخذوا عنهم اللغة رغم أنه احتفظ بنمط حياته المتميز عن بقية الشعوب السودانية بمن فيها التكرور، وتصاهر التكرور مع الولوف والفولاني حالهم حال قبائل السوننكي وتحدثوا لهجات متعددة، واعتنقوا الإسلام قبل غيرهم من القبائل على عهد الملك وارجابي بن رابيس.

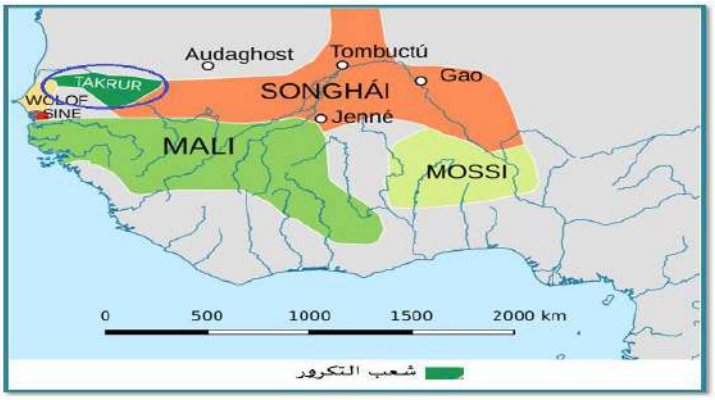

[1]- ولد الحسين لناني، المرجع السابق، ص 408.

[2]-Josèphe CUOQ, Op.Cit, P125.

[3]- حسين مؤنس، المرجع السابق، ص 373.

[4]- عطية مخزوم الفيتوري، المرجع السابق، ص ص 34-35.

4- شعوب الفولتا:

يضمون سبع مجموعات وهي: مجموعة الموسي (Mossi) أو الموشي ، اللوبي (Lobé)، كولونغو (Kolango)، باريبا (Bariba) وغورونسي (Gouraunsi).

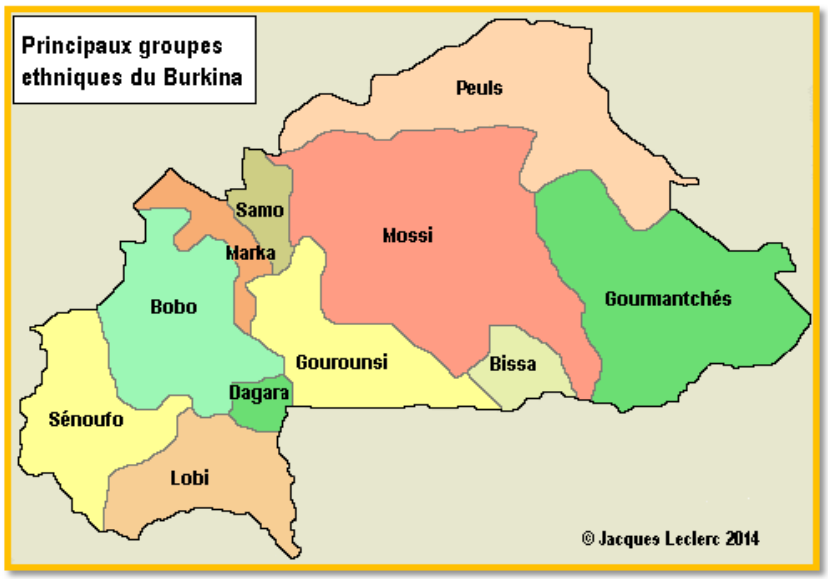

5- شعب الصوصو:

يسكنون الآن سواحل غينيا فيما بين نهر ريو يوننجو ونهر سكارسي الصغير، كان لهم دور مهم في الأقاليم الداخلية للسودان الغربي، ففي القرن 7هـ/13م قاموا بإخضاع واحتلال تمبكتو وأصبحوا سادتها لعدة قرون إلى أن أجبرهم فيما بعد الماندينجو والفلان على الانسحاب منها إلى أقاليم الساحل[1].

رابعا: شعوب غينيا العليا:

تتمركز بشكل أساسي في سيراليون وليبيريا وأسولو وبالأخص في دواخل البلاد، ومن أهم المناطق القاطنة على الساحل من الشمال إلى الجنوب بالترتيب: فيلوبي، كرو، بولاما، آصي. ومن قبائل سيراليون ودواخل ليبيريا: جاللينا، سوليما، فبي، جولادته، بوسي، بيسي.

أ- **شعوب الأقسام الشمالية:** وهو القسم الممتد من نهر غامبيا إلى منتصف ساحل العاج الحالي، أين كانت تعيش العديد من المجموعات الصغيرة المتناثرة للشعوب السودانية المتقاربة لغويا، ففي الأقاليم الداخلية سكنت قبائل الماندينجو والفوللا.

ب- **شعوب الأقسام الجنوبية:** تنتمي لغينيا العليا وما يتبعها من دواخل القسم الشرقي من ساحل العاج، غانا، توجو، داهومي، جنوب نيجيريا. وقبائل غينيا العليا تقسم إلى ثلاث مجموعات لغوية أساسية.

خامسا: شعوب أداماوومناطق ما بين الكونغووالنيل:

هاجرت العديد من القبائل السودانية منازلها في غرب ووسط السودان بعد أن أجبرت على ذلك إلى الجنوب الشرقي وإلى أقاليم أداماوا (الكامرون حاليا)، وتجولوا في المنطقة حتى أن البعض منهم وصل إلى قلب إفريقيا الاإستوائية في الأقاليم الواقعة بين نهر الكونغو والإيويل والنيل ، واحتلوا حوض نهري أوبانجي والأويل. واحتفظت قبائل أدماوا بطابعها السوداني، أما قبائل ما بين النيل

[1]- ولد الحسين الناني، المرجع السابق، ص 408.

والكونغو اختلطت بما يجاورها من القبائل النيلية والبانتو مع احتفاظهم بلغتهم السودانية وطابعهم الاقتصادي كفلاحين وصيادين وتربية الأبقار، ومن أهم قبائل أداماوا: تيكار، فوت، بايا، فاللي، بالي، وقبائل الكونغو والنيل: الأزند، مانجوباتي، البنجو[1].

المجموعتين الرابعة والخامسة المذكورة أعلاه والمشكلة للشعوب السودانية لم تعرف قيام ممالك إسلامية بها.

سكان السودان الشرقي:

تمثل شعوب السودان الشرقي خليط من الشعوب السودانية الخالصة وشعوب البانتو وكذا الشعوب السامية والحامية التي هاجرت إلى المنطقة عبر فترات مختلفة من الزمن، مشكلة بذلك مجتمعات وقبائل مختلفة ساهمت في تأسيس ممالك قوية بالسودان الشرقي وأهم هذه الشعوب نجد:

1- الشعب النيلي:

استقرت بعض القبائل السودانية في أقاليم أعالي النيل والمناطق المحيطة به، فاستقرت بعض القبائل السودانية في أقاليم أعلي النيل والمناطق المحيطة بها، واختلطت مع القبائل الحامية التي تعيش في الركن الشمالي الشرقي لافريقيا، الأمر الذي أدى إلى ظهور عنصر بشري جديد في دمه وحضارته وهو الشعب النيلي، وكانت لغته مزيجا من اللغتين الحامية والسودانية، واشتغلوا بالزراعة (قبائل المادي والشولي) وتربية الأبقار (قبائل الدنكا) كما تميزوا بالرعي، ومن أنشط قبائلهم قبائل الشيلوك. وكانت لغته مزيجا بين اللغتين الحامية والسودانية وهو شعب رعوي زراعي وهم يمثلون قبائل المادي والشولي الدنكا، النوير، باري والشيلوك وهم وثنيون قائمون على عبادة الثيران.

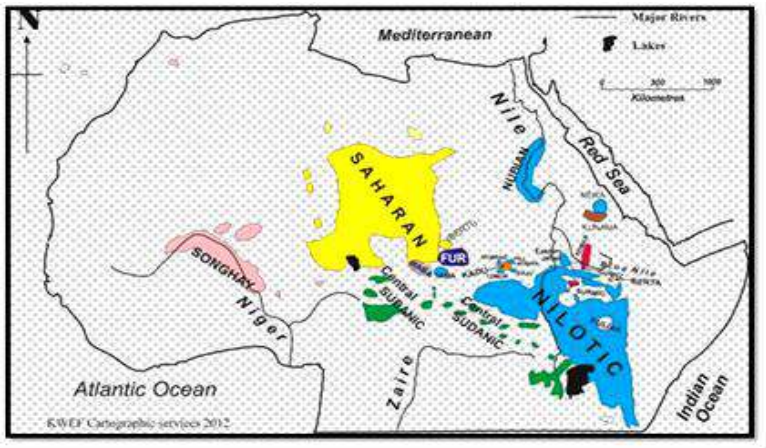

2- شعب النوبة:

يوجد بالأقسام الجنوبية من كردفان، ويطلق لفظ "النوبة" على أجزاء وادي النيل الممتدة على جانبي نهر النيل الأعظم من أسوان إلى جنوبي إلتقاء النيلين الأبيض والأزرق، بالإضافة إلى مناطق من حوض النيل الأزرق والأتبرا حتى أطراف الحبشة شرقا وأقاليم كردفان ودارفور غربا، وهناك اختلاف حول مصطلح النوبة:

Nub : تعني الذهب في اللُّغة الفرعونيَّة القديمة.

Anobades -و :Anouba بمعنى يُضفر، وفي هذه الحالة يكون معنى (نوبة) ذو الشَّعر المضفَّر أو المجعد.

- كلمة "نوباتا" مشتقة من العاصمة نبتة(Napata)

Nubile: -في اللغة الإنجليزية تعني الفتاة البَّالغة سن الزَّواج.

- وأطلق العرب اسم "النُّوبة" عليهم، كما أطلقوا اسم "المريس (Nobatia) "على إقليم النُّوبة بين أسوان و دنقلا.

[1]- عطية مخزوم الفيتوري، المرجع السابق، ص 37.

أما عن أصلهم حدث خلط بين النوبيين على النيل (البرابرة كما يسمونهم الآن في مصر)، وبين النوباويين سكان جبال نوبا في جنوب كردفان، حيث صنفهم إليوت سمث بأنهم حاميو الأصل من نفس سلالة قدماء المصريين وتأثروا على مدى العصور بمؤثرات زنجية. وهناك بعض الموجات النوبية قد هاجرت إلى الأقاليم الجنوبية من كردفان والفونج في نواحي إقليم سنّار والبرتا في حوض نهري تومات وجوباس من روافد النيل، هؤلاء اختلطوا مع الشعوب النيلية والبانتو ومن أهم شعوبهم: الشوا واللاجا، الدناكل، النوبة، جوجام، تيجري، أما عن الديانة التي اعتنقوها فهي المسيحية في القرن الأول الميلادي وبعدها اعتنقوا الإسلام.

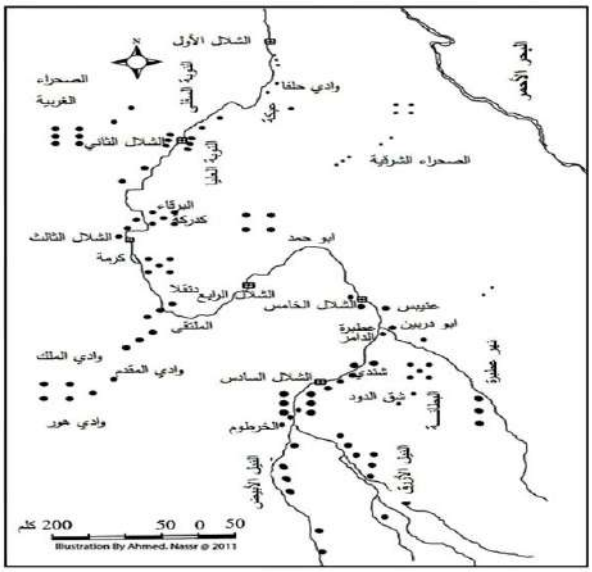

3- شعب الفونج:

يسكن الفونج في نواحي إقليم سنار، ويحتل إقليم الفونج مساحة في الجزء الشمالي من السودان الشرقي، من مدينة مشو بالقرب من الشلال الثالث حتى جنوب عاصمتهم سنّار الواقعة على النيل الأزرق ثم امتد ملكهم ليشمل أجزاء كبيرة من بلاد البجة في الشرق وكردفان في الغرب.

4- شعب البجة:

هي تلك القبائل الحامية الشمالية نزحوا في بادئ الأمر من الجزيرة العربية ثم اتصلوا بقدماء المصريين، فارتبطوا بهم وأخذوا عنهم الزراعة وتربية الماشية، ولكنهم لم يتأثروا بالمسيحية، وغلبت عليهم الطبيعة البدوية، وكان لوفرة قبائلهم مصدر للقوى العاملة التي استعان بها قدماء المصريين ثم العرب فيما بعد للعمل في المناجم الموجودة في شمال السودان وأريتيريا أهمها مناجم الذهب، ومع القرنيين 7 و8م حيث دخل الاسلام لمصر حتى بدأت مناوشاتهم مع مملكة النوبة المسيحية فقد هاجروا إلى الشرق (الجفاف)، و لم يعتنقوا الديانة المسيحية مثلهم وبقوا وثنيين قرونا طويلة، ينقسم البجة إلى ثلاث مجموعات رئيسية:

أ- **المجموعة الشمالية**: وهم العبابدة والذين كانت لهم علاقات وثيقة بالفراعنة ولغتهم العربية.

ب- **المجموعة الوسطى**: مثلون البشارة والهدندوة واحتفظوا بلغتهم الكوشية.

ج- **المجموعة الجنوبية**: ويمثلون بنو عامر وكانوا تحت التأثير الحبشي يتحدثون بلغة اليتجري.

وبالنسبة لإقتصادهم كان يعتمد على تربية الماشية كما كانت بلادهم مصدرا مهما لانتاج الذهب، حيث كان يستخرج بكميات كبيرة مما جعلهم على اتصال بالدول المجاورة لهم[1].

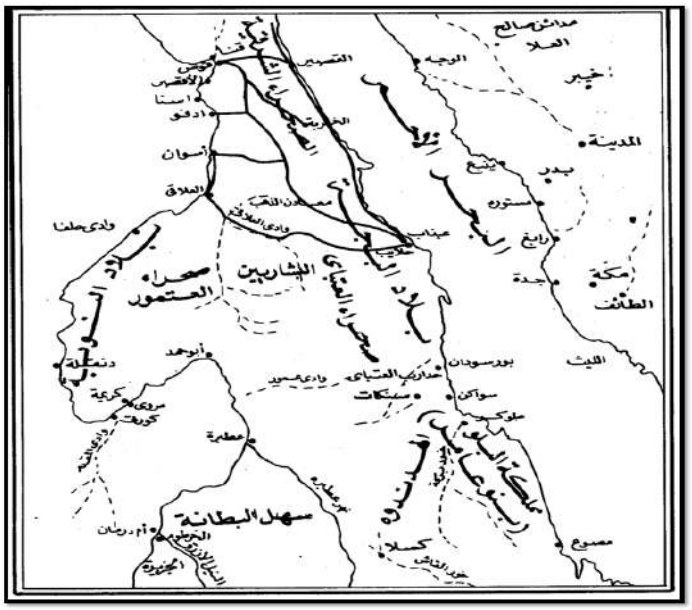

5- شعب الحبشة:

الحبشة هو جنس من السود يمثلون سكان بلاد الحبشة، التي تمتد من وادي النيل العلوي والجزء الجنوبي الجزيرة العربية، يحدها شمالا البيليميين وغربا مملكة علوة وجنوبا الصومال وكينيا. أما عن أصلهم من حيث الدم نجد سلالتان هما؛ السلالة سامية يسكنون الأقاليم الجنوبية من الجزيرة العربية، والسلالة الثانية زنجية يسكنون الأقاليم الغربية للحبشة. وقبل ظهور الإسلام اعتنق الحبشة الديانة المسيحية في القرن الرابع ميلادي، لكن بعد ظهور الإسلام أخذ سكان الحبشة تنعتنقون الإسلام على مراح

[1]- عطية مخزوم الفيتوري، المرجع السابق، ص ص 54-56.

6- شعب البرتا:

يسكن حوض نهري تومات وجوباس من روافد النيل الأزرق. وصلت هذه الشعوب في هجرتها إلى الحبشة واستقرت بها إلى جانب الشعوب السامية والحامية هناك مع احتفاظهم بطابعهم السوداني فتوطنوا بالمنطق، فكلما انحدرنا من أعالي الهضبة الحبشية إلى السهول الممتدة في الجنوب الغربي كلما أصبح الدم سودانيا أكثر حتى نصل إلى مناطق أعالي النيل، ويسميهم الأحباش بـ"**الشناقلة**" (تقابل زنجي لدى الأوربيين)، ومن أهم قبائلهم: كوناما أو بازيني تسكن أودية نهري مأرب وتيكازي وما يجاورها من هضاب أعالي الحبشة الشمالية (أرتيريا)، قبائل باريا تحتل مناطق نهري مأرب وبركة في الشمال الغربي للحبشة. والأمر الذي يجمع كل هذه القبائل هو عدم قبولهم للمؤثرات الحضارية القادمة من الخارج، غير أن بعضها مع مضي الوقت اضطرت لقبول بعض المظاهر الحضارية للشعوب المجاورة كالعادات المصرية القديمة التي أخذها البريا، أما الفونج تأثروا بالعادات العربية.

II- محموعة شعوب البانتو:

تنتمي جميع شعوب جنوب القارة الإفريقية باستثناء الخوي خوي والبيجامي إلى أسرة لغوية كبرى كلها تتكلم لهجة البانت لذا كانت اللغة عاملا لربطهم، إضافة لكونهم يرجعون إلى أصل عرقي واحد. وانقسمت أسرة البانتو إلى فروع جغرافية وتاريخية، قام كل فرع منها بتطوير كيانه الاقتصادي وديانته وعاداته، ونتيجة لهجرات الحاميين المتقدمة نحو الشمال الشرقي خلال عدة قرون عرفوا صراعا مع قبائل البانتو، وهذه الأخيرة البعض من قبائلها تأثر جزئيا أو كليا بالقبائل الحامية والبعض الآخر رفض الخضوع لهم، لذا انقسم البانتو إلى ثلاث مجموعات: الشرقية، الجنوبية والغربية، أما قبائل البانتو المقيمة في إفريقيا الاستوائية الشرقية انقسموا إلى مجموعتين أساسيتين، وهما: القبائل التي خضعت للتأثير الحامي والقبائل التي لم تخضع للتأثير الحامي.

أ- **البانتو الشرقيون**: هم الذين خضعوا للتأثيرات الحامية وانقسموا إلى: قبائل دول واهوما، قبائل البانتو الحامية، البانتو النيليون.

السواحليون: في وقت متأخر لتاريخ البانتو نجد أن القبائل التي أقامت على طول السواحل الشرقية بإفريقيا قد تأثرت كثيرا بالعرب واختلطوا بهم، مما نتج عنه القضاء على النظام القبلي ونشأة الشعب السواحلي، وهم يتكلمون اللغة السواحلية وهي خليط من لغات متعددة عربية وإفريقية وهندية[1].

ب- **البانتو الشرقيون الذين لم يخضعوا للتأثير الحامي:** أما انقسموا لمجموعتين تاريخيتين هما:

البانتو الشرقيون الذين احتلوا دواخل غرب ووسط أقاليم دولة تنجانيقا سابقا من أهم قبائلهم: وانياموبزي وأحيحا كان لهم دور بارز في التاريخ الحديث لشرق إفريقيا. واندمج البانتو الشرقيون مع قبائل البانتو الجنوبية التي هاجرت عائدة من الجنوب إلى الشمال، والذين عاشوا في أقاليم جنوب تنجانيقا المتاخمة للموزمبيق في جنوب نهري لاواحا وروفيجي، ومن بين قبائلهم: واماويا، أوماكوندي، أومانجانجب، أومواميا، أنياسا، أتيندي ووايوجرو. كان لهم دور بارز في مقاومة الاستعمار الألماني في المنطقة[2].

ت- البانتو الغربيون:

الذين اتجهوا نحو الغرب في وسط وغرب إفريقيا الإستوائية ويعرف تاريخ محدد لهجرتهم هذه، وانقسموا إلى قسمين متمايزين جغرافيا، وهما:

- قسم بالمساحات الشاسعة من الغابات الإستوائية في الشمال.
- قسم بأقاليم السافانا المكشوفة في الجنوب.

---

[1]- صباح إبراهيم الشيخلي وعادل محي الدين الألوسي، **تاريخ الإسلام في إفريقيا وجنوب شرق آسيا**. بغداد، كلية الآداب، 1987م، ص 8.

[2]- عطية مخزوم الفيتوري، المرجع السابق، ص ص 44-45.

شملت هذه الأقاليم فشملت روافد الكونغو وأعالي منابع أنهر كويني وزمبيزي وكوبا نحو وكيوتو وشوبو وسانكورو وكاساي، وهذه الطبيعة أثرت عليهم سياسيا واقتصاديا (الزراعة والصيد في الغابات الإستوائية) غير السافانا.

III- مجموعة الشعوب الحامية والسامية:

1- الحاميون:

الحاميون نسبة إلى حام بن نوح من أوائل المهاجرين إلى إفريقيا من الجزء الشمالي الغربي لآسيا، ولقد شكلوا معظم سكان الشمال والشمال الشرقي لإفريقيا، ولم يتفق العلماء لحد اليوم على أصلهم، فقال البعض بأنهم آسيويون هاجروا من القوقاز إلى هذه البلاد عن طريق مصر والنيل في موجات متعاقبة اختلطت مع مرور الوقت مع أهل إفريقا السوداء، وهذا الاختلاط لم يكن على درجة واحدة، أما البعض الآخر فيرى بأنهم قدموا من الجزيرة العربية. المهم أن الشعوب الحامية قد وجدت بالمنطقة منذ عصور قديمة سكنت شمال القارة، واندفعت بعدها إلى الجنوب وإلى السودان الغربي والأوسط وإلى الجنوب الشرقي أي إلى قسم من السودان الشرقي والحبشة والصومال. وينقسم الحاميون من وجهة النظر اللغوية والمصير المشترك إلى فرعين كبيرين أساسين، وهما: الحاميون الشرقيون والحاميون الشماليون.

2- الساميون:

هم العنصر الأساسي الثاني الذي انتشر في الشمال والشمال الشرقي للقارة منذ العصور القديمة (الفينيقية والعربية القديمة)، ومع القرن 7م تتابعت الهجرات العربية إلى المنطقة بعد ظهور الإسلام بشكل واضح، واختلطت مع القبائل السودانية وأصبحت المنطقة تعج بهم.

العرب: اتصلوا بالقرن الإفريقي منذ القديم قبل الميلاد وبعد ظهور الإسلام بفعل التجارة فهاجروا إلى المنطقة، وأثروا على سكانها وازداد نفودهم، وكلما توغل تجار العرب القدماء داخل الحبشة والمناطق المحيطة بها، صادفوا المزيد من الخصب والاعتدال في الجو الأمر الذي دفه بهم للاستقرار هناك بمصوع مثلا، واختلطوا بأهالي البلاد وأدخلوا إليها الأنظمة التي ألفوها في بلادهم وكذلك الثقافة والحضارة، وتطبيق قوانين الملكية وتهذيب أساليب العمارة وتنظيم عملية تربية الحيوانات، ومن ذلك الوقت أصبح العرب وأغلبهم من اليمن وحضر موت جزء لا يتجزأ من بلاد الحبشة والصومال، وكان لهم دور كبير في تاريخ إفريقيا جنوب الصحراء إلى جانب الشعوب الحامية المتأثرة بالساميين. أما بالنسبة لشعبي الملاجاش والبيجامي لم ينتشر بينهم الإسلام في وقت مبكر بالنسبة للطرف الأول وعلى الإطلاق بالنسبة للشعب الثاني، فلم يكن لهم دور في تاريخ إفريقيا جنوب الصحراء.

بعد استعراض بعض من أشهر وأهم القبائل الإفريقية التي سكنت واستوطنت بلد السودان أو إفريقيا جنوب الصحراء، نجد أنه من الصعب إعطاء صورة مفصلة لتوزعهم، وذلك نتيجة تغييرهم لمضاربهم تبعا للظروف السياسية والاقتصادية التي مروا بها، فقد كانوا دائمي البحث عن الاستقرار خاصة بالمناطق الخصبة القريبة من منابع المياه، وتغييرهم لمضاربهم هو نتيجة حتمية لواقع سياسي أو اقتصادي معين.

المحور الثاني

ممالك السودان الغربي

المحاضرة الثالثة: مملكة غانة (300-1076 /...-469هـ)

تعتبر مملكة غانة أول تنظيم سياسي متطور عرفته بلاد السودان خلال العصر الوسيط فهي أول مملكة أفريقية امتد عمرها حتى القرن 5هـ/11م، وإذا كنا نجهل الشيء الكثير عن أصولها التاريخية، فهي تجربة مخضرمة إذ كانت في المرحلة الأولى مملكة وثنية وفي مرحلة ثانية مملكة إسلامية، والكتابات العربية هي التي استطاعت أن تنتشلها من المجهول، الأمر الذي مكننا من معرفة بعض التطورات التي عرفتها المملكة خاصة في خلال القرنيين الأخيرين من تواجدها.

1- التسمية والموقع الجغرافي:

اختلفت أقوال الجغرافيين والمؤرخين في تسمية المملكة، فالدمشقي ذكر بأن: «غانة سمة لملوكهم واسم البلد أوكار ولقب غانة يطلق على كل أراضي هذه المملكة»[1]. ويبدو أن البكري يتفق معه ويضيف أن غانة هو "اسم الملوك الذين حكموا المملكة"[1]، أما ياقوت الحموي فيقول: «إن غانة كلمة أعجمية لا أعرف لها مشاركا في العربية». وعرف اسم غانة لأول مرة لدى العرب بفضل العالم الفزاري، الذي زار المنطقة خلال القرن 2هـ/8م، ورسم خريطة العالم على غرار خريطة بطليموس ووضع عليها غانة "بلاد الذهب"[2]، وعرفت لدى المراكشيين باسم "أرض الذهب"[3]، وذلك لكثرة معدن الذهب بها واشتغال أغلب التجار به. وهذا ما ذهب إليه ج.س.كانال (CANALE Jean Suret)، وجعل تاريخ تسميتها ابتداء من القرن 8م، وأضاف أن تسمية غانة تعني "قائد الحرب".

وأما تفسير كلمة غانة حسب اللغة الإفريقية فهو "كايا ماغان" (Kaya Maghan) والذي يعني "ملك الذهب"[4]، وأشار عبد الرحمن السعدي بأن كايا ماغان هو أول ملك حكم غانة[5]. أما المؤرخة جوان جوزيف (JOSEPH Juan) ذكرت بأن غانة كلمة باللغة الماندية معناها "أمير الجيوش" أو "قائد الجيوش"[6]. وذكر أحمد الشكري نقلا عن المؤرخ نيان في تفسيره لاسم غانة في لغة الماندينغ أنها تعني "الرجل القوي الذي يتمتع بقدرات خارقة"[7].

وفي غياب المادة المصدرية الفاصلة حول أصل التسمية، وتضارب أقوال المؤرخين حولها، يمكن أن نقول أن تسمية غانة هي تسمية قديمة، أطلقت على المملكة منذ نشأتها الأولى في القرن 3م، ونظرا لكثرة الذهب بأراضيها وسيطرة حكامها على مناجمه بفضل قوتهم العسكرية، أطلق عليها اسم غانة لهذه المميزات الثلاثة، وبقي الاسم متداولا حتى بعد تسرب الإسلام إلى المنطقة. ومملكة غانة في العصور الوسطى لا يقصد بها دولة غانا الحالية، والتي أطلق عليها الأوربيون في القرن 18م تسمية "ساحل الذهب"، فمملكة غانة ودولة غانا الحالية رقعتان جغرافيتان مختلفتان تحملان نفس الاسم. أما عن موقع مملكة غانة فليس من السهولة بمكان تحديد الحدود الجغرافية لمملكة غانة بشكل دقيق، لذا سنتتبع أقوال المصادر العربية (الجغرافيين والرحالة والمؤرخين) والرواية الشفوية.

---

[1] - البكري، المصدر السابق، ص 178.

[2] - BASIL Davison, Op.cit, P 92.

[3] - رولاند أوليفر وجون فيج، **موجز تاريخ إفريقية**. تر: دولت أحمد صادق، مر: محمد السيد غلاب، مصر، الدار المصرية للتأليف والترجمة، 1385هـ/1965م، ص 15، 21.

[4] - CANALE Jean Suret, Op.Cit, PP 169-170.

[5] - عبد الرحمن السعدي، **تاريخ السودان**. تح تع تق: حماه الله ولد السالم، بيروت، دار الكتب العلمية، 1433هـ/2012م، ص 7.

[6] - جوان جوزيف، **الإسلام في ممالك إمبراطوريات إفريقيا السوداء**. تر: محمد السويقي، القاهرة، دار الكتب الإسلامية، دار الكتاب المصري، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ط1، 1404هـ/ 1984م، ص 48.

[7] - أحمد الشكري، **الإسلام والمجتمع السوداني إمبراطورية مالي (1230-1430م)**. مركز الدراسات الصحراوية، الرباط، دار أبي الرقراق للطباعة والنشر، 2015م، هـ 11، ص 135.

حسب الإدريسي تتصل مملكة غانة من جهة الغرب بنهر السنغال ومن الشرق ببلاد الونغارة ومن الشمال بالصحراء المتصلة بين أرض السودان وأرض المغرب وتتصل بالجنوب بأرض اللملم[1]، كما أورد القلقشندي قوله: «إن بلاد غانة تقع غربي صوصو واتجاه المحيط الغربي»[2]. أما في أوج قوتها وعظمتها وصلت حدودها لغاية المنطقة الواقعة شمالي نهر النيجر الأعلى ومنابع نهر السنغال، ووصلت حتى الشواطئ الغربية لبحيرة تشاد، كما امتد نفوذها من حدود الصحراء الكبرى شمالا حتى منطقة خليج غينيا من ناحية الجنوب[3].

إذا فالإطار الجغرافي العام لمنطقة أوكار التي تقوم عليها المملكة تم توطينها فيمل بين نهر السنغال غربا والنيجر شرقا، وعلى حدوها الشمالية تتحرك القبائل البربرية والصحراوية، وفي الفترة التي بلغت فيها قوتها تمكنت من مد نفوذها جنوبا لكنها لم تلامس قط مقدمة الغابات الاستوائية. أي أن مملكة غانة تشمل الآن جنوب موريتانيا وشرق السنغال وجزء من مالي، ويمكن إضافة غينيا كحدود وصلتها في أوج قوته.

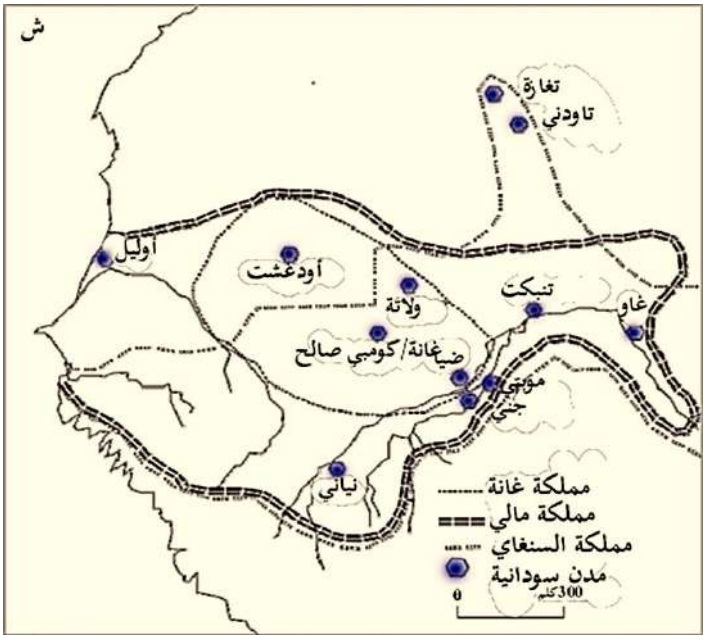

هذا فيما يخص الموقع الجغرافي لمملكة غانة أما عاصمتها قال عنها ابن سعيد المغربي: «مدينة غانا هي وسط طرق تقع حيث طول تسعة وعشرون والعرض عشر درجات...وبها يحل سلطان غانة»[4]. ونجد تعريفا أخر لدى البكري يقول فيه: «مدينة غانة مدينة سهلية أحدهما المدينة التي يسكنها المسلمون...ومدينة الملك على ستة أميال من هذه وتسمى الغابة والمساكن بينهما متصلة»[5]. ويؤكد الإدريسي ذلك بقوله: «مدينة غانة هي في وسط الطريق إلى مدينة سلي والتكرور وكذلك مدينة بريسي إلى أودغشت أودغشت وغانة، وهي مدينتان على ضفة بحر الحلو»[6]. ومن خلال قول البكري والإدريسي نستنتج أن لمملكة غانة عاصمتان وذلك

---

[1]- **أرض اللملم:** تتاخم شاطئ المحيط الأطلسي- خليج غينيا- وأهلها كفار، ذكرها الإدريسي وابن سعيد المغربي بأرض اللمم، أما البكري والدمشقي يسميانها بأرض الدمدم. ينظر: الإدريسي، المصدر السابق، ص 32.

[2]- القلقشندي، المصدر السابق، ج: 5، ص: 274.

[3]- حدود ممالك السودان الغربي وفقا لحسين بوبيدي.

[4]- ابن سعيد المغربي، المصدر السابق، ص 92.

[5]- البكري، المصدر السابق، ص 175.

[6]- الإدريسي، المصدر السابق، ص 34.

خلال فترة قوتها خلال القرن 5هـ/11م، فالعاصمة الأولى تسمى الغابة لأنها عبارة عن أكواخ موزعة بين الأحراش في الغابات، وهذه الأخيرة مقدسة لدى الوثنيين الذين يحرسونها، بحيث لا يمكن دخولها بدون استئذان[1].

أما العاصمة الثانية فهي غانة أو كومبي صالح، كومبي تعني في لغة السودان المدينة أما صالح فهو اسم عربي والمعنى العام "مدينة صالح"، وحسب عبد الهادي الدالي فإن تسمية غانا أطلقها المؤسسون الأوائل لها، وهم المهاجرون من البرقاويين الليبيين، والتجار الواردين على المنطقة من الشمال الإفريقي نظرا لغناها بالذهب. ولكشف النقاب عن العاصمة كومبي صالح نشطت بعثات التنقيب الفرنسية للبحث عن آثار كومبي صالح منذ عام 1914م، فجاء في مذكرة المعهد الفرنسي لأفريقيا السوداء (I.F.A.N) لعام 1951م أنه تم إرسال بعثة بقيادة المؤرخ وعالم الآثار الفرنسي ريموند موني المتخصص في تاريخ أفريقيا الغربية، وبعد عدة تنقيبات وحفريات قام بها هو وفريقه بالموقع المفترض للعاصمة الغانية كومبي صالح، عثر على بعض المخلفات من التراب المشوي المستعمل في البيوت، كما اكتشف المقر الملكي غير أن قسما منه ما يزال مطمورا بالرمال، ومنها تأكد بأنها العاصمة الغانية كومبي صالح[2].

واختلفت الروايات حول أصول الغانيين، فهم يسمون أنفسهم "التورد" أو "التوروث"، قدموا من وادي دجلة والفرات، أي أن لهم أصولا آشورية وبابلية قديمة. وقيل بأن أغلب سكان غانة في العصور الوسطى من قبائل السوننك، وهم من فروع الماندي الأساسية، واختصوا عن غيرهم بصفات جسمانية وتقاليد وأعراف اجتماعية معينة[3].

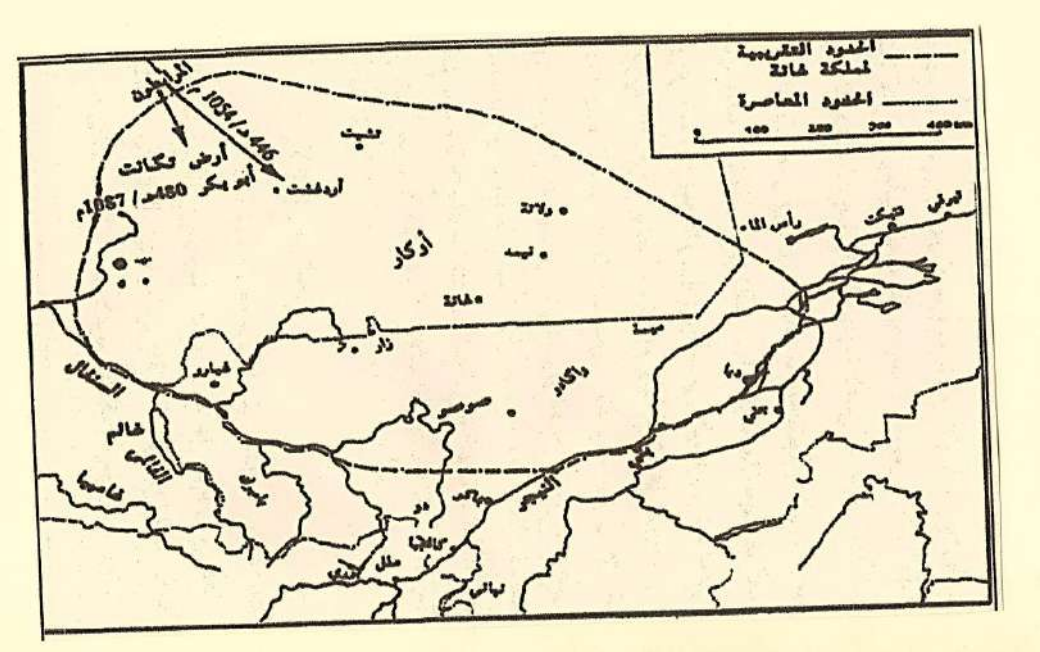

2- تأسيسها:

نظرا للغموض الذي اكتنف نشأة مملكة غانة بسبب قلة المادة المصدرية، فلا يعرف على وجه الدقة تاريخ نشأتها، ولا مؤسسيها الأوائل، لذا حاول المؤرخون وعلماء الآثار الاستناد إلى نتائج التنقيبات الأثرية، التي دلت على أن تاريخ تأسيس المملكة يعود إلى القرن الثالث الميلادي، وعرفت أوج ازدهارها وعظمتها خلال القرن 5هـ/11م. وعوامل نشأتها كانت مختلفة كليا عن غيرها من المماليك السودانية الأخرى.

---

[1]- إسماعيل العربي، **الصحراء الكبرى وشواطئها**، ص 284.

[2]- خريطة مملكة غانة نقلا عن أحمد الشكري.

[3]- الهادي مبروك الدالي، المرجع السابق، ص ص 22-23.

أ- **مراحل الحكم بالمملكة:** تقسم مرحلة الحكم إلى مرحلتين مرحلة البيضان ومرحلة السوننك.

المرحلة الأولى: حكم البيضان

ذكر العديد من المؤرخين بأن أول حكومة حكمت المملكة كانت من البيض، المهاجرين من الشمال الإفريقي، بالتحديد من برقة بليبيا، ويرجع تاريخ هجرتهم إلى القرن الأول الميلادي، ثم استقرت في منطقة أوكار وسط السوننك، ثم صاروا ذو قوة خلال القرن الرابع الميلادي[1].

وذكر الهادي الدالي نقلا عن أحمد بابير الأرواني قوله: "أما مالي فإقليم كبير واسع جدا في المغرب وقيمع هو الذي بدأ السلطنة في تلك الجهة، ودار إمارته غانة وهي مدينة عظيمة في أرض باغب قيل إن سلطاتهم كانت قبل البعثة فتملك حينئذ اثنان وعشرون ملكا وهم بيضان في الأصل، ولكن لا نعلم من ينتمي إليه في الأصل، وعندما انتهت مدتهم وانقرضت دولتهم، خلفهم في السلطنة أهل مالي". أما عبد الرحمن السعدي يرجح أصولهم من العرب المغاربة الذين اختلطوا بالزنوج، فصلة العرب المغاربة بقبائل السودان قديمة، وحتى أهل غانة أنفسهم يقولون إن أسرة عربية مغربية كانت تحكم بلادهم من زمن بعيد. وكان أول سلطان لهم هو "قيمع" (والتي تعني في لغة وعكري ملك الذهب كيهو الذهب) ومكان إمارته غانة ولا نعلم أصلهم، وكان آخر ملوكهم "كنسعي" معاصرا للرسول[2].

فالروايات التاريخية التي أوردها محمود كعت والسعدي فضلا عن الرواية الشفوية المحلية تؤكد بأن ملوك غانة الأوائل هم بيضان في الأصل[3]، وشكلت هذه الروايات منطلقا لعدد من التأويلات والتصورات، أشهرها تلك التي اقترحها موريس دولافوس (M. Delafosse) وطورها فيما بعد ريموند موني (R. Mauny). وبالنسبة لدولافوس فإنه يرى بأن المؤسسين الأوائل للمملكة هم بيض من أصل سوري يهودي نزحوا في منتصف القرن 2م من ليبيا إلى منطقة أوكار في إطار هجرات سلمية، جاءت نتيجة الاضطهاد الروماني لهم، وبعد استقرارهم بجانب السكان الأصليين وهم قبائل السوننكي، تكيفوا معهم ثم بسطوا نفوذهم تدريجيا إلى أن أصبحوا السادة الحقيقيين للبلاد، فأسسوا مملكة غانة حوالي سنة 300م. فهذا التصور يستبعد أن يكون الملوك الأوائل لغانة من أصل صنهاجي، ولو كان كذلك لأكده السعدي أو ابن خلدون الذي اكتفى بنفي ما أثبته الإدريسي بخصوص انتساب ملوك غانة لعلي بن أبي طالب. ويضيف دولافوس بأن هذه الأسرة البيضاء السورية اليهودية، قد استمرت في الحكم إلى نهاية القرن 8م،أين تمكنت أسرة سوننكية سوداء من السيطرة على الحكم مستفيدة من الأوضاع المضطربة حينئذ، ومع هذا الانقلاب عرفت البلاد مرحلة جديدة تميزت بسعي القيادة السوداء إلى توسيع مناطق نفوذها على حساب الجيران. واستمرت نظرية دولافوس تمارس تأثيراتها على الدراسات التاريخية لعشرات السنين، ثم أخذت تفقد بريقها مع تطور الأبحاث الأركيولوجية[4].

---

[1]- حسن إبراهيم حسن، **انتشار الإسلام في القارة الإفريقية**، ص 96.

[2]- السعدي، المصدر السابق، ص 41.

[3]- محمود كعت، **تاريخ الفتاش في ذكر الملوك وأخبار الجيوش وأكابر الناس وتكملته تذكرة النسيان في أخبار ملوك السودان لابن المختار**. تحقيق تقديم حماه الله ولد السالم، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1433هـ/2012م، ص 42.

[4]- أحمد الشكري، المرجع السابق، ص ص 130-131.

أما الدراسات حاليا فتجنح جلها إلى رفض هذه التصورات مكتفين بتأكيد الأصل السوداني، أو ترديد رأي محمود كعت في القضية: "وقد بعد زمانهم ومكانهم علينا، ولا يتأتى لمؤرخ في هذا اليوم أن يأتي بصحة شيء في أمورهم يقطع بها، ولم يتقدم لهم تاريخ فيعتمد عليه"[1].

المرحلة الثانية: حكم السوننك

مع نهاية ق 2هـ/8م تمكنت أسرة "سيسي" السوننكية من طرد أسرة البيض الحاكمة، أو دولة كيمع. وكان الحكام الجدد أقوى من أسلافهم البيض، استطاعوا ضم بعض الأماكن الهامة كأودغست سنة 990م وجعلوها عاصمة لهم، وفرضوا على القادمين إليها إتاوة، كما ضموا ولاتة وكوعة والوكن وسامة. وفي عهدهم عرفت المملكة أقصى اتساع لها خلال القرن 10م إلى أواخر القرن 11م[2]. ولقب كيمع عرف به ملوك غانة، وحسب لهجة الوعكري هي كلمة مركبة من لفظين "كي" يعني الذهب، و"مع" يعني الملك، في حين أن رواية أخرى تفيد بأن كيمع هو اسم لأحد ملوك غانة الأوائل، وربما عرف به بقية الملوك الذين أتوا من بعده[3].

3- أوضاع المملكة:

أ- سياسيا:

من خلال كتاب البكري نرى بأن المملكة في وضعية سياسية مركزية، حيث يباشر الملك سلطته انطلاقا من العاصمة غانة (كومبي صالح)، ويساعده في مهامه عدد من الوزراء والموظفين جلهم من المسلمين. وكان ونظام الحكم المتبع في توريث العرش هو توريث ابن الأخت، ويورد البكري شيئا من ذلك فالملك لا يكون إلا في ابن أخته، ومثال ذلك الملك تنكامين الذي تقلد أمر البلاد سنة 455هـ/1063م ورث الملك عن خاله بيسي (Beci). وهذه الظاهرة تستمد جذورها من التقاليد الوثنية القديمة التي ترفع من شأن المرأة عند أغلب القبائل الإفريقية الوثنية، وعندما وصل الإسلام إلى غانة أضعف من هذه الظاهرة ولكنه لم يقض عليها، وشهد ابن بطوطة ذلك في القرن 8هـ/14م بمدينة تكدة، فقال: "وذلك أسوأ ما رأيته في الدنيا إلا عند الكفار البليار من الهنود، وأما هؤلاء فهم مسلمون محافظون"[4]. إذ عرفت غانا هذه الظاهرة بداية من أواخر القرن 5هـ/11م، ومع تغلغل الإسلام في نفوس السودانيين بدأت هذه الظاهرة في الاختفاء، ورغم ذلك لم تتأثر مكانة للمرأة في المجتمع السوداني.

ومن تقاليد الحكم في غانة المجالس التي يعقدها الملك للأبهة والنظر بنفسه في المظالم، فقد ذكر محمود كعت عادة خروج الملك كيمع للرعية، فأورد بأنه يخرج إليهم بنفسه بعد العشاء، ولا يخرج حتى تجمع ألف حزمة يضعونها في باب داره، وتشعل فيها النار، لتعطي إضاءة عالية، عندما يجلس على منصة الذهب الأحمر. وبعد جلوسه يأمر بعشرة آلاف من الموائد، فيأكلون وهو لا يأكل، وإذا انقضى الأكل دخل الملك ولا تقوم الرعية حتى تصبح الحزمات رمادا، واستمروا على هذه الوتيرة حتى انقراض دولتهم[5].

وكان للملك أعوان ومترجمون ووزراء، من بينهم صاحب المال وكلهم من المسلمين، كما يقدم لنا البكري وصفا لأحد مجالس مملكة غانة، فكتب يقول: "إذ يجتمع ملك غانة للناس والمظالم في قبة، ويكون حوالي القبة عشرة أفراس بثياب مذهبة، ووراء الملك

---

[1]- محمود كعت، المصدر السابق، ص 42.

[2]- مبروك الهادي الدالي، المرجع السابق، ص ص: 26.

[3]- زوليخة بنرمضان، **المجتمع والدين والسلطة في إفريقيا الغربية ما بين القرنين 5و10هـ/11و16م**. ج 2، الرباط، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ط1، 1436هـ/2015م، ص ص 177-178.

[4]- أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد اللواتي الطنجي ابن بطوطة، **تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**. تحقيق على المنتصر الكتامي، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط2، 1982م، ص 698.

[5]- محمود كعت، المصدر السابق، ص: 42.

عشرة من الغلمان يحملون الحجف والسيوف المحلاة بالذهب، وعن يمينه أولاد ملوك بلده قد ظفروا رؤوسهم على الذهب، وعليهم الثياب الرفيعة ووالي المدينة بين يدي الملك جالس في الأرض، وحواليه الوزراء جلوسا على الأرض وعلى باب القبة كلاب منسوبة لا تكاد تفارق موضع الملك تحرسه، في أعناقها سواجير الذهب والفضة...وهم ينذرون بجلوسه بطبل يسمونه دبا...فيجتمع الناس، فإذا دنا أهل دينه منه جثوا على ركبهم ونثروا التراب على رؤوسهم، فتلك تحيتهم له، وأما المسلمون فإنما سلامهم عليه تصفيقا باليدين"[1].

كان نظام الحكم قائما على أساس المركزية إلا في بعض المقاطعات، حيث ظل وراثيا في أسر معينة، حتى إذا أحست هذه المقاطعات الوراثية الخاضعة للحكم المركزي في كومبي صالح، بضعف الحكومة المركزية، قامت بمحاولة الانفصال عنها رغبة في الاستقلال، وهذا ما حدث فعلا عند دخول المرابطين كومبي صالح سنة 469هـ/1076م، عندما وجدت كل من ديارا وكانياجا وجالام، الفرصة سانحة للانفصال، ولم يعد نفوذ ملوك غانة السوننك إلا في بعض المناطق مثل أوكار وباسيكورو[2]. وعلى أساس الشهادات المصرية التي اعتمدها المؤرخ موني، فإن المملكة لم تبسط نفوذها على جميع المناطق التي قطنتها شعوب سيراكول، فالتكرور وسلا كانت مناطق مستقلة عن غانة[3].

أما عن علاقة السلطة الحاكمة بالرعايا، كانت مدعمة بقيم اجتماعية-ثقافية أصيلة، تتمثل في العدل الذي يطبع سلوك الملوك الحاكمين تجاه الرعية، يقابله صدق الولاء للملك. ويجد الملك الغاني في قوته العسكرية، وسيلة مادية لتدعيم سلطته في البلاد وحماية مجال نفوذه، ففي أوج سلطة غانة نجدها سيطرت على أودغشت بعد سنة 360هـ في الشمال، وعلى بعض مناجم الذهب في الجنوب، وفي الوقت نفسه يلاحظ عدم التفاتها للعمليات الجهادية التي كانت تقوم بها إمارة التكرور المسلمة على الحدود الشمالية الغربية للمملكة[4].

ب- **إداريا:**

قسمت المملكة إلى ولايات أو ممالك، وكان لكل ولاية أو مملكة حاكم يسير شؤونها، ومن أشهر ولاياتها، ولاية أودغشت فهي نواة المملكة وأوكار إضافة إلى ولاية هود في الوسط، وممالك المغاربة في الشمال وديارا وتاكانت (Taghnet)، وباسيكور في الشرق، وولاية واجادور، وكانياجا وبغن (Baghana) في الجنوب والجنوب الشرقي. وكانت إدارة هذه الولايات الواسعة تتوقف على مدى القوة العسكرية للمملكة، إذ يستطيع القائد أن يتغلب على صعوبة المواصلات، وأن يكسب دولته لونا من ألوان الوحدة السياسية والاجتماعية ولكن إذا خلفه زعيم آخر أقل قوة منه، فلن يستطيع الحفاظ على هذه الوحدة. وكان أمر الولايات البعيدة يوكل إلى طائفة من العمال يتصرفون بها كما يشاءون، والنشاط الإداري لمثل هذه الدول لم يتجاوز مجرد تحصيل الجزية، وهذا الأمر يتعلق بقوة كل دولة فإن ضعفت خفت مداخيلها وتحصيلاتها[5].

وبجانب الوالي نجد القاضي أو الأمين كما يسميه البكري، وإليه يحتكم أهل غانة في قضاياهم ومشاكلهم اليومية، وفي إطار التسيير الجهوي لا يستبعد مشاركة الزعامات المحلية في الحياة السياسية، ولكي يضمن الملك ولاءها، كان يأخذ أبنائهم رهائن،

---

[1]- البكري، المصدر السابق، ص: 176.

[2]- مبروك االهادي لدالي، المرجع السابق، ص ص: 32-33.

[3]- MAUNY, Op.Cit, P: 511.

[4]- أحمد الشكري، المرجع السابق، ص ص 136-137.

[5]- حسن أحمد محمود، المرجع السابق، ص 185.

يقيمون عنده في القصر معززين مكرمين كي يضمن عدم عصيانهم. وكان للملكة سلطة تنفيذية تمثلت في جهاز الشرطة والجيش المركزي. ولجهاز الأمن طريقة لاستخلاص المعلومات من المجرمين، والذي يقوم على جهاز الأمن يعرف بالأمين[1].

ت- **دينيا:**

كانت المملكة غارقة في تقاليدها الوثنية كما أشار إلى ذلك الجغرافي البكري[2]، بيد أن الحضور الإسلامي بالعاصمة وغيرها من المدن، كان يؤشر بتحولات عميقة لاحقة، وبداية الإسلام في المملكة قد ارتبط بالمدن في حين ظلت الأرياف بعيدة عن التأثير الإسلامي، وهي ظاهرة عامة في بلاد السودان ولا تخص مملكة غانة وحدها.

ما يمكن استنتاجه أن الإسلام دخل إلى هذه البلاد بدرجات متفاوتة وتدريجيا، ووجود العلماء والفقهاء دليل على استقرار الإسلام وعلى كثرة أعداد المسلمين، كما أن وجود اثني عشر مسجدا دليلا على اعتراف حكومة البلاد بالإسلام كدين رسمي لمجموعة معينة من المقيمين بالدولة. وما تجدر الإشارة إليه أن حكام السوننك لم يكونوا كلهم مسلمين، وإنما كان الكثير منهم على الوثنية[3]، والثابت تاريخيا أن أعداد كبيرة من سكان غانة قد اعتنقت الإسلام وأن مظاهر هذا الدين من الشعائر ومساجد والثقافة قد وجدت طريقها إلى غانة من زمن مبكر. وسرعان ما تبدلت أحوالها، واستقامت عقيدتها بحلول الدين الجديد مع فئة التجار العرب، خاصة التجار الخوارج، الذين انتشروا في الغرب الإسلامي ككل، فكان لامتهانهم التجارة دور مهم في انفتاحهم على بلدان ما وراء الصحراء المعروفة بتجارة الذهب والعبيد، بفضل مرونة تعاليمهم المذهبية القائمة على السلم وقبول الآخر، وذلك ما عبر عنه محمود إسماعيل بقوله: "فهما (الإباضية-الصفرية) أكثر فرق الخوارج ميلا للمسالمة والتسامح مع المخالفين"[4].

فقد اعتمد مسلسل الأسلمة على هجرات إباضية ضمت على الخصوص ثنية النيجر والجهات المجاورة لها؛ نتيجة استقرار تجار الإباضية بالواحات الصحراوية المتاخمة للسودان الغربي مثل الهكار؛ إذ دخل الإسلام إلى أرض الذهب بالطريق السلمي ودون غزو عربي يذكر[5]. وإنما بفعل الحوار والتعايش وقبول الآخر رسخ التجار الإباضية قدم الإسلام بمنطقة غرب إفريقيا، عن طريق تنظيمهم لتجارة القوافل الصحراوية، وتركيزهم في دعوتهم للدين الجديد على الملوك والحكام وكبار الرعية ورؤساء القبائل لضمان تأمين مواردهم التجارية، وهو ما جعل بعض الباحثين ينعت الإسلام بالمنطقة في هذه الفترة على أنه إسلام نخبوي لم ينفذ إلى قلوب العامة[6]. وبهذه الأخلاق والمزايا أثر سلوك التجار المسلمين في سلوك ملك غانة، الذي كان يعبر عن حبه للإسلام والمسلمين، فقد أورد البكري عن ملك غانة بسي الذي توفي عام 455هـ/1063م، ما يوحي بهذا السلوك الحسن والتأثر المعلن بقوله: "كان محمود السيرة محبا للعدل مؤيدا للمسلمين". كما كان ابن أخته تنكامنين الذي خلفه في الحكم يعتمد أساسا على المسلمين في تسيير دواليب الحكم متخذا منهم تراجمته وأكثر وزرائه[7].

---

[1]- مبروك الهادي الدالي، المرجع السابق، ص 37.

[2]- البكري، المصدر السابق، ص 175.

[3]- عطية مخزوم الفيتوري، المرجع السابق، ص 246.

[4]- محمود إسماعيل، **الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري**. الدار البيضاء، دار الثقافة، ط2، 1406هـ/ 1985م، ص 42.

[5]- جوان جوزيف، المرجع السابق، ص 62.

[6]- الحسين حديدي، المرجع السابق، ص 62.

[7]- البكري، المصدر السابق، ص ص: 174-175.

ونجم عن احتكاك التجار المسلمين الوافدين بالأفارقة القاطنين بغرب إفريقيا، أن انتشر الإسلام بين الأفارقة انطلاقا من الحواضر التي امتت تأثير إشعاعها الديني والروحي إلى المناطق المجاورة لها. وحدد الجغرافيون العرب موطن غانة أو بلد أوكار بين وادي النيجر الأدنى شرقا والمحيط الأطلسي غربا، وبين صحراء الملثمين شمالا ومنابع النيجر والضفة اليمنى لنهر السنغال جنوبا[1].

والجدير بالذكر أن هذه المملكة التي زحفت على مجالات شاسعة من مجال البيضان، لم يُكتب لها أن تعمر طويلا رغم المقومات الاقتصادية المهمة التي كانت بمجالها، ورغم القوة العسكرية التي توفرها أعداد جيوشها التي قدرها البكري بحوالي مائتي ألف منهم أزيد من أربعين ألف رماة[2]؛ إذ تمكنت هذه المملكة في عز أوجها من السيطرة على مدينة أوداغست التجارية بصحراء صنهاجة بعد عام 360هـ/971م، والتي اكتسبت مميزات أخرى حيث ظهرت كمركز إسلامي حضاري.

وصلها المد الإسلامي عن طريق سكان الشمال الذين اخترقوا الصحراء، وبدأ بعد ذلك التوسع نحو الجنوب لنشر الإسلام، ونتيجة لكثرة توافد المسلمين عليها اصطبغت بالصبغة الإسلامية، وبلغت ذروة قوتها ومجدها وعظمتها الإسلامية خلال القرنين 3-4هـ/9-10م، وقامت بدور فعال ومؤثر في نشر الدعوة الإسلامية بل إنها كانت محطة ربط أساسية بين القبائل المسلمة في الشمال والقبائل السودانية والوثنية في الجنوب. وكان القائمون على هذه المدينة حكاما مسلمين كثفوا من جهودهم في سبيل نشر الإسلام، من بينهم الملك أقيسي الأودغستي (961-971م) الذي كان شديد التحمس للدعوة الإسلامية ونشرها، وبلغ من سعة نفوذه وقوة سلطانه ما جعله سيدا على أكبر قبائل ومناطق السودان الغربي. كما دان بالإسلام عدد من السكان وبعض حكام المقاطعات منهم ملك بلدة ملل الذي أسلم على يدي الداعيين الليبيين أبي الحسن علي بن يخلف النفوسي وأبي عيسى الفرسطائي، وأطلق على نفسه اسم "المسلماني". ومن الديانات التي دان بها أهل غانة الوثنية والمجوسية، وقد أكد البكري ذلك، بقوله: "وهم الذين يقيمون دينهم وفيها دكاكيرهم...وسائر السودان على المجوسية".

ث- **اقتصاديا:**

إن عظمة غانا التاريخية وشهرتها وثراءها إنما يرجع أساسا إلى أرباحها التجارية الطائلة فقد كان لموقعها وعاصمتها كومبي صالح (علي حدود الصحراء الجنوبية وفي أقصى شمال منطقة الزنوج) أكبر الأثر في جعلها حلقة وصل بين الشمال والجنوب، بالإضافة إلى تحكمها في طرق القوافل المؤدية إلى مناجم الذهب الكبرى في جنوبها قد أفادها وجعلها غنية.

التجارة:

كانت إمبراطورية غانا تصدر الذهب والرقيق والجلود والعاج والكولا والصمغ والعسل، بالإضافة إلى القطن والقمح، وكانت تستورد الملح والنحاس الأحمر والفواكه المجففة والودع والمسابح وأدوات الزينة. وسيطر ملوك غانة على الطريق التجاري للوصول إلى مناجم الذهب في بامبول وبوري، وذلك من خلال موقعها الاستراتيجي، ويبدو أن مملكة غانة سيطرت على ممالك أخرى نتيجة تحكمها في مصادر الذهب، وفي ذلك يقول اليعقوبي: "...وملكهم عظيم الشأن...وتحت يده عدة ملوك فمنهم مملكة همام ومملكة سامة"[3]. وظهرت عندهم صناعة الذهب في ظهر في ثياب الملك وكبار رجال الدولة وفي أغطية الرؤوس ومقابض السيوف وسروج الخيل.

---

[1]- نعيم قداح، المرجع السابق، ص ص: 67.

[2]- حديدي الحسين، المرجع السابق، ص: 62.

[3]- محمد بن نافع اليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**. ج 2، بيروت، دار صادر، ب.ت.ن، ص 191 .

وكانت تجارة الذهب مصدر ربح كبير لها حيث تحكمت في طرق المناجم بالإضافة إلى أن البلاد كانت تضم بعضا من هذه المناجم. وقام ملوك غانا وتجارها بدور الوسيط بين منتجي الذهب في الجنوب وبين المغاربة في الشمال، وهؤلاء بدورهم باعوه إلى أوروبا، كما أن غانا وتجارها بالإضافة إلى التجار المغاربة يحصلون على الذهب من منتجيه في أعالي السنغال عن طريق ما اصطلح على تسميته بالتجارة الصامتة، فكان التجار المغاربة يأتون بسلعهم من المسابح والودع والملح ويذهبون إلى كومبي صالح عاصمة غانا، وفيها يجدون زملائهم وعملاءهم الغانيين في انتظارهم، فيخرج الجميع نحو أعالي السنغال في أماكن معلومة، حيث يضرب التجار بطبولهم إعلانا عن وصولهم بالبضائع، ثم يضعون سلعهم في أكوام على شاطئ النهر ويختفون وحينئذ يخرج الزنوج ويضعون بجوار كل كومة ما يرونه مساويا لها من الذهب، ثم يختفون فيظهر التجار فإذا اقتنعوا بقيمة الذهب حملوه وانصرفوا بعد أن يدقوا طبولهم إيذانا بانتهاء التبادل، وإذا لم يقتنعوا بالذهب الموجود لم يقربوه وتركوه واختفوا مرة أخرى، فيخرج الزنوج ويزيدون كميات الذهب وتتكرر هذه العملية بين الاختفاء والظهور حتى يتم الاقتناع بين الجانبين.

وأما تجارة الرقيق فقد راجت كذلك، وحصلت فيها غانا على أرباح و فيرة، فقد كانت العاصمة كومبي صالح إحدى الأسواق الرابحة لها، تمون هذه الأسواق بالعبيد عن طريق الاقتناص من الحدود الجنوبية. كما حصلت غانا على ثروة طائلة من الضرائب والتي كانت تجمعها الحكومة من أقاليمها المختلفة، وكانت كل هذه الأموال تصب في خزانة الدولة مما أكسبها شهرتها التجارية وازدهارها الاقتصادي. بالإضافة إلى هذه الضرائب قرر ملك غانا فرض ضريبة قدرها دينار من الذهب على كل حمولة حمار من الملح تدخل بلاده، ودينارن عن كل حمولة تخرج من بلاده وفي ذلك يقول البكري: "ولملكهم على حمار الملح دينار ذهب في إدخاله البلد، ودينارن في إخراجه وله على حمل النحاس خمسة مثاقيل وعلى حمل المتاع عشرة مثاقيل"

الزراعة والرعي:

مارس الغانيون الزراعة والرعي فقد تحدث البكري عن اقتصاد غانة الزراعي فقال: "إن البساتين كانت تحيط بعاصمة غانا وتنتشر في كل البلاد زراعة القطن". واهتموا أيضا بالثروة الحيوانية والمتمثلة في البقر والإبل والغنم والماعز، كما اهتموا أيضا بالزرافات والغزلان والضباع والفيلة والأرانب والقنافد، ونظرا لقرب مملة غانا من نهر النيج اهتمت أيضا بالثروة الحيوانية البحرية والمتمثلة في الأسماك وفرس النهر والذي يصطاد من النهر، كما توجد لدى الغانيين الحيتان الكبيرة والصغيرة.

وعن التأثير الإسلامي في الحياة الاقتصادية للمملكة، فقد شجع الإسلام العمل الزراعي، كما استطاع سكان السودان الغربي أن يستغلوا بلادهم بمساعدة تجار شمال أفريقيا، فأشار جوليان أن صناعة الذهب وصلت إلى بلدان البحر المتوسط مع وصول الإسلام. وارتكزت البنية الاقتصادية للمملكة غانة على مهمة أساسية وهي مراقبة واستغلال التيارات التجارية، فوضعت أهم المناطق الاقتصادية تحت يدها خاصة مناجم الذهب.

الصناعة:

أما فيما يخص الجانب الاقتصادي استطاعت مملكة غانة أن تكتشف معدن الحديد قبل غيرها من الممالك السودانية، فاستغلته في صناعة الأسلحة الحديدية والصناعة الثقيلة ذلك الوقت، لذا استطاعت فيما بعد اكتساب قوة حربية هائلة[1] مكنتها من التغلب على أعدائها إذ اعتمدوا في معاركهم على الأقواس والدبابيس التي كانوا يتخذونها من شجرة الأبنوس[2]، وهذا ما يؤدي

[1]- حسن إبراهيم حسن، المرجع السابق، ص 97.

[2]- الدمشقي، المصدر السابق، ص 110.

بالضرورة إلى إمكانية سيطرتهم على مناجم الذهب، وتوسيع حدود رقعتها الجغرافية فضمت إليها إقليم مالي والسنغاي. وبالإضافة إلى ذلك كان لهم دار لصناعة المراكب الحربية على جوانب بحيرة كوري.

4- أثر الإسلام على الحياة الاجتماعية:

كان من تأثير الإسلام في هذه المملكة أن أوقف التناحر القبلي بين القبائل السودانية، فقد كان النظام الاجتماعي في غانة قائما على أساس القبيلة التي تنحدر من أب واحد، وكان الملك في غانة يمثل القمة في الهرم الاجتماعي فهو أكبر عماد للقبيلة، وقائدها العسكري، وزعيمها الديني. كما أثر الإسلام على سلوكيات التعامل التجاري حيث حث على الكسب الحلال فأقبل الناس على المهن الشريفة التي تحفظ كرامتهم كبشر، وكانت صلة التاجر المسلم وثيقة بالوثنيين، وتعتبر مملكة غانة مثالا جيدا لتأثر الأفارقة بالتجار المسلمين، وذلك من خلال ما دونه البكري وصاحب الاستبصار، والذي دل على مدى تأثر الإفريقيين بالمسلمين لدرجة أنهم يوفرون لهم الراحة والمكان المناسب للإقامة بينهم، وذلك بسبب ذلك أخلاقهم الحميدة وسمعتهم الطيبة.

كما ساهم الإسلام في بناء المدن التجارية، والتي كان لها دور مهم في تطور الحياة الاقتصادية حيث عرفت هذه المدن الصناعات العربية الإسلامية، فقامت الحرف اليدوية كما عرفت المبادلات والمعاملات المالية تطور نظام التبادل التجاري المالي. وقد تطلبت توسعات المملكة فرض الضرائب والجبايات، فنظم الملوك طرق جمعها على أساس دينار ذهبي واحد على كل حمولة ملح تدخل البلاد، ودينار عن كل حمولة تخرج من البلاد، وأوقية ذهب على حمولة النحاس، أما بقية الضرائب فقد فرضوا عليها الضعف، واستعملت عائداتها للمشاريع[1].

وقضى الإسلام على بعض الطقوس الوثنية وبدلها بالعادات والتقاليد الإسلامية، كما ضمن لأتباعه حياة أفضل فقد كانت حاشية الملك وأكثر جنوده من المسلمين الأمر الذي جعل القوة الإسلامية تسير نحو السلطة كما منع الإسلام الركوع أمام الملك فكان المسلمون عند قدوم الملك يكتفون بالتصفيق. كما كان للعدل الاجتماعي الذي اختص به ملوك غانة في المساواة بين الوثنيين والمسلمين أن قال الإدريسي: "وهو أعدل الناس فما يحكي عنه، ومن سيرته في قرب الناس وعدل فيهم" فكان يستمع إلى مظالم وشكاوي الناس. وعن الفقهاء قال السعدي: "وقد ساق الله تعالى لهذه المدينة المباركة، سكانا من العلماء الصالحين من غير أهلهم من قبائل شتى وبلاد شتى". وكان الطلبة يسرعون إلى العلماء والفقهاء لاقتباس علمهم والتتلمذ على أيديهم وكانت الحلقات الدراسات والمناقشات العلمية تبدأ من منتصف الليل إلى صلاة الصبح، وبعد الصلاة يجلسون حول العلماء إلى الزوال تتخللها فترة راحة ثم تبدأ جلسات علمية من جديد[2].

ويعتبر المسجد المكان الرئيسي لتلقي العلم وقد أشار البكري إلى وجود اثنا عشر مسجدا في العاصمة غانة التي سكنها المسلمون، ويجتمع بها عدد من المؤذنين والفقهاء وحملة العلم. كما ذكر السعدي في القرن 6هـ/12م، أن بمملكة غانة أربعة ألاف ومائتي عالم، جمعهم ملك في مملكته، وطلب منهم أن يدعوا الله وينصر مدينتهم ثم هدم قصره وبنى مكانه مسجدا عظيما مبالغة في حبه للإسلام[3].

5- سقوط المملكة:

أ- الأسباب الداخلية:

---

[1]- عطية مخزوم الفيتوري، المرجع السابق، ص 251.

[2]- عصمت دندش عبد اللطيف، المرجع السابق، ص 162.

[3]- السعدي، المصدر السابق، ص ص 12-13.

حددها الهادي المبروك الدالي في سبب واحد وهو العامل الطبيعي والذي تمثل في الجفاف الذي حل بالبلاد الواقعة شمال حوض السنغال بداية من القرن 5هـ/11م، مما حمل الناس على الهجرة إلى مواطن أخرى[1].

ب- الأسباب الخارجية:

الفتح المرابطي لمملكة غانة:

تأسيس الدولة المرابطية:

كان أول من ملك الصحراء من صنهاجة اللثام هو الملك تين يروتان[2] مع نهاية القرن 2هـ/8م ووجه جهوده إلى الجهاد في السودان الغربي، ونجح في الوصول إلى نهر السنغال لأول مرة حتى استعان به ملك مملكة أوغام الوثنية التي تقع شرق مملكة غانة، وتعتبر هذه أول خطوة موحدة لصنهاجة اللثام في حركة الجهاد بالصحراء الكبرى ولكنه توفي سنة 222هـ/836م وسرعان ما انفك الحلف الصنهاجي بعد وفاته، وتعاقب على رئاسة الحلف من بعده حفيده "الأثير" ومن بعده ولده "تميم" الذي ثار عليه شيوخ صنهاجة وقتلوه سنة 306هـ، فافترق الملثمون بعدها لمدة مائة وعشرون سنة، وظلت الوضعية السياسية لصنهاجية اللثام مضطربة حتى العقد الثالث من القرن 5هـ/11م أين تشكل الحلف الصنهاجي الثالث تحت زعامة أبو عبد الله بن تيفاوت المعروف بتارشت اللمتوني، والذي أعلن الجهاد في بلاد السودان الغربي، ووصل إلى موضع يقال له "ونغارة" غربي مدينة "بانكلابين" التي أخذها بنو وارث من قبائل صنهاجة، لكن العملية الجهادية التي قام بها كانت محدودة زمانا ومكانا، إذا علمنا أنه توفي بعد ثلاث سنوات من تزعمه للحلف، والمؤكد أن أبا عبد الله بن تيفاوت وصل إلى الحدود المتاخمة للمملكة غانة الوثنية. وبعد وفاته تولى صهره يحي بن إبراهيم الجدالي أمر صنهاجة من بعده، وهنا تنتقل زعامة قبائل صنهاجة من لمتونة إلى جدالة لأول مرة في تاريخ الحلف الصنهاجي.

وفي عام 427هـ/1036م استخلف الأمير يحي بن إبراهيم الجدالي ابنه إبراهيم على رئاسة حلف صنهاجة، لمواصلة حركة الجهاد، وقصد الأمير يحي بن إبراهيم الجدالي المشرق الإسلامي للحج وفي طريق عودته مر بالقيروان والتقى بالفقيه أبي عمران الفاسي، الذي أرسل معه الفقيه عبد الله بن ياسين ليعلم الصنهاجيين مبادئ دينهم، وكان عبد الله بن ياسين متشددا، مما أثار عليه زعماء صنهاجة، ومنهم فقيه يسمى الجوهر بن سكم مع رجلين آخرين، عزلوا عبد الله ابن ياسين الجزولي. وبسبب هذه الثورة الصنهاجية قرر عبد الله بن ياسين الذهاب إلى السودان الغربي، وحمل السكان على الإسلام، ولكن يحي بن إبراهيم أشار عليه أن يبني رباطا قصد التعبد عند مصب نهر السنغال وما هي إلا أشهر قليلة حتى التف حول الرباط عبد الله بن ياسين أعداد من الناس، ولما أحس بالقوة والقدرة على المواجهة خرج مع المرابطين برباطه في نهاية العقد الرابع من القرن 5 هـ/ 11م وربما بعد ذلك ببضع سنوات.

وعاود عبد الله بن ياسين الجزولي الرجوع ثانية إلى جنوب المغرب الأقصى وخصوصا إلى مدينة سجلماسة مدركا إمكانياته العسكرية التي قرر على أساسها التقدم لجهاد مملكة غانة الوثنية وبلاد السودان الغربي، وبهذه الخطوة نسجل ميلاد "الحركة المرابطية" التي قادها عبد الله بن ياسين، وأهم ما تمخضت عنه هذه الحركة إسلام شعب التكرور الذي كان أول الشعوب السودان الغربي التي اعتنقت الإسلام، وذلك بعد اعتناق قائدها وارجابي بن رابيس للإسلام، وسيحارب هذا القائد مع ابنه لبى بن رابيس إلى جانب الزعيم الأمير يحي بن إبراهيم في حركته الجهادية بالسودان الغربي.

---

[1]- الهادي مبروك الدالي، المرجع السابق، ص: 42.

[2]- ذكر اسم هذا الملك "تين يروتان" عند البكري ويذكر ابن حوقل" تنبروتان" وهو اسم قريب من الاسم الذي أورده البكري أما ابن زرع الفاسي ابن خلدون يذكر اسم تيولوتان مع العلم أن ابن خلدون ينقل في الكثير من المرات في تاريخ المرابطين عن ابن الزرع فاسي.

توفي في هذه المرحلة الأمير يحي بن إبراهيم، وواصل عبد الله بن ياسين حركته الجهادية حتى غزى مدينة أودغشت 446هـ/1054م، التي كان دائما محطة صراع بين صنهاجة اللثام وملوك غانة الوثنية نظرا لأهميتها التجارية، وعند عودة عبد الله بن ياسين إلى أغمات استشهد في إحدى معاركه مع برغواطة سنة 449هـ/1057م، وبعد وفاة الأمير يحي بن إبراهيم آلت الزعامة إلى أبي بكر بن عمر اللمتوني، وبعد أن عاد إلى المغرب سلم الأمر ليوسف بن تاشفين، وذهب ليجاهد الكفرة من بلاد السودان الغربي ووصل إلى جبل الذهب، كما ذكره ابن أبي الزرع الفاسي بقوله: "استقام له الأمر الصحراء إلى جبل الذهب من بلاد السودان". واستعمل عليه ابن عمه يوسف بن تاشفين على بلاد المغرب، تقدمت الجيوش المرابطية بقيادة أبو بكر بن وكانت هدفه هذه المرة محاربة مملكة مملكة غانة الوثنية لكن هذه المبادرة لم تستمر خصوصا بعد استشهاد أبي بكر عمر (ابن أبي زرع الفاسي استشهد سنة 480هـ/1087م بينما يؤكد ابن عذاري على أنه استشهد سنة 468هـ) من طرف قبائل موسي الوثنية، وبعد وفاته خمدت الحركة المرابطية بالصحراء، ثم عادت من جديد بعد أن تولاها يوسف بن تاشفين الذي كرس جهوده لنشر الإسلام منذ القرن 6هـ/12م، واعتنق حكام إقليم "كانجابا" من قبائل الماندينجو الإسلام.

جهاد المرابطين:

تبنى المرابطون حركة الجهاد بداية من القرن 2هـ/8م، عندما حققوا أول وحدة سياسية بينهم على عهد ملكهم تينيروتان، ومع مجيء الفقيه عبد الله بن ياسين الجازولي إلى المغرب الأقصى ظهرت الحركة المرابطية، كانت مدينة أودغشت محل صراع بين ملوك غانة والمرابطين منذ القرن 4هـ/10م، وكان أبو بكر بن عمر اللمتوني أول من وجه جهاده نحو مملكة غانة الوثنية، ولم يكن ملوك غانة على علاقة طيبة مع جيرانهم الملثمين، فقد حاول كل منهما الاعتداء على الأخرى فاستولى الملثمون على أودغشت وهي ثاني أهم مدينة بعد العاصمة غزاها عبد الله بن ياسين سنة 446هـ/1054م وانتصر فيها، وكون في نفس المكان رباطا آخر سنة 448هـ/1056م[1]. وبعد دخول المرابطين إليها وسيطرتهم عليها ظهر الضعف الاقتصادي على مملكة غانة وبفقدانها لهذا المركز التجاري المهم فقد السيطرة على الطرق التجارية المؤدية إلى مناجم الذهب لذا أصيبت البنية الاقتصادية بضعف هذا من جة، ومن جهة أخرى حل محلها مركز تجاري آخر وهي ولاته.

وهذا التطور في المراكز التجارية الإسلامية هو نتيجة حتمية لاتساع رقعة الإسلام وتوغله نحو الجنوب، ولما وجه أبو بكر إبراهيم حملته لمملكة غانة الوثنية كان هدفه الرئيسي تكريس جهوده لإخضاع مملكة غانة للمرابطين يسيطروا على مناجم الذهب التي سيطرت عليها مملكة غانة قبله. ومن المؤسف أن المصادر التاريخية لزمت الصمت اتجاه حملة الأمير أبو بكر التي صادفها سقوط مملكة غانة، كما أنها لم تذكر أي تفاصيل أخرى عن جهاد أبو بكر خلال فترة أربعة عشر سنة والتي انتهت بسقوط المملكة غانة ترجع عصمت عبد اللطيف دندش أن سبب صمت المصادر والمراجع إلى أنه: "لقد أغفلت تماما جهاد هذا الأمير في السودان ولم تذكر الألسنة وفاته وبيد وانه أحداث المغرب ومن بعدها جهاد المرابطين في الأندلس طغت على أحداث الجنوب، فشغلوا بدوين في الأندلس لأنها كانت على ما يبدو وأكثر أهمية في نظرهم فعنوا بذكر تفاصيلها وغفلوا عن لأحداث السودان"[2].

ولم يستطع المرابطون القضاء على أقاليمها بدأ يضعف بعد ضربة المرابطين القضاء نهائيا على مملكة غانة التي حالت دون وصولهم إلى الجنوب. غير أن سيطرة غانة على أقاليمها بدأ تضعف بعد ضربة المرابطين حيث يقول ابن خلدون، أن أهل غانية ضعف ملكهم وتلاشى أمرهم واستفحل أمر الملثمين المجاورين لهم من جانب الشمال مما يلي البربر وعبر إلى السودان، واستباحوا

[1]- ابن أبي الزرع، المصدر السابق، ص ص 122- 125.

[2]- عصمت دندش عبد اللطيف، المرجع السابق، ص 112.

حماهم وبلاده وحملوا الكثير منهم علا الإسلام ولم يدم وجود المرابطين بغانة إلا أعواما قليلة بسبب أكثر من أربعة عشر سنة[1] لأنهم سرعان ما تنازعوا على الغنائم[2]. واستطاعت غانة أن تنهض بنفسها وأن تحاول استرداد قوتها حيث يقول عبد الرحمان الماحي: "سرعان ما قامت ثروات ليس ضد الإسلام، وإنما تستهدف تحقيق إدارة غانية»[3]، وجاءت هذه الثورات بعد أن ضعف سلطان المرابطين على غانة بعد موت أبي بكر بن عمر اللمتوني سنة 480هـ/1087م ولكن الإسلام ظل ينشر في تلك النواحي تدريجيا.

وأهم ما نستنتجه أن للمرابطين دور كبير في نشر الإسلام ونشر المذهب المالكي بالمنطقة خلال القرن 5هـ/11م، وأن ملوك غانة الوثنين قد أسلموا، فأصبحت غانة ملكا ورعية مسلمين.

هجوم قبائل الصوصو:

كان لانسحاب المرابطين من المملكة أن خلت الساحة لقبائل الصوصو، هذه القبائل التي سكنت غرب الحوض الأدنى للنيجر للملكة، فأعلنت استقلالها وانفصالها عن مملكة غانة، وفي سنة 600هـ/1203م تمكن زعيمها سومن كورو كانتيه أو سومانجورو (Souman Kourou kant) من الاستيلاء على عاصمة غانة وأصبحت تابعة.

كما هاجمت قبائل الصوصو إقليم ديارا المجاور لهم وهو جزء من مملكة غانة، ولم يصادفوا أية رد فعل قوية من ملوك غانة، وقد فر فريق من سكان المسلمين إثر هذا الهجوم بقيادة زعيم يسمى الشيخ إسماعيل إلى مدينة ولاته إلى الشمال وأنشأ مركزا تجاريا، وفي سنة 1240م سقطت العاصمة كومبي صالح نهائيا في أيدي حكام قبائل صوصو، فاندفعت القبائل صوب الجنوب للهروب من صوصو وهجوماتهم.

[1] - Davison BASIL, Op.Cit, P 93.

[2] - أوليفر رولاند وفيج، المرجع السابق، ص 24.

[3] - عمر عبد الرحمان الماحي، **الدعوة الإسلامية في إفريقيا الو اقع و المستقبل**. الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، ط1، 1992م، ص 87.

المحاضرة الرابعة: ممالك السنيغامبيا: مملكة التكرور

1- التكرور:

التَّكْرور حسب القاموس المحيط هو "الحاجز"، وفي لسان الموريتانيين الدراج (الحسانية) بمعنى "المانع" الذي يحول دون احتكاك حمولة الملح بظهر الجمل، ويسمى التَّكارير جمع تَكْرُور. وحسب المختصين في لهجة صنهاجة موريتانيا فإن كلمة تكرور أصلها من "تكُرَرْت" وهي محل الأمير. واصطلاح التكرور بالمعنى المشرقي العام والمستخدم لدى التنبكتيين والولاتيين وغيرهم، هو مجال جغرافي يشمل غرب إفريقيا والصحراء الكبرى، ويمتد إى البحر الأحمر شرقا، وهو اصطلاح إداري مشرقي ليست له أية أبعاد عرقية أو لغوية[1].

وأهم مؤلف سوداني ضبط هذا الاصطلاح وميزه هو محمد بلُّو وجاء فيه ما نصه: "واعلم أن هذا الاسم الذي هو التكرور، علم على الإقليم الغربي من الجنوب السوداني، على ما فهمنا من تعبيرهم في التواريخ والنقول، وهذا الاسم شائع في الحرمين ومصر والحبشة ومندرس في محله حتى لا يعرفه أهل هذه البلاد أصلا، وإنما يتلقونه من الحجاج الذين سموه بالحرمين ومصر"[2]. ومن خلال تصفح ما كتبه البكري عن التكرور نجد أنه لا يتحدث عنها سوى كمدينة، ولكن عند التدقيق في المعطيات التي قدمها لنا نجد الأمر يتعلق بإمارة سودانية صغيرة، كانت مدينة تكرور مستقر أميرها. ووصف القلقشندي مدينة تكرور بالمدينة الكبيرة، ويقول عنها بأنها أكبر من مدينة سلا التابعة لبلاد المغرب الأقصى، وذكر بأنها تشتمل على أربعة عشر إقليما، وأكثر ما يجلبه إليها تجار المغرب الأقصى هو الصوف والنحاس والخرز وأكثر ما يشترونه منها هو التبر (الذهب الخالص).

2- الموقع:

التكرور في الأصل عَلَمٌ على إمارة سودانية كانت عاصمتها تقع على الضفة اليسرى من نهر السنغال غير بعيدة عن مصبه، فكان مجالها محاذيا لمجال قبيلة جدالة، وقد اختلف المؤرخون في تحديد موقع هذه المنطقة التي تعرف باسم تكرور، بين حوض نهر السنغال، ونهر النيجر، ومنطقة ولاتة، إلا أن البعض يرى بأنها إقليم واسع ممتد شرقا إلى مالي وغربا إلى نهر السنغال، وجنوبا إلى أعالي نهر السنغال أو النيجر، وشمالا إلى أدرار. فهي تقع على الضفة اليسرى لنهر السنغال، أي أنها تقابل مجال صنهاجة اللثام على الضفة الأخرى خاصة قبيلة جدالة وأقربها لبلاد السودان.

وحسب محمد بلو "في تحديد بلاد التكرور...وأول هذه البلاد من جهة المشرق، على تعبيرهم، بلد فور، ويليه من جهة المغرب بلد وَدَّاي وبلد بَاغِرْم، فأما بلد فور فبلد واسع ذو أشجار وأنهار ومزارع، وت أهله الدخن والذرة والدجر...وأما ما حاذى هذه البلاد من جهة الشمال، فقفار ورمال معاطيش لا يعمرها إلا الرعاة في فصل الربيع من البرابرة والعرب المذكورين، وأما ما والاها من جهة الجنوب، فبلاد كثيرة يعمرها أجلف السودان على اختلاف ألسنتهم، لم ينتشر فيها الإسلام كثيرا، ولم يتفق لي من أخبار هذه البلاد ونوادر الأمور وأخبار ملوكها وعلمائها ورجالها، ما يحق لنا ذكره وإيراده على ما شرطنا قبل".

---

[1]- محمود كعت، المصدر السابق، هـ2، ص 57.

[2]- محمد بلو بن عثمان فودي، **إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور**. تحقيق بهيجة الشاذلي، الرباط، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، ط1، 1996م، ص47.

تشير الرواية الشفوية المتوارثة في منطقة فوتاتورو إلى أن أ,لأ أسرة حكمت المنطقة هي أسرة حنا حوالي سنة 235-390هـ/850-1000م، لكن هذه الرواية تحمل في طياتها الكثير من عناصر التأسيس الأسطوري، والتي تبحث عن زعيم قادم من الشرق يسند له دور الأسبقية (الاقناع بالشرعية)[1].

ونتيجة لقربها الجغرافي من من المسلمين كان من الطبيعي أن تكون أولى المناطق السودانية التي انتشر بها الإسلام، فهل تم ذلك عن طريق الفقهاء والدعاة أو نتيجة احتكاك أهل التكرور مع صنهاجة المجاورين لهم من الشمال؟

لا يوجد أمر واضح بهذا الخصوص على أن توفر كل من أودغشت وغانة (العاصمة) على المساجد والفقهاء وحملة العلم والمعلمين للقرآن، يحمل على الاعتقاد في أن تكرور كانت تعرف الوضعية نفسها باعتبار قربها من المدينتين[2]. والمتتبع لما أوردته المصادر من معلومات عن مملكة تكرور لا يجد ما يشير بوجه الخصوص إلى أن التجار المتجهين إليها كانوا بأعداد ضئيلة، وإن لم يكونوا بطبيعة الحال بنفس الكثافة أولئك الذين اتجهوا إلى مملة غانة أو مملكة غاو، فقلة الذهب الموجود بأرضها لم تمنع من تمتعها بأهمية سياسية واقتصادية[3].

خريطة مملكة التكرور والممالك المعاصرلها منتصف القرن 6هـ/16م نقلا عن د.حسين بوبيدي

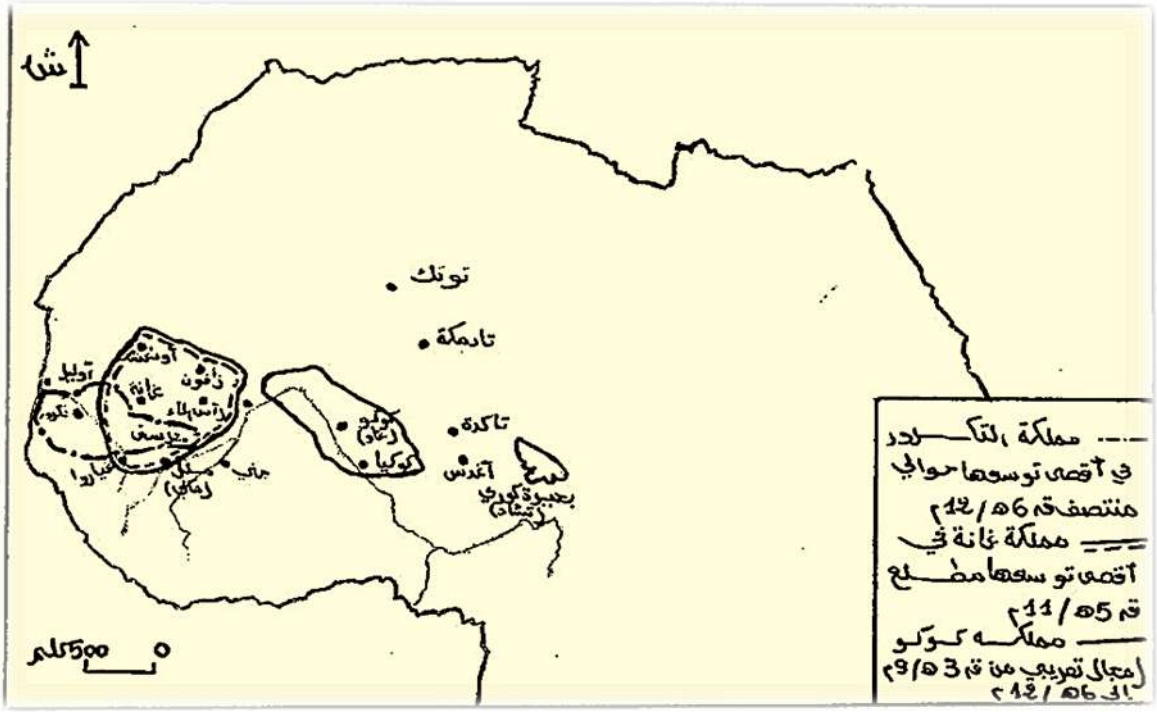

[1]- حسين بوبيدي، **ممالك السينيغامبيا**، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة عبد الحميد مهري، قسنطينة 2، 2021/2020، منصة التعليم عن بعد، ص 5، الرابط الالكتروني:

elearning.univ-constantine2.dz/elearning/course/view.php?id=727

[2]- أحمد الشكري، المرجع السابق، ص 111.

[3]- سعود بن حمد الخثلان، "دور التجار المسلمين في رواج التجارة بين بلاد المغرب والسودان الغربي فيما بين القرنين الثالث والخامس الهجريين (9/11م)". مجلة جامعة الملك بن عبد العزيز، ع: 5، 1412هـ/1992م، ص 42.

وأقدم إشارة لإسلام التكرور هي ما أخبرنا به ابن حزم الأندلسي حيث يقول: "بلغت في عام إحدى وثلاثين وأربعمائة أنه أسلم أهل سلا وتكرور ، وهما أمتان عظيمتان من بلاد السودان، أسلم ملوكهم وعامتهم، ولله تعالى الحمد كثيرا"[1]، ومع النصف الثاني من نفس القرن يؤكد لنا البكري وصول الإسلام إلى هذه الممالك قبل الحملة المرابطية، فكانت مملكة تكرور أول مملكة سودانية تتحول بكاملها إلى الإسلام، وذلك عندما حكمهم ملكها وارديابي بن رابيس (وارجابي)، فكتب يقول: "وأهلها سودان وكانوا على ما سار السودان عليه من المجوسية وعبادة الدكاكير، والدكور عندهم الصنم، حتى وليهم ورجابي بن رابيس فأسلم وأقام عندهم شرايع الإسلام، وحملهم عليها، وحقق بصايرهم فيها، وتوفي وارجابي سنة اثنين وثلاثين وأربع مائة فأهل التكرور اليوم مسلمون" (432هـ/1040-1041م) وتبعه في ذلك شعبه.

وساهمت مملكة التكرور في نشر الإسلام بالمنطقة حتى أنها أعانت المرابطين (كانت علاقاتها طيبة معهم) في بعض حروبهم في الصحراء ضد جدالة التي انشقت عن الحلف المرابطي، فقد تحالف رئيس التكرور آنذاك **لبي بن وارجابي** مع يحي بن عمر اللمتوني سنة 488هـ/1057م مما يدل على عمق العلاقة بينها وبين لمتونة[2]. ولم يحاول ملكها الجمع بين التعاليم الإسلامية والطقوس والتقاليد الوثنية كماحصل في مناطق أخرى من بلاد السودان، ولعل ذلك راجع لتحمسه لتطبيق الشريعة كما نزلت والعمل بها ونشر الدين في المناطق الأخرى وهو ما ذكره لنا البكري، أما عن جهوده في نشر الإسلام في مملكة سلا وما نتج عن ذلك، فيقول: "وتسير من مدينة التكرور إلى مدينة سلا وهما مدينتان على شاطئ النيل (نهر السنغال) أيضا وأهلها مسلمون أسلموا على يد وارديابي رحمه الله...وملك سلا يحارب كفارهم وليس بينه وبين أولهم مسيرة يوم واحد". فأصبحت جميع المدن والإمارات التابعة لمملكة التكرور، والممتدة من التكرور لغاية سيلا (غالام) مسلمة بفضل الملك التكروري وارديابي بن رابيس[3].

والبكري هو أول جغرافي قدم لنا معلومات عن مملكة التكرور سنة 460هـ/1068م، وما يفهم من كلامه أنها لم تكن ذات أهمية كبيرة من حيث اتساع المجال، لأنه ذكرها باسم "المدينة" وذكر حاكمها باسم "رئيس التكرور"، لكنها ستتطور كثيرا على عهد الإدريسي، فقد أصبحت عبارة عن سلطنة إسلامية غاية في الأهمية من الناحية السياسية في بلاد السودان منتصف القرن 6هـ/12م، وأهم مؤشر يدل على ذلك هو امتداد نفوذها في اتجاه مناجم الذهب بأكثر من 200 كلم (12 مرحلة)، وبذلك أصبحت مدينة بريسي (يرسني) التي توجد غرب غيارو الخاضعة لسلطتها، علما بأن ذات المدينة كانت تابعة للملكة غانة في عهد البكري، أما مدينة سلى أصبحت في عهد الإدريسي من عمالة السلطان التكروري. وهذا دليل على مدى انتشار الإسلام في المناطق الجنوبية التي أصبحت تابعة لسلطنة التكرور، أي بمجال قبائل اللملم (الماندينغ حسب الاصطلاح الحديث).

3- حواضر المملكة:

تعتبر مينة بريسيا[4] من أشهر بلاد التكرور تقع على شمال نهر النيجر، وصفها الإدريسي بقوله: "...ومدينة بريسي مدينة صغيرة لا سور لها، غير أنها كالقرية الحاضرة وأهلها تجار متجولون"[5]. ووصف الإدريسي للمدينة يؤكد فعلا على أن المدن كانت عبارة عن تجمعات قروية، وهو الشيء الذي ذكره ابن سعيد المغربي أيضا في وصفه لمدينة سامقندي، إذ يقول: «...وهذه المدينة

---

[1]- ابن حزم الأندلسي، **رسائل ابن حزم الأندلسي**. ج2، تحقيق إحسان عباس، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1981م، ص 133.

[2]- البكري، المصدر السابق، ص 172.

[3]- شعباني نور الدين، "دور ملوك السودان الغربي والأوسط في نشر الإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء بين القرنين الخامس والتاسع للهجرة الحادي عشر والخامس عشر للميلاد"، مجلة كان التاريخية، السنة 4،العدد 14، ديسمبر 2011، ص 50.

[4]- **بريسيا:** ذكرها ابن سعيد المغربي باسم "ريسب"، والإدريسي "بريسي"، والدمشقي "برسنة" أما صاحب الاستبصار فسماها "تربسي".

[5]- الإدريسي، المصدر السابق، ص 92.

كالقرية...أما سامقندني التي تقع على ضفة نهر النيجر وأهلها أرمي الناس بالنشاب"[1]. إذن فهذه المدن لم تكن سوى عبارة عن تجمعات قروية لم ترق إلى المستوى الحضاري الذي وصلت إليه مدينة أودغشت.

4- الأوضاع السياسية:

تؤكد المعطيات التاريخية حدة الصراع والتنافس بين مملكة غانة وسلطنة التكرور على مناجم الذهب والمسالك المؤدية إليه، وانعكس هذا التنافس على الجانب الديني أيضا، وهو ما نلمسه من خلال رغبة ملك غانة في الانتساب لآل البيت، واتخذ أمير (ملك) التكرور لقب "السلطان"، ما يعني تطور الإسلام في الجزء الغربي من بلاد السودان فيما بين عهد البكري وعهد الإدريسي، كما ستتطور خلال القرن 7ه/13م كما ذكره لنا ابن سعيد المغربي نقلا عن الجغرافي ابن فاطمة الذي زار المنطقة "وأما عصرنا (سنوات 670-685ه) فما على شاطئ النيل (نهر السنغال) من بلاد التكرور مدينة إلا وقد دخلها الإسلام وجميعها لسلطان التكرور"[2]، قوله هذا يعطي لنا صورة وكأن المنطقة الغربية لحوض السنغال صارت كلها تتبع التكرور، وفي نفس الوقت يشير إلى أن السلطنة كانت تتعرض لمحاولات انفصالية بسبب ضعفها كمحاولة انفصال مدينة بريسيا.

5- الجانب الإقتصادي:

اشتهرت منطقة التكرور بالصناعة والتعدين، وبالتالي كان هناك تبادل تجاري بينها وبين بلاد المغرب أو المناطق المجاورة، فقد كانت قريبة من بلدة أوليل المنجم الوحيد للملح في السودان والتي كانت تحت سيطرة قبيلة جدالة، ونظرا لشدة حاجة سكان السودان للملح، فقد مثل سلعة هامة وثمينة لا يمكن الاستغناء عنها، فكان الملح ينقل من أوليل إلى التكرور وسلا عن طريق القوارب حيث استغل التجار قربها من مصب نهرالسنغال، وبواسطة القوافل عبر الصحراء. ومن التكرور وسلا يصدر الملح إلى مملكة غانة وغيرها من مناطق السودان. وهكذا شارك تجار كثر من بلاد المغرب خاصة المغرب الأقصى في تجارة ملح أوليل، وبالأخص فيما يتعلق بنقله بالقوافل إلى بلاد التكرور ثم توزيعه إلى الجهات الأخرى، وذلك لقدرتهم الكبيرة على توفير وسيلة النقل الصحراوية ورؤوس الأموال[3].

وبالتالي أضفى هؤلاء التجار المغاربية الحيوية والرواج على تجارة مملكة التكرور بشكل عام وعلى حركة التبادل التجاري بينها وبين بلاد المغرب بشكل خاص، فقد ساهمت تجارة الملح في جلب كميات من الذهب إلى أسواق التكرور مما جعلها لا تتأثر بندرته في أراضيها. ومع توافره في أسواقها نشطت حركة التبادل التجاري بينها وبين بلاد المغرب، فساهم التجار كذلك في توريد الصوف والنحاس والصدف وسلع أخرى مغربية وصحراوية إلى أسواق المملكة. أما الصناعة الرئيسة في المملكة، فكانت حياكة الأقمشة القطنية، واشتهرت بحياكة نوع من الأزر تسمى الشكيات، وعملت المملكة على تصدير منسوجاتها إلى بلاد المغرب والواحات الصحراوية. كما برزت التكرور كمصدر هام للرقيق خاصة إلى أسواق المغرب الأقصى[4].

6- سقوط المملكة:

ظلت المملكة موجودة على الخريطة السياسية لبلاد السودان الغربي على الأقل حتى قيام مملكة مالي الاسلامية التي عملت على توحيد جل أراضي بلاد السودان تحت سلطتها خلال الثلث الأخير من القرن 7ه/13م،لأنه بعد القرن 8ه/14م تقل المعلومات

---

[1]- ابن سعيد المغربي، المصدر السابق، ص 92.

[2]- أحمد الشكري، المرجع السابق، ص ص 113-114.

[3]- سعود بن حمد الخثلان، المرجع السابق، ص ص 49-50

[4]- المرجع نفسه، ص 51

عنها، لأن المصادر العربية ستركز أكثر على مملكة مالي، وما تخبرنا به الروايات الشفوية هو استمرار وجود مملكة التكرور لكن دون الجزم باستقلالها التام عن مالي، وتذكر المصادر البرتغالية بتراجع قوة التكرور مع القرن 9هـ/15م، فقد ذكر **الرحالة كاداموستو** (Cadamasto) مملكة قائم على نهر السنغال تسمى **سينيقا** (senega) حيث يسكن شعب الولوف، أما التكرور ذكر بأنهم بلد محاذ لهذه المملكة باتجاه الشرق، ما يعني بأن التكرور فقدوا سيطرتهم على المناطق الغربية المحاذية للمحيط الأطلسي، والملاحظ أن الرحالة ذكر التكرور بدون نعتهم بالمملكة، مما يعني رصدهم كشعب دون نظام سياسي بل تحت سيطرة إدارة محلية قبلية، ونفس الحال بالنسبة لقبائل السيرير (Sérères) والبربسين (Barbacins) جنب المحيط الأطلس[1].

وشكل الولوف مملكة لا مركزية قوية[2]، أصبحت من بين أهم الممالك المسلمة بغرب القارة، وما بين القرنين 5-7هـ/11-13م زحف شعب على منطقة التكرور وأصبحوا يمثلون معظم سكانها، ومع ملكهم "نديا ديان نديايي" أسس الولوف مملكتهم وكانت معاصرة لمملكة مالي، لكن سرعان ما ضمها سنديانا كايتا لمملكته[3]، وانتشر الإسلام بين الولوف تدريجيا، وأصبح يمثل ثقافتهم الغالبة، ومثلوا بذلك حلقة وصل بين المغاربة والشعوب السودانية الأخرى، رغم أنهم أقل الشعوب الزنجية اختلاطا بالبيض على المستوى العرقي، لكن بفضل التجارة والمثاقفة جعلت من دولتهم دولة فاعلة في مد رقعة التأثير المغربي جنوبا.

ومع القرن 9هـ/15م سيطر الفلان على مجالات السنيغامبيا وتوسعوا في حوض السنغال بسبب قوتهم العسكرية، فاستغلوا ضعف مملكة مالي وانفصلوا عنها، كما حاربتهم مملكة صنغاي على عهدي سني علي (898-897هـ/1464-1492م) والأسكيا **محمد** التوري (898-934هـ/1493-1528م)، ومع ملكهم **تنيض ملك فُوت** تحول الفلان من مجتمع رعوي قبلي إلى مجتمع صاحب مشروع سياسي[4].

---

[1]- حسين بوبيدي، المرجع السابق، ص 5.

[2]- تأسست مملكة الولوف في حوض السنغال خلال القرن 7هـ/13م، قامت على الضفة اليسرى لحوض السنغال، وكانت في بدايتها تابعة للملكة مالي، قبل أن تستقل عنها بفضل ملكها "نديان ديان نديان" أحمد الذي جعل منها مملكة موحدة ممتدة الأطراف، وبلغت أوج مجدها في القرن هـ/15م. ينظر: عواطف دودي، عبد الكامل عطية، "مملكة الولوف بالسنغال ما بين القرنين الثالث عشر والتاسع عشر الميلاديين"، مجلة المواقف للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ، مجلد 17، عدد 1، جويلية 2021، ص 753.

[3]- شعباني نور الدين، "دور ملوك السودان الغربي والأوسط في نشر الإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء"، ص 50.

[4]- حسين بوبيدي، المرجع السابق، ص 6.

المحاضرة الخامسة: مملكة مالي الإسلامية (1230-1430م)

بعد تفكك إمبراطورية غانة الوثنية سنة 469هـ/1076م بسبب الجفاف وهجوم قبائل صو صو وجهاد المرابطين، وبعد هؤلاء انسحابهم من المنطقة وجد فراغ سياسي حكمت فيه قبائل الصوصو المنطقة، كما انفصلت بعض الأقاليم التابعة لغانة عنها وكونت دويلات مستقلة، فآل الأمر إلى قبائل الماندیجو المسلمة القاطنة في مقاطعة كانجابا بقيادة سندياتا كيتا الذي قضى على نفوذ قبائل الصوصو الوثنية، لتأسيس أول مملكة إفريقية إسلامية بالمنطقة. وتعتبر بالتالي أول تجربة إسلامية خاصة ظهرت على الساحة السياسية للسودان الغربي تطورت فيها الحضارة الإسلامية في الحياة السياسية والاقتصادية واجتماعية وثقافيا، تطور ملحوظا وسيصبح الدين الإسلامي الدين الرسمي لهذه المملكة.

1- التسمية والموقع الجغرافي:

تعريف مالي في المصادر العربية باسم "ملا" أو "ملى"[1]، وذكرت أول مرة عند البكري باسم بلاد "ملل"، وعند ابن بطوطة "مالي" حين زارها في 1344م حيث قال: «...ثم سرنا في كارسخو فوصلنا إلى منتصرة وهو على نحو عشرة أميال من مالي»، أما السعدي فذكرها "ملي"، والحسن الوزان يسميها "مالي"، ومحمود كعت "مل". ويقول القلقشندي: "مالي معروفة عند العامة ببلاد التكرور"، واشتهر ملكها باسم ملك التكرور، والصحيح أن التكرور هو أحد الأقاليم التي خضعت لسيادة مالي. ويقول محمد بن عمر التونسي في تقسيمه للممالك السودانية "ذلك أن القادم من المشرف إلى بلاد السودان أول مملكة أو إقليم يعرض له مملكة سنار...وبرنو السادس، ودقر السابع، ونفه الثامن، ودار تنبكتو التاسع، ودار ملا أو ملي العاشر وهي قاعدة ملك"[2]، تغطي مملكة مالي مساحة شاسعة ذهب تمتد شمالا إلى جنوب المغرب الأقصى، غربا إلى المحيط الأطلسي وشرقا إلى حدود مملكة البرنو، وحاليا تشمل مالي الحالية وأعالي السنغال الشرقي، وشمال فولتا العليا والبنين والجنوب الأقصى من جمهورية موريتانيا[3].

ويذكر ابن خلدون أن مملكة مالي شملت خمسة أقاليم كل منها مملكة بحد ذاته، وهي:

1- إقليم مالي يتوسط أقاليم المملكة.

---

[1]- محمد بن عمر التونسي، **تشحيذ الأذهان بصورة بلاد العرب والسودان**. تحقيق خليل محمود عساكر، مصطفى محمد مسعد، مراجعة محمد مصطفى زيادة، القاهرة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر، الدار المصرية للتأليف والترجمة، 1965م، ص 134.

[2]- التونسي، المصدر السابق، ص ص 132- 134.

[3]- مبروك الهادي الدالي، المرجع السابق، ص 50.

2- إقليم صوصو ويقع إلى الجنوب من إقليم مالي.

3- إقليم غانة يقع شمال إقليم مالي ويمتد حتى المحيط الأطلسي.

4- إقليم كوكو ويقع شرق إقليم مالى.

5- إقليم التكرور ويقع غرب مالى حول نهر السنغال وقاعدته مدينة التكرور[1].

من خلال عرض هذه الآراء نستنتج أن مملكة مالي كانت رقعة جغرافية مترامية الأطراف وذات مساحة شاسعة اختلف المؤرخون في تقديرها. إذن مملكة مالي امتدت من المحيط الأطلسي غربا إلى بلاد الكانم والبرنو والهاوسا، ومن الغابات الاستوائية في الجنوب إلى الصحراء الكبرى، فضلا عن الأقاليم الجديدة التي ضمتها.

خريطة مملكتي مالي وكانم نقلا عن أحمد الشكري

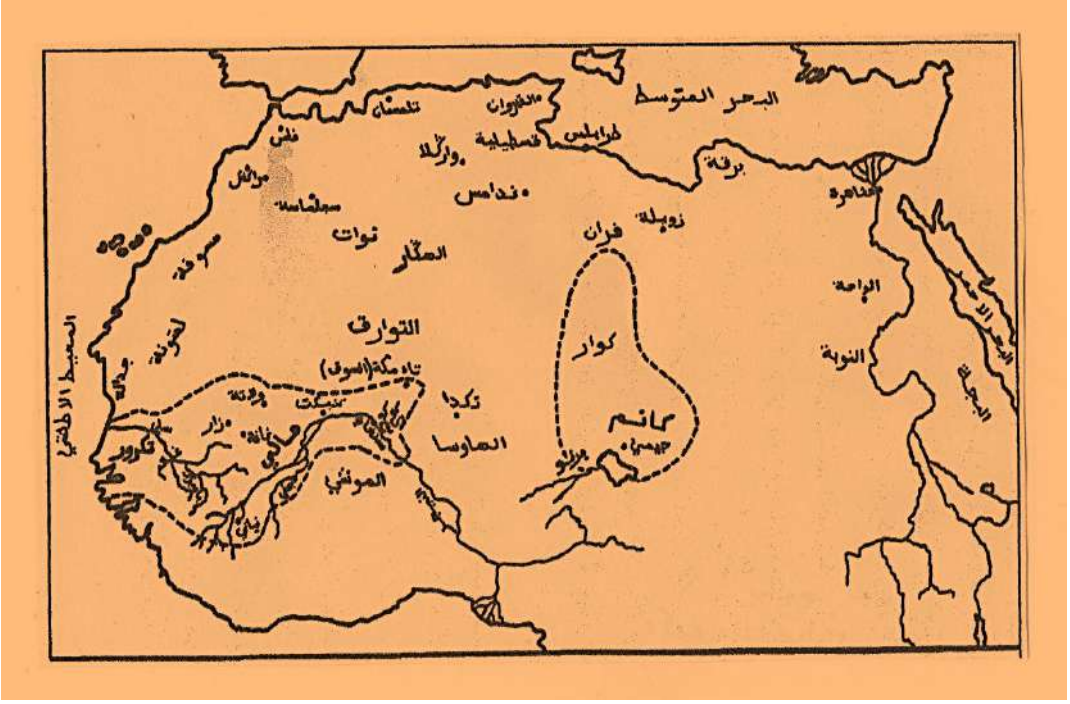

2- تأسيس المملكة:

ذكر السعدي بأن مؤسس السلطنة هم شعب زنجي أصيل، أما الباحث المالي **الحسن القنصي** (التطور التاريخي لمالي) أورد "أن هذه التسميات أخذ بها عدد من الشعوب، احتكوا بهذه القبائل فأطلقت قبائل الفلانيين والتكاره لفظ "**المالنك**"، وقبائل الموسي أعطتهم لفظ "ونغارة"، وكانت تقصد بذلك "الماندنج" خاصة فرعيه السوننكي والجولا"، وكلمة "**ماندي**" ما هي إلا اصطلاح لغوي أكثر منه جنسي يقصد به مجموع القبائل الناطقة بلغة الماند.

وتجمع الروايات التاريخية أنه بعد الفتح المرابطين لغانة 1076م تدهورت الحياة فيها لدرجة أن قبيلة صوصو التي كانت تدفع الضرائب لغانة أعلنت استقلالها، ثم حاولت السيطرة على بعض الأقاليم التابعة لها، ونجحت في ذلك، ونتيجة لهذا الاستيلاء نزح مسلمو غانة هربا من جور الملك الجديد، الذي شرع في محاولة شعب الماندينجو الذي كون عن طريق تجمع عشائره الصغيرة والمتعددة مملكة مالي[2].

---

[1]- ابن خلدون، المصدر السابق، ج 5، ص 415.

[2]- عطية مخزوم الفيتوري، المرجع السابق، ص 262.

ولا يعرف إلا القليل عن نشأة مملكة مالى ويتلخص ذلك في أنه نحو منتصف القرن الحادى عشر الميلادى تقريبا اعتنق ملوك الماندنجو فى كانجابا الإسلام، وأنشئوا دويلة صغيرة انفصلت عن مملكة غانة، وظفرت بنوع من الاستقلال الذاتى، مستغلة الصراع الذى نشب بين المرابطين ومملكة غانة، واستطاع ملوك كانجابا أن يوسعوا مملكتهم فى أوائل القرن 7هـ/13م فى اتجاه الجنوب والجنوب الشرقى، مما أثار حفيظة ملك صوصو سومانجورو الذى أخذ يعمل للسيطرة على مملكة كانجابا الناشئة وكادت جهوده تكلل بالنجاح، بعد أن استطاع القضاء على دولة غانة عام 600هـ/1203م فتغلب عليها[1]، فقد كان مستاءا من المكانة التي وصلها إقليم مالي ومن اتساع حدوده، فتآمر ضد مالي ولكن يبدو أنه حدث انشقاق في جبهة صوصو حيث نشب صراع بينه وبين ابن أخيه وقائد جيوشه، وكان هذا الصراع قويا جدا لدرجة أن الأخير انضم إلى جيوش سوندياتا(سونجاتا)، الذي تمكن من جمع جيش قوي من الماندينج، وقادهم في صراع مع صوصو سنة 1230م، وتمكن من الانتصار عليهم، وتوسيع حدود مملكته وهزيمة أميرهم سومانجورو في معركة كيرينا (Kirina) سنة 633هـ/1235م، وأخضع صوصو خمس سنوات تحت حمكه وضم ملكه إلى مملكته وفر ملكهم، فقام زعماء قبائل الماندينغ بتنصيب ماري جاطة كإمبراطور عليهم، وأثناء حفل تنصيبه خلع زعيم الماندينغ لباس الصيادين وظهر في المنصة الشرفية أمام الزعماء لتقبل آيات الولاء والطاعة، بلباس المؤمن (كندورة بيضاء) محاولا بذلك نموذج الخليفة المسلم القوي. وهكذا كان للإسلام دور جوهري في توحيد قبائل الماندينغ وغيرها من شعوب السودان الغربي[2].

ثم عمل على توسيع نفوذه شمالا فاستولى على البقية الباقية من مملكة غانة عام 638هـ/1240م، ثم اتجه إلى الأقاليم الجنوبية لمالي وفي صحبته نفر من أصحابه، واستولى على باقي دولة غانة. وفي خضم النجاحات العسكرية والسياسية لامبراطورية مالي الناشئة، تقول إحدى الروايات الشفوية، إن ماري جاطة أنشأ عاصمة جديدة لملكه، لكن أين توجد هذه العاصمة وما هو اسمها ؟ وهل هي العاصمة نفسها التي زارها ابن بطوطة وتحدث عنها قبله البكري والإدريسي ؟ وهل كانت لمالي عاصمة واحدة أم عدة عواصم ؟

أثارت هذه المسألة اهتمام الباحثين ونقاشاتهم وإلى الوقت الحالي لم يتمكن البحث التاريخي أو الأعمال الأركيولوجية من تقديم معطيات مقنعة، والرأي السائد أن مالي عرفت عدة عواصم فيما بين القرن 5-10هـ/11-16م، ويكاد يجمع الجميع على أن **نياني** تقع على أحد رافد نهر النيجر وهو رافد سانكراني (يقع جنوب نهر النيجر وشمال شرق غينيا حاليا) التي تحدث عنها العمري وزارها ابن بطوطة، شكلت عاصمة مالي طيلة القرنين 7-8هـ/13-14م بدلا من عاصمتها القديمة جارب. وقد غلب على سانديانا لقب "ماري جاطة" واشتهر به، وأعطى ابن خلدون تفسيرا لتسمية ماري جاطة، فماري يعنى الأمير الذي يكون من نسل السلطان، وجاطة معناها الأسد، والكلمتان تعنيان الأمير الأسد، وقد ذكره القلقشندى أيضا[3]، وبذلك يعتبر ماري جاطة المؤسس الحقيقي للمملكة.

2- الإسلام بمملكة مالي:

أورد البكري قصة إسلام أحد ملوك مالي كاملة، بقوله: "وملكهم يعرف بالمسلماني، وإنما سُمي بذلك لأن بلاده أجدبت عاما بعد عام فاستسقوا بقرابينهم من البقر حتى كادوا يفنونها...وكان عنده ضيف من المسلمين يقرأ القرآن ويعلم السنة، فشكا إليه الملك ما دهمهم من ذلك، فقال له: أيها الملك، لو آمنت بالله تعالى وأقررت بوحدانيته وبمحمد عليه الصلاة والسلام...، فلم يزل به حتى أسلم وأخلص نيته وأقرأه من كتاب الله ما تيسر عليه، وعلمه من الفرايض [كذا] والسنن ما لا يسع جهله...، فأمر الملك بكسر

[1]- حسين مؤنس، المرجع السابق، ص 373.

[2]- أحمد الشكري، المرجع السابق، ص 217.

[3]- ابن خلدون، **العبر**، ج 6، ص 413. القلقشندي، المصدر السابق، ص 292.

الدكاكير وإخراج السحرة من بلاده، وصح إسلامه وإسلام عقبه وخاصته وأهل مملكته مشركون وعرف باسم "المسلماني"، أما ابن خلدون ذكره باسم "برمندانة"، الذي أسلم على يد أحد الفقهاء الإباضيين منتصف القرن 5ه/11م، وينتمي لأسرة "**كايتا**" (Kéita) إحدى أشهر الأسر المالنكية في منطقة النيجر والسنغال الأعلى والتي أسست مملكة مالي الإسلامية[1].

وربما يكون إسلام هذا الملك قد تم على يد علماء المالكية الذين انتشروا في إفريقيا الغربية بعد قيام الدولة المرابطية، حيث اعتبرت سنة 1050م منعطفا تاريخيا تمثل في ظهور المذهب السني المالكي ذي النزعة الصارمة في تطبيق الدين الإسلامي، الذي عم الغرب الإسلامي ككل مع مجيء الحركة المرابطية بالصحراء الصنهاجية، والذي وصلت تعاليمه إلى غرب إفريقيا، وكان يطلق على دعاته اسم (توري) في مقابل الخوارج الذين كانوا يسمون بصغنغو، والدليل على انتشار المذهب المالكي بالمنطقة، إقرار منسي موسى إبّان رحلته لمصر أنه مالكي المذهب، واقتناؤه منها عدة مصادر وبعض الكتب في الفقه المالكي[2].

3- ملوك مالي:

لم تكن "**أسرة كايتا**" هي الأولى التي حكمت مالي بل سبقتها أسر عديدة مثل أسرة "**باكابوكُو**" وأسرة "**كوفاتي**" وغيرها من الأسر الحاكمة قبل انتشار الإسلام بمالي، والتي حكمتها وهي إقليم تابع لمملكة غانة. وأسرة كايتا هي التي ينتمي إليها سندياتا (627-652ه/1230-1255م) الذي يعتبر المؤسس الفعلي للمملكة للأسباب الآتية:

- وطد أركان دولته الناشئة، وهو الذي كان يتولى بنفسه قيادة الخيالة التى كانت مسلحة بالسيوف فى الوقت الذي كان فيه جيش المشاه مسلحا بالفؤوس والسهام والحراب الطويلة (طامبا) التى تبعث الرعب فى قلوب الأعداء.

- اعتنى بالجوانب الإدارية فقسم مملكته إلى أقاليم[3]، كما وضع دستورا حدد فيه قواعد العرف والمحرمات التي لا يزال أثرها باق حتى الآن في تنظيم العلاقات بين العشائر المختلفة.

- اعتنى بالزراعة فكان أول من أدخل زراعة القطن بها، فكانت مملكته مزدهرة اقتصاديا.

- اهتم بتوسيع رقعة مملكته الفتية خلال خمسة عشر سنة التي بقيت من حكمه، فواصل جنوده بعد سنة 1240م (لأنه بعد هذه السنة لم يشارك سوندياتا في معارك حربية) عمليات الفتح والغزو بعد قضائه على الصوصو الوثنيين حتى تخطوا حدود بلاده، واستولوا على مناطق مهمة فسيطروا على مناجم الذهب بجانجران وبامبوك وبوندي واتجوا نحو الجنوب متوغلين نحو مناطق لم يسبق غزوها فوصلوا نهر غامبيا وبلاد التكرور والولوف[4].

- اجتماعيا نظم مملكته على أساس طبقات القبائل المتحالفة معه، فبلغ عدد الطبقات ثلاثين منها خمس طبقات للصناع اليدويين وأربع طبقات للمحاربين وخمس طبقات للعلماء وستة عشر طبقة من الرجال والنساء الأحرار الذين أطلق عليهم مع ذلك اسم "عبيد المجتمع" وهذه الطبقة هى طبقة الفلاحين والعمال الذين يأخذ الجيش منهم حاجته من المشاة فى وقت الحرب

[1]- شعباني نور الدين، "دور ملوك السودان الغربي والأوسط في نشر الإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء"، ص 50.

[2]- الحسين حديدي، المرجع السابق، ص 25.

[3]- مبروك الهادي الدالي، المرجع السابق، ص 32.

[4]- عطية مخزوم الفيتوري، المرجع السابق، ص 274.

حكم الملك سندياتا كايتا مدة 25 سنة إلى أن توفي سنة 652هـ/1255م ولا يعرف سبب وفاته[1]، وترك وراءه إمبراطورية متسعة استمر خلفاؤه في توطيد أركانها وتوسيع حدودها، وقد امتدت مرحلة التأسيس إلى نهاية القرن 7هـ/13م، تعاقب خلالها على الحكم سبعة ملوك، كان أولهم ابنه "منسى ولي" (652-669هـ)(1255-1270م) -"وُلي" يعني "علي"[2]-

وبتولي منسى وُلي الحكم تكون مالي قد قطعت صلتها بالتقليد السياسي الوثني، الذي يجعل من ابن أخت الملك المرشح الوحيد لخلافة الملك بعد وفاته. وقد تابع فتوحات والده في الجنوب وسيطر على بلاد الونجرا الغنية بالذهب، كما يعتقد مونتي (Monteil) أنه في عهده بد أنفوذ مالي يمتد نحو إمارة سنغاي (كوكو)[3]، كما شهدت المملكة في عهده اتجاها الى اللامركزية بعدما أقطع الأراضي لكبار القواد وفي مقدمتهم" افران" و"كمر" و"سيريمان كايطا"، كما أنه سار على نهج والده، فاعتمد على قادة أبيه ومستشاريه الذين شدوا من أزره وساعدوه في حركة التوسع. كما اشتهر بالتقوى والميل إلى العبادة، وقام بأداء فريضة الحج في أواخر حياته في عهد السلطان المملوكي الظاهر بيبرس الذي حكم مصر سنوات (658-678هـ/1260-1277م)، وكان لها صدى كبير جدا خلال مرور المنسى أولي بمصر لأنه وزع مالا كثيرا على الناس في ذهابه وإيابه، وكلل هذا بعقد سلم مع الملك الظاهر بيبرس الذي أكرمه وفادته وأحسن استقباله ولما رجع إلى بلاده عظم شأنه ووسع ملكه إلى ونغارة[4].

ثم حكم بعده سبع ملوك ضعاف ما بين 669-707هـ/1270-1307م، أولهم أخوه **منسى خليفة** والذي غلبت عليه الحماقة، فقد روى القلقشندي بأنه كان يرمي الناس بالسهام فيقتلهم، فنقم عليه الناس فقتلوه، ثم حكم بعده ملوك آخرين لم يشتهر منهم إلا **الملك ساكورة** (684-700هـ/1285-1300م) وهو من موالي الأسرة الحاكمة، وقدر له أن ينقذ الإمبراطورية من الانهيار الذي كاد يعصف بها بسبب المؤامرات والدسائس التي كانت تحاك، لذا استولى على الحكم وواصل فتوحاته لتوسيع حدود المملكة حيث غزا التكرور وافتتح بلاد كوكو وضمها لملك مالي وسيطر على وانغارة وجاو، فارتحل التجار من المغرب وإفريقية إلى بلاده، وحج أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون وفي طريق عودته قتل، ولم تصل جثته إلى المالي، وبنهاية حكمه انتقل الحكم من أولاد سندياتا إلى أولاد إخوته أبي بكر.

ارتقى العرش **أبو بكر الثاني** سنة 1307م اشتهر بمحاولاته لاكتشاف المحيط الأطلسي وهذه المحاولة كانت سابقة لمحاولة كرستوف كولومب (Christoph Colomb) بنحو قرنين بعث أسطولا ضخم لم يعد منه سفينة صغيرة وبعض من رجالها الذين تأكدوا أنهم قابلو بعد جولة طويلة تيارا عنيفا في داخل المحيط الأطلسي ابتلع جميع وحدات الأسطول، ولم يثل هذا الفشل من عزيمة أبو بكر الثاني وأعاد الكرة مرة ثانية وتولى بنفسه القيادة، ولم تكن هذه الرحلة أوفر من سابقتها حيث غرق الملك بأسطوله، ويرجع سبب فشل الحملتين إلى التجهيز التقني المحدود جدا للسفن فلم يستطع مقاومة تيارات المحيط الأطلسي[5].

---

[1]- تضاربت الروايات الشفوية حول موته، البعض منها قال بأنه مات مقتولا في إحدى الحفلات بسهم طائش وعن غير قصد، والبعض الآخر يرى بأنه مات غرقا في مياه نهر سنكراني في ظروف غامضة. ينظر: زوليخة بنرمضان، المرجع السابق، ص 274.

[2]- عرف ملوك مالي بلقب "منسى" وسونديانا أول من عرف به، وأصل اللقب كما يبدو من خلال الروايات الشفوية أن رؤساء العشائر المتحالفة قرروا أثناء الجمع العام الذي انعقد بعد معركة كرينا سنة 1235م في كورو كان فوغان بالقرب من كانجابا، إطلاق اسم "منسى" على سونديانا ويعني الحاكم أو القائد الأعلى أو الامبراطور، وهو مشتق من لغة الماند. أما الملوك الذين سبقوه فعرفوا بألقاب وثنية تعكس مفهوم الشجاعة والقوة مثل "سمبون" (Simbon). ينظر: بنرمضان زوليخة، المرجع السابق، ص ص 178-179.

[3]- الشكري أحمد، المرجع السابق، ص 219.

[4]- المقريزي تقي الدين أحمد بن علي، **الذهب المسبوك في من حج من الخلفاء والملوك**. تحقيق تعليق جمال الدين الشيال، بورسعيد، مكتبة الثقافة الدينية، ط1، 1420هـ/2000م، ص 140.

[5]- إسماعيل العربي، **الصحراء الكبرى**، ص 302.

ثم تولى الحكم من بعده منسى موسى **(712-737هـ/1312-1337م)** الذي يعتبر من بين أقوى وأشهر ملوك المملكة، عمل على استقرار البلاد لأنه وجدها في حالة من الفوضى إثر مقتل **ساكورة** وتولي ملوك ضعاف أمر البلاد، مما سبب حالة من الفوضى السياسية والاقتصادية، وتمرد بعض أمراء المقاطعات وانفصالهم، لذا عمل على تنظيم الأمن وتوطيد علاقاته مع جيرانه من المغرب الإسلامي، وقد وصفه ابن خلدون: "...رجل صالح وملك عظيم له في العدل أخبار تؤثر عنه"[1]، كما ذكر السعدي بأنه: "...صالح عادل لم يكن مثله في الصلاح والعدل"، وأورد ابن بطوطة هو الآخر مآثر سلطان منسه موسى الذي عرف بالعطف والسخاء والكرم وبتبجيل العلماء وجزل عطاياهم. واشتهر أيضا بكنية أخرى هي "كنكه موسى"، "ومنسه" في لغة السودان تعني "ملك"، و"موسى" اسمه، أما لقبه كنكه موسى "فكنكه" أمه وهو ما تدرج عليه أهل السودان الغربي من نسب الابن إلى الأم، ومنهم من يرى أن كنكه موسى تعني الحاكم موسى[1]. ومن العلماء الذين حظوا باهتمام المنسا موسى العالم أبو إسحاق الساحلي (السهلي) من أهل غرناطة ببلاد الأندلس، الذي يرجع إليه الفضل في إدخال فن البناء بالآجر في السودان الغربي، فقد بنى مسجدا عظيما بغاو وتمبكتو، وبنى قصرل لمنسا موسى، وعن كرم هذا الملك مع أبي إسحاق أن أعطاه أربعة ألاف مثقال من الذهب في اليوم الواحد[2].

صورة للمنسا موسى كما تخيله أحد الرسامين

وما تذكره الروايات عن منسى موسى أنه كان يبني مسجدا في كل مدينة يدرك فيها الجمعة ورحلة حجه كانت سنة 724هـ/1324م، استغرق تجهيز هذه الرحلة مدة خمس سنوات، ورحلة الحج هذه زادت من شهرته وذاع صيته بسبب الأبهة ومظاهر الفخامة التي صاحبت هذه الرحلة حمل معه من الذهب الكثير بلغ عدد العبيد سبعمائة ألف رجل وخمسمائة عبد وبيد كل واحد منهم عصى من الذهب. ووصف ابن خلدون قافلته، قائلا: "بأنها كانت تتألف من ثمانية حملا من التبر وكل حمل يزن ثلاث قناطير، وأنه صحب معه خمسمائة خادم في حلل المشاة بالذهب يحمل كل منهم عصى تزن أرطال من الذهب". وعندما وصل إلى القاهرة أرسل إلى الخزانة السلطانية هدية عبارة عن حمل من التبر بل إنه وزع على كل أمير ورب وظيفة سلطانية مقدار من التبر، ومثل بعدها بين يدي السلطان الناصر قلاوون ورفض أن يسجد أمامه وقال له: "بأنه مالكي المذهب لا يسجد لغير الله" فعفي من ذلك[3].

كان لرحلة حجه نصيب وافر من كتابات المؤرخين في ذلك العصر وبعدها من زمن طويل وبالغ الكثيرون في وصفها في حين يعلق بازل دافسن على رحلة الحج ويقول: "لم يصعب على من أتيح له أن يشاهد بعض الزعماء الإفريقيين هذه الأيام -يقصد حاليا-

[1]- الهادي المبروك الدالي، المرجع السابق، ص 57.

[2]- ابن بطوطة، المصدر السابق ، ص ص 787- 788.

[3]- المقريزي، **الذهب السبوك**، ص ص 141-142.

أن يصدق مثل هذه الرواية فالواحد منهم يحمل عصى تلمع من الذهب...وتتبعه فئات أخرى يحملها إتباعه"[1]. تأخر المنسا موسى بعد موسم الحج بوقت قليل اغتنم فيه فرصة تواجده بمكة المكرمة لشراء كميات كبيرة من الكتب الدينية المتعلقة بالفقه المالكي رغبة منه في تثقيف أهل مملكته في أمور الدين[2].

ومن نتائج رحلة الحج هذه على تاريخ السودان الغربي في فتراته اللاحقة أنها فتحت باب العلاقات الخارجية بمصر والمغرب والبرتغال والمدن التجارية بإيطاليا بشكل مباشر مع مملكة مالي، وارتبطت بعلاقات دبلوماسية مع سلاطين مصر، واستفاد من هذه العلاقات منسه موسى فأرسل البعثات العلمية والطلابية إلى مصر وفاس[3]، واستطاع أحد قواده أن يفتح ولاته، وتمبكتو وجاو ويقدمها له كهدية عند وصوله إلى مالي. فاتسعت رقعة المملكة في عهده غربا من بلاد التكرور إلى دندي شرقا، ومن ولاتة في الصحراء إلى مرتفعات فوتا جالون جنوبا ولم ينج منه إلا مدينة جني ومملكة الموسي الوثنية. ولدى عودته من الحج سمع بخبر استقلال إقليم سنغاي عن حاضرة الدولة فاتجه إلى جاو حاضرة سنغاي فاستقبله صاحبها بالولاء والطاعة. وازدهرت البلاد في عهده فوجه جيوشه صوب الجنوب إلى فوتا جالون، ومنها تحرك إلى مناجم الملح في تغازة والنحاس بتكدة، ولكن المنية عاجلته سنة **736هـ/1337م** بعد أن حكم مدة خمس وعشرين سنة.

أقصى اتساع لمملكة مالي على عهد المنسا موسى

منسى سليمان بن أبي بكر شقيق منسى موسى (741-761هـ/1341-1360م)، في عهده بلغت مالي قمة ازدهارها وأوج عظمتها، وفي عهده وصل ابن بطوطة إلى مملكة مالي في رحلته المشهورة، وصفه ابن بطوطة في بادئ الأمر بأنه رجل بخيل لم يكرمه ولم يحسن ضيافته خلال زيارته لمالي، ولكن بعد أن طالت إقامته شهرين آخرين أدرك أنه تسرع بالحكم عليه، ففي ليلة القدر المباركة أخرج

[1]- بازل دفنسن، المرجع السابق، ص 160.

[2]- عبد الرحمان عمر الماحي، المجع السابق، ص 90.

[3]- عطية مخزوم الفيتوري، المرجع السابق، ص 277.

الصدقات ووزعها على العلماء والفقهاء وكان لابن بطوطة نصيب فيها. ولخص لنا القلقشندي أعمال منسى سليمان في قوله: "حافظ المنسى على حدود الإمبراطورية كما تركها له أخوه موسى، وشيد المساجد والمدارس، واستقدم الفقهاء المالكيين حرصا منه على التفقه في الدين، كما حرص على أداء الصلوات بخاصة صلاة الجمعة التي كان لها تقديس عندهم".

وحج منسى سليمان كغيره وعرف لدى أهل مصر بملك التكرور، وبعد وفاته خلفه ابنه **الملك قنبتا (تبنتا) (771-772هـ/1360-1361م)** حكم تسعة أشهر وكان ضعيفا، فخلفه **ماري جاطه الثاني (سونديانا الثاني) (762-776هـ/1360-1374م)**، فكان حمكه استبداديا دام لأربعة عشر سنة، كما عرف بالملك الأهوج المبذر، إذ أنهك خزائن بلاده بمصاريفه الزائدة طيلة سنوات حكمه. وبعد وفاته بعلة النوم[1] خلفه ابنه منسى موسى الثاني (1374-1387م) الذي كان تقيا عادلا منصفا لم يقتف أثر والده، لكن السلطة الفعلية كانت بيد أحد وزراءه الذي سيرها بحزم وتدبير، وأعاد تنظيم الجيش، وقاد عدة حملات إلى البلاد المجاورة مخترقا حدود كوكو، وفي عهد موسى الثاني كانت بداية هجوم الطوارق على تمبكت.

ثم حكم مكانه أخوه **منسى مغا الثاني (1387-1388م)** قتل بعد سنة من توليه الحكم بسبب الفتن التي أصبحت عليها المملكة، فحكم مكانه زوج أم موسى الثاني **الملك صندكي** وأطيح به بعد بضعة أشهر **(1388-1390م)** وكان هو الآخر ضعيف الشخصية. ثم استولى على الحكم أحد أحفاد سونديانا الأول على الحكم وهو **منسى مغا ماغان الثالث** الذي استولى على الحكم سنة 1390م، حيث بدأت على يديه سلالة كايتا الجديدة واستمرت في الحكم حتى مجيء الاستعمار الفرنسي.وحكم من بعده ثلاثة ملوك ضعاف لم يكن لهم ذكر، كان أولهم ملك يدعى **الملك محمد** عاش لغاية سنة 1481م، في عهده أصبحت مملكة مالي تابعة لإمبراطورية سنغاي ابتداء من سنة **869هـ/1464م** التي أسسها الملك سني علي[2].

4- مظاهر الحضارة الإسلامية في مملكة مالي:

أ- التنظيم السياسي والإداري:

تمتعت مملكة مالي برقعة جغرافية شاسعة ونظام حكم ملكي وراثي، وفي غالب الأحيان لا يقتصر نظام تولي العرش على أبناء الملك فقط بل حتى إخوة الملك، وهناك أمثلة عديدة ولى الملك فيها أبناء أخته أو بنات البنت، هذا ما أكده القلقشندي بقوله: "على قاعدة العجم في تمليك البنت و ابن البنت". وفي بعض الأحيان انتقل الحكم من الأسرة الحاكمة إلى يد رجل خارج عن الأسرة وهو ما نجده متمثلا في الملك ساكورة الذي لم يكن من الأسرة الحاكمة. أما مجلس الملوك من أسرة كايتا فكان الملك يعقد اجتماعاته تارة في قاعة مخصصة لذلك بناها منسى موسى بعد عودته من الديار المشرقية وأسند بنائها المهندس الشاعر أبو إسحاق الساحلي الملقب بـ"الطويجن"، وأحيانا تعقد في فناء القصر[3]. ووصف لنا ابن بطوطة جلسات الملك، فالإعلان عن جلوسه كان يتم برفع ستائر القبة وبتعليق منديل مصري مرقوم، وبرؤية المنديل تضرب الطبول والأبواق، ثم يخرج من باب القصر نحو ثلاثمائة عبد يحمل بعضهم القسي والبعض الآخر الرماح الصغيرة والدرق، فيحتل النائب قنجا موسى المقام الأول في اجتماعات الملك، ثم يأتي بعده "الفرارية" أو الأمراء، ويكون هؤلاء مصحوبين برجالهم من حاملي الرماح والقسي والطبول والأبواق، ويأتي في مرتبة ثالثة الفقهاء والأشراف، أما الأجناد والولاة والفتيان وأشراف مسوفة وغيرهم، فيجلسون خارج المشور في شارع تظلله الأشجار. وما تجب الإشارة

---

[1]- **علة النوم**: هو مرض كثيرا ما يصيب ساكني المناطق الحارة حتى أن الانسان لا يكاد يفيق من النوم، وهو ما أصاب منسى سونديانا الثاني لمدة سنتين إلى أن توفي سنة 1374م. ينظر: المرجع نفسه، ص 280.

[2]- أحمد الشكري، المرجع السابق، ص 221.

[3]- زوليخة بنرمضان، المرجع السابق، ص 201.

إليه أن الإسلام لم يؤثر كثيرا على تقاليد مالي بالخصوص رغم انفتاحها على الإسلام منذ وقت مبكر، وما أخذت من شعوب بلادي المغرب والمشرقكا ضئيلا جدا، وهو عكس ما سنلحظه في مملكة صنغاي خاصة في فترة حكم الأساكي.

واتبعت المملكة في نظام حكمها نهج بعض الممالك الإسلامية المعاصرة إذ استند نظام الحكم بالدرجة الأولى إلى الملك، وكان له نوعين من النواب، الأول بالمجلس الملكي يسمى على عهد منسى "كنكغو سجي" (Kankoro sigui) ويسمى "قنجا" في فترة حكم منسى سليمان، أما النوع الثاني يمثله نواب الملك في الأقاليم كسلطة عليا فوق سلطة الولاة أو الملوك المحليين (مثل أقاليم غامبيا) ويسمى "فرن" (Faren) أي هو نائب الملك في إدارة هذه الأقاليم البعيدة. كما وجدت عدة دواوين متباينة الاختصاصات يديرها كبار موظفي الدولة، كما كان للملك موظفون يسيرون الدواوين التي تتم كتابتها باللغة العربية بالخط المغربي[1]. وعادة ما أسندت مهام الوزارات إلى عرب شمال إفريقيا المقيمين هناك، فأسندت إليهم مهام الخزانة والقضاء والترجمة وكتاب الملك والاستشارة، وقد أسند الملك منسى موسى منصب الاستشارة إلى المهندس الليبي عبد الله الكومي الموحدي الغدامسي، ومن بين الوزارات الرئيسة لدى المملكة: وزارة الثقافة، والأملاك، وشؤون مياه النيجر، وملاحة النيجر، الملاحة النهرية، والصيد، والغابات والجزية[2].

وبالنسبة للأقاليم فهي نوعان:

النوع الأول: وهو الأقاليم التي كانت تحت السلطة المباشرة لإدارة المنسى وتشمل الأقاليم الي تم إخضاعها عنوة كمملكة صوصو، عين فيها مثل عن المنسى.

النوع الثاني كان يضم جميع الممالك الحليفة لسونديانا في معركة كرينا، أين حافظ أصحاب الممالك المتحالفة على حكمهم، كعشائر كوناري (Konaré) في تورون (Toron)، وعشائر تراوري (Traoré) في سيبي (Sibi) وغيرهم من العشائر.

كما وجدت أقاليم أخرى نتيجة سياسة الفتوحات لحكام مالي، وهي الأقاليم الشمالية الشرقية (ولاتة عاصمة الطوارق المسوفيين) والأقاليم الشمالية الغربية (الأقاليم السنغالية الغامبية) أين كان يعين إلى جانب الحاكم المحلي (الفربا) مفتش أو مراقب "منشاجو" من عبيد القصر ليراقب الأوضاع وتحركات الحاكم المحلي وحركات التجار الوافدين، وكان للحكام المحليين صلاحية التسيير الإداري المدني والعسكري في أقاليمهم، وفي الأقاليم الشمالية الغربية نائب الملك بها المسمى "فوروسانجول" (Forosangole) مهمته مراقبة الملوك المحليين على طول نهر غامبيا فالمسافة الفاصلة بين إمارة وأخرى لم تكن تتجاوز عشرين ميلا[3].

أطلقت مجموعة من المصطلحات على التنظيمات الإدارية للمملكة وأقاليمها، القرية يطلقون عليها اسم "**دوجو**" (Duju)، ثم تأتي في المرتبة الثانية المدينة التي تتألف من مجموعة قرى يطلق عليها "**كافو**" (Kafo)، ومجموعة من المدن تسمى "**دياما نا**" بمعنى الولاية أو المملكة، وعلى ما يبدو أن هذا التنظيم ما زال محافظا على التنظيم القبلي الذي كانت عليه شعوب الماندنجو. وحاكم الولاية يسمى "**كي**" (Koi) بمعنى الملك تابع للسلطان وهو أرفع لقب[4]، أما المتحكم في الولاية فهو "**الفربة**" (Farba) يأتي بعد "الكي" مباشرة وأحيانا يحكم نيابة عنه.

---

[1]- القلشندي، المصدر السابق، ج 5، ص 698.

[2]- الهادي المبروك الدالي المرجع السابق، ص67.

[3]- زوليخة بنرمضان، المرجع السابق، ص ص 216-220.

[4]- السعدي، المصدر السابق، ص8.

إن الإدارة وأنظمة الحكم تكاد تكون متشابهة في مختلف الممالك الإسلامية في غرب القارة، خاصة بعد انتشار الإسلام بها،حيث أخذت جميعها بالنظم الإدارية المعمول بها في المناطق الإسلامية، فكانت مالي تدار من قصر الملك، الذي كان يجلس في قصره وإلى جانبه الخطيب والفقهاء والأمراء، ومن أراد مكالمته عليه أن يتقدم إلى رجل مميز ويسر إليه بما يريد أن يقوله، فيتقدم الأخير بدوره إلى رجل آخر ينقل الحديث بدوره إلى السلطان. وقدم لنا القلقشندي معلومات مختصرة عن الأنظمة الإدارية بالمملكة حيث قال: "كان يوجد بها الوزراء والكتاب والقضاة والدواوين، وهي أنظمة إسلامية عرفت في مختلف البلاد الإسلامية الأخرى حيث كان السلطان يعتمد عليها في تسيير شؤون المملكة، حيث أنه لم يكن يكتب شيئا بل يوكل هذا الأمر إلى صاحب وظيفته وأن كتابتهم كانت بالخط المغربي".

وكانت الوظائف الكبرى موزعة على كبار زعماء القبائل، وليست هناك معلومات عن هذه الأنظمة الإدارية ما عدا القضاء، فقد كان لمملكة مالي مؤسسات تعمل على تسيير أمور المملكة يأتي في مقدمتها نظام القضاء الذي كان قائما على الشريعة الإسلامية، وكانت مكانة القاضي عظيمة عادة ما تولى هذا المنصب في بداية انتشار الاسلام قضاة مغاربة. والقضاة نوعان: قاضي العاصمة والقاضي الأعلى وقضاة آخرون يمارسون مهمة القضاء خارج العاصمة، وقاضي العاصمة بدوره أرفع من قرينه فهو مستشار الملك[1]. وأفادنا ابن بطوطة عن هذا الموضوع خلال زيارته لمدينة تكدة بقوله: "...وفي أيام إقامتي بها توجه القاضي أبو إبراهيم والخطيب محمد والمدرس أبو حفص والشيخ سعيد بن علي إلى سلطان تكدة وهو يسمى إزار وكان على مسيرة يوم منها وقعت بينه وبين التكروري وهو من السلاطين العرب المغاربة أيضا منازعة فذهبوا للإصلاح بينهما".

وبالنسبة للجيش تكونت نواته مع سونديانا كايتا أثناء محاربته للصوصو، فشكل عدة فرق على رأس كل منها رئيس من أتباعه المخلصين، وتولى هو وظيفة القائد الأعلى للجيش، وقيادة الفرسان المسلحين بالسيوف، أما فرقة المشاة كانت تستخدم السهام والرماح الطويلة. وكان تعداد الجيش مائة ألف، عشرة آلاف مقاتل والباقي كانوا من الرحالة. ويبدو أن الجيش المالي كان قويا لدرجة أن بعض أمراء المغاربة المخلوعين ارسلوا سفارات لبلاط المنسى موسى لمساعدتهم على استعادت عروشهم الضائعة. كما عمل الجيش على حماية المملكة وتوسيع حدودها[2].

ووطدت مملكة مالي الإسلامية علاقاتها الخارجية مع جيرانها خاصة مع المغرب الأقصى وبالأخص في عهد السلطان المريني أبو الحسن بن عثمان المريني (732-752هـ/1331-1351م) والسلطان منسى موسى، تبادلت رسائل المؤازرة والتهنئة في عدة مناسبات بينهما، فقد ذكر ابن خلدون أنه حينما توفي منسى موسى حزن السلطان المريني على وفاته، فبعث وفدا برئاسة الديوان محملا بأصناف الهدايا من خزائن دار السلطان.

ب- الحياة الاجتماعية:

كان لانتشار الإسلام في مالي أثر كبير على حياة السكان الاجتماعية والثقافية، ولكن هذا التأثير لم يكن سهلا ولم يحدث سريعا، بسبب الرواسب والتقاليد والأعراف الاجتماعية الموروثة جيلا بعد جيل، وهناك أمور خاصة موضوع التعاملات بين الأفراد خاصة اليومية منها غيرها الاسلام كالقضاء على ظاهرة الربا والغش في الكيل وأكل أموال الناس بالباطل وغيرها من المعاملات.

أما عن العادات والتقاليد التي استمرت حتى بعد انتشار الإسلام فهي أمور تتعلق بتصرفات الأفراد تجاه بعضهم البعض، أو تجاه الحاكم أو زعيم القبيلة، كعادة رمي التراب على أنفسهم أمام السلطان كانت متأصلة فيهم، كما لاحظ ابن بطوطة أثناء

[1]- الهادي المبروك الدالي، المرجع السابق، ص 71.

[2]- عطية مخزوم الفيتوري، المرجع السابق، ص ص 282-283.

إقامته بعض الأشياء منها أن الخدم والجواري والبنات الصغار لا يستترن أمام الناس، وهو على النقيض من عناية الماليين بأمور دينهم ومحافظتهم على الصلاة خاصة صلاة الجمعة وحفظ القرآن.

ومن رواسب الماضي أيضا انتشار ظاهرة السحر إذ تعاظم نفوذ السحرة بمالي، وسيطروا على عقول البسطاء منهم، وكانوا الفئة الأكثر حضورا في الأوساط الحاكمة باعتبارهم ذاكرة ذلك المحيط وحفظة أسراره. وقد شكلوا مجلسا استشاريا حقيقيا في بلاط الماندينغ، حافظوا من خلاله على البنيات التقليدية للمملكة. وشكل سحرة القصر بالخصوص فئة مرتبطة بشخص الملك وآل بيته، ومن بين أبناء الساحر الخاص بالملك كان يتم انتقاء رفيق الأمير المرشح للولاية وملازمها أجزلي. فقد اختار ناري فا ماجان (Naré Fa Maghan) لابنه الأمير المرشح لولاية العهد سونديانا الساحر بلا فاسيكي (Balla Fasséké) كملازم ورفيق وأستاذ ومرشد. كما كان الساحر في الماندينجو ممثل الملك الشخصي أيضا لدى الممالك المجاورة. وحتى بعد انتشار الاسلام وجد السحرة في بلاط الملوك الذين عرف عنهم تشبتهم بالإسلام وسعيهم لنشره، فقد ذكر العمري بأن أوامر منسى موسى كانت تصل شفاهيا إلى الرعية عن طريق السحرة إذ لم يوجد شيئ مكتوب، وعاين ابن بطوطة في بلاط منسى سليمان زعيم السحرة "دوغا" وهو يتغني بين يدي الملك بأمجاد الأسرة الحاكمة.

وهذا دليل على مدى تأثير السحرة على الطبقة الحاكمة وعلى الرعية، وتؤكد الروايات الشفوية من جانبها هذا الدور الذي لعبه سحرة الماندينغ كوسيط رسمي بين الملك والرعية في تبليغ أوامره ونواهيه، فالترجمان دوغا المشار إليه في نصوص ابن بطوطة، لن يعدو أن يكون سوى زعيم وأكبر سحرة الأسرة المالكة سنا، هؤلاء السحرة الذين خولت لهم التقاليد امتياز ملازمة الملوك في حالة السلم والحرب والحفاظ على أسرارهم[1].

كان المجتمع في مملكة مالي عبارة عن أسر وعشائر وقبائل يقطنون قرى وأقاليم، مارسوا حياتهم وفق أعراف وأنماط معينة اعتادوها منذ القدم وكان يهيمن عليه نظام الطبقات يلتزم افرد كل طبقة بطقوس وأعراف معينة لا يخرجون عنها[2]، وقسم عدد من المؤرخين مجتمع مملكة مالي إلى:

طبقة الملك و أفراد أسرته: تتبع هذه الطبقة نظام خاص في الطريقة الحياة وفي زيهم المميز، فالملك يرتدي السراويل الواسعة، طولها ويركب الجياد العربية الأصيلة التي تجلب من شمال إفريقيا.

طبقة الفرسان: تتكون هذه من الفرسان المهرة في ركوب الخيل الشجعان أيام الحرب.

الطبقة العامة: تمثل أغلب مجتمع مالي وهي الطبقة العرضية من طبقات الشعب تختلف عن باقي الطبقات الأخرى في طريقة عيشها أو زيها الذي يشبه الزي العربي المغربي.

طبقة العبيد: هي الطبقة التي تخدم بتفاني طلبا السادة وتلبي رغباتهم من الطبقات الأولى.

ج- الحياة الثقافية:

كان التعليم باللغة العربية في المدارس الإسلامية والكتاتيب القرآنية والمعاهد، ففي كل قرية أو حي من الأحياء المدن الكبيرة أدى وجودها إلى ربط المنطقة بشمال القارة الإفريقية، فأصبحت الثقافة العربية الإسلامية هي أساس المعاملات تجارية والتعليم

[1]- زوليخة بنرمضان، المرجع السابق، ص 208، 226-228

[2]- نعيم قداح، المرجع السابق، ص 98.

وغيرها وهكذا أصبح من نتائج دخول الإسلام إلى المنطقة بروز المراكز الثقافية التي من أشهرها تمبكتو[1] بحكم موقعها الاستراتيجي الممتاز حيث تتلقى الطرق التجارية من جهة وتطل على نهر النيجر من جهة أخرى[2]، فكانت بذلك مهدا ثقافيا وهمزة وصل بين السودان الغربي والعالم الإسلامي، فجامعتها التي كانت منفتحة على العالم ظلت محطة رجال العلم من المغرب الإسلامي ومصر، وبلغت بالعلم نفس الدرجة التي بلغتها به جامعات العالم الإسلامي وتم التعليم بهذه الجامعة في نفس المستوى الذي بلغته جامعات قرطبة القيروان وتلمسان والقاهرة، وكان جامعة تمبكتو على اتصال دائم بهذه الجامعات ودرس بها علوم القرآن والحديث والآداب والنحو والتاريخ[3]. وتتكون جامعة تمبكتو من عدد كبير من المدارس والجوامع أهمها وأشهرها ثلاث جوامع، كلها الآن تقع في جمهورية مالي، ويعتبر جامع تمبكتو الكبير من أقدم وأكبر مساجد تمبكتو أنشأ في القرن 6هـ/12م أي في الفترة التي نشأت فيها تمبكتو جدد بناءه منسة موسى وبنى صومعته وذلك بعد عودته من الحج. أما المسجد الثاني هو مسجد سنكرى يقول عنه السعدي: "أما مسجد سنكرى فقد بنته امرأة واحدة ذات مال كثير لكن لم نجد لبنائها تاريخا"[4]. اما فيما يتعلق باسم سنكرى فانه اطلق على حي من أحياء تمبكتو كان به المسجد الذي عرف بهذا الاسم " مسجد سنكرى". أما مسجد سيدي يحي التادلسي شيده محمد نقي من قبيلة صنهاجة حاكم تمبكت التابع لسلطان الطوارق آنذاك فمن المحتمل تاريخ تشييده تم حوالي منتصف القرن 9هـ/15م، بحكم الطوارق لهذه المدينة كان في فترة 837- 876هـ/1433- 1471م.

وضمت مدارس تمبكت العديد من الطلاب والأساتذة وشهدت لأول مرة في السودان الغربي اتساع التعليم الجامعي وتوارد عليها في تلك الأثناء عدد من الأساتذة من بلدان المغرب ساهموا في تنشيط التعليم وتعميقه ومراحل التعليم تنقسم الى ثلاثة مراحل هي: ابتدائي ثانوي وعالي[5]. وتمتع العلماء المسلمون في مملكة مالي بمكانة راقية إضافة إلى ذلك لم تكتفي مملكة مالي باعتناق الإسلام والحرس على تطبيق علومه إنما بادرت بنشر الدعوة الإسلامية بين الإحيائيين في غرب إفريقيا[6].

ومن مظاهر تمسك مملكة مالي في نشر الإسلام شدة الحرص على تحفيظ القرآن الكريم للصبية، وقد شهد ابن بطوطة ذلك سنة 753-754هـ/1352-1353م على الكثير من هذه المظاهر، منها أنه دخل على قاض مالي يوم العيد فوجد أولاده في قيود فقال له: " ألا تسرح؟"، فأجابه القاضي: "لا أفعل حتى يحفظ القرآن". ومر ابن بطوطة ذات يوم في تجواله بمملكة مالي بشاب حسن الصورة وعليه ثياب فاخرة في رجليه قيد ثقيل، فسأل مرافقه عن ما ارتكبه هذا الشاب من جرم، فقيل له بأنه قيد حتى ينتهي من حفظ القرآن، كما شهد ابن بطوطة صلاة الجمعة في مملكة مالي ومدى ازدحام المصلين وضرورة التبكير للتوجه إلى المسجد حتى يجد المصلي مكانا يجلس فيه.

---

[1]- سيسوكو سيكيني مودي، "نزعة تمبكتو في وحدة العالم الإفريقي". مجلة الثقافة الإفريقية، عدد 1، 1961م، الشركة الوطنية للكتاب، الجزائر، ص 265.

[2]- عبد الله عبد الرزاق إبراهيم، "دور تمبكتو الجغرافي والاقتصادي في التجارة الصحراوية" عن موقع:

www.mubarek . inst. org

[3]- سكيني سيسيكو مودي، المرجع السابق، ص 268.

[4]- السعدي، المصدر السابق، ص9.

[5]- عبد القادر زبادية، **الحضارة العربية**، ص ص 62- 63.

[6]- عبد الرحمان عمر الماحي، المرجع السابق، ص 91.

7- سقوط المملكة:

لما توفي المنسى موسى خلف وراءه مملكة مترامية الأطراف وجد خلفائه صعوبة في المحافظة على رقعتها الشاسعة فالملك ماغان 733-757هـ/1332-1336م الذي وقع في عهده نهب مدينة تمبكتو على يد قبائل الموسي الوثنيين، كما شهدت مملكة مالي فترة اخرى من الضعف على عهد موسى الثاني 776-789هـ/1374-1371م كان أميل للكسل وعدم الاكتراث بالمسؤولية وسلم شؤون مملكته إلى حاجبه[1].

وبداية من سنة 837-838هـ/1433-1434م بدأت مملكة مالي تفقد سيطرتها على جزء من مناطقها الغربية وخصوصا مع زحف الطوارق على ولاة وتمبكتو وغاو، وفيما بعد ستهدد قبيلة سنغاي نفوذ مملكة مالي[2]. فظهرت قوة غاو التي أخذت تضم ولايات مالي الولاية تلو الأخرى[3] في الجهة الشرقية ومن الغرب استولت على ديارا ولم يبقى لها في هذه الفترة سوى بعض المناطق التي تقع من جنوب جني، في المناطق الغابات الاستوائية وبعض الأقاليم في الناحية الشرقية[4].

استغلت قبائل الموسي الوثنية هذه الأوضاع فهاجمت الأقاليم الجنوبية للملكة، إضافة إلى هذا التدهور السياسي حلت أزمة اقتصادية بمملكة مالي عندما فقدت السيطرة على الطرق التجارية الصحراوية، وكمحاولة لتصدي هذا الاكتساح عقد ملك مالي مع ملك البرتغال جون الثاني (Jhon II) معاهدة تحالف ولكن البرتغاليين لم يلتزم بها، مما اضطر منسى مالي إلى الاستعانة بالعثمانيين، ولكن ملك البرتغال رأى من الحكمة بما كان مساعدة مالي خوف امتداد النفوذ العثماني إلى الجنوب فبعث له بسفارتين قدمتا إلى بلاط مالي[5]، لكن فات الأوان أصبحت مالي تلفظ أنفاسها الأخيرة في بعض المناطق التي تبقت لها في الجنوب خلال الربع الأخير من القرن 9هـ/15م حين بدأت سنغاي كقوة سياسية بالمنطقة[6].

وفي منتصف القرن 11هـ/17م أصبحتِ مملكة مالي مجرد دويلة صغيرة في إقليم كانجابا كما بدأت، ومع نهاية القرن 13هـ/19م حاول ساموري التوري آخر زعيم لكانجابا أن يستعيد مجد مملكة مالي عن طريق توحيد شعب الماندنجو، لكن القوات الاستعمارية الفرنسية كانت له بالمرصاد، فقضت على ثورته سنة 1898م، ونفتهُ إلى الجابون، لغاية وفاته بها سنة 1900م.

---

[1]- إسماعيل العربي، **الصحراء الكبرى**، ص ص 305- 306.

[2] - LY Madina, "L'empire du mali à traverse les sources portugaise", R.A. Z. N° 6,7, 1977, Alger, C.N.E.H, p 21.

[3]- حسن ابراهيم حسن، المرجع السابق، ص 108.

[4] - LY Madina,Op. Cit, p 18.

[5]- الغنيمي عبد الفتاح مقلد، المرجع السابق، ص 105.

[6] -LY Madina, Op. Cit, p 21.

المحاضرة السادسة: مملكة سنغاي الإسلامية في عهد الأسقيين(899-999هـ/1423-1591م)

1- التسمية والموقع الجغرافي:

إن كلمة سنغاي يراد بها اسم الشعب واسم المنطقة في وقت واحد، وقد سكن شعب صُنغاي/سُنغاي (Songhay) في بدايات تاريخه حول نهر النيجر الذي يعتبر النهر الرئيسي في غرب القارة، ويعرف في مختلف لغات المنطقة بـ "النهر الكبير" أو "نهر الأنهار"، ويتجه من الغرب نحو الشرق عابرا كلا من غينيا ومالي والنيجر وبنين ونيجيريا، ويصب في دلتا النيجر في خليجِ غينيا على المحيطِ الأطلسي.

استقبلت مواطن شعب السنغاي هجرات بربرية صنهاجية، فهاجر إليها بربر لمطة والطوارق الذين انصهروا مع السكان الأصليين، ويذكر السعدي هجرة يمنية قدمت إلى هذه المنطقة وأسست أسرة "الأزواء" الحاكمة، وكان أول حكامها "زا الأيمن". كما استقبلت هجرات من قبائل زنجية من الماندنجو والفولاني، والغورمانشي والموسي وهم الصيادون البريون القادمون من الغابات الاستوائية[1].

ذكرت هذه المملكة بعدة مصطلحات "بلاد كوكو" هي غاو في حد ذاتها، أما غاو ذكرت هي الأخرى بعدة مصطلحات أخرى كاغو (Kagou) غاوغا (Gaoga) وغاغو (Gagou)، وإذا اعتمدنا على الخرائط الجغرافية في العصور الوسطى نجد أن كل من كوكو وغاو رقعتان جغرفيتان مختلفتان عن بعضهما، فالوصف الجغرافي لكوكو الذي ذكره الجغرافيون لا يتطابق مع الموقع الجغرافي لغاو مع العلم أن تسمية غاو لم يتم ذكرها عند الجغرافيين ماعدا الحسن الوزان الذي ذكرها باسم "كاغو".

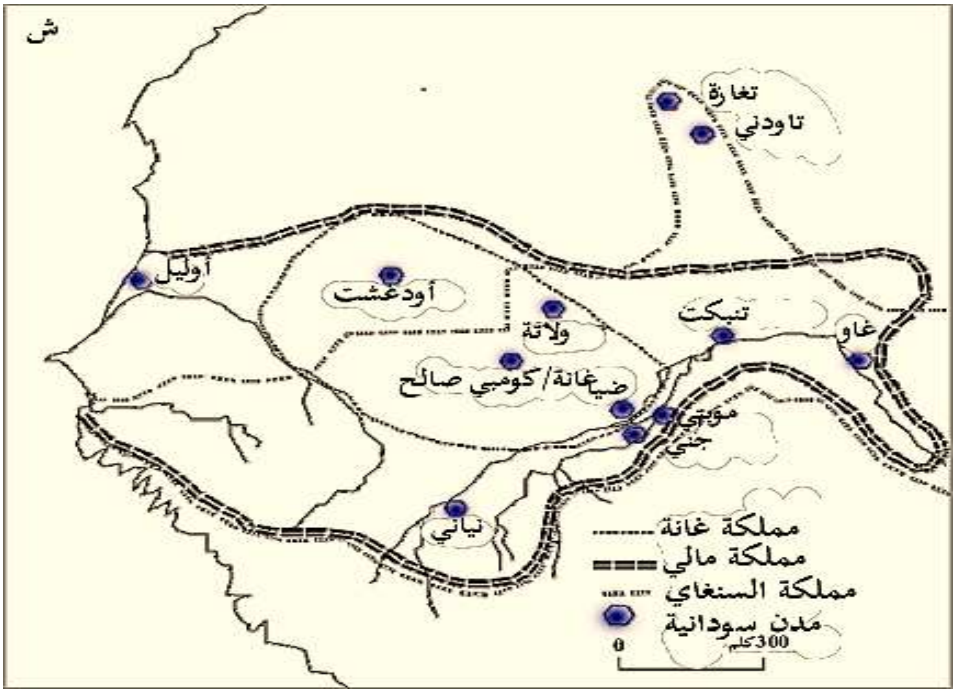

يصف البكري كوكو بقوله: "المدينة عبارة عن مدينتين مدينة الملك ومدينة المسلمين..."' كما يصف لنا الإدريسي بلاد كوكو ويقول: "كوكو مشهرة الذكر في بلاد السودان كبيرة وهي على ضفة نهر يخرج من ناحية الشمال فيمر بها، ومنه شرب أهلها ويذكر كثير من السودان أن مملكة كوكو هذه على ضفة الخليج، وذكر آخرون أنها على نهر يمر بالنيل [نهر النيجر]..."، كما قدم ابن سعيد

[1]- نور الدين شعباني، **محاضرات في تاريخ ممالك السودان الغربي**، ص 60.

المغربي عدة تفصيلات عن بلاد كوكو ويقول أنها بلاد منسوبة إلى بلاد صاحب البلاد... وجبل كوكو يضرب به المثل وهو يقابل من غربيه مسلمين غانة ومن شرقيه كان ومدينة كوكو شرقي النهر المنسوب اليها...".

ولم يتعرض القزويني بالحديث عن بلاد كوكو ومملكته، أما الحميري نقل معلوماته عن الادريسي. وقدم الحسن الوزان وصفه لبلاد كاغو كما سماها "...مدينة عظيمة...بعيدة بنحو أربعة مائة ميل إلى الغرب تمبكتو...". وإذا قارنا ما ذكره بن سعيد المغربي وحسن الوزان تتحدثان عن رقعتان جغرافيتان مختلفتان تماما لذا سنعرض الموقع الجغرافي للمملكة سنغاي أو مملكة غاو اعتمادا على بعض المراجع الحديثة. تمتد مملكة سنغاي على ضفتي نهر النيجر من الشمال من بنين عند مدينة دندي إلى جنوب فولتا العليا، قامت في منطقة الفانا الواقعة بين خطي عرض ثمانية درجات جنوبا وسبع درجات شمالا[1].

2- ممالك سنغاي:

كان لسنغاي أربع ممالك ازدهرت ولا يعرف عنها إلا القليل، وكما يقول أحمد شلبي: "دولة سنغاي من أطول الدول عمرا، فقد بدأت بذورها (أي مملكة سنغاي الثانية) في القرون الميلادية الأولى، وعاصرت إمبراطورية غانة وإمبراطورية مالي، وانتهت غانة ومالي وبقيت سنغاي حتى سنة 1594م"، فكان لها مملكتان وإمبراطوريتان، ومنها تكونت المراحل الأربع لتاريخ هذا الإقليم.

المرحلة الأولى:

حدد الباحثون هذه المرحلة ببداية القرن 7 ق.م أو أربعة آلاف سنة قبل الميلاد، بناء على تحديد المؤرخين لما قبل التاريخ المكتوب بهذا العدد من السنوات. كما أن هناك اختلاف في تحديد زمن وصولهم إلى حوض نهر النيجر بين من يذكر القرن 4م، والقرن 5م، والقرن 7م، أو القرن 9م، ويؤيد من أرجع تاريخهم إلى حوالي أربعة آلاف سنة روايات عربية وأساطير عن الهجرات السودانية التي عبرت نهر النيل ثم تفرقت مشرقا ومغربا وجنوبا، وتؤيده أيضا الرواية الشفوية التي تقول بأن شعب سنغاي مشهور بالوثنية وتبحره في السحر، وأن بعض سحرتهم من مدينة كوكيا (تبعد حاليا عن مدينة غاو بحوالي 150 كيلومترا جنوبا) كانوا ضمن سحرة فرعون الذين حشرهم من المدائن ليتحدى بهم موسى عليه السلام.

المرحلة الثانية: مملكة كوكو من القرن 3-9هـ/9-15م:

عرفت هذ المملكة باسم "مملكة كوكو" في المصادر التاريخية العربية منذ القرن 3هـ/9م، لكن الرواية الشفوية المتداولة تذكر تاريخا أقدم من هذا، إذ تضيف للأسر الحاكمة المعروفة (**زا، سن، أسكيا**) أسرة حاكمة رابعة وهي المؤسسة للمملكة لكن لا تذكر لنا اسمها، وهذه الأسرة الحاكمة عملت على توحيد شعب سنغاي الذي كان وثنيا في مملكته الأولى[2]، وتكون هذا الشعب من ثلاث مجموعات متناحرة، هي: سيركو (Sirko) أي صيادو السمك، وغوي (Gwai) وهم القناصون، والفري (Alfarai) وهم المزارعون، ويطلق عليهم أيضا غاب غوي كي (Gabi Goy Kai) أي الأيدي العاملة أو الممتهنون للمهن التي تحتاج إلى قوة بدنية، وتبادلت هذه الجماعات الثلاث السيادة في كوكيا العاصمة الأولى قبل الميلاد، التي كانت مشهورة ومزدهرة في عام 300م، توحدت بعد أن انضمت هجرة أخر ى من شرق إفريقيا إلى دندي (شمال ووسط جمهورية بينين حاليا) وكانت حاضرتها مدينة جوغو، ولا

[1]- الغنيمي مقلد عبد الفتاح، المرجع السابق، ص: 106.

[2]– حسين بوبيدي، **مملكة السنغاي المسلمة (1)**، محاضرات تاريخ إفريقيا جنوب الصحراء، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة عبد الحميد مهري، قسنطينة 2، 2021/2020، منصة التعليم عن بعد، ص 2، الرابط:

elearning.univ-constantine2.dz/elearning/course/view.php?id=727

يبعد أن يكون من هذه المدينة أيضا سكان جزيرة "زوغو أو زوغوا" الغربية على نهر النيجر، التي تذكرها بعض المصادر العربية الأولى في مدن غانة، وعلى عادة الهجرات البشرية في تسمية مواطنهم الجديدة بأسماء مواطنهم الأصلية، وهذا ما قد يفسر من ناحية تعدد مواقع بعض المدن في بعض المصادر التاريخية القديمة كـ: كوكو، وتكرور، وسلي، حتى قال أحد الباحثين عن كوكيا: "ولا يعرف موقعها بالضبط، وإنما يمكن أن يقال إنها تقع في المنطقة الشمالية الغربية من حدود نيجيريا الحاليا"، وانتقل سلطان سنغاي إليها بعد توحد الجماعات الثلاث وقتل السمكة الآلهة التي كانوا يعبدونها في الجزيرة التي كان يقدم لها فيها القرابين، ولا تزال باسمها تُورا غونغو (Tora Goungo) وينطق أيضا بـ تورُو غونغو (Toro Gougo)، وتقع جنوب مدينة غاو، وإليها ينسب أسكيا محمد، فيقال "توري (Tori) فيها ولد وعاش قبل الانتقال إلى العاصمة.

وعلى أثر هذه الهجرة الأخيرة من دندي إلى كوكيا يحمل قول أغلب المؤرخين بأن قبيلة سنغاي هاجرت من دندي، وحينها توحدت جماعاته تحت سلطة واحدة، فلا يخفى أن سيركو وغوي أسبق بسبب ما يقتضيه عملهما -صيد السمك والصيد البري- من التنقل إلى مسافات بعيدة، ومن استكشاف مناطق غير معهودة لزيادة الصيد، ومن أشهر زعماء المملكة الأولى فاران ماكا بوتو (Faran Maka Boto) الذي أسس مدينة غاو عام 71هـ/ 690م لتصبح العاصمة بدل كوكيا وفي نفس السنة انتقلوا إلى كوكو (كاوكاو)[1].

وأصبحت بذلك العاصمة كوكو الحاضرة الأهم في المملكة، ويذكر السعدي بأن 14 ملكا قد تولوا حكم كوكو قبل سنة 400هـ/1009م وكانوا على الجاهلية قبل أن يصل إليهم الملك "زا" –قيل بأنه يمني- ، وأسرة "زا" حسب الرواية الشفوية هي الأسرة الثانية، أما حسب المصادر العربية فهي الأولى حسب ما ذكره اليعقوبي كما عرفت باسم "أسرة ضياء" أيضا[2]. وقد حكم هذه المملكة من أسرة «زا الأيمن» واحد وثلاثون ملكا، أربعة عشر منهم ماتوا على الوثنية، والبقية كانوا مسلمين، وأول من أسلم منهم "**الملك زا كُوسي**" سنة 400هـ/1010م، وسمي بلغة سنغاي مسلم-دام (Muslim Dam) ومنه يفهم أنه اعتنق الاسلام مختارا لا مكرها، ومن بعده كان ملوك سنغاي كلهم يحملون أسماء إسلامية. وبإسلامه أخذت المملكة تخطوا خطوتها الأولى نحو الإسلام وخلفه كازوناك دم، وسقطت هذه المملكة بعد سقوط مملكة غانة بحوالي خمس وثمانين سنة، وغزاها ساكورة ملك مالي ساكورة وضمها إلى مالي، لكنها استقلت ثم سقطت على يدي منسى موسى الذي سيطر عليها لعشر سنوات بين عامي 1325- 1335م[3].

وكان مجالها الجغرافي متسعا حسبما ذكره اليعقوبي فقد خضعت لها عدة ممالك، كما أن بعض القبائل الصنهاجية تبعتها وهي قبائل مداسة ولمطة وبغامة التي كانت مستقرة بالقرب من كوكو.

وكان للتجار الإباضيين الذين استقروا على أطراف الصحراء في واحات فزان وجبل نفوسة وورجلان، منذ القرن 2هـ/8م دور في التجارة عبر الصحراء، واتسع نشاطهم بقيام الدولة الرستمية في تاهرت عام 160هـ / 766م، فأشرفت هذه الدولة على التجارة الصحراوية، واهتمت بها، فحفرت الآبار، وأرسلت الجنود بصحبة التجار لتأمينهم، وكان أكثر المسافرين للتجارة من السودان الغربي في عهد الدولة الرستمية يتجهون إلى مدينة غاو، وقد أسهمت جهود هؤلاء التجار الإباضيين في نشر الإسلام في صنغاي وتعريفه.

---

[1]- السعدي، المصدر السابق، هـ1، ص ص 27-29. محمود كعت، المصدر السابق، ص 29.

[2]– حسين بوبيدي، المرجع السابق، ص 2.

[3]- السعدي، المصدر السابق، ص 7. عطية مخزوم الفيتوري، المرجع السابق، ص 307. حسن ابرهيم حسن، المرجع السابق، ص 109. رشيدة السعدي، "المماليك الإسلامية في غرب أفريقيا: إمبراطورية سنغاي الإسلامية أنموذجا (النشأة والتطور)"، مجلة قبس للدراسات الانسانية والاجتماعية، المجلد 2، العدد 1، جوان 2018، ص 175.

وارتبطت الدولة الرستمية بعلاقات دبلوماسية مع إمارة سنغاي، إذ تذكر المصادر الإباضية أن الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم (171 - 208هـ) قد منع ابنه أفلح من السفر إلى مدينة كوكو (غاو) عاصمة صنغاي، وهذا يعني أن الصلات الدبلوماسية كانت متزامنة مع الصلات التجارية وترجع إلى القرن 2هـ/8م، كما أن طلب أفلح السفر إلى مدينة كوكو يعني أن هناك وفودا رسمية اتجهت إلى سنغاي وأراد أن يرأس أحد هذه الوفود، وحينما انتقل الحكم إلى أفلح بن عبد الوهاب (208 - 258هـ) عمل على تدعيم علاقات دولته مع مملكة سنغاي، فقام بإرسل سفارة رسمية يترأسها محمد بن عرفة، وقد سر ملك سنغاي من هذا الوفد وهيئته وهديته. وحافظت الحاضرة كوكو على أهميتها التجارية لغاية القرن 5هـ/11م على عهد البكري نظرا لوقوعها عند نهاية طرق القوافل إلى الجنوب، خاصة تلك التي تسلك المحورين الأوسط والشرقي من الطرق التجارية.

إذا ساعدت هذه المعاملات التجارية والدبلوماسية بين المغاربة سنغاي في انتشار الإسلام، فقد كانت ظاهرة اقتران الإسلام بالتجارة ظاهرة معروفة في إفريقيا جنوب الصحراء، فقد اعتنق تجار مملكة سنغاي الإسلام بالإضافة إلى بعض سكانها قبل الحكام ورجال الحاشية نتيجة اتصالهم بأقرانهم من بلاد المغرب، وكان التجار يرون في انتشار الإسلام جنبا إلى جنب مع نشاطهم التجاري تدعيما لهذا النشاط.

وانتشر الاسلام بسنغاي خلال القرن 4هـ/10م على عهد ملكها "**زاكسي**" الذي أسلم حينها، وأصبحت بعدها خاضعة لسيطرة مملكة مالي الإسلامية في الفترة الممتدة من 626-636هـ/1229-1239م، ثم خرجت عن سيطرتها مع حكم أسرة "سن" بفضل جهود الأخوين الأميرين "علي كولن" و"سليمان نار"، فقد تمكن الرهينة السنغائي علي كولن هو وأخوه التخلص من الأسر، وأسس مملكة في صنغاي عام 735هـ/1335م، واتخذ لقبا جديدا هو "سُنِّي"، واستقلت بعدها كوكو عن مملكة مالي سنة 789هـ/1387م، وعرفت بعدها باسم "سلطنة سنغاي" التي أسسها "سني علي بر الكبير" سنة 869هـ/1464م، الذي يعتبر أشهر ملوك سنغاي، وهو الملك التاسع عشر في ترتيب ملوك أسرة سُنّي، واتسعت حدود مملكة سنغاي لتشمل كل المناطق الواقعة بين دولة كانم شرقا والمحيط الأطلسي غربا[1].

ممالك امبراطورية سنغاي:

عرفت امبراطورية سنغاي أسرتين حاكمتين، الأولى هي أسرة "**سن**" **(869-899هـ/1464-1493م)** التي قضت على نفوذ قبائل الماندينغ، والثانية أسرة "**الأساكي**"**(899-999هـ/1523-1591م)** والتي تأسست على يد الأسكيا محمد الكبير التوري، وحكمت لغاية الغزو المغربي لها سنة 999هـ/1590م[2].

المرحلة الثالثة: مملكة أسرة "سن":

تأسست هذه المملكة عام 735هـ/1335م بعد ما دب الضعف في أرجاء مملكة مالي، تمكنت شعوب السنغاي بزعامة **علي كُولنْ** من التخلص من ملك مالي، وتوجيه ضربات لمالي على عهد ملكها **ماري جاطة الثاني**، مما فتح المجال أمام المملكة السنغية الجديدة لتوسيع حدود مجالها، خاصة زمن **القائد العسكري سُن علي**، الذي استولى على بقية أقاليم مالي، وحاصر مدينة جني مدة سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام، كما ذكره عبد الرحمن السعدي، ومواصلة الجيوش السنغية لهجوماتها على مملكة مالي، عجل بسقوطها وسقوط الأسرة الحاكمة؛ فقد أسر واحتجز سلطان مالي[3].

---

[1]- حسين بوبيدي، **ممالك السنيغامبيا**، ص ص 2-3.

[2]- حسين بوبيدي، المرجع السابق، ص ص 2-3.

[3]- السعدي، المصدر السابق، ص 14، 208، 219. محمود كعت، المصدر السابق، ص 42. أحمد الشكري، المرجع السابق، ص 197.

وبالنسبة لحكام أسرة "سن" فلا تذكر المصادر التاريخية شيئا عنهم سوى أسمائهم (**إبراهيم كباي، عثمان كنانافا، باري كينا، مـحمد دع، محمد كونيجيا،مـحمد فاري، كاربيفو، مارفي كول، ماري هاي، مادافو، سليمان دام علي بير ، باري دع، علي كُلن، سليمان نار**).

ويمكن اعتبار **سُنِّ علي (869-898هـ/1465-1492م)** الذي خلف والده سُن مادوجو (Madogo) المؤسس الحقيقي لامبرطورية سنغاي، اتخذ من مدينة غاو (Gao) عاصمة له على منحنى نهر النيجر وهي تبعد نحو سبعمائة كيلومتر شرقا من نياني عاصمة مالي، كما عمل على توسيع حدود امبراطوريته فقد استهل فترة حكمه باخضاع مدينة تمبكت عام 873هـ/1468م لحكمه، والتي كانت تحت حكم الطوارق آنذاك، وذلك نظرا لأهميتها الاقتصادية ومكانتها الثقافية، لكنه عامل أهلها بالقسوة وارتكب فيها الكثير من الفظائع، وقتل الكثير من علماءها وسبى بناتهن.

عمل على توحيد منطقة النيجر الأعلى وبدأ حملة توسعاته الكبرى كما ذكره محمود كعت: "...وكان منصورا وما قابل أرضا قصده إلا خرّبه، وما كُسر له جيش كان فيه قط غالبا غير مغلوب، لم يترك بلدا ولا مدينة ولا قرية من أرض كنت إلى شبردك إلا وقد جرى خيله فيه وحارب أهله وغار عليهم"، فاستولى على مدينة "**جني**" سنة 877هـ/1472م بعد حصار طويل دام لسنوات. واستولى أيضا على مدينة "ماسنة" ، وحارب قبائل الموسي الوثنية وانتصر عليهم سنة 888هـ/ 1483م الذين حاولوا التوسع على حساب المجالات الشمالية لامبراطوريته. كما توغل على حساب أراضي الفُلان وسيطر على مجالات التكرور لغاية المحيط الأطلسي.

ومن أهم أعماله تنظيمه للقضاء ومنظومة الجيش التي أدخل عليها تعديلات كثيرة ليشمل جميع شرائح المجتمع، فكان جيشه قويا ومدربا، ومجهز بالعتاد والعدة، كما جهز أسطولا بحريا، وبهذا الجيش والأسطول انتصر في كل المعارك التي خاضها، كما أنشأ العديد من الدواوين كبيت المال[1].

ولكن حكم أسرته لم يدم طويلا بسبب سوء معاملة هذا الحاكم لأهل العلم، فقد واجه سني علي معارضة من علماء تمبكت لقسوته وسوء معاملته لهم، مما جعل مؤرخي تمبكت يحملون عليه ويشككون في إسلامه ويتهمونه بالكفر، ونسبه بعضهم لمذهب الخوارج، واعتبره بعض الباحثين من أهم الأمثلة على حالة الخلط بين بين الإسلام والمعتقدات الوثنية التقليدية، خاصة معاملته القاسية والدموية ضد الفقهاء خاصة فقهاء تنبكت من الأصول الصحراوية البربرية، وهو ما عجل بسقوط الحكم من سلالته وانتقاله بعد وفاته إلى أسرة الأساكي الذين استفادوا من التوتر الحاصل بين علماء تمبكت والحاكم سني علي.

وبعد وفاة سن علي في ظروف غامضة انتقل الحكم إلى ابنه الأكبر أبو بكر داعو عام 1493م الملقب بـ"**سُنّ بار**"، غير أن القائد **محمد** التوري اغتنام فرصة ابتعاد سن بار عن الإسلام الصحيح قام بانقلاب ضده وأطاح به، من أجل الحفاظ على الموروث الإسلامي، لأن سن علي وابنه أبو بكر "سن بار" تعلقا بديانة الأجداد وبالسحر والشعوذة، وهو ما كان يتنافى وروح ومقاصد الشريعة الإسلامية، هذا فضلا عن أن علماء تمبكت كانوا على خلاف مع سن علي، فوجدوا ضالتهم مع القائد **محمد** توري الكبير، الذي قرب العلماء وأجزل عليهم العطايا بعدما أصبح حاكما جديدا لسنغاي، إلى جانب ميله للإسلام وجعله الدين الرسمي للبلاد

المرحلة الرابعة: مملكة إمبراطورية صنغاي في عهد الأسقيين(899-999هـ/1423-1591م):

أنشأتها أسرة أسكيا وعلى الرغم من أن الأسرة لم تحكم سنغاي أكثر من قرن، لكن المملكة قطعت في عهد **الأسكيا محمد الكبير (899-929هـ/1439-1523م)** شوطا من ازدهار والتحكم في كافة الميادين وخلال هذه الفترة حكم مملكة سنغاي تسعة ملوك

[1]- حسين بوبيدي، المرجع السابق، ص ص 4-5.

من أسرة أسكيا، ومعنى الأسقيا أو الأسكيا تقود إلى بنات سن علي عندما سمعنا بانتصار القائد محمد توري وتوليه العرش، فصرخنا قائلات: "أسكيا" ومعناها "ليس هو"، فلما سمعها أمر بأن لا يلقب إلا بها فقالوا: "أسكيا محمد". ولقد عرف الأسكيا محمد أو أسكيا الحاج الكبير منذ توليه أمور سنغاي بأنه كان عسكريا وإداريا مقتدرا، كما جلب الفقهاء والقضاة ورجال العلم، وقربهم إليه وأحسن معاملته، وكانت أولى أعماله تنظيم دولة وإعداد جيش منظم في الجيش والحرب، وأدخل عليه تكتيكا عسكريا مميزا حيث أدخل فرقة من الفرسان العرب المغاربة ومن قبيلة الطوارق وجعلها في فرقة المشاة.

وسار الأسكيا محمد توري لأداء فريضة الحج سنة 902هـ/1497م مصطحبا معه خمس مائة فارس وألف جندي من المشاة، وحمل معه ثلاث مائة ألف قطعة من الذهب وزع ثلثه في الصدقات، لكن رحلة حجه لم تلفت الانتباه، رغم أنه قابل خلالها الخليفة العباسي المتوكل في مكة المكرمة، وطلب منه ترسيمه خليفة على بلاد السودان[1].

عاد الأسكيا محمد الأول من حجه 1497م وما أن استقر حتى بدأ بالإعداد للغزو والفتح وتوسيع رقعة مملكته[2]. واتجهت حملته الأولى إلى البلاد الوثنية من الغرب والجنوب، فاستولى في الغرب على مناطق شاسعة من مملكة مالي، وبلغت فتوحاته حتى حافة المحيط الأطلسي، ولكن أعظم فتوحاته تلك التي كانت في بلاد الهوسا حيث أخضع المدن المتحصنة فيها، وفي هذه الغزوات تجاوز الأسقيا حدود بلاد الطوارق فضم بلاد الآيير[3]. وبفضل هذه الفتوحات وصلت حدود مملكته إلى المغرب الأقصى، وشملت شرقا بلاد الهوسا، واتصلت بأراضي البورنو وجزر من الصحراء في الشمال، ووصلت إلى الجنوب والشمال الغربي إلى بلاد التكرور، وبهذه الحدود جاوزت مسافة مالي بحوالي سبع مائة ميل[4].

من بين أهم انجازات الأسكيا محمد الكبير التوري:

- أسس عاصمة ثانية للبلاد تمثل نيابة للملك في الأقاليم الغربية مقرها "تندرم"، كلف بها أخوه "عمر كمزاع".
- أخمد المعارضة الداخلية من شعوب سنغاي في معركة بركو.
- قسم المملكة إلى ولايات وعلى رأس كل ولاية وال، وهي: ولاية كوروما غرب النيجر، ولاية بالاما على حدود بلاد الموسي، ولاية دندى جنوب العاصمة في كوكيا، ولاية بانجو، ولاية هاريباندا على الضفة اليمنى لنهر النيجر مقابل العاصمة غاو، رئاسة نهر النيجر.
- وضع الأسكيا محمد الكبير نظاما إداريا قوي، ومن أهم المناصب فيه: موندي (المكلف بالضرائب)، كوري فاريما (المشرف على شؤون القبيلة)، ساوفاريما (المشرف على الغابات)[5].

خلفاء الأسكيا محمد الكبير التوري:

اعتلى عرش صنغاي تسعة أساكي من أبناء أسكيا محمد وأحفاده، باستثناء الأسكيا "محمد مر بنكن" ابن أخيه،

الأسكيا موسى الأول بن محمد (934-937هـ/1528-1530م): تولى الحكم بعد أن عزل والده الأسكيا محمد الكبير التوري، لذا عرف عهده صراعا داخليا على السلطة بين إخوانه وأعمامه، وقتل في إحدى هذه الصراعات على يد أخيه علي.

---

[1]- المقريزي، المصدر السابق، ص 122.

[2]- عبد القادر زبادية، **مملكة سنغاي**، ص 38.

[3]- إسماعيل العربي، **الصحراء الكبرى**، ص 324.

[4]- رولاند أوليفر وجون فيج، المرجع السابق، ص 100.

[5]- حسين بوبيدي، المرجع السابق، ص ص 5-6.

الأسكيا محمد بنكن بن كُمْزاع عمر (937-943هـ/1530-1536م) نصب من قبل الجيش رغم اعتراض أخ الأسكيا السابق علي بن الأسكيا محمد الكبير التوري، استمال أقوى أبناء الأسكيا محمد الكبير وهو إسماعيل، فزوجه أخته ليضمن التحالف معه، فاستقرت الأوضاع في المملكة قليلا، فشهدت صنغاي في عهده تطورا ونهضة في عدة مجالات، وبخاصة الجيش، لكن مناطق أخرى عرفت اضطرابات أرسل لها جيشا لاخمادها، لكن الأسكيا محمد بنكن بعده عزل بعدها من قبل ابن عمه إسماعيل بن محمد الكبير.

الأسكيا إسماعيل بن الأسكيا محمد الكبير (943-946هـ/1536-1539م): أمضى أغلب وقته في مطاردة الأسكيا السابق، أخرج والده من السجن، وانتشر الطاعون بمناطق عديدة من المملكة سنة 944هـ/1538م، كما توفي الأسكيا إسماعيل في نفس السنة وهو يغزو الوثنيين متأثرا بالطتعون.

الأسكيا إسحاق بن الأسكيا محمد الكبير (946-956هـ/1539-1549م): يعتبر أحسن حاكم لسنغاي، نصب من طرف الجيش، وعمل بعدها على استبدل بعض قادة الجيش للحد من تأثيرهم على الأسرة المالكة، كان سياسيا محنكا وقائدا شجاعا، وحاكما محبا للعلم والعلماء مشجعا لهم، وفي نفس الوقت كان شديدا على خصومه، فقد شحن حملات كثيرة على الوثنيين، كما ضم مالي لمملكته، وواجه أطماع الدولة السعدية، وتوفي سنة 956هـ/1549م.

الأسكيا داوود بن الأسكيا محمد الكبير (956-991هـ/1549-1583م): يعتبر أكثر الأساكي ثقافة وعلما، كان يتحدث اللغة العربية، كما كان عارفاًوحافظا للكثير من السور القرآنية، وتذكر المصادر الكثير عن كرمه وصلاحه. وأول عمل قام به هو تغيير الموظفين الساميين بآخرين جدد، كما اشتهر بحنكته السياسية والإدارية في تسيير أمور مملكته، كما واصل الجهاد ضد القبائل الوثنيين، كما حقق اتفاقا بين سنغاي والطوارق الذين سكنوا مشارف الصحراء وشمال تمبكتو، وسالم سلاطين المغرب من الدولة السعدية منهم السلطان أحمد منصور الذهبي الذي تم عقد صلح بينهما على أساس أن تدفع مراكش لسنغاي عشرة ألاف أوقية من الذهب مقابل استئجار ملاحة تغزة في العام [1].

الأسكيا الحاج بن داوود "محمد الثالث" (991-995هـ/1583-1587م): وبداية من فترة حكمه بدأت سنغاي تعاني الضعف والانحلال وعدم الاستقرار، فبعد اعتلائه العرش استقبل البعثة المغربية المحملة بالهدايا له، لكن كانت نواياها التجسس وتقصي الأوضاع، وتم استقبال هذا الوفد المغربي من قبله، وبعد رجوع الوفد إلى المغرب الأقصى أرسل مولاي أحمد حملة مكونة من عشرين ألف محارب لتمر بمنطقة وضال(شرقي موريتانيا حاليا) ثم تنتقل منها إلى حوض السنغال وبعدها إلى تمبكتو. لكن هذه الحملة لم ينتج عنها شيء عادت إلى مراكش، ثم أعاد مولاي أحمد الكرة للمرة الثانية وتكونت هذه المرة الحملة من مائتي فارس احتلت ملاحات تغزة، كل هذا والأسقيا محمد الثاني لا يحرك ساكنا، وأعلن في سنة 1585م أن ملاحة تغزة قد نفذت بعد أن بقي فيها المغاربة مدة قصيرة، وأمام تخاذل محمد الثالث أمام المغاربة قام إخوته بثورة ضده ونصبوا مكانه محمد بان بن الأسكيا داوود [2].

الأسكيا محمد بان بن الأسكيا داوود (995-996هـ/1587-1588م): توفي سنة 996هـ فخلفه أخوه الأسكيا إسحاق.

الأسكيا إسحاق الثاني بن الأسكيا داوود (996-999هـ/1588-1591م): تسلم الحكم والمملكة في غاية الضعف خصوصا بعد قيام حاكم تمبكت بثورة استغرق القضاء عليها سنة كاملة، كما واكب ذلك التوسع المراكشي على حساب مملكة سنغاي، هذا بالإضافة إلى الآفات الاجتماعية التي عبر عنها السعدي في قوله: "...أنهم بدلوا نعمة الله كفرا وما تركوا شيئا من معاصي الله تعالى إلا

[1]- عبد القادر زبادية،المرجع السابق، ص 48.

[2]- عطية المخزوم الفيتوري، المرجع السابق، ص 311.

وارتكبوها جهرا"، لذا شهدت فترة حكمه صراعا على الحكم مع أخيه "بلمع محمد الصادق"، مما كلف خزينة المملكة الكثير الأوال والرجال.

ازدهار الحضارة الإسلامية في مملكة سنغاي:

أ- سياسيا:

نرى المظاهر السياسية للحضارة الإسلامية لمملكة سنغاي منذ عهد الأسقيا محمد الأول (الحاج الكبير) منذ اتخاذه لقب أمير المؤمنين من شريف مكة، وتزكيته من الخليفة العباسي حتى يضفي على حكمه الشرعية الروحية، ويكون أمره مطاعا تقليدا للأنظمة السياسية الإسلامية، كما قلد الخليفة العباسي في مقعده وملابسه. وقد سن الأسكيا محمد بأن أعطى للحجاج السودانيين أهل سنغاي مكانة خاصة في مراسيم البلاد الملكي، فكان يستقبل بنفسه الحجاج العائدين خارج العاصمة غاو فلا يدخلونها إلا بعد مشاورته وبعدما يقدم لهم الهدايا ويتلقى منهم الدعاء[1].

وتميز أسلوب الإدارة في سنغاي خلال عهد الأساكي وقبله أن حكومة سنغاي أخذت صبغتها المميزة أثناء حكم آل الأسقيا قد كانت قبله قبلية، ولكنها في أيامهم أصبحت أميل للانسجام مع مصالح البلاد، كلها وإن السبغة الاعطائية التي ظلت هي الغالبة عليها في فترة الأسقيين قد نتج عنها تزايد التضخم في البلاط سواء فيما يخص الحاشية أو فيما يخص مظاهر الأبهة الملكية، وقد فرض ذلك بطبيعة وجود الانتظام الظاهر في المراسيم والشكليات والوظائف، وفي العلاقة بين العامة والسلطة، ومن هنا ذهب بعض المؤرخين إلى وصفه بالأمير الشرقي في السودان، فقد جمعت مملكة سنغاي على عهده بين الأساليب القبلية السودانية وبعض الأساليب التي وصلت مع الإسلام مما أضفى الطابع الشرقي الإسلامي على الحضارة السنغائية الإسلامية[2].

وتميزت مملكة سنغاي عن غيرها من الممالك الأخرى ببلاد السودان الغربي بجيش قوي حيث سمته المؤرخة جوان جوزيف "بالجيش الأرستقراطي"، وأكدت على أن القوة التي اكتسبتها مملكة غانة ومالي لم تبلغ ما بلغته سنغاي فبفضل قوة جيشها، فقد كان جيشا نظاميا ممتازا من حيث التدريب والتصنيف، وينقسم إلى فرقة الخيالة فرقة الفرسان وفرقة المشاة[3]، ولقد اعتمد في تدريب هذه الفئات على مقاييس عالية لذلك العصر فتفوقت على بقية الجيوش المجاورة.

ب- ثقافيا:

بدأ انتشار العلوم والثقافة الإسلامية في سنغاي بفضل انتشار الإسلام، وكان أول أثر له أن صحح الثقافات التي كانت سائدة من قبل، فقد قلل من المفاهيم السحرية التي كانت تسيطر على عقول الناس وجو حياتهم في هذه المنطقة من قبل[4]، لذلك أشاد العديد من المؤرخين بأثر الإسلام في إصلاح المفاهيم الإنسانية والسحر، وتبين ذلك من الأسئلة التي استفتى فيها عبد الكريم المغيلي من خلال مسائل أو الأسئلة التي طرح عليه الأسقيا محمد الكبير، فقد جاء في المسألة الثانية: "إن أهل بلادي يزعمون أنهم مسلمون ومدينتهم بالجامع والجمعة والأذان بصلوات الخميس، وذلك بعد أن كانت كلها بلاد كفر وأهلها عبد الأصنام، فقام عليهم بعض أجداد هؤلاء السلاطين مع أتباعهم، فقاتلوا أولئك الكفار وملكوا بلادهم... وسكنوها بالإسلام أكثر من ثلاثين سلطانا قبل سني علي، وكان سني علي سلطان أهلها وهم كفار، وكان سني علي من صغره إلى كبره كثير الإقامة عندهم حتى نشأ بينهم وتطبع بطباعه...

---

[1]- الهادي المبروك الدالي، المرجع السابق، ص 133.

[2]- عبد القادر زبادية، **مملكة سنغاي**، ص 64.

[3] - Jeannt Suret CANALE, Op. Cit, P 45.

[4]- القلقشندي، المصدر السابق، ج 5، ص 281.

ثم بعد موت أبيه قام على سنغاي وقاتلهم حتى غلبهم وتسلط عليهم، ومن صفاته أنه ينطق بالشهادتين ونحوهما بألفاظ المسلمين، ولكن لا يعرف بذلك حقيقة، إنما يقول ذلك بلسانه ويصوم رمضان ويتصدق كثيرا بالذبائح وغيرها عندا المساجد ونحوها، مع ذلك يعبد الأصنام ويصدق الكهنة ويستعين بالسحرة فيعطلون بعض الأشجار والأحجار بالذبح والصدقة عندها".

وما يمكن استنتاجه من هذه المسألة أن السلطة الحاكمة كانت مهتمة فعلا بإصلاح المجتمع بدليل حيرة الحاج محمد الأول من حال مجتمع سنغاي، كما حاول أن يتخذ الشكل الإسلامي للثقافة الإسلامية، لذلك كانت الثقافات والمعرف السنغائية نسخة طبق الأصل عن ما كان في بلدان المغرب وتحسنت المفاهيم الثقافية الإسلامية عن طريق الاتصالات التجارية بين الاسقيين وبلدان المغرب.

الحواضر العلمية في مملكة سنغاي في عهد الأساكي:

تنبكت:

قامت حاضرة تنبكت بدور ثقافي بارز في السودان الغربي في عهد الأساكي، ونفقت فيها أسواق العلوم، فكانت محط رحال العلماء وطلبة العلم، وكانوا يأتونها من كل مكان, من داخل البلد وخارجه، فكانت مركزا علميا فريدا في المنطقة آنذاك، ويزيد ذلك ما ذكره صاحب الفتاش، أن مدارس تعلم القرآن للصبيان الذين يقرؤون في تنبكتو قد بلغت مائة وخمسين, كما اشتهرت تنبكت بجامعتها العريقة والمتمثلة في جامع سنكوري الذي كان يضاهي جامع القرويين بفاس، وزيتونة بتونس، والأزهر بمصر، وقد تخرج من جامعة تنبكت علماء شهد لهم التاريخ بالصدارة في شتى فنون العلم، إلى جانب التدين[1].

جيني (Jénné):

تعتبر من أهم المراكز العلمية في السودان الغربي التي تأسست في القرن 3هـ/9م، أسلم أهلها مع ملكهم "كنبر" في القرن 6هـ/12م، وكان إسلامه أمام أربعة آلاف ومائتي عالم، ولما أسلم خرب دار السلطنة وحولها إلى مسجد لله تعالى، وهو الجامع في جيني، وأنشأ دارا أخرى لسكناه بجوار المسجد. اشتهر أمر مدينة جيني بعد ذلك، ونفقت فيها أسواق العلوم والمعارف، ورحل الناس إليها من كل مكان، ويؤكد ذلك قول السعدي: "وقد ساق الله -تعالى- لهذه المدينة المباركة سكانا من العلماء والصالحين؛ من غير أهله من قبائل شتى وبلاد شتى". واعتنى الأساكي بمدينة جيني، فبنوا فيها المساجد ومساكن لطلاب العلم، وأغدقوا عليهم وعلى أساتذتهم الأرزاق، فاحتلت المدينة بذلك الدرجة الثانية في الميدان الثقافي بعد مدينة تنبكتو، وكان السلطان أسكيا محمد الكبير أول من عيّن القضاة في جني للفصل بين الناس وفق الشريعة الإسلامية.

غاو (Gao):

كانت حاضرة المملكة، تذكر بعض الروايات التاريخية أنها تأسست في أواسط القرن 2هـ/8م، وانتشر الإسلام فيها عند تمام القرن 6هـ/12م. وكانت غاو أقل من تنبكت وجيني من حيث انتشار العلم، ربما كان سبب ذلك كونها العاصمة السياسية، ولا يعني ذلك أنها كانت أقل كثافة سكانية منهما، حيث تذكر بعض الروايات التاريخية أنها كانت مدينة كبيرة، بلغ عدد الدور فيها 7.626 دارا، بخلاف البيوت المتواضعة من الأكواخ الكثيرة، في عهد أسكيا محمد الكبير، وعلاوة على ذلك أنّ التجار كانوا يقصدونها من المغرب وغيرها.

[1]- عبد القادر زبادية، المرجع السابق، ص ص 138.

شجع الحكام السنغائيين الحركة العلمية بمملكتهم، فقد كان لهم دور بارز في تشجيع العلماء، بوتأسيس المساجد والمدارس ومساكن الطلاب، والنهوض بأعبائها ماديا ومعنويا، فأنفقوا بسخاء على العلماء وطلبة العلم، وأعفوهم من كل وظائف السلطنة، فتفرغ العلماء لنشر الثقافة الإسلامية العربية، ونصبوا أنفسهم لنشر العلم في المساجد والمدارس وفي بيوتهم، وتفرغوا لتدريس العلوم بشتى فنونها خاصة الدينية منها واللغوية، وظلت العلوم الشرعية واللغوية تحتل مركز الصدارة في السودان الغربي، فظهرت مؤلفات وحواش وشروح في مختلف المجالات، خاصة في الجانب الفقهي، فقد اعتنوا اعتناء كبيرا بأمهات كتب المذهب المالكي، فأجادوا وأفادوا[1].

كا وضع العلماء قواعد للحكام يسيرون على وفقها شؤون البلاد، مراعين في ذلك مقاصد الشريعة وأعراف الناس في البلاد، وبفضل جهود هؤلاء العلماء؛ استطاعوا أن ينهضوا بمستوى الوعي الديني في أوساط شعب سنغاي إلى أعلى مستواه، مما جعلهم يحظون - وبخاصة علماء الشريعة- باحترام منقطع النظير، ربما وصل إلى حد التقديس المحرم، يؤكد هذا قول الحسن الوزان: "إن تنبكتو وقت زيارته لها كانت مليئة بالعلماء والفقهاء والأئمة، وأن هؤلاء يتمتعون برواتب سخية، ويعاملون باحترام وتعظيم".

ومن بين العلماء الوافدين الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي التواتي التلمساني، صالح بن محمد أندى عمر المعروف بالشيخ العمري، ومن العلماء المحليين نذكر محمود بن عمر بن محمد آقيت، عبد الله بن عمر بن محمد آقيت، الحاج أحمد بن عمر بن محمد آقيت، محمد بن محمود بن أبي بكر الونكري التنبكتي، المعروف ببغيوغو، و أحمد بابا التنبكتي المتوفى سنة 1036هـ، وأبو عبد الله أندغ محمد بن الفقيه المختار النحوي[2].

ويعتبر أسكيا محمد الكبير أول من بدأ بعقد المجالس العلمية في قصره من بين سلاطين سنغاي، فكان يستدعي العلماء من خارج البلاد لإحياء هذه المجالس العلمية، إلى جانب استعانته بعلماء بلاد سنغاي المحليين، وقد أثبت التاريخ مراسلته مع الإمام المغيلي الذي استدعاه في النهاية إلى غاوو، فأكرم وفادته وأحله محل شوراه، ونهج طريقه في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وواصل سنته أبناؤه الذين حكموا البلاد من بعده، وأبرزهم أسكيا داود الذي اشتهر بحبه للعلم والعلماء، وإلى جانب هذه المجالس العلمية السلطانية كان بعض الأغنياء يتخذون في بيوتهم مجالس علمية خاصة، ويدعون إليها كبار العلماء والقضاة والمربين، كما كان للعلماء أنفسهم مجالس خاصة في بيوتهم[3].

تأثرت مناهج التعليم في السودان الغربي عموما بمنهج المغاربة، فقد كان العرف الجاري في التعليم أن يبدأ التلميذ بالكتاب فيتعلم القراءة فقط في أول أمره، فإذا وصل إلى مرحلة يستطيع فيها أن يميز بين الحروف ويستطيع أن يقرأ باجتهاده الشخصي؛ بدأ المؤدب يعلمه الكتابة، وهذه هي مرحلة التعليم الأولي، وفيها يحفظ التلميذ القرآن كله أو نصفه، حسب قدرته وذكائه، وقد يتعلم فيها بعض المبادئ الفقهية. ثم تأتي المرحلة العالية، وتكون الدراسة فيها في الجوامع والمدارس، ففي الجوامع يجلس الطلبة على شكل نصف دائرة حول الشيخ، ويكون من بينهم من يقرأ ويتولى الأستاذ الشرح، وكان هذا الطالب القارئ يُسمى "المسرد"، ويمكن لغير طلبة المجلس أن يحضروا لسماع الدرس بلا مانع، بينما تكون المدارس خاصة للمتعلمين. وفي هذه المرحلة يتعلم الطالب النحو،

---

[1]- السعدي، المصدر السابق، ص 122.

[2]- محمد حمد كنان ميغا، "مظاهر الثقافة الإسلامية العربية في تمبكتو وغاوو وجني في عهد الأساكي". مجلة قراءات إفريقية، عدد 3، ذو الحجة 1429هـ/ ديسمبر 2008م، ص 33.

[3]- نعيم القداح نعيم، المرجع السابق، ص: 145.

واللغة، والفقه، وسائر علوم الشريعة، ثم يتدرّج في تعلم العلوم الأخرى حسب ميله، ومعالم نهاية هذه المرحلة غير محددة ولا واضحة، وإنما ذلك راجع إلى الأستاذ، فهو الذي يجيز من يجيز من طلبته، إما إجازة عامة أو خاصة[1].

ومن بين أهم العوامل التي ساعدت على نشاط الحركة العلمية في مملكة سنغاي توفر الكتب والمكتبات العامة والخاصة، حيث اعتنى أهل سنغاي باقتناء الكتب واستنساخها، واستوى في ذلك العلماء والحكام والتجار، قال الحسن الوزان: "إن تجارة الكتب في هذه البلاد كانت تدر أرباحا طائلة، بحيث فاقت الأرباح الناتجة عن العمل في أي تجارة أخرى"[2]. ويعتبر الأسكيا داوود أول من اهتم بإنشاء المكتبات العامة، فكانت له مكتبة ضخمة رفيعة الشأن، وكان من عادته شراء نسخ من المخطوطات والكتب التي تصل إلى بلاد السودان الغربي، واتخذ مجموعة كبيرة من الكتّاب والنساخ، مهمتهم نسخ هذه المخطوطات والكتب، ثم توزيعها على المعلمين وكبار العلماء والطلاب والمكتبات العامة، وكان يقوم هو نفسه بتوزيعها.

كما كان للأسكيا محمد بان مكتبة خاصة، وله نساخ يرأسهم العالم أحمد بن دنبسل الفلاتي المتوفى سنة 995هـ ومن بين أهم المكتبات في السودان الغربي تلك التي امتلكتها آل آقيت، وعلى رأسهم أحمد بن عمر بن محمد آقيت، ثم ابنه أحمد بن أحمد بن عمر بن محمد آقيت[3]. وشهدت الفترة 1530-1582م نهضة علمية واسعة، ألفت خلالها مؤلفات عديدة في الفقه والمنطق والعروض والنحو والتاريخ من تأليف السودانيين، كما دُعي بعض علماء السودان لتدريس بالأزهر الشريف. من خلال هذا الفقرة ألف الفقيه أحمد بابا التمبكتي "نيل الابتهاج بتطريز الديباج" ثم ألحقه بمؤلف آخر هو " كفاية المحتاج بتطريز الديباج" قد أصبح المؤلفان أهم كتابان في الفقه[4]. وجميع أنواع العلوم كانت تدرس وتناقش باللغة العربية كانت هذه اللغة هي الكتابة الرسمية والثقافية، لكن تدريس الطبقة العامة في المساجد كان باللهجات المحلية بعد صلاة الجمعة[5].

أما بالنسبة للقضاء والقضاة ذكر أحمد بابا التمبكتي قائم طويلة لأسماء القضاة، وكثيرا ما نسجل رضوخ الملك إلى أوامر القاضي خصوصا إذا تعدى الملك طلب القاضي، وما هذا إلا دليل على أن القوانين كان يخضع لها الحاكم والمحكوم والحاكم. والقضاة في سنغاي كغيرهم من القضاة في البلدان الإسلامية الأخرى يتهربون من تولي منصب القضاء ولا يقبلونه إلا بعد محاولات عددة. وكان القاضي يتولى الحكم بين الناس بالإضافة إلى الإشراف على شؤون مدينة الأخلاقية ويبدو أن القاضي في سنغاي جمع بين وظيفتين المحتسب ووظيفة القاضي وهذا ما نراه في الدولة العباسية والفاطمية[6].

أما في ميدان العمارة والعمران كانت الأبنية محافظة على شكلها المحلي وضيفت لها بعض الإضافات في الفن العمراني الإسلامي مثل الصومعة من الأمنية التي لا زالت قائمة إلى حد الآن لأن منها قبر الحاج محمد الأول ومسجد جني، أما بقية المساجد المتناثرة في أنحاء المملكة لها طابع حديث[7]، وهكذا يتبين أن فن العمارة على أيام الاسقيين امتزج فيه الطابع السوداني المحلي بالنمط بالنمط الخارجي الإسلامي لأن الفن السوداني طغى عليه بصمات المحلية.

---

[1]- السلاوي، المرجع السابق، ج: 5، ص: 130.

[2]- محمود كعت، المصدر السابق، ص: 97.

[3]- حسن الوزان، المصدر السابق، ج: 2، ص: 167.

[4]- زبادية عبد القادر، المرجع السابق، ص: 138.

[5]- السعدي، المصدر السابق، ص 170.

[6]- عبد القادر زبادية، المرجع السابق، ص 75.

[7]- بازل دفنسن، المرجع السابق، ص، ص 17- 39.

4- أسباب انهيار مملكة سنغاي:

أ- الأسباب الداخلية:

مع نهاية القرن 10هـ/16م دخلت مملكة سنغاي في ظهور الضعف نتيجة لانهماك الأمراء المتأخرين في المنازعات العائلية التي أعاقتهم عن الاهتمام بشؤون الدولة وخدمة البلاد كما كلفت الخزينة مصاريف باهظة أجهدت اقتصادها الداخلي، ورافق ذلك انقسام في الآراء والاتجاهات بين السنغانيين نتج مباشرة عن ذلك النزاع المستمر على الحكم الاساقي فكان كل واحد منهم أنصار وأتباع بين أهل سنغاي فنشأت عوامل التصدع في الرأي العام، وكان ذلك من ابرز مظاهر الضعف الذي استمر ينخر في جسم المملكة ويسير بها نحو الهاووية حتى نهاية القرن 16م، حيث مهدت هذه الأوضاع إلى الحملة المغربية لبلاد سنغاي 1591م.

أثرت هذه النزاعات سلبا على مملكة سنغاي، فقد كان سلاطين المغرب الأقصى منذ عهد بعيد يتطلعون إلى مناجم الملح في تغزة للسيطرة على تجارته مع السودان وعلى تجارة الذهب أيضا، وظل ملوك سنغاي يصدون سلاطين المغرب، ومع سنة 993هـ/1585م انقسمت البلاد على نفسها، فانتهز السلطان السعدي أحمد منصور الذهبي الفرصة، كما استغل انتصاره على البرتغاليين في القصر الكبير وضعف سنغاي لاستيلاء عليها، لذا سير جيشا عبر الصحراء ليضع يده على مناجم الذهب سنة 999هـ/1590م.

سارت الحملة بقيادة جؤذر باشا وحلت الهزيمة بجند الأسكيا إسحاق الثاني، وهرب أهل غاو عبر النيجر بغير رجعة، ولم تفلح جهود الأسكيا إسحاق الثاني في وقف تقدم الجيش السعدي، فكانت معركة "توندي" فاصلة في تاريخ مملكة سنغاي، فهزم جيش الأسكيا، وبعد الهزيمة عزل الأسكيا، وتولى مقاليد الحكم الأسكيا "محمد كاع" الذي اعتقله الجيش السعدي في عام 1000هـ/ 1591م، وبهذا سقطت مملكة صنغاي الإسلامية. وأخذ المغاربة بعدها في إقرار السلام والأمن في أقاليم السودان الغربي، لكي يسيطروا على مناجم الذهب، ولم يعد باستطاعة السلطان المغربي أن يرسل جيشا آخر لأن هذه الجهود العسكرية تحتاج أموال طائلة[1].

وفي أواخر القرن 10هـ/16م خضعت البلاد لحكم الباشاوات "الأرما" القادمين مع جيش المنصور، فكان ذلك وبالا عليها قد أهمل المنصور حول الباشاوات بعد ما ظهر له قلة سنغاي من الذهب فدخلت في طور الانحطاط العسكري الذي استمر حتى القرن 11هـ/17م، مما زاد الوضع تأزما الحرب القادرية التجانية وبعدها تعرضت المنطقة للاحتلال الفرنسي.

[1]- حسن ابراهيم حسن، المرجع السابق، ص ص: 113- 114.

المحور الثالث

ممالك السودان الأوسط

المحاضرة السابعة: مملكة الكانم برنو الإسلامية

كانت منطقة بحيرة تشاد بحكم موقعها الجغرافي مركز جذب للعديد من القبائل والمجموعات البشرية سواء كانوا أفارقة أم عربا، من الشرق والشمال وحتى من المناطق المحيطة بها، وعلى هذا الأساس اختلط العرب بغيرهم عن طريق الزواج والمصاهرة، مما نتج عنه ظهور مجموعات بشرية جديدة، التي بقيت في أماكنها مادامت قوية[1]. لأن منطقة بحيرة تشاد مركز هام لالتقاء طرق القوافل المارة عبر إفريقيا، الأمر الذي جعلها مركزا نشطا، إضافة لكونها منطقة خصبة اجتذبت إليها الكثير من العناصر القوية، كما أن خلوها من العوائق الطبيعية أدى إلى تسيير القوافل منها وإليها، وهذا ما ساعد على استقرار الكثير من الجماعات البشرية بها، واشتغالها بالزراعة بجانب المجموعات التي استمرت على الحرفة الأولى وهي الرعي[2]. وحكمت أسرة الماغوميين مملكة كانم-برنو من القرن 9 إلى القرن 19م، وانقسمت فترة الحكم إلى عصرين، وهما:

1- العصر الكانمي: يبدأ من القرن التاسع إلى الرابع عشر الميلادي.

2- العصر البرنوي: يبدأ من أواخر القرن 14م إلى سقوط مملكة برنو على يدي الاحتلالين الفرنسي والإنجليزي.

أولا: مملكة الكانم

1- التسمية والموقع الجغرافي:

يقصد بمنطقة الكانم تلك المجالات المحيطة ببحير تشاد (بحيرة كوري) والتي نقع شرق البحيرة، في حين أن البرنو تقع غربها، وسكنت تلك المنطقة العديد من الشعوب والقبائل كالزغاوة والطوارق والعرب والتبو والتيدا والبولالا[3] والصو والكانوري...الخ. وذكرت كانم في المصادر العربية ذكرها ياقوت الحموي بكسر النون "كَانِمْ" من بلاد البربر وفي أقصى المغرب في بلاد السودان، وكانم هو اسم بلد وليس نسبة إلى جنس كما ذكر اليعقوبي وابن خلكان، وذكر العمري أن "كانم تقع بين إفريقية وبرقة، وتمتد جنوبا إلى سمت المغرب الأوسط، ومبدأ هذه المملكة من جهة مصر دالا -أو زالا- وآخرها بلدة كاكا بينهما ثلاثة شهور". وبذلك يكون موقع الكانم إلى الشمال الشرقي من بحيرة تشاد في السودان الأوسط، وامتدت في الشرق حتى بحر الغزال[4] وشملت واداي[5] والمناطق الواقعة إلى الغرب من بحيرة تشاد، والتي عرفت قديما بإقليم برنو وحاليا بجمهورية نيجيريا، ولذلك عرفت في التاريخ بمملكة الكانم-برنو.

---

[1]- عبد الفتاح مقلد الغنيمي ، المرجع السابق، ص 19.

[2]- عمار مرضي الجميلي، "المؤثرات الإسلامية في مملكة برنو الإفريقية". عدد 13، 2011، مجلة كلية الإمام الأعظم، بغداد، ص 316.

[3]- **البولالا**: هم فرع من الأسرة السيفية وعبارة عن أخلاط من العرب والتشاديين. ينظر: محمود شاكر، المرجع السابق، ص 37.

[4]- **بحر الغزال**: أو نهر الغزال موجود في جنوب دولة السودان، وسميت المنطقة ببحر الغزال تبعا لاسم النهر، وهو الرافد الرئيسي لنهر النيل من الجهة الغربية بطول 716 كيلومتر يجري عبر مستنقعات منطقة السد إلى بحيرة نو وبحر الجبل حيث يلتقي بالنيل الأبيض.

[5]- **واداي**: اسمها السابق "دار صليح" نسبة لصالح أو صليح مؤسس الحكم العباسي فيها حيث توارث أبناءه من بعده العرش. وهي منطقة إسلامية كانت تشمل الطرف الغربي من حوض بحر الغزال ونهيراته المتعددة، وتمتد شمالا وشرقا مكونة حاجزا بين كردفان ودارفور في الشرق، وبلاد كانم في الغرب، وتمتد شمالا حتى السفوح الجنوبية لجبال تبستي، ويقع جزء منها الآن بجمهورية السودان والجزء الآخر في جمهورية تشاد. أما عن سكانها فهم خليط من قبائل مختلفة إلا أن التنجور هم أول من حكم هذا الإقليم ثم أصبح انقسم سكانها إلى مجموعات مختلفة، منها المجموعة السودانية كالزغاوة والبيجيجا يتكلمون لغات سودانية، وجماعة الأفارقة أهمها الكانوري والتيد وهم المعروفين بالتبو، وجماعات العرب ويمثلهم أولاد سليمان وعرب الشوا. ينظر: الفيتوري، المرجع السابق، ص ص 228-229

لم تكن دولة الكانم برنو دولة واحدة منذ البداية بل دولتان متجاورتان، يشير المؤرخ النيجيري عبد الله الألوري إلى أن البربر أسسوا برنو حوالي القرن 2هـ/8م من قبل البربر، لكنها سقطت في أيد الكانميين بداية القرن 5هـ/11م، قبل أن تتحول إلى امبراطورية عظيمة امتدت إلى نهر النيجر ووسط الصحراء، وهاجمت مملكة مالي أيام ضعفها، ونافست مملكة سنغاي أيام مجدها مع الأسكيا محمد الكبير. واختلف الباحثون في تحديد نشأة دولة الكانم؛ الروايات الشفوية تجعل من سنة 184هـ/800م، حكمتها أسرة المؤسسة "**بني ساف**" من منطقة بوركو، في حين تنسب الروايات الأخرى عملية التأسيس إلى قبائل البولالا، وتوسعت مجالاتها مع القرن 5هـ/11م عندما سيطرة على مجالات البرنو وصارت تعرف باسم مملكة الكانم برنو[1]. بينما تفيد رواية الكانم بأن بطلا عربيا من اليمن هو سيف بن ذي يزن سيطر على جماعة من الرحل في الشمال الشرقي من بحيرة تشاد، ثم بسط هو وذريته نفوذهم على عدد آخر من القبائل التي أصبحا تعرف بالكانوري أو شعب كانم، وظلت الأسرة السيفية التي قامت في أوائل القرن 3هـ/9م تحكم الكانم نحو ألف سنة أي إلى حوالي سنة 1836م، وقد حكمت بعد زوال مملكة الزغاوي التي نشأت خلال ق 7 و8م[2].

أما فيما يخص حدودها الحقيقية اختلفت المصادر العربية في ضبطها، نظرا للتجاذبات التي عرفتها في إطار الصراعات المحلية والتوسعات الخارجية، ويشير نور الدين شعباني إلى أن "البكري يضع حدودها إلى ما وراء صحراء زويلة على مسافة أربعين يوما، دون الاشارة إلى حدودها الجنوبية، بينما يشير ابن سعيد إلى امتدادها إلى غاية النيل المصري شرقا، وهو ما ذهب إليه العمري". أما الدراسات المعاصرة تقول بأن الكانم كانت تسيطر على المنطقة التي تبدأ من التبستي الحالية ومنطقة الكانم الواقعة شمال جمهورية تشاد، وتشمل قسما من جمهورية نيجيريا الحالية، وفي أقصى اتساع لها يرى حسين بوبيدي بأنها ضمت فزان وودان خلال القرن 7هـ/13م، كما وصل امتدادها إلى مشارف البحر المتوسط شمالا[3].

خريطة مملكة الكانم برنو

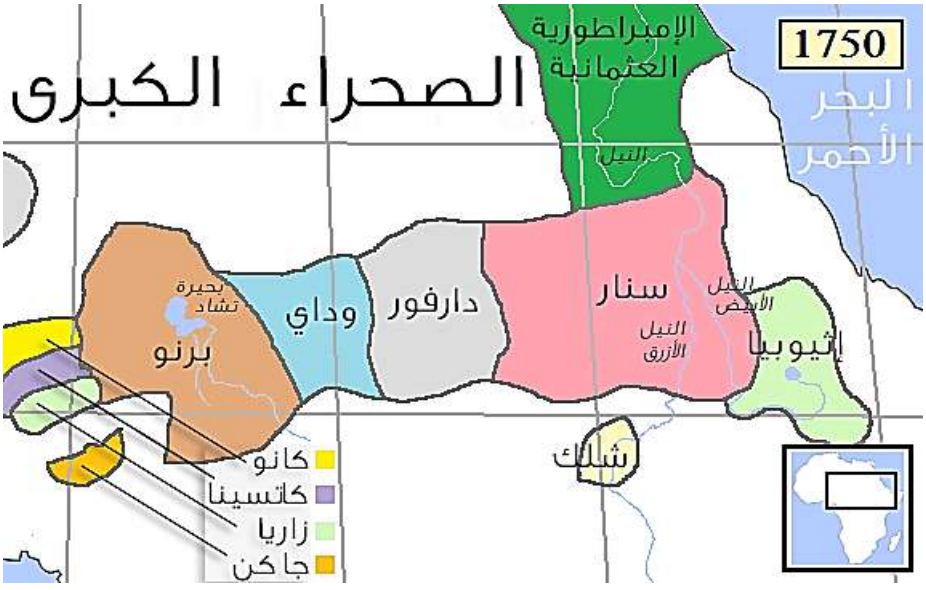

[1] حسين بوبيدي، **محاضرات الممالك الإسلامية في السودان الأوسط: مملكة الكانم برنو**، 2021/2020، قسم التاريخ، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة قسنطينة 2، ص 2، الرابط:

الفيتوري عطية مخزوم، المرجع السابق، ص ص: 219-220.

[2] عطية مخزوم الفيتوري، المرجع السابق، ص ص: 219-220.

[3] حسين بوبيدي، المرجع السابق، ص 2.

2- السكان:

من أهم القبائل التي سكنت بحيرة تشاد هم شعب الصو السكان الأصليون، الذين دخلوا في نزاع مستمر مع جماعات رعوية مهاجرة يظن أنها من البربر، وفي نهاية المطاف تمكنت تلك الجماعات من الانتصار على الصو عن طريق الخداع والمكر. كما استقرت مجموعة الكانمبو وهي خليط من الصو والبربر، ويظن أنها اكتسبت هذا الاسم من إقامتهم في منطقة كانم[1]، فضلا عن قبائل الكانوري والتي يجمعها شبه كبير بقبائل الكانمبو من حيث كونها خليطا من عناصر مختلفة من العرب والبربر والزنوج، وهؤلاء كانوا أغلب سكان برنو، وإليهم يرجع الفضل في كثرة استخدام الخيول، وأيضا قبائل الطوارق استقروا في منطقة بحيرة تشاد[2].

3- الإسلام بالكانم:

أ- الكانم قبل انتشار الإسلام:

سكنها قبل مجيء الإسلام مهاجرون من الشرق في أعقاب الحروب التي اندلعت في وادي النيل منذ عهد الهكسوس، منهم شعب السو (الصو) قيل بأنهم من الفلان، وقيل بأنهم جاؤوا من فزان، والبعض الآخر قال بأنهم شعب نيلي، اشتهروا بصناعة الفخار، وأتقنوا عمل التماثيل البرونزية، وبناء المدن المسورة والصيد. عرفت منطقتهم قدوم هجرات عديدة أولاها هجرة الزغاوة القادمين من هضبة دارفور في غرب السودان الذين كانوا رعاة وتجارا نشطين، يحكمهم ملك منعزل على نفسه، يمارس الخرافات والأساطير، ويدعي امتلاك قوة خارقة. ومع استقرار شعب الزغاوة في المنطقة بسط سيطرته على طرق القوافل التجارية، واحتك مع التجار العابرين للصحراء الكبرى من وادي النيل وليبيا إلى غرب القارة. وتشير بعض المصادر إلى ظهور طبقة حاكمة بالكانم عرفت باسم "**دوغاوا**" امتد حكمها من القرن 9-11م، ويرى البعض أن هذه الطبقة قد تكون شعب الزغاوة نفسه ولكن باسم آخر أو مجموعة أخرى استأصلت هذا الشعب وحلت مكانه[3].

يرجع تاريخ ظهور مملكة الكانم إلى الأزمنة البعيدة، لذا كثرت الروايات والأساطير حول ظهورها وأصولها، ويرجع بعضهم تاريخ ظهورها إلى ما قبل الفتح الإسلامي لشمال إفريقيا حسب الروايات المحلية، ويرجعه آخرون إلى القرن 8م بناء على ما توصلت إليها نتائج أعمال الحفريات التي قام بها المؤرخ الإنجليزي كرودور (CROWDER)، وبعضهم يرجع ذلك إلى القرن 5م، ومنهم من يدلل على وجودها قبل الميلاد على أساس التشابه في الآثار التي وجدت في قصورهم القديمة وبين آثار الفراعنة في مصر؛ خصوصا في الصناعات النحاسية وصناعة الفخار والحديد، غير أن التاريخ الثابت والمسجل لظهور دولة ذات نظم إدارية وعسكرية وقضائية يرجع إلى القرن 2هـ/8م، ثم نمت واتسعت خلال القرنين 9-10م، وذلك بفضل دخول الإسلام ورسوخه بين سكانها[4].

ب- انتشار الإسلام في تشاد:

وصل إليها الإسلام في وقت مبكر، إذ تذكر المصادر التاريخية أن وصول طلائع المسلمين في منطقة تشاد يرجع إلي القرن 1هـ/7م تحديدا عام 46هـ/666م، فقد جاء عن عقبة بن نافع ﷺ لما انتهى من فتح بلاد فزان، لم يقتصر عليها بل سار إلى قصر

---

[1]- عمار مرضي الجميلي، المرجع السابق، ص 316.

[2]- إبراهيم علي طرخان ، **إمبراطورية برنو الإسلامية**. القاهرة، الهيئة المصرية للكتاب، 1975م، ص 23.

[3]- باري محمد علي فاضل وكريدية سعيد إبراهيم، **المسلمون في غرب إفريقيا –تاريخ وحضارة**-. بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 2007م، ص ص 130-131.

[4]- فضل كلود دكو، **الثقافة الإسلامية في تشاد في العصر الذهبي لإمبراطورية كانم**. طبعة كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ليبيا، 1998م، ص 76.

جاوان أو خاورا وهي عاصمة بلاد كوار[1] فسار إليه، فلم يقدر على فتحه، فتركه وتقدم إلى الجنوب لفتح بقية البلاد كوار ففتحها حتى أتى علي آخرها، وكان في نيته أن يتقدم إلى الجنوب وراء بلاد كوار فسأل أهلها هل ورائكم من أحد؟، فقالوا: لا نعلم، فرجع وفي أثناء رجوعه مر بقصر جاوان الذي استعصى عليه فتحه فوجد أهله مازالوا معتصمين به فلم يتعرض له، وعاد من هناك لأنه لم يجد دليلا يرشده الطريق إلى الجنوب[2].

وأغلب الظن أن الطريق الذي سلكه عقبة بن نافع للوصول إلي هذه المنطقة، كان يرتبط بساحل طرابلس مباشرة، بدليل توجه طلائع المسلمين إليها بعد فتح ودان وفزان، وهذا مما يشير إلى أن بداية دخول الإسلام إلي هذه المنطقة كان من الشمال. أما الروايات التي يذكرها الكتاب بأن الإسلام دخل منطقة تشاد في القرن التاسع أو العاشر أو الحادي عشر الميلادي، وبالتحديد في عهد الملك جمي حيلمي الذي أصدر مرسوما يعلن فيه بأن الإسلام هو دين الدولة فليس بدقيق. وإن كان هذا الإعلان يعتر الشهادة الأولى للإسلام في هذه المنطقة إلا أنه من الراجح، أن الإسلام أخذ في الانتشار قبل ذلك التاريخ، فمن الثابت تاريخيا أن إقليم حوض تشاد كانت تربطه في العهد القديم طرق القوافل لنقل السلع وغيرها من مختلف النواحي[3].

وكان سكان منطقة حوض تشاد على اتصال مستمر مع مصر وليبيا والسودان قبل القرن الحادي عشر بكثير، وأن مصر فتحت في العام العشرين من الهجرة، ودار فزان فتحت عام 46هـ[4]، وليبيا مجاورة لتشاد لا يفصل بينهما سوي جبال تبو الواقعة جنوب شرق ليبيا، والسودان كذلك تعتبر المنطقة المجاورة لمصر، وبالتالي فإنه يستغرب كثيرا ألا يكون هذا الدين قد بلغ هذه المنطقة إلا في القرن الحادي عشر الميلادي أي بعد مضي أربعمائة سنة من فتح تلك المناطق التي تعتبر أقرب المناطق إلى تشاد. ثم إن رسوخ العادات والتقاليد الإسلامية بالمنطقة لا يمكن أن تتسلسل بهذه الطريقة من دين دخل في القرن 11م، وكذلك وجود المفردات العربية في لغات أهل تشاد، وبالخصوص ألفاظ العبادة، لا يمكن أن تؤثر بهذه الطريق الموجودة الآن والإسلام دخل المنطقة في القرن 11م، أضف إلي ذلك سلسلة الأنساب، إذ نجد الكثير من المسلمين في تشاد ينتهي نسبهم الخامس عشر بأسماء إسلامية، هذا كله دليل على أن الناس في هذه المنطقة قدماء في الإسلام إلا أن الدعوة لم تجد سندا يعينها في أداء مهمتها إلى أن اعتنقها الملوك، والواقع أن الإسلام دخل إلى منطقة تشاد منذ القرن 1هـ/7م، ومنذ ذلك التاريخ أخذ في الانتشار ليعم جميع أرجاء البلاد.

أي أن الإسلام قدم إلى حوض بحيرة تشاد في زمن مبكر بالطرق السلمية، قادما من إقليم فزان الذي فتحه عقبة بن نافع فقد وصل كوار شمال بحيرة تشاد سنة 46هـ/666م، وانتشر تدريجيا بالكانم في مراحل متفاوتة خاصة في الفترة 183هـ/800م، فبدأ يطرق أبوابها منذ قيامها على يد المهاجرين الذين توافدوا عليها في القرنين 9 و10م. كذلك هاجر إليها الأمويون هربا منع تتبع العباسيين لهم، كما استقرت بها جاليات إسلامية كبيرة، وقد حملت قوافل التجار عن طريق فزان وكوار وبواسطة هجرة من جماعة زغاوة أصحاب السيادة في دارفور ووداي قبل قيام دولة الفور، فهاجرت هذه الجماعة الزغاوية إلى الكانم وأنشأت فيها مملكة واسعة الأطراف امتدت فيما بين تشاد غربا إلى النوبة شرقا وحملوا معهم الإسلام إلى هذه المنطقة.

وقيل بأن الإسلام دخل على يد شخص ينحدر من أصل أموي ويدعى "الهادي العثماني"، ويرتبط ذلك مع ما ذكره البكري من أنه قد قدم إلى الكانم مهاجرون أمويون وصلوا إليها هربا من اضطهاد العباسيين، وتتحدث المصادر عن قيام داعية إسلامي كبير

---

[1]- **كوار**: تقع جنوب فزان وغرب تبستي وشمال الكانم، كانت تابعة لمملكة الكانم قبل الاحتلال، الآن هي من الأراضي التي شملتها جمهورية النيجر.

[2]- ابن عبد الحكم، المصدر السابق، ص 54.

[3]- إبراهيم علي طرخان، المصدر السابق، ص 64.

[4]- حسين مؤنس المرجع السابق، ص 119.

هو الفقيه محمد بن ماني الذى عاش في القرن 5هـ/11م، كان معمرا عاش مائة وعشرين سنة، فعاصر خمسة من ملوك الكانم الذين كانوا يعرفون باسم **المايات**، أولهم الماي بولو الذى حكم نحو 411هـ/ 1020م، وآخرهم هو الماي أوم (أومي) بن عبد الجليل (أومي جيلمي) (478-490هـ/1085-1097م) الذي تشكلت معه أول دولة مسلمة في الكانم، وجعل من الدين الإسلامي دينا رسميا للدولة، وذلك نتيجة لجهود الداعية محمد بن ماني الذي أسلم على يديه المايات الخمسة، فقد عمل على نشر الإسلام بينهم حسبما ورد في المحرم[1] الذي أصدره السلطان أومي جيلمي.

انتشر الإسلام إلى تشاد عبر الطرق الجغرافية التالية:

أ- طريق من أسيوط بمصر، ويمتد عبر الواحات غربي وادي حلفا حتي بلاد الكانم، وهو الطريق المشهور بالأربعين.

ب- طريق من أسوان بمصر حتي النيل الأزرق وكردفان بالسودان ومن ثم إلي تشاد.

ت- طريق من كسلا إلى منطقة النيل الأزرق حتي غربي السودان حيث وداي وباقرمي والكانم.

ث- طريق من طرابلس (ليبيا) عبر الصحراء إلى الكانم، وبرنو غربي بحيرة تشاد.

ج- وأخيرا طريق يبدأ بتونس إلى برنو حيث يتم الاتصال عبر هذا الطريق مع دول المغرب[2].

اتسمت الدعوة الإسلامية في تشاد بالطابع السلمي، فوجد صدى وتجاوبا لدى سكان المنطقة، وعامل الفتح الإسلامي وإن كان ساهم في إدخال الإسلام بالمنطقة، إلا أنه قد أختصر في جزء من إقليم كوار الواقع غرب تبستي وشمال الكانم، ورغم الدخول المبكر للإسلام، إلا أن الملاحظ أن تاريخ الإسلام في المنطقة لم يشتهر إلا بعد أن اعتنق ملوك المنطقة الإسلام، ربما يرجع للظروف التي ألمت بالدعوة في هذه المنطقة حيث أن الدعوة الإسلامية طوال الفترة الماضية لم تجد سندا يعينها في أداء مهمتها، وأضف إلى ذلك طبيعة المنطقة الصحراوية، وطبائع سكانها، علاوة على ذلك قلة الدعاة في تلك الفترة وضعف وسائل وأساليب الدعوة المستخدمة، حيث كانت الدعوة دعوة فردية، والسبب في يعود إلى طبيعية دخول الإسلام في القارة الإفريقية، حيث كان دخوله للقارة عن طريق أفراد غير مهيئين للعمل الدعوي وهم التجار والرحالة، مما كان سببا في انتشار الإسلام في المنطقة، ومع ذلك فقد ترك الفتح الإسلامي أثرا كبيرا في المنطقة[3].

4- ملوك كانم:

كان أول الحكام **الماي بولو** الذي حكم نحو سنة 411هـ/1020م، وآخرهم **الماي أوم بن عبد الجليل** (أومي جلمي أو حمى بن سعلمه) (479-490هـ/1085-1097م)، قصد بلاد الحجاز لأداء فريضة الحج، ولكن المنية وافته بمصر أثناء عودته فدفن بها، ومنذ عهد هذا الماي لم يتول حكم دولة كانم أي ملك وثنى، وأصبحت منذ ذلك التاريخ دولة إسلامية[4].

وخلفه ابنه **الماى دونمة بن أومي** في حكم البلاد لفترة طويلة (490-545هـ/1097-1150م) بلغت في عهده دولة الكانم درجة كبيرة من القوة والاتساع وطبقت شهرته الآفاق، وحج ثلاث مرات. وفى عهده بُنيت مدرسة ابن رشيق في فسطاط مصر بأموال كانمية، كي تكون موئلا للحجاج القادمين من الكانم وبلاد التكرور. كما قام بالجهاد لنشر الإسلام في الإمبراطورية، ووسع حدودها

---

[1] - **المحرم**: هو المرسوم السلطاني الذي يصدره الملوك لصالح رعاياهم من العلماء وغيرهم.

[2] - حسن إبراهيم حسن، **انتشارالإسلام**، ص 12.

[3] - إبراهيم طرخان، المرجع السابق، ص 68.

[4] - فضل كلود، المرجع السابق، ص 45.

لغاية بلاد النيجر والهوسا وباغرمي وشاري، وأدى فريضة الحج غير مرة، وهو أول من بنى مسجدا في مدينة بالاك (BALAK) شرق الكانم.

الماي بري بن دونمة (545-572هـ/1150- 1176م)، كان فقيها مثقفا، لكنه كان متشددا في أحكامه وعقوباته؛ حيث حكم بالقتل على السارق بدلا من عقوبة قطع اليد، ولذا سجنته أمه مدة عام عقابا له على هذا الحكم، وقد وصفه بعض المؤرخين بالضعف لهذه الحادثة. ولكن هذا إنما يدل على قوة الإسلام والتمسك به في عهده، ومدى طاعته لوالدته التي اشتهرت بالعلم والورع، وكانت وصية على ولدها تُشرف على شؤون المملكة حينما كان صغيرا، ظل يحكم بالعدل والشريعة إلى غاية وفاته[1].

عبد الله بن بكر بن بري (572-590هـ/1176-1194م)، ثم تولى الحكم من بعده **الماي سالم بن بكر عام (590-617هـ/1194-1220م)**، اشتهر عهده بنشر الإسلام وثقافته، عن طريق تشجيع العلماء وبناء المساجد والمدارس التي تعلم القرآن الكريم، وقرأ بنفسه مائة وخمسين كتابا على يد العالم الجليل أبي عبد الله ديلي بن بدر الكانمبو، وهو أول سلطان من سلاطين وملوك السودان بعث بكسوة إلى الكعبة.

الماي دونمة بن سالم بن بكر (617-657هـ/1220-1259م)، واشتهر باسم **"دونما بن دبال"** نسبة إلى والدته دابال، حيث كانت النسبة إلى الأم شيئا مألوفا ومشهورا في هذه السلطنة بالذات. عرف عنه الجد والحزم، واشتهر بقوة فرسانه، وكثرتهم حتى قيل إنها بلغوا 41 ألف فارس، فوسع رقعة الدولة حتى وصل بها إلى منطقة فزان شمالا، وضم إقليم دارفور في الشرق، وحطم المعبد الوثني الذي عرف باسم ميون (MUNE)، فوضع بذلك حدا للأوهام والخرافات التي كان السكان يعتقدونها، وهو أول من تلقب بأمير المؤمنين تأسيا بالسلطان الحفصي المنتصر في تونس (1249-1277م) الذي تلقب بأمير المؤمنين، وكانت هناك علاقات ودية بين الكانم وبلاط تونس. وقد حارب القبائل المتمردة، مثل قبائل البولالا الذين كانوا يعيشون في حوض بحيرة فترى الصغيرة الواقعة إلى الشرق من بحيرة تشاد، وأخضعها. واتسعت الإمبراطورية في عهده حتى وصلت شرقا إلى مشارف وادى النيل، وغربا قرب نهر النيجر، مما يعنى أن بلاد الهوسا التي تشكل الآن نيجيريا الشمالية كانت تحت سيادته وسلطانه، كما امتدت حدود بلاده شمالا حتى وصلت قرب فزان الليبية واقتربت مساحتها من مساحة إمبراطورية سنغاي الإسلامية[2].

وبعد عهد الماي دونمة دخلت البلاد في حالة من الفوضى بسبب الصراع على أولاده العرش، وتصاعد الصراع الإسلامي الوثني، وظهور خطر قبائل الصو التي كانت تسكن في إقليم برنو وقيامها بمهاجمة عاصمة الدولة، إضافة لصراعهم مع قبائل البولالا، الذين ازدادوا ضراوة بعد أن تمكنوا من إقامة سلطنة صغيرة لهم في حوض بحيرة فترى واتخذوها مركزا لمناوأة أبناء عمومتهم من مايات الكانم برنو، وتمكنت سلطنة البولالا التي ظهرت قوتها في عهد سلطانها عبد الجليل بن سيكوما أن تشن حربا شرسة ضد الأسرة السيفية الماغومية الحاكمة في الكانم، وتمكن سلطانهم هذا من قتل أربعة من المايات من هذه الأسرة، وانتهى أمر الصراع بين الفريقين إلى طرد الأسرة السيفية الحاكمة في الكانم إلى إقليم برنو الذي يقع غرب بحيرة تشاد.

[1]- علي يعقوب، "الثقافة الإسلامية في إمبراطورية برنو الإسلامية". قراءات إفريقية، 2014م، ص: 33.

[2]- الفيتوري عطية مخزوم، المرجع السابق، ص: 133.

ثانيا مملكة برنو

1- الموقع الجغرافي:

تقع غرب منطقة بحيرة تشاد باعتبارها من دول وسط أفريقيا. يحدها شمالا الصحراء الكبرى وجنوبا الأراضي المجهولة أو ما يسمى بالهمج، وغربا بلاد الهوسا وقبائل بنبارا، وعاصمتها كوكا أو كوكو قرب بحيرة تشاد، وشرقا بلاد التكرور.

2- نسبهم:

لم تذكر الكتب الجغرافية العربية اسم برنو إلا في الربع الأول من القرن 7هـ/13م، ولم يشر إليها كثير من الباحثين الذين ذكروا الكانم. وهذا يعطي إشارة إلى الدور المتأخر الذي أدته برنو في التاريخ الإفريقي والإسلامي ذلك أن برنو كانت داخلة ضمن إمبراطورية الكانم. وأول من أطلق اسم البرنو على تلك الدولة هو الرحالة ابن سعيد المغربي. وبُرنو بضم أو فتح الباء، لم تكن في بداية الأمر اسما على مكان ولا يزال عرب منطقة تشاد يطلقون على قبائل الكانوري (شمال نيجيريا) اسم برنو صيغة أخرى لكلمة برّان أو برام، وكلاهما صيغة الجمع لكلمة برّ ومعناها الرجل أو المحارب في كثير من لغات أهالي الصحراء الكبرى.

فيما يخص النسب البرنوي فهناك روايتان تختلف إحداهما عن الأخرى، لكنهما تؤكدان النسب العربي، الرواية الأولى: يشير البرنويون على أنهم ينحدرون من سلالة سيف بن ذي يزن الحميري، وهذا ما أكده الماي عثمان بن إدريس البرنوي لأحد سلاطين المماليك، بقوله: "... ونحن بنو سيف بن ذي يزن، والد قبيلتنا العربي القرشي، وكذا ضبطناه عن شيوخنا". حتى أساطير برنو تذكر أن أول ملوكهم إحدى عشر ملكا أولهم هو سيف بن ذي يزن[1]. ويؤكد هذا النسب صحة انحدارهم من أصل ملثمي من صنهاجة الجنوب وينتسبون إلى الحميريين. أما الرواية الثانية فتشير إلى انحدارهم للنسب الأموي، ويقولون أنه خلال فترة الفراغ التي أعقبت زوال الأمويين قدم إلى إفريقيا أمير أموي بصحبة بعض أتباعه فتزوج من امرأة بربرية فهم من سلالة هذا الأمير من جهة النساء[2].

وأخذ المؤرخين العرب على محمل الجد بأن أصلهم البربري، فضلا عن مزاعمهم بشأن الخلافة، إذ يشير البكري إلى ذلك بقوله: "وبلد كانم أربعون مرحلة وهم وراء صحراء بلد زويلة...وهم سودان مشتركون ويزعمون أن هناك قوما من بني أمية صاروا إليهم عند محنتهم بالعباسيين وهم على زي العرب وأحوالهم"، وهو ما أشار إليه أيضا كل من الإدريسي وابن بطوطة. وتشير الأدلة إلى أن الموجات البشرية التي زحفت إلى غرب أفريقيا واستمرت عدة قرون تتمثل في شعب الزغاوة وشعوب مماثلة، ومن نتائجها الاختلاف عن التفاعل الذي حدث بني سكان أفريقيا من جهة وبدو الصحراء من جهة أخرى، فضلا عن أن شعب الهوسا التي كانت لغته غير زنجية إلا أنها تنتمي إلى اللغة الحامية، وهذا يعني أن الهوسا والبرنو كانا من الشعوب الرعوية أي من الحاميين في حالة الهوسا، والنيلو ساهاران (Nilo Saharan) في حالة الكانم والبرنو وبالتدريج استقروا بين جماعات من الزنوج الزراعيين الذين تحولوا تدريجيا إلى أتباع لهم[3].

3- انتشار الإسلام ببرنو:

إن عملية انتشار الإسلام في برنو مرتبط ببداية نشره في شمال القارة، ففي عام 22هـ/642م اتجه الجيش العربي الإسلامي إلى شمال أفريقيا بقيادة عقبة بن نافع الفهري لاسيما منطقة زويلة عاصمة فزان، إلا أن الحملة الواسعة والأشهر في تاريخ السودان

---

[1]- المقريزي تقي الدين، **الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الاسلام**. تحقيق تعليق عبد النعيم ضيفي عثمان عبد النعيم، القاهرة، المكتبة الأزهرية للتراث، 2006م، ص 105.

[2]- القلقشندي، المصدر السابق، ج 5، ص ص 280-283.

[3]- فيج . جي . دي، **تاريخ غرب أفريقيا**. ترجمة السيد يوسف نصر، القاهرة، دار المعارف، ط1، 1982م، ص ص 71-80.

الأوسط هي حملته التي كانت عام 46هـ/666م لفتح فزان، فسار إلى المغرب بعد معاوية بن حديج ومعه بسر بن أرطأة وشريك بن سحيم المرادي في جيش قوامه أربعمائة فارس على أربعمائة بعير مع ثمانمائة قربة ماء حتى قدم ودان ففتحها، ثم انطلق إلى قلعة كوار الواقعة جنوب فزان ففتحها أيضا[1].

وكان من نتائج هذه الحملة العسكرية إخضاع القبائل الصحراوية للحكم العربي الإسلامي بشكل ثابت وانتشار الإسلام فيهم، كما فتحت الحملة الطريق أمام العرب المسلمين للوصول بنشاطاتهم التجارية والسياسية والدينية إلى مناطق السودان الأوسط[2]. وبعدها بدأ الإسلام ينتشر بين ممالك السودان الأوسط، وتاريخ انتشار الإسلام في برنو مرتبط بدخوله في مملكة كانم، إذ دخلها عن طريق مصر القرن 5هـ/11م، بينما جعله آخرون في القرن 4هـ/10م. ولقد انتشر الإسلام صوب الشرق نافذا إلى منطقة بحيرة تشاد إذ قامت سلطات كانم وبرنو، ففي الفترة ما بين (184-648هـ/800-1250م) كانت هجرات الزغاوة وهم شعب جمع بين المؤثرات الزنجية والحامية انتشروا في مستهل هذه الفترة في مساحة رحبة تمتد من بلد دار فور حتى بحيرة تشاد. وبما أن برنو كانت مرتبطة بكانم، فإن الإسلام دخل إليهما سويا، إلا أن الذين عرضوا تاريخ برنو يختلفون في الوسيلة التي دخل بها الإسلام لهذه النواحي، فباملر يرى أن هجرة أموية دخلت هذه البلاد قادمة من مصر، ويشير في مواضع أخرى أن فريقا من فقهاء المالكية فروا من مصر في عهد الفاطميين لاسيما الظاهر (411-427هـ/1021-1036م)، والتجأوا إلى بلد كانم فعملوا على نشر الإسلام بين أهليها[3].

ويعتقد أن الإسلام دخل في ركاب هذه الأسرة الحاكمة، وإن إدخال هذا الدين هو من مكن لها السيطرة على البلاد، ثم الوثوب على الحكم. وتؤكد الروايات البرنوية المحلية بأن الهادي العثماني (678-700هـ/1279-1300م) الذي أدعى بأنه من ولد عثمان بن عفان، هو من أدخل الإسلام إليهم، فقد اقترن عهده بنشاط الدعوة الإسلامية. وعلى هذا الأساس يمكن القول بأن الإسلام دخل في ظل الأسرة الحاكمة في أواخر القرن 5هـ/11م ثم ثبت أقدامه وتوطد في القرن 6هـ/12م، فضلا عن أن أهل برنو دخلوا الإسلام طوعا من دون إجبارهم أو الاستيلاء على ممتلكاتهم ليسلموا.

4- تأسيس المملكة:

بعدما أفل نجم الكانم في القرن 10هـ/16م أصبحت جزءا من برنو، وهذه المملكة تعد أقدم وأكبر دولة شهدتها منطقة السودان الأوسط، توسعت حتى شملت منطقة السافانا خاصة في الإقليم الواقع شرق بلد نهر النيجر، وشرقا إلى نهر النيل وعلى الصحراء الليبية في الشمال. وقيام برنو كدولة يعني انتقال السلطة إلى فرع آخر من هذه السلالة وانتقال مركز النفوذ من شرق البحيرة إلى غربها ألا وهي بلد برنو، فقامت سلطنة برنو في حجر الأسرة نفسها، وذلك أن قبائل البولالا من أهل البلاد الأصليين ثاروا على استبداد الأسرة الحاكمة الكانم، وأعلنت الحرب واقتحموا عاصمتهم جيمي[4]. وفي ظل هذه الظروف العصيبة التي مرت بها الكانم كان لابد لها من معني يعينها على شدتها، لذلك أحسنت برنو استقبال الأسرة السيفية الفارة من الكانم وكان لكثير من ملوكها أخلاق وسير حميدة، إذ أن هناك نقطة مهمة ترتبط بالفترة التي أقامها ملوك هذه الأسرة في برنو وهي أن الإسلام زاد انتشارا وتمكنا.

---

[1]- ابن عبد الحكم، المصدر السابق، ص 194.

[2]- الشيخلي إبراهيم صباح، "تطور الوجود العربي في صحارى فزان ما بين القرنين الأول والسادس الهجريين". المجلة العربية للعلوم الإنسانية، عدد 23، مجلد 6، سنة 1986م، ص 38.

[3]- عمار مرضي الجميلي، المرجع السابق، ص 319.

[4]- القلقشندي، المصدر السابق، ج 5، ص 281.

وبالنسبة إلى نظام الحكم فهو ملكي وراثي عن طريق الأم مثل باقي الملوك في السودان الغربي والأوسط، غير أنه بانتشار الإسلام أصبحت الوراثة عن طريق الأب هي السائدة. وكان الملك الجديد ينتخب من بين أبناء الملك المتوفى وليس من الضروري أن يكون أكبر الأبناء[1].

ومن بين عادات برنو أنه عند انتخاب الملك الجديد يأتي أبناء الملك المتوفى، وبيد كل واحد منهم ورقة مكتوب عليها اسمه، فتلقى هذه الأوراق في قرعة يابسة، ثم تلتقط ورقة صاحب الاسم الموجود بها فيكون هو الملك العتيد. ويشرف على هذه العملية ثلاثة من كبار الدولة أحدهم، ويقودونه إلى غرفة مظلمة أو فيه ضوء خافت إذ يوجد فيها جثمان الملك المتوفى، وهنا تؤخذ الأيمان والمواثيق على الملك الجديد، وكان الملك يلقب بـ"**الماي**" (Me) أو "ماغ" (Magh) الذي يعني الملك ولكن اللقب الذي اشتهر أكثر هو الماي، وبقي مستخدما حتى منتصف القرن 13هـ/19م، وبعد وفاة آخر سلاطين الأسرة السيفية تلقب أفراد أسرة محمد الكانمي بلقب "**الشيخ**"[2].

أ- ملوك برنو:

حكم المملكة العديد من الحكام الأقوياء الذين استطاعوا أن يؤسسوا مملكة قوية مع امتدادها وانفتاحها الخارجي مع بقية الدول، ويعد **غازي بن دونما (877-908هـ/1475-1502م)** المؤسس الحقيقي للدولة الجديدة في برنو، إذ استطاع أن:

- القضاء على الحروب الداخلية كما أنشأ نظاما إداريا مستقلا فضلا عن تشييده عاصمة جديدة على نهر يو (غرب بحيرة تشاد) وسماها "نغازاغامو" (Ngazargamu)[3]، ثم مد نفوذه إلى بعض دول الهوسا التي تقع الآن شمال غرب نيجيريا، وأخذ منها الجزية بما فيها كانو.

- وفي عهده كانت الحرب قائمة مع البولالا وغيرهم، إذ أن البولالا كانوا يريدون السيطرة على الأقاليم التي تحكمها الأسرة السيفية في برنو، لكن قوة البولالا ضعفت بسبب ظهور قوة الأتراك العسكرية في المشرق، فسارع المايات في جلب المدربين الأتراك لإعادة تدريب الجيش، فتشكلت سرية من حملة البنادق، وفى هذا الصدد اتصلت سلطنة كانم وبرنو بحكام مصر، من ذلك الرسالة التي أوردها ابن فضل الله العمري والقلقشندي وأشارت إلى استغاثة سلطان البرنو بسلطان مصر الظاهر برقوق فى عام 795هـ/1393م لمساعدته في القضاء على تمرد القبائل العربية التى ساعدت خصومه السياسيين من البولالا. وسلاطين مصر لم يساعدوا البولالا بسبب مجيء العثمانيون إليهم فانشغلوا بهم[4].

- واجه وثني الجنوب الأقوياء الذين شكلوا اتحادا سمي بـ"الكوارارافا" ضمن القبائل الآتية الكوتوكو والماسا والموسغو، إلا أن هذا الاتحاد تم التغلب عليه بعد معركة طويلة وقوية.

ثم حكم من بعده ابنه **إدريس بن علي غازي (908-932هـ/1502-1526م)**: الذي حذا حذو أبيه جهز جيشا قوامه سبعون ألفا ضد البولالا وأنزل بهم هزيمة ساحقة، واستولى على كانم من جديد ودخل عاصمتها جيمى وأقام فيها فترة ثم عاد إلى عاصمته بيرنى، وقبل البولالا دفع الجزية، فقنع إدريس دون متابعة الهجوم عليهم.

علي بن إدريس(952-953هـ/1545-1546م): حارب البولالا حتى قتل في أحد معاركه معهم

---

[1]- إبراهيم علي طرخان، المرجع السابق، ص 151.

[2]- باري محمد علي فاضل وكريدية سعيد إبراهيم، المرجع السابق، ص 142.

[3]- **نغازاغاموا:** تقع اليوم في شمال شرق نيجيريا عللا بعد 30 كلم شرق مدينة غيدام (Geidam).

[4]- عمار مرضي الجميلي، المرجع السابق، ص 122.

"إدريس عَلَوْمَهْ بن عائشة" (ألوما) (987-1011هـ/1570-1602م) اعتلى العرش بعد سنوات كانت أمه عائشة وصية عليه فيها، ومعه عرفت الأسرة السيفية قمة مجدها فقد كان عادلا وحكيما، من أهم أعماله:

- اعتنى بالأيتام والأرامل، ووجه اهتماما بالغا للإصلاح في الداخل والخارج.

- أول عمل أقدم عليه هو تأدية فريضة الحج، أين عرف خلال هذه الرحلة قيمة الأسلحة النارية الجديدة فاشترى الكثير منها من الأتراك العثمانيين، كما استخدم عددا كبيرا من العرب في جيشه، وأخضع قبائل البربر شمال مملكته في منطقة جبال آير (Aïr)[1] فاستطاع بذلك هزيمة الطوارق ودخول بعض القرى التابعة لكانو لكنه لم يأخذ كانو نفسها. كما واجه خطر البولالا الذين شنوا الغارات على المملكة واحتلوا ثالثة مدن برنوية، فقام إدريس بمطالبة زعيم البولالا بإعادة هذه المدن إلا أنه رفض فقام إدريس بالتوجه نحو كانم وأوقع عدة هزائم بهم ثم أخلى كانم من سكانها.

- واجه أيضا خطر الوثنيين وقبائل النجيزيم في شرق وجنوب المملكة، فأمر جنوده بإقامة الحصون وقلع غابات العدو في الصيف، وإتلاف محاصيلهم في الشتاء، فجرت معركة قوية جدا صمد فيها العدو طويلا، لكنه استسلم أخيرا أمام حملة البنادق من الأتراك ورجال الحرس المدربين على الأسلحة النارية الصغيرة، ويبدو أن فترة حكم إدريس ألوما شهدت العدد الأكبر من الأعداء والخصوم، إذ شكل قبائل الطوارق مصدر قلق بسبب الإغارة على الفولاني، وبعد محاولات عديدة بين الطرفين تم إلحاق الهزيمة بهم مع الاعتراف بسيادة برنو، إضافة لخضوع دار فور لسلطة برنو[2].

- نظم السلطات التنفيذية والتشريعية والقضائية وفصل بينها، وسياسيا تمكن من توحيد القبائل المختلفة التي تسكن مملكته وهذا أعظم انجاز سياسي قام به.

- شهد عصره قوة برنو فضلا عن قيام دولته الجديدة كقوة حربية، فأصلح المؤسسة العسكرية، فقام باستقدام فصيلة من حملة البنادق الأتراك التي قامت بتدريب حرسه على الأسلحة النارية، فأصبح جيشه يضرب به المثل بقوته فحلت الإبل والجياد محل البغال والقوارب الكبيرة محل الأشجار المجوفة.

- كما عمل على نشر الإسلام، وبذل جهدا كبيرا ليجعله دين الدولة، لأن طبقة الحكام والفقهاء هي التي تدين وحدها بالإسلام الحقيقي. واقتبس التشريع الإسلامي والعمل به، وشيد المساجد الضخمة المبنية من الحجارة، فقد بنى مسجدا بالطوب الأحمر، وأنشأ في مكة المكرمة مقرا لحجاج برنو، واتبع الفكر الإسلامي في نظام الأسرى وأصبحت حروبه لنشر الإسلام تابعة للفكر الإسلامي، ولم يعد هناك إكراه لأي شخص لدخول الإسلام[3].

وبعد وفاته اتجهت مملكة برنو إلى الضعف والانهيار تارة وإلى النهوض المتأخر المؤقت تارة أخرى، فقد حكم من بعد أبناءه الثلاثة الواحد تلو الآخر فجاء ابنه للحكم وهو محمد بن إدريس (1603-1618م) الذي اتسم عهده بضعف برنو وتدهورها، واستشهد في حروبه مع القبائل الوثنية. ثم خلفه أخوه **إبراهيم بن إدريس ثم عمر بن إدريس (1625-1644م)** الذي بدأ عهده بالتدخل في سلطنة الطوارق، وتمكن من أن يفرض عليهم الشخص الذي يريده، إلا أن الطوارق أبعدوا هذا الشخص، وفي نهاية المطاف تم الاتفاق على استقلال الطوارق شريطة ترك القوافل التجارية المارة بها وشأنها.

---

[1]- آير: تقع في شمال دولة النيجر.

[2]- عمار مرضي الجميلي، المرجع السابق، ص ص 321-322.

[3]- محمد علي فاضل باري وسعيد إبراهيم كريدية، المرجع السابق، ص 139.

ثم جاء خلفه حفيده علي بن عمر بن إدريس حكم أربعين سنة (1645-1685م) وكان كجده إدريس علومه في الكفاءة والبطولة فأعاد هيبة البلاد، وفي عهده تمسكت برنو بالسيطرة على الصحراء قاتل سلطان أغاديس وطرد الطوارق إلى الصحراء، لكن حدثت مجاعة دامت أربع سنوات اضطرته للانسحاب، وحج ثلاث مرات. ثم خلفه إدريس بن علي ثم دونمة بن علي ثم حمدون بن دونمة (ت: 1738م) ثم السلطان دونمة بن حمدون الذي تفشت المجاعة في عهده، ثم خلفه ابنه السلطان علي بن دومنة الذي كان عادلا ومحبوبا مقربا للعلماء، ثم تولى بعده أحمد بن علي الذي شارك العلماء في دراساتهم، لكنه غفل عن المغيرين على البلاد فتركهم يفعلون ما يبتغونه،كما ترك الأهالي نهبا لقطاع الطرق فأهملوا الزراعة ففتكت بهم المجاعة لسنوات، فهاجمتهم قبائل البولالا فلم يستطيعوا ردهم[1].

6- نهاية الأسرة السيفية الحاكمة في برنو وظهور محمد الأمين الكانمي:

في ظل هذه الأوضاع المضطربة برزت قوة الفولانيين مع القرن 19م بقيادة زعيمهم عثمان دان فودي الذين انتشروا في أقاليم الهوسا إلى الغرب من برنو، ثم أخذ يوسع سلطانه فسيطر على جميع الأقاليم الخاضعة تحت حكم برنو في عهد الماي علي بن الحاج عمر حمدون (1645-1685م)، وفي عام 1808م قام عثمان بمهاجمة برنو فلم تصمد أمام هذا الهجوم مما اضطر ملكها للفرار أمام الجيش باتجاه كانم. فنشبت بين الطرفين معارك وحروب طاحنة تمكن من خلالها الفولانيون من الاستيلاء على أغلب مناطق المملكة إلا أن الشيخ محمد الأمين الكانمي من فزان كان شيخا فاضلا عالما، تمكن في سنة 1811م من وقف هذا الزحف معتمدا على قوة تم تشكيلها من القبائل العربية ومن الكانمبو هي الخيالة المكونة من 30 ألف وعشرة آلاف راجل، ثم أخذ في تنظيم شؤون الدولة فحصنها وشيد العديد من المباني ودور العلم[2].

وتمت استعادة الأراضي البرنوية من الفولانيين مع إعادة السلطة للملك الهارب أحمد، وأصبح محمد الأمين الكانمي الحاكم الفعلي وصاحب النفوذ باعتباره مخلص الشعوب من الاحتلال، فاستمر يحكم ما بقى من إمبراطورية كانم-برنو، وأجرى مفاوضات مع سلطان الفولانيين محمد بلو الذي خلف أباه الشيخ عثمان بن فودى فى زعامة الفولانيين، واتخذ من مدينة سوكوتو عاصمة له، فأرسل له الشيخ الكانمى رسائل أوضح له فيها أنهم أهل دين واحد هو الإسلام، وأنه لا ينبغى أن يحارب بعضهم بعضا وأن كلا منهما يجب أن يحترم حدود الآخر، فهدأت الأحوال بين الدولتين حتى وفاة الشيخ محمد الأمين الكانمى. لكن الماي أحمد لم يرق له ذلك فقرر عدم الالتزام بوصايا الشيخ الكامني، فهاجر مدينة بربروا واستقر شمال غرب بحيرة تشاد إلا أنه عجز عن استعادة الاستقلال، فاستولى الكانمي على السلطة مباشرة وحكم البلاد من العاصمة كوكا التي بناها سنة 1814م[3].

وحكم من بعد الماي أحمد ابنه **دومنة بن أحمد (1807-1811م)** والشيخ الكانمي هو الحاكم الفعلي، وكان دومنة حريصا على التخلص من الشيخ لكن كثرة الاعتداءات اضطرته لاستدعاء الشيخ الكانمي، فأعاده إلى الحكم مع تجريده من الصلاحيات حتى وفاة الشيخ سنة 1839م وكان قد اعتزل الحكم قبلها، فخلفه ابنه الشيخ عمر بن محمد (1835-1880م).

وفى عهد هذا الشيخ حاول الماي إبراهيم بن أحمد (1817-1847م) أن يسترد سلطاته التي سلبها منه الشيخ محمد الأمين ثم ابنه عمر، واستعان في ذلك بأمير دويلة صغيرة تقع بين كانم ودارفور تسمّى "واداي" وتآمر معه لغزو برنو، ونفذ أمير واداي الخطة المتفق عليها وأباد جيش برنو في 1846م منتهزا فرصة غياب الشيخ عمر عن العاصمة؛ لحرب كانت واقعة بينه وبين أحد جيرانه

[1]- محمد علي فاضل باري وسعيد إبراهيم كريدية، المرجع السابق، ص ص 138-139.

[2]- الفيتوري، المرجع السابق، ص 227.

[3]- إبراهيم علي طرخان، المرجع السابق، ص 130.

الآخرين، ولما علم الشيخ عمر بنبأ هذا الغزو وهذه المؤامرة عاد إلى برنو، وأخرج الغزاة منها نظير مبلغ كبير من المال دفعه لهم، وقبض على الماي إبراهيم ومستشاريه وأعدمهم جميعا، ثم تخلّص من الماي على بن دالاتو عام 1846م الذي لم يحكم سوى أربعين يوما وكان مفروضا عليه كشرط لرحيل جيش أمير واداي عن برنو. وبمقتل على بن دالاتو انتهى حكم الأسرة السيفية الماغومية التي ظلت تحكم هذه البلاد أكثر من ألف عام، وأصبحت برنو تحت حكم الأسرة الكانمية. وحكم بعد عمر ابنه أبو بكر (1880-1884م)، وبعده أخوه إبراهيم حكم لمدة عام واحد لكن الشيخ هاشم (1885-1893م) خلعه، وفي عهده دب الضعف في برنو ذلك أنه شغل نفسه بالقصور والحريم ولم يعر اهتماما للإدارة والسلطة[1].

كانت برنو بحكم موقعها وظرفها هدفا لحركات الاصلاح السنوسية في طرابلس والتي انتشرت بها زواياهم، فضلا عن الدعاية المهدية المنطلقة من سودان وادي النيل. وكان من الممكن أن تثمر هذه الحركات في رد الاسلام لنقائه وقوته، وتوطد أواصر الوحدة بني المسلمين لولا تعرض برنو لغارات الاستعمار. ومع نهاية القرن 19م تعرضت برنو لهجوم زعيم سوداني يدعى "**رابح الزبيري**" الذي كان يعمل في الجيش المصري، فجهز جيشا قويا تعداده ألف وخمسمائة من الجنود المسلحين بالبنادق فهزم به جيش سلطان وداي وبيغرمي. وفي عام 1893م احتل رابح مناطق برنو المختلفة كنغوليوا ودايباني مع قتله لابن عمر الكانمي "بوكار" آخر ملوك أسرة الكانمي، وأصبح هو حاكم برنو، وفي نهاية المطاف دخل في صراع مع الفرنسيين الذين كانوا يحاولون دمج ممتلكاتهم في شمال أفريقيا بممتلكاتهم في غرب أفريقيا، وبعد معارك عديدة معهم تمكن الفرنسيون في عام 1900م من قتله في موقعة قوصيري، فدخلت فرنسا المنطقة مع شريكها بريطانيا وتقاسما أراضي برنو التي لم يعد فيها أي سلطة إسلامية[2]. وهكذا تلاشت إمبراطورية البرنو مطلع القرن 20م، وقامت حركات الكفاح الوطني ضد المستعمر الأوربي حتى كتب لها النجاح، ومن الدول الإفريقية في وسط وغرب القارة التي قامت على أنقاض مملكة برنو أو ضمت أجزاء منها، هي:

- جمهورية تشاد: وتشمل أغلب الأجزاء الشرقية من إمبراطورية برنو وإقليم كانم بأكمله.
- جمهورية إفريقيا الوسطى: تضم الأطراف الجنوبية من برنو.
- جمهورية النيجر: تضم أغلب الأجزاء الشمالية والشمالية الغربية من برنو.
- جمهورية نيجيريا: تضم كل إقليم برنو.
- جمهورية الكامرون: تضم بعض الأجزاء الجنوبية والجنوبية الشرقية من برنو.

7- التنظيمات الإدارية:

قسمت مملكة برنو إلى اثني عشر إقليما، يحكمها رؤساء محليون تحت إشراف ممثلي الملك، ولها طابع إقطاعي، ومن بين الأشخاص المهمين الأمراء الإقطاعيون الأعضاء في المجلس الأعلى. وفي البلاط كانت "الماجيرا" الملكة تمارس نفوذا كبيرا يساعدها الأمراء والمعلمون والرقيق، ويتكون مجلس الملك من طبقتين:

طبقة الكاروبي: وهم المستشارين الأحرار مولدا.

طبقة الكاتشيلا: الرقيق.

أما الموظفون الاثنا عشر الموزعين على الأقاليم، أهمهم الأربعة الأوائل وهم:

[1]- محمد علي فاضل باري وسعيد إبراهيم كريدية، المرجع السابق، ص 139.

[2]- عمار مرضي الجميلي، المرجع السابق، ص 325.

1. **كيغامة**: لقب يعطى لمن يتولى الإشراف على القسم الجنوبي من برنو، وهي الأقاليم التي تحيط بالشواطئ الجنوبية لبحيرة تشاد، ومن اسم هذه البحيرة اشتق اسم هذه الوظيفة، فقد كانت البحيرة تعرف باسم"كايغام" (Kaigam)، ويعتبر كيغامة أكبر الحكام منزلة إذ يقوم كذلك بمنصب القائد العام للجيش.

2. **يريمة**: حاكم القسم الشمالي من برنو، واسمه مشتق من كلمة "يري" (Yeri) والتي تعني الشمال.

3. مسطرامة: رئيس الخصيان وشؤون قسم الحريم بالقصر الملكي، وعادة ما يكون من المقربين من الملك.

4. **غلديمة**: حاكم القسم الغربي من برنو، واسمه مشتق من كلمة "غالدي" (Ghaldi) والتي تعني الغرب.

أما الحكام الإداريون فمنهم الأحرار ومنهم العبيد، ليس ولكن كانوا يمنحون اقطاعات من الأراضي، وقد مكنهم هذا الوضع من جمع ثروات مالية طائلة من مناطق نفوذهم، فكان عليهم تأدية جزية وهدايا في كل سنة[1].

5. دوغما: (Dugma) الموظف المسؤول عن الشؤون الخارجية أي الوزير.

6. **تشيرومة**: ولي العهد.

7. **اريجينومة**: حاكم بعض الولايات الشمالية.

8. **فوفومة** : محافظ العاصمة.

9. **كاضلمة**: حاكم بعض الولايات الشرقية.

10. **كاغوستمة** : حاكم بعض الولايات الغربية.

11. **بغارومة**: من كبار الضباط.

12. **يرومة**: رئيس الخصيان.

8- الأوضاع الاقتصادية:

أ- الزراعة والصناعة:

اشتهرت برنو بزراعة المحاصيل وهذا ما أكده القلقشندي "وبلادهم قحط وشظف وسوء مزاج مستول عليها، وغالب عيشتهم الأرز والقمح والذرة، وببلادهم التين والليمون واللفت والباذنجان والرطب، ومن المحاصيل كذلك القطن والنخيل". وبالنسبة إلى الصناعة البرنوية فكانت مشتهرة بصناعة المنسوجات المختلفة، وصناعة الأسلحة والحديد، كانت دائما بحاجة إلى سلاح لحماية ممتلكاتها فضالا عن الإغارة على القبائل الوثنية. وتعامل أهالي برنو بالذهب كعملة وكذلك النحاس إلى جانب استعمال عملات أخرى التي شاعت في ذلك الوقت كريال ماريا تريزا وهو ريال أسباني يسمى في مصر بأبو طاقة، وتمتاز هذه العملة بأنها ثقيلة الوزن ومصنوعة من معدن نفيس فضلا عن التبر، والعملات الأخرى التي تستعمل لأغراض التجارة على نطاق واسع، فقد استعملوا المنسوجات كعملة إضافة للنحاس والخرز والودع والورق[2].

ب- التجارة:

غير أن سيطرة برنو على طريق التجارة المارة بها أفادها كثيرا من حركة التجارة العالمية، على الرغم من خلوها من معدن الذهب إلا أن السيطرة على الطرق التجارية أمن لها مدخولا وعائدات لا بأس بها مكنتها من الاستمرار في الحياة. ويقابله التوجه نحو المركز التجاري للملح في مدينة بلما فكانت هي مركزهم في الملح، فعملوا على تأييد قبيلة التدا التي تعيش في الصحراء عن طريق

[1]- صباح إبراهيم الشيخلي وعادل محي الدين الألوسي، المرجع السابق، ص 122.

[2]- إبراهيم علي طرخان، المرجع السابق، ص 176.

الزواج من بنات رؤساءها. كما قامت برنو بتصدير الرقيق واستبداله بالخيول والمصنوعات المصرية والأوربية، وكان الحصول على الرقيق يأتي إما عن طريق الأسر في الحروب وذلك بالإغارة على المناطق الوثنية حولها لاسيما من ناحية الجنوب، لكن تجارة الرقيق لم تدر عليها الأموال الطائلة كما في ممالك السودان الغربي من تجارة الذهب. فصدرت الجلود وريش النعام والعاج. هذا يعني أن الثروة الحيوانية في برنو كانت كبيرة لدرجة أنهم يصدرون جلود الحيوانات المختلفة.

أما عن العلاقات التجارية فقد ازدادت بين مصر وبلاد الكانم وبرنو، ومما يدل على ذلك أن طائفة من أهل الكانم اشتهرت باسم التجار الكارمية رحلوا إلى مصر وأقاموا فيها، واشتركوا في تجارتها الخارجية خاصة في تصريف المحاصيل السودانية، وتجارة البهار القادمة من اليمن والهند والصين، واتخذت من مدينة قوص بصعيد مصر مركزا لها. وكان لهؤلاء التجار الذين عُرفوا بالتقوى والورع فضل كبير في نشر الإسلام وخاصة ببلاد الحبشة. كما ارتبطت السلطنة بعلاقات تجارية وروابط ثقافية مع شمال إفريقيا وخاصة تونس فقد اتصل سلاطين الكانم بحكامها من بنى حفص وتبادلوا الرسائل والهدايا، من ذلك سفارة أرسلها الماي عبد الله بن كادي إلى السلطان الحفصي أبى يحيى المتوكل عام 727هـ/1307م، كذلك تبودلت الرسائل والسفارات مع طرابلس عام 1502م وسفارة بعث بها أيضا عام 1534م وأخرى زمن الماي إدريس ألوما، كذلك نشطت العلاقات التجارية بين برنو وهذه البلدان.

9- الأوضاع الاجتماعية:

لكل بلد عاداتهم وتقاليدهم يتميزون بها عن غيرهم، ومن ضمن التقاليد الشائعة في برنو أن ملكها كان لا يراه أحد إلا في يوم العيدين، أما باقي أيام السنة فلا يظهر لأحد حتى ولو كان أميرا إلا من وراء حجاب، وهذا التقليد هو بتأثير حياة الطوارق الملثمين في الصحراء. ونستشف من ذلك على مكانة الملك العجيبة ومدى طاعة الرعية له، لدرجة أن لا أحد يجرؤ على رؤيته إلا في الأيام المخصصة له[1]. وكان الفقهاء متمسكين بالتقاليد في عزوفهم عن مصاحبة السلطان وتولي الوظائف، وتقشفهم وتمتعهم بالزعامة الدينية. وأما عن لباسهم فيبدو أنهم كانوا متأثرين بزي أهل المغرب، فاللباس في برنو أكثر إتقانا، وتقدر مكانة كبراء القوم بعدد ما يرتدونه من جلابيب، ومن عادتهم أن يلبس الرجل اثني عشر جلبابا ودراريع وارتداء العمامة كأنهم العرب في ركوبهم. أما لباس الطبقات العليا والحكام فكان عبارة عن ثوب مخطط باللونين الأخضر والأبيض وسروال فضفاض، ورداء النساء يصنع من قماش قطني أزرق طوله قرابة ثلاثة ييردات[2].

10- الأوضاع العلمية:

قامت برنو بنفس الدور الذي قامت به مالي وسنغاي من حيث اتصالها بالدول الاسلامية المعاصرة، مما يعني تأكيد روح الإخوة الاسلامية و الإفادة من خبراتها الثقافية والعلمية. فكانت اللغة العربية هي لغة التعليم واللغة الرسمية للدولة، ولغة المعاملات التجارية المراسلات الدولية، وظل هذا قائما حتى عهد الاستعمار الذي قضى على اللغة العربية ولم يعد لها وجود غلا في المدارس الدينية الإسلامية[3].

واشتهر ملوك برنو بالإقبال على التعليم وتشجيع العلماء واقتناء الكتب، وكان هؤلاء الملوك يصدرون ما كان يعرف عندهم باسم "المحارم"، وهي منح لكبار العلماء وأسرهم المعاصرين، وكانت ثقافتهم عربية صرفة بسبب اعتناقهم الإسلام وعشقهم للثقافة العربية. وغلبت على هذه الثقافة منذ القرن 5هـ/11م التقاليد المالكية الدينية، كانت تدور حول فقه مالك، والعلوم المساعدة

[1]- القلقشندي، المصدر السابق، ج 8، ص 120.

[2]- عمار مرضي الجميلي، المرجع السابق، ص 327.

[3]- محمد علي فاضل باري وسعيد إبراهيم كريدية، المرجع السابق، ص ص 143-144.

الأخرى التي تخدم الفقه، وتساعد على فهم هذه الثقافة المالكية التي وضعت في القيروان وانتقلت منها إلى المغرب الأقصى والأندلس إذ حملها معهم البربر إلى غرب إفريقيا. حتى أن الفقهاء عاشوا حياتهم على التقاليد والانتاجات والتداريس (المدارس) المالكية، فكان من الطبيعي أن يتأثر الناس بهؤلاء الفقهاء. وتشابهت مدارس برنو بالمدارس الموجودة في فاس وأودغست ومراكش والقيروان حتى كادت أن تكون مغربية بحتة لشدة التشابه في الأسلوب والوسائل والمثل وطريقة الكتاب وكذلك الكتب المالكية المغربية، ككتب: القاضي عياض، مالك، الونشريسي، ابن سحنون وعاصم الغرناطي، درست هذه الكتب كلها في مدارس برنو وغيرها.

ورحل مجموعة من التجار البرنويين إلى مصر إنما طلبا للعلم فالتحقوا بالأزهر، وتمخض عن ذلك إنشاء مدرسة في مصر لهم أيام الكانميين لتعليم مذهب الإمام مالك سميت بمدرسة ابن رشيق نسبة إلى علم الدين بن رشيق الذي أشرف على بناءها سنة 643هـ/1245م، ثم استأنفوا نشاطهم العلمي عند عودتهم لبلادهم، ثم قاموا بالاتصال بالمراكز الإسلامية الأخرى، إذ اتصلوا بالدولة الحفصية، وعملوا على تشجيع الحركة العلمية في بلادهم، وقربوا العلماء والفقهاء وأغدقوا عليهم الأموال، وأنشئوا المساجد والأوقاف على طلبة العلم[1].

كما برز عدد من العلماء البرنويين **كالفقيه محمد بن ماني** الذي كان له الفضل الكبير في الدعوة إلى الإسلام ونشر تعاليمه، والعالم **إسحاق إبراهيم الكانمي** الأديب الشاعر، والإمام **أحمد بن فرتوا** الذي عاصر الملك إدريس علومه وتعد كتاباته المرجع الرئيس لتاريخ برنو، **والشيخ أبو بكر الباركوم** له مؤفات عدة منها: نظمه على الكبرى وشرحه، ومنار الجامع في علم التصريف، وله عدة قصائد في نصح الأمراء والحكام والعتاب، **والشيخ محمد البكري**[2]، **والشيخ عمر بن عثمان** كان في زمن الماي علي بن الحاج (1544-1580م) الذي وصف في المحرم الذي كتبه بأنه عالم واسع الاطلاع غزير العلم والمعارف، أتقن اللغة العربية والمنطق والبلاغة والشريعة والتوحيد فضلا عن القرآن والحديث[3].

11- العلاقات الخارجية:

أ- العلاقات مع الحفصيين:

كانت العلاقة معهم ودية قام الماي دومنة ديالي بإهداء زرافة إلى الملك الحفصي المنتصر (647-676هـ/1249-1277م)، وأعجب أهل تونس بهذا الحيوان الغريب وكان يوما مشهودا. كما أن ملوك برنو كانوا يتواصلون مع الحفصيين لتقوية العلاقات بينهم ولمساعدة المايات في حروبهم الداخلية[4].

ب- العلاقة مع المماليك:

حكم المماليك مصر وبلاد الشام خلال فترة (648-923هـ/1250-1517م)[5]، وتمتنت العلاقة بين الطرفين عندما ذهب حكام برنو إلى الحج فمروا بطريقهم بمصر، وهناك أرسل عثمان بن إدريس رسالة إلى الظاهر برقوق، وسبب الرسالة أنه شكى له من تجار الرقيق من العرب في غزو البلاد وخطف الرجال والنساء لبيعهم في مصر والشام، ونص الرسالة أورده القلقشندي، من خلال الرسالة يتضح أن ملك برنو نسب لنفسه ألقابا كثيرة مفخمة في حين لم ينسب للسلطان المملوكي الظاهر برقوق شيئا مما أضافه إلى نفسه سوى أنه ملك مصر الجليل، فضلا عن أنها تحمل بين سطورها مزيجا من الحنق والتوسل معا ودلائل الحقد بادية في تجرؤه

---

[1]- عمار مرضي الجميلي، المرجع السابق، ص 328.

[2]- محمد بلو، المصدر السابق، ص ص 37-38

[3]- إبراهيم علي طرخان، المرجع السابق، ص ص 177.

[4]- عمار مرضي الجميلي، المرجع السابق، ص 331.

[5]- كانت لهم دولتان الأولى تسمى المماليك البحرية حكمت (648-784هـ/1250-1382م)، والثانية المماليك البرجية (784-923هـ/1382-1517م).

لمكاتبة السلطان المملوكي بذلك النحو المثير . كما أن السلام بتلك العبارة من ملك البرنو إلى السلطان المملوكي فيه إهانة مقصودة، فالمعروف أن هذه التحية لا توجه إلا لغير المسلمين، ولم يرد عليها السلطان المملوكي برقوق إلا بعد سنتين وعلى ظهرها، وهو دليل آخر على امتهانه لصاحب برنو. وفي الجانب الآخر من هذه العلاقات شهدت تجارة الرقيق بينهما شأوا كبيرا، إذ أن تجارا من برنو رحلوا إلى مصر وأقاموا بها واشتركوا بنصيب موفور في تجارتها الخارجية لاسيما المحاصيل السودانية وتجارة الرقيق، حتى أنهم كونوا لهم نقابة قوية هيمنت على التجارة، وأقاموا عليها رئيسا معترفا به من قبل الحكومة، وبذلك امتلأت الأسواق بالمنتجات الإفريقية، فنمت ثروة هؤلاء التجار حتى أن سلاطين مصر اقترضوا منهم الأموال[1].

ت- العلاقات مع المرينيين:

في عهد ملوك برنو الأوائل أرسلت هدية إلى الملك المنصور إلى عاصمته فاس، واشتملت هذه الهدية على فتيان العبيد والإماء وعن كساء السودان وطرفة. ويبدو أن الغرض من هذه الهدية التي أرسلت معها رسالة هو طلب المدد من المنصور بالعساكر والأجناد وعدة البنادق ومدافع النار، وذلك لأجل مجاهدة الأعداء (الكفار)، وجاءت هذه الرسالة مع الهدية عن طريق رسول ملك برنو فطلب منه المنصور أن يدخلوا في بيعته ودعوته التي أوجب الله عليهم، وأن جهادهم لا يتم إلا أن يخضعوا في أمورهم إلى إذن من إمام الجماعة، فجاء الرد بكتابه البيعة للمنصور فتم مكافأة الرسول وإكرامه.

كما كان لها علاقات تجارية مع مالي التي كانت تصدر لبرنو النحاس، إلا أن علاقاتها مع صنغاي كانت عدائية في كثير من الأحيان بسبب الصراع بينهما حول بسط النفوذ في بلاد الهاوسا[2].

[1]- عمار مرضي الجميلي، المرجع السابق، ص 330.

[2]- محمد علي فاضل باري وسعيد إبراهيم كريدية، المرجع السابق، ص 143.

المحاضرة الثامنة: ممالك بلاد الحاوصا/الهاوسا

ويعبر لفظ الهاوسا/الحاوصا عن مجالات واسعة تقع إلى الشرق من نهر النيجر، وتنتمي إلى مجالات السودان الأوسط إلى الجنوب من بحيرة تشاد، والهاوسا وحدة لغوية قبل أن تكون وحدة سياسية، والتي لم تتحقق إلا مع المصلح عثمان بن فودي الفلاني ومن خلفه خلال القرن 13هـ/19م الذي أسس دولة الفلاني أو كما تعرف أيضا بإمارة صوكوتو [1].

كانت ممالك بلاد الحاوصا عبارة عن مجموعة من دول-مدينة إسلامية، كان لها دور مهم على الصعيد السياسي والتجاري والحضاري في المنطقة، وتعتبر إمارات بلاد الحاوصا حالة خاصة مختلفة عن باقي الدول السودانية، إذ كانت هذه الإمارات عبارة عن عدد من "دولة-مدينة" كل منها محاط بسور وتدعى "بيرني" يرأسها ملك يدعى "ساركي"، وظلت جميعها منفصلة ولم تعرف الاتحاد يوما على الرغم من أن العوامل الجغرافية قد وحدتها، فكونت كل دولة-المدينة قوة اقتصادية وسياسية منفصلة عن البقية، كان لها دور بارز في التجارة والسياسة وانتشار الإسلام بغرب القارة وبروز حضارتها بالمنطقة[2].

1- الموقع:

تقع بلاد الهاوسا الآن في شمال دولة نيجيريا والقسم الجنوبي من دولة النيجر، وحدودها الطبيعية هي سهول خصبة محصورة بين الصحراء الكبرى وجبال الآيير من الشمال، وثنية نهر النيجر في الغرب، ودولة برنو في الشرق، والربوع الساحلية لخليج غانا والتوغو والكاميرون في الجنوب. وحدودها السياسية كانت تقع بين مملكتي صنغاي في الغرب وبرنو في الشرق، مما جعلها مطمعا لهما، ولكنها لم تقع في قبضة النفوذ السياسي لأي منهما. وفي أعقاب الغزو المغربي لصنغاي انتشرت الفوضى في بقاع النيجر حتى القرن 19م، ثم انتقل مركز الثقل السياسي إلى ناحية الشرق أي إلى بلاد الهاوسا، فكانت مسرحا للمعارك بين الدول الإسلامية في الشرق والغرب للسيطرة عليها[3].

2- أصل شعب الهاوسا:

هناك خلاف كبير بين المؤرخين حول أصل شعب بلاد الحوصا، إذ وجدت ثلاث مصادر محلية ألفت في القرن 9م التي اعتمدت على الأساطير والرواية الشفوية في الحديث عن أصل الهاوسا وبدايات تأسيس الممالك في بلاد الحوص، وهي تاريخ كانو وتاريخ الهاوسا ووأغنية باغودا (Bagauda)،والتي من خلالها استنتج المؤرخون أن شعب الهاوسا لا ينحدر من دم واحد، بل هو مزيج ظل يحدث طيلة قرون بين السكان الأصليين وهم الزنوج مع جماعات قبلية يعتقد أنهم من الحاميين والبربر قدمت من الشمال الصحراء ومن شرق بلاد السودان[4].

تذكر أساطير **تاريخ كانو** أن السكان الأصليين كانوا وثنيين يحكمهم ملك وهو في نفس الوقت كاهن وصياد يعيش بمعزل عن الناس، أما **أغنية باغودا** تذكر بأن السكان كانوا يعيشون في قرى مستقلة ذاتيا على شكل عشائر، تعرضوا لغارات الوافدين، وأضحت القرى تحت حكم عدد من الدولة-المدينة التي بناها الوافدون. وحسب الأساطير فإن زعيم الوافدين واسمه أبو زيد القادم

---

[1]- حسين بوبيدي، **محاضرات ممالك بلاد الحوص/ الهاوسا**، قسم لتاريخ، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة عبد الحميد مهري، قسنطينة 2، 2021/2020، منصة التعليم عن بعد، ص 2، الرابط:

elearning.univ-constantine2.dz/elearning/course/view.php?id=727

[2]- محمد علي فاضل باري وسعيد إبراهيم كريدية، المرجع السابق، ص 145.

[3]- عطية مخزوم الفيتوري، المرجع السابق، ص ص 212-213.

[4]- عبد الله عبد الماجد إبراهيم، **الغرابة الجماعات التي هاجرت من غرب إفريقيا واستوطنت سودان وادي النيل ودورهم في تكوين الهوية السودانية**. دار الحاوي،ط 1، 1998م، ص 114.

من الشمال هو أمير تركي هرب من بغداد لخلاف مع والده، ففر إلى منطقة بحيرة تشاد أين كانت توجد دولة فانو فزوجه ملكها من ابنته ماجيرا، ولكن هذا الزواج عزله عن أتباعه فترك زوجته بمكان يدعى "بيرام غابس" وفر إلى الغرب خوفا من عقاب والدها الملك، والتقى بحداد بمنطقة "غايا" الذي صنع له سيفا بمواصفات خاصة، وبعد ترحال طويل وصل إلى قرية "دورا" وقتل بها أفعى خطيرة كانت تمنع الماء عن السكان بواسطة سيفه القوي، فتزوجته الملكة صاحبة القرية، فأنجب منها سبعة أبناء شيدوا إمارات الهاوسا السبع في الشمال (هوسا باكاوي)، وهي: بيرام (Biram)، دورا (Dawra)، غوبر (Gobir)، زاريا (Zaria)، كاتسينا (Katsina)، رانو (Rano)، كانو (Kano)، ثم تزوج هذا الزعيم جارية وهبتها له زوجته فأنجب منها سبعة أولاد آخرين هم بدورهم أسسوا سبع إمارات أخرى في الجنوب (بنزا باكاوي)، وهي: كبّ، نوب، جواري، يوري، كوارافا، إيلورين وزنفرة. وهناك من يرى بأن غزو البربر لأرض الهاوسا جاء في موجتين كبيرتين، الأولى أسست إمارات الشمال والثانية أسست إمارات الجنوب وكانت الصلة وثيقة بينهما[1].

أما المصادر التاريخية عن دويلات الهاوسا في عصرها المبكر فهي معدودة، وقد يرجع ذلك إلى أن حركة الجهاد التي قامت مع بدايات القرن 19م اعتبرت الكتابات الموجودة كتابات غير إسلامية فقضت عليها، أما ما بعد هذه المرحلة فالمصادر متوفرة بفضل الانجاز العلمي لزعماء الجهاد وأتباعهم في المنطقة، وأغلب تلك المصادر ألف باللغة العربية[2]. أما عن المرحلة المبكرة يمكن أن نعتمد على ما كتبه الرحالة العرب الذين زاروا تلك المناطق كابن بطوطة الذي تحدث عن جوبير، والحسن الوزان تحدث أيضا عن البعض من إماراتها. وأكد البحث الأثري عن وجود استقرار بشري قديم في المنطقة، لكنه تعرض لضغط الطوارق في الشمال، ومع وصول هجرات الونغارا (Wangara) والماندي والفلان وغيرهم من الشعوب السودانية حدث تصاهر بينهم[3].

3- ممالك بلاد الهاوسا:

بدأت نواة هذه الإمارات/الممالك من دولة-مدينة محاطة بأسوار "بيرني" (أي الولاية)، وكان في كل بيرني اكتفاء ذاتي في التجارة والصناعة والزراعة، وفي أوقات الحصار كان سكانها يصمدون طويلا ويفتحون أبوابهم أمام القرى الصغيرة المجاورة، وعندما كانت أي بيرني تنتزع اعتراف هذه القرى أي البيرنيات المجاورة بقوتها، تتحول هذه البيرني إلى عاصمة برئاسة حاكم يدعى "ساركي" ثم تخضع لها البيرنيات الأخرى، وكانت بيرني غوبير (جوبير) في الشمال أقواها اعتمدت على الزراعة، أما بيريني بيرام وبيريني دوارا كانتا مسالمتين نظرا لصغر مساحتهما، أما كاتسينا وكانو كانتا تتمتعان بأهمية صناعية وتجارية غير موجودة في البيرنيات الأخر[4].

فمدت تلك البيرنيات نفوذها السياسي والاقتصادي على المناطق المجاورة بدأ سكانها في استخدام لغة الهاوسا كلغة ثانية، ومنها تكونت ولايات الجنوب "بيزا باكاوي"، أما المعلومات المتوفرة عنها في بدايتها لا تعدو عن كونها مجرد أسماء للملوك الذين أسسوها كما في الأسطورة السابقة، وبمقارنة ما ذكرته الروايات المختلفة يمكن تحديد تواريخ ومعلومات قريبة للمنطق خاصة في الفترة الممتدة من القرن 10-15م، فحددت سنة 999م لتأسيس كانو وبداية حكم ملوكها وسنة 1000م لبداية تاريخ كاتسينا[5].

---

[1]- محمد علي فاضل باري وسعيد إبراهيم كريدية، المرجع السابق، ص 145.

[2]- عطية مخزوم الفيتوري، المرجع السابق، ص 212.

[3]- حسين بوبيدي، **محاضرات ممالك بلاد الحوص/الهاوسا**، ص 2.

[4]- محمد علي فاضل باري وسعيد إبراهيم كريدية، المرجع السابق ص 147.

[5]- عطية مخزوم الفيتوري، المرجع السابق ص 214.

يتضح مما سبق أن هذه الجماعات انتشرت في مناطق عدة واختلطت مع جماعات أخرى، وتتحدث كلها لغة مشتركة، وأخذت تتفاعل حتى ظهرت تلك الدويلات/ الإمارات فتكون إقليم الهاوسا على شكل دويلات[1]، وأصبحت الهاوسا قوة سياسية كبرى مع ظهور أسر حاكمة حيث كانت لكل أمارة دورا تقوم به فعلى سبيل المثال كانت جوبير مملكة للحرب تدافع عن الإمارات، وكانو ورانو مسؤولتان عن الصناعة، وكاتسينا ودورا مسئولتان عن التجارة، وزاريا كانت مركزا لتجارة العبيد[2].

مملكة كاتسينا:

تقع على طريق القوافل من الغرب إلى الشرق من تمبكت إلى برنو، وقد استفادت من تحول مسار الطرق التجارية من الغرب إلى الشرق ومن وجود منجم للحديد بها، سكنها الفولاني والطوارق والماندونجو حيث تكون شعبها، ودخلها الاسلام عن طريق الهجرة والتجارة ثم انتشر بشكل كبير في القرن 14م، وقام السارکن محمد كوار(848-899هـ/1444-1494م) المؤسس الحقيقي لها بدور كبير في نشر الاسلام وساعده على ذلك علماء مالي وبذلك حكم كاتسينا ملوك مسلمون حيث توطد الاسلام بها وصارت من مراكز الثقافة العامة[3]. كما أخضع العديد من المناطق لحكمه مما وسع من المجال الجغرافي لمملكته، وبعد وفاته خلفه سلاطين أقوياء إلى غاية القرن 11هـ/17م، وخلال منتصف هذا القرن عرفت المملكة أكبر توسعاتها على يد جانو هانو بكسي، ةتعرضت المملكة للغزو السنغائي مرتين على عهد الأسكيا محمد الكبير لكنها استطاعت أن تسترجع استقلالها، وفي سنة 1222هـ/1807م سقطت على يد الفلان بقيادة عثمان بن فودي الفلاني[4]).

مملكة كانو:

إحدى أشهر ممالك بلاد الهوسا السبع الأصلية وأكبره، وتقع في مركز وسط بين نهر النيجر غربا وبين بحيرة تشاد شرقا في ملتقى طرق القوافل وهي عبارة عن إقليم واسع به صحارى كثيرة ومناطق جبلية تنمو فيها الغابات، وهي من أغنى وأوسع بلاد الهوسا

[1]- ثريا محمود عبد الحسن وأزهار غازي مطر، "إمارات الهاوسا دراسة في التاريخ الحضاري والثقافي". كلية التربية الأساسية، جامعة ديالى، العراق، ص 185.

[2]- كولن ماكيفيدي، **أطلس التاريخ الإفريقي**. ترجمة مختار السويفي، ماجعة محمد العزل موسى، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب،1987م، ص 105.

[3] -Palmer H .R, "History of katsina". Journal of the Royal African Society". (Apr 1927), Vol 26 , No 103, P 551.

[4]- حسين بوبيدي، **محاضرات ممالك بلاد الحوص/الهاوسا**، ص 2.

قديما وحديثا[1]. أما عن سكانها اختلفت الروايات حول أصلهم حيث ينسب بعضهم إلى البربر والبعض إلى النوبة الذين نزلوا بها صيادين ثم لحق بهم آخرون مزارعين ورعا، ومنهم من جاء مهاجرا من شمال إفريقيا عبر الصحراء الكبرى فضلا عن الهجرات التي جاءت من جهة الغرب والجنوب[2].

برزت مملكة كانو كقوة في المنطقة منذ النصف الثاني من القرن 10ه/16م، وارتبطت بصلات تجارية مع كانم فتبادلوا الملح والإبل والخيول والعبيد، كما كانت مقصد الفقهاء والعلماء نظرا لاهتمام حكامها بتشجيع الحركة العلمية، وقد راسل العالم والفقيه عبد الكريم المغيلي التلمساني ملكها محمد رمفة ق 9ه/15م، وكتب له لرسالة في الإمارة من أج تنظيم شؤونها وفق الشرع[3].

مملكة زاريا / زارية/ زازو/ زغزغ:

المعلومات عن المملكة ونشأتها غامضة جاء فيها أن هذه منطقة زاريا عبارة عن سهل يقع بأقصى جنوب بلاد الهوسا ظهرت به أواخر القرن 8ه/14م، تشكلت من بعض المراكز المدنية والتجمعات السكانية، مكونة بذلك المدينة-الدولة، وأشهر مدينتين بها هما "تورنكو" و"كوفينا" اللتان بسطتا نفوذهما على بقية المدن، وتمكن قائد مدينة تورنكو "بكوا" من السيطرة على مدينة كوفينا، وأسس عاصمة في شرقها سماها "زاريا"، واتحدت المدينتين تورنكو وكوفيا تحت اسم مملكة زاريا أو زاريا[4]، وهي تتاخم كانو من جهة الجنوب الشرقي وأهلها من الأغنياء الذين يزاولون التجارة وتنقسم المنطقة إلى قسمين أحدهما حار والآخر بارد ولا يستطيع السكان احتمال الشتاء، فيضعون مواقد كبيرة يوقدون فيها الكثير من الجمرات، ويضعونها تحت أسرتهم المرتفعة قبل أن يناموا، وتنتج أراضيها فواكه وتكثر فيها المياه والغلال[5]. وخلال القرن 10ه/16م توسعت المملكة غربا وجنوبا بفضل جهود أميرتها أمينة بنت بكوا التي كانت قائدة عسكرية أيضا، فنالت شهرة كبيرة، وازدهرت التجارة في عهدها، كما استوردت المنتوجات الغربية لبلادها[6].

مملكة جوبير/ غوبير:

تقع في أقصى جنوب بلاد الهوسا، يحدها جنوبا نهر صكتو وإقليم كانو، وغربا منحنى نهر ريما ويضم عددا كبيرا من القرى الصغيرة وبعض القرى الكبيرة، وكما يحمل هذا المكان اسم جوبير يحمله كذلك سكانه فهو اسم للمكان وللسكان معا،وعامة سكانها من الرعاة، ويسكن القرى الكبيرة طبقة الحكام وطوائف التجارة والصناع، ومع أن هذا الإقليم من أجدب أقاليم بلاد الهوسا إلا أنه من أكثرها قوة، لوجود منجم للملح به مما جعل التجارة تزدهر بها خاصة مع سنغاي، كذلك فقد فرضت جوبير نفوذها أحيانا على الممالك المجاورة من حولها مثل مالي وصنغى وبرنو، وقد انفتحت على العالم من حولها من خلال ذلك الاحتكاك وأنشأت صلات متعددة دينية وتعليمية وتجارية وأحاطت بالإسلام من الشرق في بورنو ومن الغرب في مالي وصنغى، وقد خضعت لهذه الأخيرة أوائل القرن 16م، وكان ازدهارها وتوسعها الفعلي مع القرن 11ه/17م .

---

[1]- الحسن الوزان، المصدر السابق، ص 323.

[2]- عبد الظاهر حسن عيسى، **الدعوة الإسلامية في غرب إفريقيا وقيام دولة الفولاني**. القاهرة، الزهراء للإعلام، 1991م، ص 173.

[3]- حسين بوبيدي، **محاضرات ممالك بلاد الحوص/الهاوسا**، ص 3.

[4]- نور الدين شعباني، **محاضرات في تاريخ ممالك السودان الغربي**، ص 106.

[5]- الحسن الوزان، المصدر السابق، ص 134.

[6]- نور الدين شعباني، المرجع السابق، ص 106.

مملكة رانو:

وجدت مع القرن 9هـ/15م وكانت ي بدايتها عبارة عن مقاطعة هوسية باسم "زمغابا" وكانت مستقلة عن كانو، وتقول حوليات كانو أن ملك كانو **ياجي ساركن** (750-785هـ/1349-1385م) هو الذي طرد قائدها من عاصمت، ف ذهب إلى رانو وأقام بها سنتين قبل أن يؤسس مملكة خاصة مستقلة.

مملكة دورا:

أقدم ممالك الهاوسا كما كانت أكبرها ،ولكنها صارت تعد في المرتبة الثانية، وموقعها بين كانو وكاتسينا في الشمال من بلاد الهوسا، ولقد طرأ عليها من الأحداث ما طرأ على بلاد الهوسا[1] .

مملكة زنفرة/ زمفرة:

كانت زمفرة قبل القرن 10هـ/16م عبارة عن مقاطعة صغيرة إلى جانب مقاطعة دوتسي ببلاد الهاوسا، وازدهرت بعدها بفضل وجود معدن الحديد بأراضيها، فاجتمع زعماء زمفرة مع زعماء دوتسي وأخضعوا بقية المقاطعات، واتخذوا من مدينة "برنين" عاصمة لمملكتهم الجديد وعرفت باسم "زمفرة" في منتصف القرن 10هـ/16م[2].

مملكة كبي:

كانت أراضيها تابعة لمملكة سنغاي ثم سيطرة عليها المجموعات الهوسوية التي سكنت بها، وتمكن أحد هؤلاء المهاجرين "**محمد كُونْتا**" من كاتسينا إليها إزاحة العشائر "**الغاجية**" التي كانت تحكمها، وأصبح هو الحاكم الفعلي للإقليم كبي التابع لسنغاي، وحدث بعده خلاف بينه وبين الأسكيا محمد الكبير سنة 1516م فاستقل بحكم كبي وجعل مدينة "سرامي" عاصمة لها وأسس مدن جديدة، وتوسع بعدها على حساب منطقة "تيرا" شرق السنغاي، وهاجم برنو وتوسع على حساب كاتشينا وكانو وغوبير وزكزك، وعملت مملكة برنو على الحد من توسعات محمد كونتا لكنها فشلت، وقتل محمد كونتا في إحدى معاركه مع برنو سنة 1556م، فامتنعت دويلات الهاوسا بعدها من دفع الجزية لخلفاءه من بعده ولديه أحمدو وابنه البكر، مما جعل سلطة كمبي تتراجع فضعفت وتقلصت مساحتها ففقدت مدينة أغاديس، وأصبحت مملكة كمبي مجرد مملكة صغيرة[3].

مملكة بيرام:

لم يقدر لها النمو وظلت مغمورة وذكر اسمها بهذا الاسم بيرام ولكنه في الواقع اسم الحاكم الأول لهذه المملكة كما تروى الاساطير أو اسم القبيل، أما اسمها الذي لازالت تسمى به حتى الآن فهو "جاران جاباس" وهو اسم المكان، وقد كان نموذجا للتنظيم الاجتماعي في بلاد الهوسا، والذي يرجح أنه كان يقوم على مجموعة متحدة من القرى لكل منها له رئيسه، ثم يؤلف مجتمعا واحدا تحت زعامة رئيس عام قد لا تعدو سلطاته الحاكم المحلي، وقد يكون الحافز إلى توحيدها منبعث في العادة من شعور أفرادها بصلة القرابة وما يتبع ذلك من اتخاذ عبادة مشتركة.

4- انتشار الإسلام بإمارات الهاوسا:

لا يزال دخول الاسلام لأول مرة إلى بلاد الهوسا محل جدال بين أهل الاختصاص، فيقال بأن الإسلام دخلها تدريجيا، ةتذكر المصادر الهوسوية أن الإسلام دخل للمنطقة بفضل تجار قبائل الديولا مع القرن 8هـ/14م قادمين إليها من مالي، في حين ترى مصادر

[1]- عبد الظاهر حسن عيسى، المرجع السابق، ص 165.

[2]- نور الدين شعباني، المرجع السابق، ص 107.

[3]- المرجع نفسه، ص 108.

أخرى أن الاسلام وصل إليها مع القرن 5هـ/11م، لأن الهاوسا كانو على اتصال دائم مع الكانم برنو قبل القرن 8هـ/14م، فلابد أن الاسلام قد دخل كانو قبل وصول التجار المالنكي إليها، لكن اقتصر على النخبة الحاكمة فقط حسب الروايات الشفوية[1].

وأسلمت بعض الإمارات قبل الأخرى ابتداء من القرن 8هـ/14م، وكانت مملكة كانو أول من دخلت في الإسلام بفضل علماء من الماندينغ القاطنين في منطقة وانغارة، وبفضل هجرة ونزوح جماعة الديولا والونغارة (Wangrawa) القادمين من مالي والذين اندفعوا نحو بلاد الهاوسا في عهد ملكها ياجي ساركن كانو (750-785هـ/1349-1385م) الذي أقنعته بعض العناصر المالية بالإسلام على رأسهم العالم عبد الرحمن زغيت سنة 1380م فأسلم الملك، ولكنه لقي معارضة شديدة من قبل رجال الدين الوثنيين، وبني أول مسجد بكانو 1381م وغزا الجنوب ووصل إلى نهر النيجر ثم غزوا ولاية زاريا وقتل زعيمها.

والأرجح أن ملوك كانو اعتنقوا الإسلام في وقت مبكر، كما أن الساركن السابع جيجماسو (645-689هـ/1247-1290م) كان قلقا بشأن تفشي الوثنية فعمل على استئصالها لكنه فقد بصره، وقام الساركن التاسع تساميا شاكاروا (689-706هـ/1307-1343م) بتدمير أماكن العبادة الوثنية، ولم تكن الأوضاع أفضل في كاتسينا خلال عام (781هـ/1380م) اعتنق ساركن كاتسينا الاسلام، وفي الوقت نفسه على وجه التقريب شرع تجار الونقارة في القدوم إلى كانو بأعداد كبيرة حاملين معهم الاسلام، وساهم التجار الذين جاءوا إلى أراضي الهوسا بأعداد كبيرة سكانهم المجاورين عن طريق صلاتهم الوثيقة على انتشار الإسلام، وأعلن جميع ملوك الهوسا اعتناقهم له واعتبروه الدين الرسمي لدولهم.

ومع الربع الأخير من نفس القرن ظهرت بها حركات إصلاحية خاصة مع وصول العالم عبد الكريم المغيلي إلى المنطقة الذي أدخل لهم الشريعة وبعض عناصر القانون الإسلامي، فلاقت أفكاره الإصلاحية في السياسة والاقتصاد رواجا، وأصبحت إمارة كانو في عهده قوية فانتقلت إلى مصاف الدول خاصة في تأثيرها الخارجي وتزعمها للإمارات الأخرى. وقد وجد في ساركي محمد رونقا (1463-1499م) تلميذا مطيعا للتعاليم الإسلامية، فنشط المغيلي في الدعوة والوعظ والتعليم، وأصبح الدين الإسلامي دينا رسميا للدولة في عهد هذا الملك وانتشرت الثقافة العربية. أما إمارة كاتسينا وصلها الإسلام في نفس وقت وصوله لإمارة كانو، وأول ملوكها الذين أسلموا هو ساركي محمد كورا الذي حكم حتى سنة 1430م،أما بقية الإمارات فقد انتشر بها الإسلام متأخرا كزاريا فأسلم ملكها الرابع والعشرون "عليوه" الذي حكم أواخر القرن 16م[2].

وفي القرن 16م استولى الأسكيا محمد على أكثر إمارات الهاوسا فساعد ذلك على نشر الإسلام بها. وعندما تعرض علماء تمبكت وجني للاضطهاد هاجروا إلى بلاد الهاوسا ونشروا دعوتهم بها، وعلى الرغم من كل هذا إلا أن الوثنية ظلت منتشرة في بعض الإمارات كإمارة غوبير والتي لم يدخلها الإسلام إلا مع القرن 19م على يد عثمان بن فودي الفلاني[3].

ويعتبر وصول ساركي عمر (1410-1431م) نقطة تحول هامة بالنسبة للإسلام، حيث قام بتكسير كل التماثيل الوثنية، وفي عهد خليفته الملك يعقوب (1431-1463م) انتشرت المساجد في كثير من القرى، ووصلت هجرات فولانية ساهمت بدور كبير في انتشار الإسلام. وابتداء من القرن 15م عرفت المنطقة اهتمام عدد من العلماء بها من شمال القارة.

كما كان للتجارة على نشر الثقافة العربية والدين الاسلامي بطريقة هادئة عبر الطرق التجارية الممتدة من بلاد المغرب الإسلامي عبر الصحراء الكبرى وعلى طول ساحل المحيط الأطلسي إلى السنغال وأعالي النيجر وبحيرة تشاد والأقاليم الشمالية

[1]- نور الدين شعباني، المرجع السابق، ص 110.

[2]- عطية مخزوم الفيتوري، المرجع السابق ص ص 216-217.

[3]- محمد علي فاضل باري وسعيد إبراهيم كريدية، المرجع السابق، ص 149.

والوسطى وكان لتجار الهوسا دورهم في هذا المجال[1]، فقد ارتبط انتشار الإسلام بحركة التجارة وتطورها خاصة مع القرن 14م عندما افتتح الطريق المباشر بين مملكة كانو ومدينة غات، وكذا طريق الأربعين الرابط لمصر عن طريق النوبة ثم دارفور فمناجم الذهب في منطقة الأشانتي، وقد افتتح الطريق بعد توقف استمر لثلاثة قرون بسبب الصراع بين المسلمين والدولة المسيحية في أعالي النوبة، وكذلك الطرق التجارية المتصلة بنهر النيجر تدهورت بعد الزحف المراكشي على صنغاي ساعد على تحول الطرق نحو الشرق منذ عام 1591م مما زاد في أهمية إمارة كانو فأصبحت تمثل أهم مراكز التجارة بالمنطقة.

وأثر هذا على الإمارات الأخرى فأصبحت محط أطماع في أوقات مختلفة منذ منتصف القرن 16م بسبب رخاءها الاقتصادي، لذا بعث الأسكيا **محمد** بقواته للسيطرة عليها ونجح في ذلك، وقتل ملوك جوبير وكاتسينا وزاريا وأسر ملك كانو ولكنه رجع إليها بعد أن تعهد له بدفع الضرائب (ثلث دخل البلاد السنوي)، وأصبحت باقي الإمارات تابعة للأسكيا **محمد**، فعين على كل منها أميرا من أتباعه وأرهق كاهل السكان بالضرائب. ثم انقلب **محمد كانتا** على الأسكيا **محمد**، فصد هجمات سنغاي وبرنو، وكون دولة كبرى على حساب أملاك سنغاي، امتدت من أطراف الصحراء حتى نهر النيجر، لكنها انهارت بمجرد وفاته سنة 1520م، فتحررت بقية الإمارات من سيطرة سنغاي ككاتسينا سنة 1554م.

أما إمارات الجنوب ربطت علاقات تجارية مع البرتغال، وبسبب الصراع بين الإمارات دخلت بلاد الهاوسا في مرحلة الضعف خاصة وأن الكثير من القبائل الموالية لها بدأت في التحرر عنها تدريجيا[2]. ومع النصف الثاني من القرن 17م وحتى أوائل القرن 19م خضعت الأقاليم التي تعيش فيها قبائل الهاوسا للسيطرة الاسمية لمملكة برنو، وهي إمارات كاتسينا وزاريا وزنفرة وكبي، أما غوبير فاحتفظت بسيادتها، ومع القرن 18م لمع نجم قبائل الفولاني المسلمة المنتشرين ببلاد الهاوسا، وكانوا يكونون ما يسمى دولة داخل دولة لهم كثير من الاستقلال، وكانوا محبوبين بسبب أخلاقهم الحميدة، لذا مع نهاية القرن 18م وبداية القرن 19م بدأ حكام الهاوسا يخشون نفوذهم، فقام حاكم غوبير بالحد من سطوتهم والتصدي لهم واضطهاد رعاياهم، فتدخل زعيمهم الروحي عثمان بن فودي الفلاني مما أغضب حاكم غوبير، فاندلعت ثورة بين الطرفين، وانضم أنصار عثمان من الفولاني والهاوسا له فأعلن الجهاد، ونجح في إخضاع مملكة غوبير وسائر إمارات الهاوسا المسلمة والوثنية وكون منها مملكة واحدة سنة 1816م، وفي الربع الأخير من القرن 19م تقاسمت كل من فرنسا وبريطانيا بلاد الهاوسا وبلاد النيجر، فانتهى دور إمارات الهاوسا أولا على يد الفولاني وثانيا على يد المستعمر الأوربي[3].

الأوضاع الاقتصادية:

أ- التجارة:

عرفت ممالك بلاد الهاوسا التجارة منذ القدم، ونظموها في أسواق تسمى "**كازوة**" لضمان حسن سير المبادلات التجارية، وكان "**سركين كازوة**" أي المشرف على السوق هو المسؤول على تنظيمها، والمحافظة على الأمن العام بها، وفض خصومات التجار، وجمع الضرائب عينا أو نقدا، بمساعدة أعوانه. وانقسم التجار إلى:

- **التجار المحليين (السينكي)**: يتاجرون في المنتوجات الصناعية والفلاحية، إضافة لتجارة اللحوم والحبوب والبقول، وتجارتهم محدودة.

[1]- عبد الرحمن زكي، المرجع السابق، ص 29.

[2]- عطية مخزوم الفيتوري، المرجع السابق ص ص 219.

[3]- محمد علي فاضل باري وسعيد إبراهيم كريدية، المرجع السابق، ص 150.

- **تجار الجملة (فاتوسي):** يقوم بها تجار محترفون يعرفون باسم "**فاتاكي**"، يمارسون تجارتهم عبر مسافات بعيدة أي عبر القوافل التجارية.

- **التجار المتوسطون (يان كولي):** تجار متنقلون ن سوق لسوق يبيعن ويشترون المنتجات الرخيصة، كما يبيعون ويشترون من التجار المحترفين أي تجار الجملة.

إلى جانب هؤلاء وجد "**السمسار**" (**دلالي**) الذي كان ملما بكل ما يجري في الأسواق، ووجدت الدكاكين، وقد اشتغلت النساء في دكاكين خاصة بهن بالقرب من الأسواق وعادة ما كن يبعن بها المنتوجات القطنية وبعض المواد الغدائية، واتخذ الهاوسويون من مكعبات القماش وبعض الأصداف (الودع)، وقوقعات بيض النعام والمجوهرات الزرقاء والبيضاء والحمراء في مقايضة السلع، لأن العملة كانت نادرة الاستعمال عندهم، أما الذهب كان يبادل بمقدار وزنه[1].

ج- الصناعة:

اهتم الهاوسويون بالصناعات اليدوية والحرف، وكانت صناعة النسيج من أهمها، فقد عرفوا نسج الثياب القطنية والصوفية، وصناعة الخيوط وصبغها، وكانت منسوجاتهم ذات جودة عالية مما كان سببا في شهرتها، واشتهرت مملكة كانو بها وكانت تصدر قماشها الأسود للطوارق، وبيع في بلاد الساحل والمغرب الأقصى، كما عرفت حياكة الملابس الحريرية، وصناعة الجلود والخفاف والحقائب والأكياس والسروج.

كما اهتموا أيضا بالصناعات التعدينية خاصة الحديد، لصناعة الآلات الزراعية وأدوات الصيد، وعرفوا كذلك صناعة الفخار لصناعة الأواني المنزلية وأواني حفظ السوائل والحبوب. وكان لكل نشاط صناعي وكل حرفة نقابة خاصة بها، كانت مهمة أعضاءها مراقبة الانتاج والجودة والأسعار وجمع الضرائب[2].

ب- الزراعة:

اشتغل الهاوسويون بالزراعة، وكانت الأراضي الزراعية لديهم ملكية جماعية أي ملك للمجموعة وهي "الدسكوة" أي القرية، وكان رئيس المجموعة يشرف على استغلالها، ولقب الفلاحون بـ"تلاكاو" ومفرده "تلاكا"، يخضعون لمسؤول حكومي الملقب بـ"السركين بوما" ومعناها "رئيس الزراعات"، هو المسؤول عن مراقبة بداية فصل الأمطار، وتحصيل الضرائب، وتقديم القرابين للآلهة من أجل ضمان محصول جيد. وكانت هناك ثلاث أنواع من المزارع: حقول الملك (الغندوم سركين) ذات مساحات كبيرة، حقول الأسرة (الغندوم جيد) ذات مساحات متوسطة، والحقول الفردية (الغيونة) ذات مساحات صغيرة، وكانوا ينتجون الذرة، الأرز، القطن والنيلة وغيرها.

[1]- نور الدين شعباني المرجع السابق، ص ص 114-115.

[2]- المرجع نفسه، ص ص 111-112.

المحور الرابع

ممالك السودان الشرقي

المحاضرة التاسعة: بلاد النوبة

إن العلاقة بين شرق إفريقيا والجزيرة العربية علاقة موغلة في القدم، لذا يصعب تحديد بداياتها بدقة، خاصة وأن البحر الأحمر لم يكن في أي وقت من الأوقات عائقا يمنع الاتصال بين الشواطئ الآسيوية العربية والشواطئ الإفريقية. لكن هذا الاتصال المبكر بين العرب وبلاد النوبة والسودان ما قبل الإسلام، لم يكن تأثيره واضح على سكان البلاد، لأن العرب حينها لم يكونوا أصحاب عقيدة واحدةوواضحة، فلم يكن هدفهم من هذا الاتصال سوى التجارة وتحقيق مكاسب اقتصادية.

1- الموقع الجغرافي:

بلاد النوبة هو الاسم الذي أطلق على السودان قديما، وكان تشمل المنطقة التاريخية الواقعة ما بين مدينة أسوان إلى جنوب الخرطوم أي بلاد النوبة هي ذلك الجزء من وادي النيل الممتد من الشلال الأول[1] جنوب أسوان شمالا إلى ملتقى النيلين جنوبا[2]. وكانت بلاد النوبة التاريخية موطنا لأقدم الحضارات في إفريقي القديمة حضارة كرمة (2500 ق.م-1070 ق.م)، ومملكة كوش التي حكمت مصر وامتد حكمها إلى فلسطين في عهد الأسرة الخامسة والعشرين، إلى أن سقطت المملكة على يد الأحباش بقيادة عيزانا ملك مملكة أكسوم في القرن 4م بعد أن عاشت لأكثر من 1000 عام، وشهدت بلاد النوبة بعدها قيام ثلاث ممالك نوبية مسيحية كبيرة في المنطقة، إلى أن سقطت آخرها في عام 1504م، وقامت مكانها سلطنة سنار الإسلامية.

وفي بلاد النوبة قامت الممالك النوبيةالثلاثة التي امتدت إلى الديانة المسيحية في العصور الوسطى، والتي عرفها الكتاب العرب باسم "بلاد النوبة"، وهذه الممالك من الشمال إلى الجنوب، هي:

أ- مملكة نوباتيا عرفت لدى الكتاب العرب باسم "مملكة مريس"، كانت بالنوبة السفلة، وعاصمتها مدينة فرص.

ب- مملكة المُقُرة عاصمتها مدينة دنقلا العجوز (شمال السودان حاليا وجنوب مصر).

جـ- مملكة علوة عاصمتها مدينة سوبا.

وفي فترة قوة ملوك النوبة امتد نفوذهم لغايةكردفان ومناطق أخرى بعيدة عن عن وادي النيل شرقا وغربا وجنوبا، وأطلق على جملتها "بلاد النوبة" لدى المؤلفين العرب، أمثال: اليعقوبي والمسعودي وابن حوقل.

2- التسمية:

أطلق على بلاد النوبة أسماء كثيرة، فهي في التوراة بلاد الكوش، وكوش حسب التوراة هو جد النوبيين، وأخو "مصرايم" جد المصريين، وكلاهما من حام بن نوح. أما الإغريق أسموها "إيثيوبيا"، ومعناه الوجه شديد السمرة، ويطلق هذا الاسم الآن على بلاد الحبشة. أما اسم النوبة، فهو فيما يقال نسبة إلى كلمة نب، ومعناها في اللغة النوبية الذهب، أي بلاد النوبة هي بلاد الذهب، ولوفرة هذا المعدن في صحاريها

.

---

[1]- **الشلالات النيلية:** أو الشلالات الستة، هي تلك الشلالات التي كونها النيل، خمسة منها توجد بالسودان، وواحد بمصر وهو الشلال الأول، يقع دنوب مدين أسوان التي تقع جنوب مصر، ويمثل هذا الشلال حدا طبيعيا بين صعيد مصر والنوبة، وأسوان تقع على الضفة الشرقية لنهر النيل.
النيل الأزرق: ينبع من بحيرة تانا في أثيوبيا، طوله 1450كم، يعبر السودان ويلتقي مع **النيل الأبيض (يعرف ببحر الغزال في السودان).**

[2]- حاليا نقصد بالنوبة المنطقة التي تشمل شمال السودان وجنوب مصر على طول نهر النيل

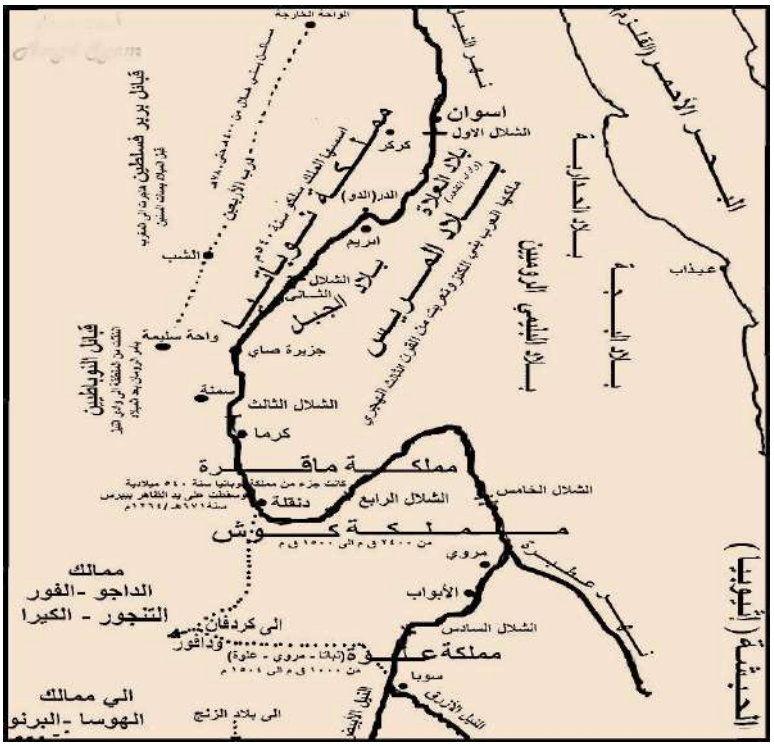

خريطة الممالك المسيحية ببلاد النوبة

3- أصلهم:

من المعروف تاريخيا أن النوبيين هم من بقايا الشعوب التي تألفت منها المملكة الاثيوبية القديمة، وهم أصحاب الممالك التي قامت في السودان، وهذا من خلال الآثار التي تركوها، لذا ظهرت عدة آراء حول أصلهم:

- ألحقهم البعض بقدماء المصريين.
- بعضهم قال بأن المصريين هم جالية نوبية نزحت من الجنوب إلى الشمال.

أصلهم مصريون نزحوا من مصر إلى الجنوب، ولعل وجود الآثار المصرية والآلهة والأهلاامات معالم يستدلون بهاعلى قولهم (وحدة الجنس المصري والنوبي أي أن كوش الذي ورد اسمه في التوراة والإنجيل هو جد النوبيين وخوه مصرايم جد المصريين، وكلاهما من حام بن نوح فكوش كان له ولد اسمه نوبة هو والد النوبيين): سواء أكان المصريون جالية نوبية نزحت إلى الشمال، أم كان النوبيون جالية مصرية هاجرت إلى الجنوب، فإن مما لا شك فيه أنهما من عنصر واحد، فقد أثبتت الأبحاث العلمية التي أجراها العلامة إليوت سميث (Elliot Smith) في مقابر مصر والنوبة، أنه لا فرق بين المصري والنوبي في التكوين الجثماني، حتى يصعب من هذه الوجهة تعيين حد فاصل يميز أحدهما عن الآخر.

- أصحاب هذا الرأي يرون بأن النوبيين هاجروا إلى مساكنهم الآن من جبال كردفان، بدليل التقاء اللغة النوبية ببعض لغات جبال النوبة في أشكالها ومفرداتها، لكن لغاية الآن لا يوجد دليل علمي يثبت هذا.
- بعضهم يرى بأن أصلهم يعود إلى شمال إفريقيا، انحدروا عن طريق الصحراء إلى وادي النيل.
- ينتمون للعنصر الزنجي، دليلهم رسم أشكال الناس من حيث التقاطيع الزنجية الواضحة لأشمال السودانيين على جدران المعابد النوبية وفي تماثيل الملوك للسودانيين.
- نزحوا إلى وادي النيل من المغرب.

خلاصة هذه الأقوال أنه من الصعب بمكان الحديث عن وحدة الجنس والنقاء البشري.

وبالنسبة لقبائل النوبة التي تقطن بين الزنوج جنوب كردفان، فإنها لا تمت إلى الزنوج بصلة، وإنما وجدت هنالك منذ القدم، فرارا من التصادم بالموجات البشرية القوية التي تدفّقت إلى تلك البلاد، ولا تزال هذه القبائل في مستوى أرقى من الزنوج، وتمتاز عنهم في تكوين الجسم والطباع. وهناك عنصر حامي لم يختلط بالزنوج، كالنوبة، وهو المعروف بقبائل البجة،الذي ظل محافظا على بداوته في الصحراء، بينما كان العنصر النوبي يعيش على ضفاف النيل. ولما جاء الفتح الإسلامي تدفقت سيول القبائل العربية إلى بلاد النوبة، لانتجاع الرزق واستغلال مناجم الذهب، فاختلطت دماء النوبيين والبجة بدماء العرب، ونزلت هنالك بعض قبائل البربر، ثم جاء الفتح التركي بعنصر آخر، حتى صار النوبيون الآن خليطا من عدة عناصر، أهمها: العربي، فالتركي، فالبربري، فالنوبي.

4- المسيحية في النوبة:

يبدأ تاريخ المسيحية في بلاد النوبة حوالي عام 545م، حيث وصل إليها رسل من الإسكندرية يدعون أهلها إلى الدين المسيحي الجديد، وعطل الإمبراطور جستنيان معابد بيلاق، وسجن كهنتها، وأرسل تماثيل آلهتها إلى القسطنطينية، وفي عام 577م حول الرومان هيكل الإلهة إيزيس إلى كنيسة، وأقاموا فيها "المطران ثيودوروس"، ومن ذلك الحين أخذت المسيحية تنتشر بسرعة في بلاد النوبة حتى عَمّها في أواخر القرن 6م.

5- معاهدة البقط:

حين فتح الجيش الإسلامي بلاد الشام (9-22هـ/633-640م) وصولا إلى فتح بيت المقدس وتحريره من الروم، اقترح عمرو بن العاص على الهليفة عمر بن الخطاب فتح مصر التي كانت ملاذا للروم الفارين من الشام، ولتأمين الفتوحات وظهر المسلمين من غارات الروم، وبعد مشاورات ومحادثات وافق الخليفة عمر على فتحها، وبعدما فتحت وضع عمرو بم العاص الحدود الجنوبية (أرض النوبة) لمصر نصب أعينه لأنها تشكل خطرا عليهم، لذا قرر فتحها، فارسا جيشا بقيادة عقبة بن نافع لكنهم فوجئوا بشجاعة النوبيين "رماة الحدق"، فحاول عمرو بن العاص فتحها مرات كثيرة واستعصت عليه قرابة 10 سنوات، فأرسل عمرو بن العاص إلى النوبة جيشا من عشرين ألف مقاتل بقيادة عبد الله بن سعد بن أبي السرح، حملهم على دفع الجزية ثم عاد إلى مصر، ولما تولى عبد الله بن أبي السرح ولاية مصر بدلا من عمرو بن العاص سنة 24هـ/645م في عهد الخليفة عثمان بن عفان نقض النوبيون في أول ولايته الصلح الذي بينهم، وامتنعوا عن دفع الجزية، وأرسلوا سراياهم إلى صعيد مصر، فعاثوا فيه نهبا وفسادا، فغزاهم ابن أبي السرح رمضا 31هـ/651م، وحاصر مدينة دنقلة، ورماها بالمنجنيق، فاستسلم أهلها، وطلب ملكهم المدعو قليدورون الصلح، وخرج إليه في ذلة وخضوع، فتلقاه ابن أبي السرح بالعفو والإكرام، وعقد معه معاهدة "البقط"[1]:

[1]- نص معاهدة البقط: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، عهد من الأمير عبد الله بن سعد بن أبي السرح، لعظيم النوبة ولجميع أهل مملكته، عهد عقده على الكبير والصغير من النوبة، من حدِّ أرض أسوان إلى حدِّ أرض علوة "إن عبد الله بن سعد جعل لهم أمانًا وصدقة جارية بينهم وبين المسلمين ممن جاورهم من أهل صعيد مصر وغيرهم من المسلمين وأهل الذمة: إنكم معاشر النوبة آمنون بأمان الله وأمان رسوله محمد النبي ﷺ أن لا نحاربكم، ولا ننصب لكم حربًا، ولا نغزوكم ما أقمتم على الشرائط التي بيننا وبينكم، على أن تدخلوا بلدنا مجتازين غير مقيمين فيه، وندخل بلدكم مجتازين غير مقيمين فيه، وعليكم حفظ مَن نزل ببلدكم أو بطرفه من مسلم أو معاهد حتى يخرج عنكم، وإن عليكم ردَّ آبقٍ خرج إليكم من عبيد المسلمين حتى تردوه إلى أرض الإسلام، ولا تستولوا عليه ولا تمنعوا منه، ولا تتعرَّضوا لمسلم قصده وجاوره إلى أن ينصرف عنه، وعليكم حفظ المسجد الذي ابتناه المسلمون بفناء مدينتكم، ولا تمنعوا منه مصليًا، وعليكم كنسه وإسراجه وتكريمه، وعليكم في كل سنة ثلثمائة وستون رأسًا، تدفعونها إلى إمام المسلمين من أوسط رقيق بلدكم غير المعيب، يكون فيها ذُكران وإناث، ليس فيها شيخ هرم ولا عجوز ولا طفل لم يبلغ الحلم، تدفعون ذلك إلى والي أسوان، وليس على مسلم دفع عدوٍ

وهي معاهدة اقتصادية أمنية أكثر منها عسكرية أو دينية، وجرت العادة أن يكون البقط (أي الجزية) ثلثمائة وستين رأسا لفيء المسلمين، وأربعين رأسا لوالي مصر، وكان الولاة يدفعون للنوبيين نظير ذلك مئات الأرادب من القمح والشعير، وكثيرا من الهدايا والصدقات، ومما جاء في المعاهدة:

- أن يقدم كل طرف للآخر ما يحتاجه من موارد نظير حصول الآخر على مواد أخرى، يقدم المسلمون الحبوب والعدس مثلا، ويقدم النوبيون الرقيق.
- لا يهاجم النوبيون المسلمين.
- حرية التجارة والسفر بينهم.
- منع الهجرة والاستيطان لرعايا أي دولة في الدولة الأخى.
- تسليم كل دولة العبيد المارقين من الدولة الأخرى.
- النوبيون مسؤولون على الحفاظ على مسجد للزوار.

بعد سقوط الدولة الفاطمية أراد السلطان صلاح الدين عام 568هـ فتح النوبة، جهز جيشا بقيادة أخيه شمس الدولة والأمير كنز الدولة حامي أسوان، ففتح بلاد النوبة إلى أبريم، ولما لم ير صلاح الدين فائدة من الاستيلاء على تلك البلاد المجدبة، أعاد منها جيشه، وترك فيها حامية وأميرا من الأكراد، ثم عاد فسحب هذه الحامية بعد غرق أميرها هناك، ونقضت النوبة عهدها مع صلاح الدين في عهد المماليك، فجرّد عليها جيشا عام 574هـ وأخضعها لشروطه.

وفي عام 674هـ أغار "داوود" ملك النوبة على أسوان، وأحرق سواقي كثيرة، وأراد التوغل في الصعيد فتصدى له الأمير نجم الدين عمر، أحد أمراء بيت كنز الدولة، ورده إلى النوبة، وصادف أن "سكندة" ابن أخت داوود ملك النوبة، قدم إلى السلطان الظاهر بيبرس مستجيرا من بغي خاله، فتذرع فيمن أسر الملك داود وأسرته، ثم أقيم سكندة ملكا على النوبة، وتعهّد بأداء الجزية المقررة، وجعل نصف إيراد النوبة لعمارة البلاد وحفظها، ونصفه للسلطان، ونزل له عن منطقة الجنادل لقربها من أسوان، وقرر إهداء مجموعة كبيرة من الفيلة والزراف والفهود والإبل والبقر، تُهدى إليه كل عام.

وأرسل السلطان المنصور قلاوون جيشا إلى النوبة عام 686هـ، بعد أن استنفر العربان أولاد أبي بكر وأولاد عمر وأولاد شريف وأولاد شيبان وأولاد كنز الدولة وجماعة من بني هلال، فاستولى على البلاد إلى جنوب دنقلة، وضرب عليها الجزية ثم عاد. وفي كما هاجر في عهده عهده الأميرال نوبي "نشلى" إلى مصر، فأسلم وأقام عند السلطان، وكانت النوبة تحت حكم الملك "كربيس" قد امتنع عن أداء الجزية، فجهّز إليه السلطان جيشا عام 716هـ، وبعث معه نشلى ملكا على النوبة، ففر كربيس إلى أرض علوة، واستقر نشلى في الملك إلى أن تآمر عليه النوبيون وقتلوه بمساعدة جماعة من العرب، وكان كربيس قد حُمل إلى السلطان في مصر، فأبقاه عنده وأسلم فحسن إسلامه، فلما قتل نشلى أرسله السلطان ملكا على النوبة، ولم يلبث أن أسلمت جميع رعيته، فكان هذا آخر عهد المسيحية في بلاد النوبة.

عرض لكم ولا منعه عنكم، من حدِّ أرض علوة إلى أرض أسوان. فإن أنتم آذيتم عبدًا لمسلم، أو قتلتم مسلمًا أو معاهدًا، أو تعرضتم للمسجد الذي ابتناه المسلمون بفناء مدينتكم بهدم، أو منعتم شيئًا من الثلثمائة والستين رأسًا، فقد برئتْ منكم هذه الهدنة والأمان، وعدنا نحن وأنتم على سواء حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين، بذلك عهد الله وميثاقه وذمته وذمة رسوله محمد ﷺ، ولنا عليكم بذلك أعظم ما تدينون به من المسيح وذمة الحواريين، وذمة من تعظِّمونه من أهل ملتكم ودينكم، الله الشاهد بيننا وبينكم على ذلك" كتبه عمرو بن شرحبيل في رمضان سنة 31هـ

6- أسباب انتشار الاسلام ببلاد النوبة:

أولا: الأسباب الدينية:

كان معظم جنود الحملات العسكرية التي سيرها ولاة المسلمين في مصر نحو بلاد النوبة من رجال القبائل العربية، وممن شاركوا في الفتح الإسلامي لمصر، أو من المدد الذي ظل يصل تباعا إلى مصر من الجزيرة العربية لتقوية السلطة، وحماية الدولة والتوسع في الفتوح[1]، ولم يتردد ولاة مصر في تسيير الحملات العسكرية تجاه النوبة، كلما أغاروا هؤلاء على الحدود والمدن الجنوبية للدولة، أو تمردوا عن دفع ما عليهم من بقط والتزام، فكان من الأهداف الرئيسة التي حركت أولئك المقاتلين هو الجهاد في سبيل الله تعالى والدفاع عن الدولة المسلمة، وحمل لواء الدعوة وتبليغها للعباد، تدفعهم لذلك نصوص صريحة من القرآن الكريم، وترغبهم في ذلك؛ كقوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾[2]، وقوله :﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾[3].

ثانيا: الأسباب السياسية:

تختلف وتتباين بحسب الأوضاع في مصر والنوبة، فمنها دوافع خاصة بتأمين النظام السياسي في مصر وتقوية شوكته؛ حيث عمد عدد من الولاة في مصر إلى جلب قبائل عربية بأسرِها إلى مصر؛ لتكون قوة لهم وسندا يحميهم ويغطي ظهرهم عند الخطر. وأشار عدد من المؤرخين إلى أن عبيد الله بن الحبحاب حين تولى مصر من قبل هشام بن عبد الملك سنة 109هـ، أرسل يستأذنه في قدوم قبيلة قيس فأذن له، فقدم عليه نحو مائة من أهل بيت هوازن، ومائة من أهل بيت بني عامر، ومائة من أهل بيت بني سليم، فتوالدوا[4].

ومن الدوافع السياسية كذلك أن النوبة ظلت ملاذا للكثير من الفارين من مصر أو من الجزيرة العربية بسبب الثورات وتغير نظام الحكم، ويقدم هؤلاء القادة الهاربين في أعداد ضخمة من أتباعهم وأهلهم وعبيدهم، فمثلا بعد سقوط الدولة الأموية هرب آخر الخلفاء الأمويين إلى مصر حيث قتل هناك، ثم هرب أبناء عبيد الله جنوبا إلى النوبة مصحوبين بعدد من الأقارب والأتباع، البالغ عددهم نحو 400 شخص، واستجار الأمويون بملك النوبة، آملين أن يبقيهم في بلاده، لكن الملك النوبي رفض ذلك، وطلب منهم الرحيل، فتوجهوا شرقا مارين بأرض البجة إلى ميناء باضع، وتعرضوا للجوع والعطش والتعب، فهلك عدد منهم[5].

ولا يستبعد أن يكون رجال البجة باتفاق مع النوبيين قد غدروا بهؤلاء الأمويين تقربا للعباسيين؛ حيث كشفت الحفريات الأثرية الحديثة عن قبور لهؤلاء الأمويين الفارين على طول الطريق الذي سلكوه من النوبة إلى ميناء باضع البجاوي[6]. وبعض من نجا منهم استقر على الساحل السوداني للبحر الأحمر قرب باضع؛ حيث اختلطوا بالسكان المحليين، وتزوجوا منهم، وأصبح لهم شأن كبير تبعا لأصلهم القرشي، وظلت بلاد النوبة تمثل دائما ملجأ للسياسيين والأمراء الفارين من مصر، يلجؤون إليها لترتيب أمورهم

---

[1]- مصطفى مسعد: "امتداد الإسلام والعروبة إلى وادي النيل الأوسط". المجلة التاريخية المصرية، عدد 5، 1959م، القاهرة،ص 190.

[2]- سورة التوبة، الآية 20.

[3]- سورة العنكبوت، الآية 69.

[4]- ربيع محمد قمر الحاج، "الهجرات العربية إلى بلاد النوبة والسودان الشرقي وآثارها الاجتماعية". مجلة دراسات إفريقية، السنة 21، عدد 33، جمادى الأولى 1426هـ/جويلية 200م، ص 43.

[5]- المسعودي، **التنبيه والإشراف**. ص 329.

[6]- عوض خليفات، "العرب والنوبة في صدر الإسلام"، مجلة دراسات تاريخية، جامعة دمشق، رجب 1402هـ/1982م، ص 63.

وصفوفهم من جديد، ريثما يبدؤون محاولة الثورة والمقاومة مرة أخرى؛ مثل: هروب عبد الله وعبيد الله ابني مروان بن الحكم إلى بلاد النوبة، ومثلما فعل الثائر الأموي أبو ركوة في عهد الفاطميين[1].

ومن الدوافع السياسية أيضا الحملات الحربية التي سيرها ولاة المسلمين من مصر -بعد إعدادها ودعمها- إما بسبب انقطاع النوبة عن دفع البقط المقرر عليهم، أو بسبب هجومهم على منطقة الحدود جنوبي مصر، وقد كانت هذه الحملات تصل إلى أعماق بلاد النوبة، ثم تستقر أعداد من المشاركين فيها في البلاد، فيساهمون في نشر الدعوة والثقافة الإسلامية في المنطقة، ونقل الدماء العربية للنوبيين بمصاهرتهم.

ومن الدوافع السياسية كذلك تحول سياسة العباسيين تجاه العرب؛ إذ المعروف أنه مع الفتح الإسلامي لمصر ظلت القبائل العربية تفد إليها بأعداد كبيرة جا، سواء دعاهم الولاة أو بتحرك تلقائي من قبلهم نحو مصر، فأصبحت أعدادهم كبيرة جدا، وصار لهم نفوذ هام في الدولة وتسيير أمورها، واستقرت جماعات منهم في الريف، ومارست الزراعة[2]، إلا أنه بسقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية بدأ العباسيون في استرضاء الموالي، والاعتماد على الجنود الأتراك، وعلى وجه الخصوص في عهد الخليفة المعتصم (218-227هـ)، فأثبتهم في الديوان، وأمر واليه في مصر كيدر بن نصر الصفدي بإسقاط من في ديوان مصر من العرب، وقطع العطاء عنهم[3]، وأدى هذا القرار الخطير إلى ثورة عربية ضد الوالي، انتهت بأسر زعمائها من القبائل العربية[4].

فكان من الطبيعي أن يتبع هذه الاضطرابات نزاعات كثيرة بين هؤلاء الذين امتنعوا عن دفع الخراج المقرر عليهم -مع التمتع بملكية وخيرات الأراضي التي يفلحونها- وبين ولاة الأمر في مصر، فكان لهذا التوتر وهذا الضغط السياسي والاقتصادي، أسوأ الأثر في نفوس العرب، الذين فقدوا مصدر رزق هام بالنسبة لهم، ولم يبق أمامهم إلا أحد أمرين: إما أن يذعنوا للأمر ويسلموا بهذا الواقع، وإما أن ينزحوا نحو صعيد مصر بعيدا عن سلطة الوالي، فآثروا الأمر الثاني، وأخذوا منذ أوائل القرن 3هـ/9م ينزحون للصعيد المصري، ومنه لبلاد النوبة في مجموعات صغيرة، دون أن تسترعي انتباه أحد، أو يسجل التاريخ تفاصيلها، حتى أنهم اجتازوا الحدود بين مصر والنوبة في هدوء شديد، لم يلتفت إليهم صاحب الجبل والي الإقليم الشمالي من قبل النوبة الموكل بحفظ الحدود الشمالية لبلاده الذي لا يسمح بدخول أي شخص للبلاد دون تصريح رسمي يسمح له بذلك[5].

ثالثا: الدو افع الاقتصادية:

ظلت العلاقات التجارية بين مصر والنوبة مزدهرة منذ قديم الزمان، إذ كانت مصر تحتاج للكثير من المنتجات التي لا تتوفر فيها؛ مثل: الأخشاب، والعاج، والأبنوس، وبعض التوابل.. وغيرها، فارتبطت مع بلاد النوبة بصلات تجارية قوية؛ فكانت مدينة أسوان مجمعا للتجار من أهل السودان ومن النوبة، وكان التجار النوبيون يقدمون إلى أسوان عن طريق النيل حتى الجنادل، ثم يتحولون إلى ظهور الإبل حتى يصلوا إلى أسوان[6]، سكنها كثير من العرب لمناخها الذي يقارب مناخ الجزيرة العربية ولمركزها التجاري،

---

[1]- القمر ربيع، **معاهدة البقط**. رسالة ماجستير غير منشورة، كلية العلوم الاجتماعية، قسم التاريخ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، 1412هـ، ص 77.

[2]- أحمد بن علي تقي الدين المقريزي، **البيان والأعراب عمن بأرض مصر من الأعراب**. نشر ومراجعة إبراهيم رمزي، مطبعة المعارف، القاهرة، 1334هـ/1916م، ص 66 - 86، ص ص 98 - 99.

[3]- أحمد بن علي تقي الدين المقريزي، **المواعظ والاعتبار**، ج 2، ص 94.

[4]- أبو المحاسن جمال الدين يوسف ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة في تاريخ ملوك مصروالقاهرة**. القاهرة، دار الكتب المصرية 1963م، ص 223.

[5]- أبو صالح الأرمني، **تاريخ الشيخ أبي صالح الأرمني**. أكسفورد، 1894م، ص 12.

[6]- الإدريسي، المصدر السابق، ج 1، ص 39.

إضافة إلى أن النوبة كانت تصدر عن طريق أسواقها أهم منتجاتها من لذهب والزمرد الذي ينتج في وادي العلاقي[1]، إضافة للرقيق، والعاج، والأخشاب الصلبة، والأبنوس، وسن الفيل لصناعة العاج، الذي يستخدم في الزينة، وريش النعام، والحديد الذي يستخرج ويصهر بالقرب من نباتا ومروى، وكانت ترد إلى النوبة المنسوجات، والقمح، والنحاس من مصر[2].

وحين وقع عبد الله بن سعد عهد الصلح مع ولاة النوبة نص صراحة على حق الترحال لرعايا البلدين في البلد الآخر دون الإقامة الدائمة، فساق هذا الحق التجار المسلمون إلى أعماق النوبة مع بضاعتهم وتجارتهم وعقيدتهم الإسلامية، واستطاعوا بما اكتسبوا من معرفةٍ بأحوال البلاد تمهيد الطريق لهجرة القبائل العربية في أعداد كبيرة، واستقرت جماعات منهم في سُوبا عاصمة مملكة علوة النصرانية جنوب المقرة، حتى أصبح لهم حي كامل يعرف بهم[3].

ومن الدوافع الاقتصادية التي ساهمت في دفع القبائل العربية للهجرة نحو جنوب مصر في النصف الأول من القرن 3هـ/9م سماع القبائل بالذهب والزمرد، عبر الصحراء الشرقية لبلاد النوبة، واشتهار أمرهما لا سيما في وادي العلاقي من أرض البجة؛ فأدى ذلك إلى جذب الكثير من القبائل العربية المختلفة، واستغلال مناجمها، وأدى استقرارهم هناك إلى اختلاطِهم بقبائل البجة عن طريق المصاهرة، فنقلوا إليهم العقيدة الإسلامية، وتغيرت كثير من عاداتهم وتقاليدهم بهذا النسب الجديد[4].

والمشهور عن مراعي النوبة وأراضيها أنها أكثر خصوبة من أراضي ومراعي شبه الجزيرة العربية، وعلى وجه الخصوص النوبة الجنوبية علوة، التي كانت أكثر اتساعا وأخصب أرضا وأوفر ثروة من المقرة[5]، إضافة إلى أن مناخ النوبة الشمالية (المقرة) يشبه مناخ وبيئة شبه الجزيرة العربية[6]، وكان لهذا التشابه أثره في الدفع بهذه القبائل للتقدم نحو الجنوب، وهي قبائل بدوية رعوية، أو شبه رعوية لا تستطيع التقدم إلا في السهول المكشوفة؛ ولم تتوقف تلك القبائل في زحفها إلا عند المناطق التي تسوء فيها الطرق، وتتفشى فيها الأمراض الفتاكة، بيد أن هذه الجماعات العربية المهاجرة اختلطت بالعناصر النوبية والبجاوية في تلك المناطق، وأدى هذا الاختلاط إلى تأثر هؤلاء بالدماء العربية، التي كانت تتجدد باستمرار مع توالي وصول عناصر عربية جديدة إلى هذه الجهات، إضافة إلى اعتناق عدد منهم للإسلام في هذه الفترة بالرغم من جهلهم باللغة العربية، والراجح أن العرب تعلموا لغة النوبيين بعد أن اختلطوا بهم، واستطاعوا بذلك نشر ثقافتهم الإسلامية في بلاد النوبة[7].

وتزايدت أعداد القبائل العربية المهاجرة، وانتشرت أحياء العرب من جُهَينة في بلاد النوبة واستوطنوها وملكوها. وكان ذلك في المراحل الأخيرة للمملكة النوبية النصرانية التي أصابها الضعف والوهن؛ بسبب خلافاتها الداخلية، وبسبب الضغط القوي للقبائل العربية التي سارت في زحفها حتى بلغت أرض البطانة والجزيرة، ثم عبر بعضها نهر النيل إلى كردفان ودارفور، وهناك التقت هذه الموجة المهاجرة بموجة أخرى، كانت قد تابعت شاطئ النيل الغربي حتى دنقلة، فوادي المقدم[8]، ووادي الملك، حتى بلغت في مسارها مملكة: كانم-برنو؛ حيث كان الإسلام قد بلغ تلك الجهات من بلاد المغرب وشمال إفريقيا. واستقر بعض هؤلاء المهاجرين في

---

[1]- اليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**. ج 1، بيروت، دار صادر، 1960م، ص 120.

[2]- أحمد نجم الدين فليحة، **إفريقية**. بغداد، جامعة بغداد، 1978م، ص 16.

[3]- ابن سليم الأسواني، **أخبار النوبة**. ج 1، القاهرة، المطبعة الأميرية، 1270هـ، ص 193.

[4]- مصطفى مسعد، "البجة والعرب في العصور الوسطى". مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة، مجلد 21، عدد 2، ص 29 .

[5]- اليعقوبي، المصدر السابق، ص 191.

[6]- شوقي الجمل، **تاريخ وحضارات السودان**. ج 1، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، 1969م، ص 254.

[7]- مصطفى مسعد، **الإسلام والنوبة**، ص ص 133-138.

[8]- حسن محمد جوهر وحسين مخلوف، **السودان (أرضه، تاريخه، حياة شعبه)**. مصر، دار الكتب، 1970م، ص 53.

سهول أواسط البلاد، وانفتحوا على السكان الوطنيين من النوبة وغيرهم من البجة والزنج، فصاهروهم، وعندما بلغوا كردفان ودارفور اضطر جزء منهم أن يتخلوا عن إبلهم ويعتمدوا على الأبقار في ترحالهم، ومن ثم عرفوا بعرب البقارة[1].

النتائج المترتبة عن الهجرات العربية نحو بلاد النوبة"

كانت الثقافة النوبية حتى دخول العرب المسلمين بأعداد كبيرة، تتأرجح بين ثقافتي الزنوج والحاميين من جهة، وما طرأ عليها من مؤثرات خارجية على رأسها الأثر المصري من جهة أخرى، تجلى ذلك في كثير من مظاهر الحياة النوبية في جانبها الثقافي والحضاري، مما لا تزال مشاهده وآثاره باقية في أشكال الأواني الفخارية، ومدافن الموتى وطريقة الدفن، وبناء قصور الملوك، إضافة إلى انتشار المعابد المصرية والرسومات الهيروغليفية، وتفشي عبادة الآلهة المصرية جنبا إلى جنب مع بعض الآلهة الوطنية المحلية، كما بقيت الأهرامات، وطريقة دفن النوبيين لموتاهم في البركل، ومروى، وكبوشية دليل على الأثر الثقافي المصري القديم[2].

وعندما ازدهرت الديانة النصرانية في بلاد النوبة، حتى صبغت البلاد بكثير من مظاهر ثقافتها، فحولت المعابد القديمة إلى كنائس، وبنيت الكاتدرائيات[3]، ويظهر الأثر البيزنطي في التحف الفنية التي عثر عليها، إضافة لقطع الفخار وصور الحيوانات التي ظلت تمثل تقليدا وطنيا كان منتشرا في مملكة علوة[4]، كما نجد الأثر النصراني القبطي في استخدام اللغة القبطية في أداء الطقوس الدينية الكنسية، وقد ترجمت فيما بعد إلى اللغة النوبية[5]،ومع ذلك بقيت بعض العادات والتقاليد النوبية الوثنية سائدة في المجتمع النوبي[6].

وبعدما وقعت النوبة مع المسلمين عهد البقط بشروطه، تسربت خلالها المؤثرات الإسلامية مع القبائل العربية التي بدأت تتغلغل هناك منذ القرن 2هـ/8م على الرغم من أن المعاهدة كانت تعطيهم حقا في الدخول في النوبة مجتازة لا مقيمة، إلا أن هذه القبائل تقدمت في هجرتها وتوغلت جنوبا، واستقرت قطاعات عريضة منها في شرق ووسط وغرب السودان، حتى وصل هذا الوجود إلى بلاد الحبشة ودافور في أواخر القرن 6هـ/12م[7]. والوجود العربي الإسلامي في بلاد النوبة لم يظل حبيس المناطق الشمالية، بل ظل يتوسع جنوبا، تدفعهم إلى ذلك دواعي نشر العقيدة الإسلامية، إضافة إلى دوافع أخرى أمنية وسياسية واقتصادية، فانفتحوا على السكان الأصليين من نوبيين، وبجة، وزنج وغيرهم، فصاهروهم وأحدثوا مؤثرات كبرى في حياة النوبيين، بما حملوه معهم من دعوة، وثقافة، ولغة، ونظام حياة، وقد قويت شوكتهم وأصبحوا مستظهرين على جميع من جاورهم هناك من النوبة والبجة إلى سنة 240هـ.

كما ضمنت المعاهدة للمسلمين فتح بلاد النوبة للتجارة، والسماح لتجارتهم بارتياد البلاد على ألا يقيموا فيها، فكان التجار من أهم وسائل نشر الثقافة الإسلامية في بلاد النوبة، وتمكنوا بما كسبوا من معرفة بأحوال البلاد، ونقلهم تلك المعرفة لمواطنيهم تمهيد الطريق لهجرة القبائل العربية في أعداد كبيرة[8].

---

[1]- يوسف فضل حسن، **الهجرات البشرية**، ص ص 22-23.

[2]- ربيع محمد قمر الحاج، "الهجرات العربية إلى بلاد النوبة والسودان الشرقي وآثارها الاجتماعية، ص 51.

[3]- حسن سليمان محمود وجلال الشاويش، **تاريخ السودان في العصور القديمة**. القاهرة، دار مصر للطباعة، ص 151.

[4]- يوسف فضل، **دراسات في تاريخ السودان**، ج 1، ص 17.

[5]- ابن سليم الأسواني، المصدر السابق، ج 1، ص 193.

[6]- شوقي الجمل، **تاريخ سودان وادي النيل**، ج 1، ص 222.

[7]- ابن حوقل، المصدر السابق، ص 65.

[8]- جعفر أحمد صديق، **انتشار الإسلام في السودان في القرون الثلاثة للهجرة**، ص 214.

ومن أهم وسائل انتقال الثقافة الإسلامية وانتشارها وسط النوبيين، الأفراد والمجموعات التي شاركت في الحملات التأديبية التي سيرها حكام المسلمين وولاتهم على النوبة، عند إغارتها على جنوب مصر، أو عند تمردها، وتعتبر أعظم الحملات وأكثرها على بلاد النوبة تلك التي كانت في العهد المملوكي[1]، واستغل هؤلاء الجنود فرض الأمن والحماية، وحق التوغل الذي كفله لهم عهد البقط؛ فاستقروا هناك بعد أن خلعوا عنهم صفات الجندية الرسمية، وهو الأمر الذي طمأن النوبيين، فزوجوهم من بناتهم، وتوثقت الصلات بينهم، فنقل اليهم هؤلاء المحاربون القدامى كثيرا من المؤثرات الثقافية الإسلامية، بالإضافة لهذه الجهود كانت هناك جهود بذلها الدعاة الذين حملوا هم الدعوة، ونقلوا كثيرا من مظاهر الثقافة الإسلامية للنوبيين، وإضافة إلى أنهم في كثير من الأحوال كانوا يصاهرون القبائل الوثنية فيعينهم حق الأم على توطيد مراكزهم في الأسر، وساهمت كل تلك العوامل في نشر الثقافة الإسلامية وسط أهل النوبة المسلمين الذين تأثروا بها تأثيرا مباشرا، بل تجاوز هذا التأثير الإسلامي هؤلاء المسلمين إلى غيرهم من الذين بقوا على نصرانيتهم وإلى الوثنيين منهم[2].

كما حدث نوع من الملاءمة أو المثاقفة بين الموروث المحلي النوبي وبين الإسلامي المكتسب[3]، ويبدو الأثر الإسلامي واضحا في عادات وأخلاق الملوك النوبيين وفي الألقاب والنظم والرسوم[4]، ومن بين مظاهر تأثرهم بالثقافة الإسلامية الكتابات العربية على شواهد بعض القبور تحمل أسماء عربية في القرنين 2 و3 للهجرة[5]، وكذلك اتخاذ النوبيين للأسماء العربية، وتسميتهم بها، فتتحدث المصادر عن أن حاكم إقليم الجبل النوبي اسمه قمر الدولة كشي[6].

وفي مجال العقوبات والجنايات بدا الأثر الثقافي الإسلامي واضحا في حياة النوبيين الذين كان من أعرافهم الاجتماعية طرد من يرتكب جريمة السرقة من القرية[7]، إضافة إلى أن النوبي كان إذا خامره شك في زوجته حملها ليلا إلى النهر وأغمد مُديته في صدرها، ثم يقذف بها في النيل، بينما أنه في حالة الطلاق يستولي على جهاز مطلقته، ثم يحلق رأسها، ووجود هذه الشرائع والأعراف في المجتمع النوبي يؤكد ضعف الأثر النصراني في البلاد؛ إذ إنها شرائع وأعراف تتنافى مع التعاليم النصرانية وشرائعها، إلا أنهم سرعان ما تأثروا بشريعة الإسلام وآدابه في التعامل مع هذه المواقف والجنايات، فتقلصت إلى حد كبير تلك الثقافات الوثنية التي ظلت سائدة تحكم الحياة النوبية، وتوجهها[8].

---

[1]- عبد المجيد عابدين، **تاريخ الثقافة العربية في السودان**، ص 34.

[2]- حسن أحمد محمود، **الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا**، ص 17.

[3]- نعوم شقير، المصدر السابق،ص ص137 – 139.

[4]- مصطفى مسعد، **الإسلام والنوبة**، ص 138.

[5]- حسن أحمد محمود، المرجع السابق، ص 289.

[6]- عبد الله عبد الرحمن الأمين، **العربية في السودان**. ج 1، بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1967م، ص 16.

[7]- بوركهارت جون لويس، **رحلات بوركهارت في بلاد النوبة والسودان**. ترجمة فؤاد أندراوس، مصر، مطبعة المعرفة، ص 137.

[8]- يوسف الفضل، **الهجرات البشرية**، ص ص 24 -25.

المحاضرة العاشرة: مملكة الفونج الإسلامية (910-1237هـ/1504-1821م)

تمهيد:

كانت السودان في فترة القرن العاشر الميلادي تضم ثلاث ممالك رئيسية، هي: مملكة المقرة في الشمال، مملكة علوة على النيل الأزرق، مملكة البجة في الشرق، وفي الفترة ذاتها توافدت القبائل العربية إلى سهول السودان وبدأت في تعريب السودان من خلال التزاوج. كما مهدت للتحولات الاقتصادية والاجتماعية والتحركات السكانية التي حدثت في سودان وادي النيل خلال القرنين 14 و 15م إلى تفتت الممالك المسيحية ومن ثم قيام المملكة الفونج مع مطلع القرن 16م، وهي أول كيان سياسي كبير في سودان وادي النيل اعتنق حكامه الإسلام الذي اعتبر منذئذ الدين الرسمي للدولة. وفي العاصمة سنار بدأ التشكيل الأساسي للثقافة العربية الإسلامية في سودان وادي النيل والذي اتخذ وجهته الحضارية والقائمة على الانتماء بصورة أو بأخرى لهذه الثقافة. كما مثلت سنار البداية الأولى لعلاقة الإسلام والثقافة الإسلامية بالسياسة والأيدلوجيا في السودان، كذلك ربما مثلت الأساس الذي تحركت منه الثورة المهدية والتي بنيت على الطائفية الدينية السياسية[1].

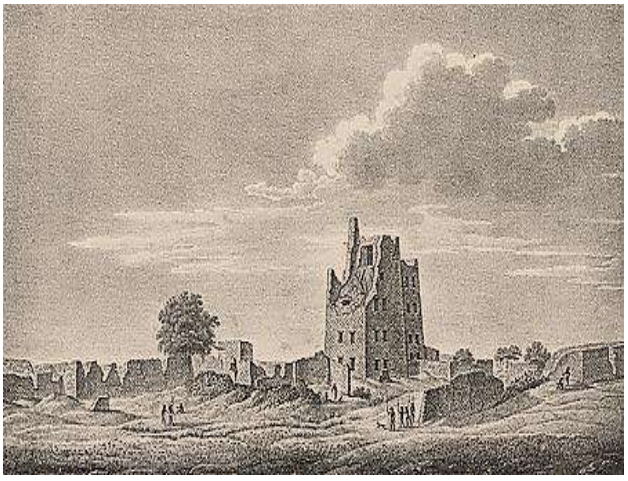

أطلال القصر الملكي بسنار

وعلى الرغم من الدور الريادي لسنار في نشر الثقافة الإسلامية في السودان، اختلفت النظرة لها من قبل المفكرين المحدثين حيث رأي فيها البعض البداية الحقيقية لتاريخ السودان كونها شهدت الانتشار الواسع للإسلام، بينما ترى مجموعة أخرى أنها اهتمت بالتقاليد السائدة فقط وركزت على الثقافة العربية الإسلامية، وترى مجموعة ثالثة أنها تمثل قمة الأسلمة التي بدأت بواكيرها منذ عهد عبد الله بن سعد بن أبي السرح. وجاء في أغلب المؤلفات الحديثة أن الصلات بين العرب والسودان قبل الاسلام تم أغلبها عن طريق العبور من سواحل اليمن إلى الحبشة أولا ثم إلى السودان إما سلمية من أجل الاستقرار والتجارة، أو من أجل الغزو، وبالطبع فقد سهل مضيق باب المندب العبور بين ساحلي البحر الأحمر[2].

---

[1]- أحمد حسين عبد الرحمن آدم، **الدلالات الآثارية للامتداد السياسي والديني لدولة الفونج بين الشلالين الرابع والثالث**. رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، قسم الآثار، جامعة الخرطوم، السودان، 2004م، ص 44.

[2]- بعد ذلك تكاثر العرب الذين وفدوا الى السودان عن طريق الهجرات البطيئة والعفوية، وتحقق من تلك الهجرات نشر الاسلام، كما استقر المهاجرون -نسبة لتوفر الماء والكلأ لهم ولأنعامهم- وهذه الهجرات لم تأتي دفعة واحدة بل على مر السنين، وتصاهر القادمون وتعايشوا مع الأهالي سلميا، فانتشر الاسلام في تلك البقاع سلميا.

حتى تكون تحالف بين العرب المهاجرين بقيادة زعيمهم **عبد الله جماع** وبين الفونج بزعامة **عمارة دنقس**، وكان نتيجة هذا التحالف القضاء على مملكة علوة ، واستطاعت القوتان أن تكونا أول مملكة إسلامية في عام 1504م تحت اسم "**السلطنة الزرقاء**"، وقسمت السلطة فيها على أن يكون الملوك من الفونج والوزراء من **العبدلاب** أي العرب المهاجرين، وبدون استخدام سلاح وصلت القوتان المتحالفتان إلى الغاية من الوحدة وهي التعاون والتحالف والمشاركة في الأراضي والمناصب. وشملت مملكة الفونج في تلك الفترة السودان ووادي النيل[1].

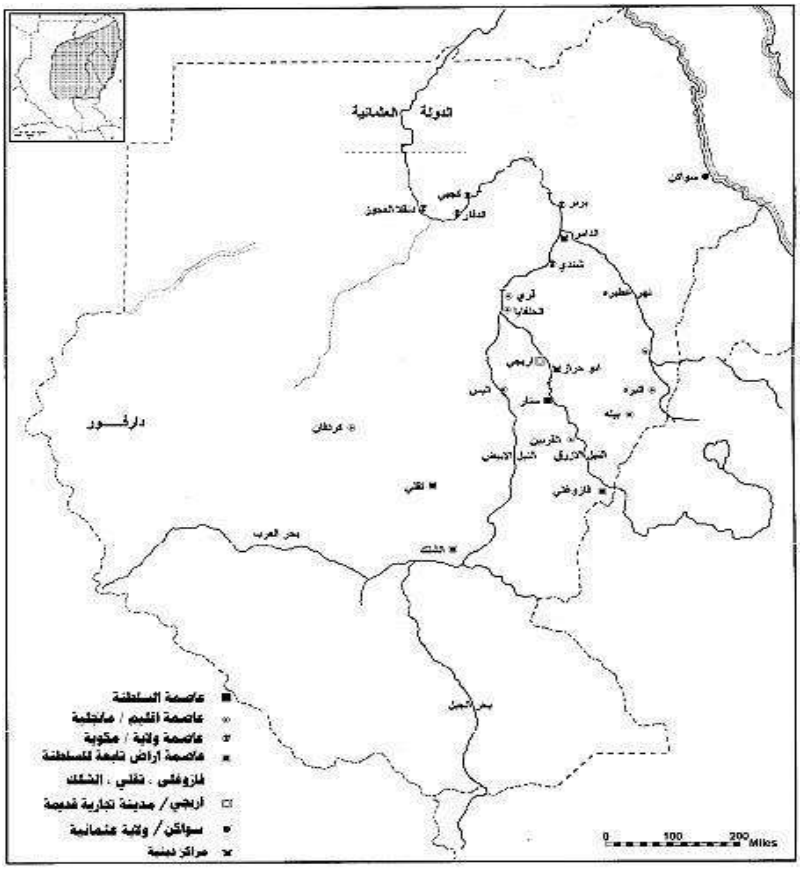

1- النشأة:

أصبح عمارة دنقس سنة 1504م أول ملوك مملكة الفونج والعبدلاب، تحت قيادة عبد الله جماع زعيم عرب القواسمة. وكانت العاصمة الأولى محل البلدة المعروفة اليوم، بأم حجارة أو أم حجر التي تقع عند هضبة الحبشة، وتتميز بالمكانة الجغرافية والتجارية العظيمة بين كل من البلدان الأثيوبية وحوض النيل العظيم، وموانئ البحر الإريتري، ولكن بعض الإشارات التاريخية الأخرى عارضت ذلك، ولكن الموقع في الجنوب أو الجنوب الشرقي من سنار وربما خارج حدود السودان. وتقع سنار عند التقاء عدد من الطرق التجارية لأفريقيا والشرق الأقصى ومصر لذلك كانت صالحة للزراعة، ويتوسطها عدد من المجاري المائية، كالنيل الأزرق ونهر الرهد والدندر، وأطلق لقب "**السنانير**" على رعاياها[2].

وتعتبر مملكة سنار أول دولة عربية إسلامية قامت بالسودان بعد انتشار الاسلام واللغة العربية، نتيجة لتزايد الوجود العربي والتصاهر بين العرب والنوبة. واهتم ملوكها بالعلم حيث أقاموا رواق السنارية في الأزهر بالقاهرة من أجل طلاب المملكة

[1]- أحمد حسين عبد الحمن آدم، المرجع السابق، ص 44.

[2]- قيصر موسى الزين، **فترة انتشار الإسلام والسلطنات**. القاهرة، مكتبة غريب، 1998م، ص 60.

هناك، كما شجعوا هجرة العلماء الي السودان للدعوة ونشر العل،. وأنشأ أحد السلطا **بادي الأحمر** وقفا بالمدينة المنورة لاستقبال الزوار من مملكته للإقامة هناك عند زيارتهم للأراضي المقدسة، ولا يزال جزء من أوقاف السودان هناك. كما انتشرت الخلاوي (الكتاتيب) لتحفيظ القرآن الكريم و علوم العربية والحساب.

وأصبح عمارة دنقس في بداية القرن 16م ملكا في ملك سوبا، ويلقب **بالمك** أنه الكبير والمقدم، بينما عبد الله جماع في محل ملك قرى، ويلقب بالشيخ، وامتدت حدود مملكة الفونج من السواكن شرقا وحتى النيل الأبيض غربا، ومن هضبة الحبشة بالجنوب وحتى الشلال الثالث بالشمال، وتقاسم ملوك الفونج والمشايخ النفوذ داخل المملكة. وكانت مدينة أربجي تفصل بين منطقتي نفوذها على النيل الأزرق من ناحية الغرب واتسعت حدودهم تدريجيا، حتى بلغت كردفان في أواسط القرن 18م، وفي أواخر عهد السلطان عبد القادر بن عمارة عام (1551-1559م) حاصروا جبل سقدي، وجبل مويه، وأخضعوا السكان، وأجبروهم على اعتناق الإسلام، ولكن العصر الذهبي للمملكة كان في فترة السلطان بادي أبو دقن (1643-1678م)[1].

خريطة مملكة الفونج الإسلامية

2- أصل الفونج: نظرا لقلة المصادر المكتوبة حول أصلهم ، كثرت الآراء لذا طرحت في البداية ثلاثة آراء رئسية حول أصلهم[2]:

أ- الأصل الشلكاوي: يرى البعض أنهم شعبة من **الشلك** مستندين في ذلك على ما ذكره الرحالة الاسكتلندي جيمس بروس الذي زار سنار عام 1772م، حيث كتب في مذكراته بأنهم ينحدرون من قبيلة الشلك التي قدمت من جهة النيل الأبيض على زوارق

[1]- بابكر فضل المولى حسين أحمد، **مظاهر الحضارة في دولة الفونج الإسلامية**. الخرطوم، منشورات الخرطوم عاصمة الثقافة العربية، 2004م، ص 23.

[2]- يوسف فضل حسن، **مقدمة في تاريخ الممالك الإسلامية في السودان الشرقي (1450-1821م)**، الخرطوم، دار سودتاك المحدودة، ط4، 1422هـ/2002م، ص 62.

واستولت على حوض النيل الأزرق. رغم أن الشلك لم يذكروا ذلك في تاريخهم المنقول عن طريق الرواية فقد كانوا في عداء مستمر مع الفونج[1].

الأصل البرناوي: رأي آخر يرى أنهم أتوا من الغرب ويحتمل أن يكونوا فرعا من الأسرة الحاكمة في مملكة برنو، ووجدت هذه النظرية نقدا شديدا فلم تذكر السلالة الحاكمة في برنو ن أحد أفرادها أو مجموعة منهم أسسوا مملكة سنار[2].

الأصل العربي: يرى أصحاب هذا الرأي بأنهم هجرة عربية دخلت السودان من الحبشة عبر النيل الأزرق.

الأصل الأموي: الفونج أنفسهم فيقولون بأنهم من نسل الأمويين الذين لجأوا الى الحبشة فرارا من بني العباس، وتشير مخطوطة الشونة إلى أصل الفونج الأموي وتختلف في تفاصيلها وفي اسم الأموي الهارب، البعض قال أنه من سلالة سليمان بن عبد الملك بن مروان الذي دخل الحبشة وسكن فيها فترة ثم هاجر إلى جبال الفونج وتزوج هناك، وقيل أنهم سلالة عبد الملك بن مروان آخر ملوك بني أمية الذي هرب إلى النوبة ومنها إلى باضع.

وبجانب هذه الآراء التي تبناها الرحالة الذين زاروا سنار في أوقات مبكرة وآراء الفونج أنفسهم، ظهرت آراء حديثة ترجعهم إلى أصول مختلفة، حيث يرى **سبولدنق** أنهم من أصل نوبي قدموا من أقاصي جبال النوبة جنوب غرب السودان، وحدد مكانهم بأنه يقع بين الرنك وملكال، وهم خليط من الهمج[3] والعنع والنوبة. بينما يرى **كروفورد** أنهم من الهمج حيث أن هناك خلط واضح بين الفونج والهمج، والآن نجد بعض المجموعات في قرية وركّت بأعالي النيل الأزرق يتحدثون لغة غير عربية ويسمون أنفسهم بالهمج، تقع مناطقهم إلى الشمال من فازوغلي وتسمى بأرض الهمج، وهم سكان منطقة سوبا عاصمة مملكة علوة المسيحية، استولوا على الحكم في سنار بواسطة محمد أبو لكيلك أشهر قادتهم، واختلطوا مع النوبة والعرب، وكونوا سلالة الفونج التي حكمت السودان أوائل ق 16م[4].

وبالتالي إزالة الغموض عن تاريخ الفونج وخاصة أصلهم يحتاج إلى العديد من الدراسات الإتنوغرافية والآثرية والتاريخية والدراسات الحديثة مثل دراسة العوامل الوراثية عن طريق الجينات وذلك بواسطة حمض DNA، حيث يمكن تطبيق ذلك على بعض المجتمعات التي كانت لها علاقات واتصالات واسعة مع السودان في تلك الفترة مثل أثيوبيا وإريتريا والتي يؤكدها التداخل القبلي الحالي في شرق السودان. وبالتالي فإن دراسة المجتمعات والتاريخ في كل من إريتريا وأثيوبيا بجانب الأعمال الأثرية الجادة في السودان ربما مثل إضافة حقيقية لفهم الكثير عن تاريخ هذه الحقبة[5].

3- معنى كلمة الفونج:

كتبت بصور عديدة مثل "الفنج" و "الفونج"، نجدها تعني في العربية نوع من الحيوانات التي يستخدم جلدها في الفراء. كذلك توجد قبيلة في سلطنة عمان تسمى الفنج وربما لها صلة بهذه المجموعة بطريقة ما، أما في اللغات المحلية فقد وردت كلمة

---

[1]- بابكر فضل المولى حسين، "تقويم الدور الحضاري للدولة الفونج"، المؤتمر الدولي الإسلام في إفريقيا، 26-2006/11/27م، الكتاب 14، ليبيا، وزارة الإرشاد والأوقاف، ص 96.

[2]- بابكر فضل المولى حسين أحمد، **مظاهر الحضارة في دولة الفونج الإسلامية**، ص 20.

[3]- **الهمج**: يمثلون بقايا الشعوب الأصلية التي كانت تسكن جنوب الجزيرة عند قيام مملكة الفونج، وظلوا نحو قرنيين تحت حكم الفونج، وأنهم قدموا من الجنوب إلى سنار، ويقول البعض أنهم خليط من النوبا والعرب.

[4]- أحمد حسين عبد الحمن آدم، المرجع السابق، ص 47.

[5]- أحمد حسين عبد الحمن آدم، المرجع السابق، ص 22.

الفنج في شعر البطانة، وبعض الدارسين يرى أنها مستمدة من لغة الشلك، وبعضهم يردها إلى لغة النوير، وفريق ينسبها إلى لغة القولي، وكل فريق له دلائله لكنهم اتفقوا على أنها مستمدة من أصول اللغات النيلية .

4- الحدود السياسية:

أصبح عمارة دنقس في بداية القرن 16م ملكا في محل ملك سوبا ويلقب بالملك لأنه الكبير والمقدم بينما عبد الله جماع في محل ملك قري ويلقب بالشيخ، وقد امتدت حدود مملكة الفونج من سواكن شرقا إلى النيل الأبيض غربا ومن الهضبة الحبشية جنوبا الى الشلال الثالث شمالا. وقد تقاسم ملوك الفونج ومشايخ العبدلاب النفوذ في المملكة، وكانت مدينة أربجي[1] تفصل بين منطقتي نفوذهما على النيل الأزرق إلا أن الحدود بينهما أصبحت في أوائل القرن 19م عند مقرن النيلين الأبيض والأزرق. وقد امتد نفوذ الفونج من أربجي شمالا حتى فازوغلي جنوبا وشرقا حتى التخوم الحبشية أما من ناحية الغرب فقد اتسعت حدودهم تدريجيا حتى بلغت كردفان في أواسط القرن 18م. أما على الضفة اليسرى من النيل كانت تسيطر عليها **قبيلة الجموعية** إحدى القبائل العربية، ويمتد نفوذها جنوبا حتى الدويم، أما الى الشمال من حدود العبدلاب فقد كانت منطقة الجعليين تليها مشيخات أخرى مثل الميرقاب والرباطاب والدفار تليها دنقلا وأرقو. والمنطقة التي تقع إلى الشمال وتحد جنوبا بالشلال الثالث وشمالا بالشلال الأول فقد كانت بيد الكشاف والأتراك، وهم بقايا السرية التي أرسلها السلطان العثماني في عام 1520م لإحلال النظام في هذه المنطقة فاستقروا بها بعد أن منحهم السلطان سليم الامتيازات[2].

The establishment of Fung and Abdalab in 1500 AD by Amhara, Beni Shanqul, Amorites, and Fulani

العبدلاب هم مطاريد أسبانيا وكان معهم ترك وبربر ويهود
اما عمارة دنقس فهو ملك امهري وتنطق امهرا د نقوس
أسم فونج جاء من أسم أول عصابة صيد الرقيق فولاني في المنطقة
وتحول فوني الي فونج Apfuny وكان زعيمها اسمه فرج فوني

5- أشهر ملوك الفونج:

الملك عمارة بن الملك عدلان دنقس (1504-1534م): مؤسس المملكة فى سنار وكانوا يقولون له ملك الشمس والظل.

---

[1]- **مدينة أربجي**: تقع على الضفة اليسرى للنيل الأزرق على بعد 150 كلم جنوب الخرطوم و3 كلم جنوب شرق الحصاحيصا وأسست عام 1470م قبل سنار خطها حجازي بن معين، كانت مركزا إداريا للعبدلاب، وتعتبر الحد الفاصل بين سيطرة ملوك الفونج في سنار ووكلائهم العبدلاب، وكانت في فترة من الفترات مركزا لجمع الضرائب من القوافل التجارية حيث تلتقي فيها الطرق القادمة من مصر وسواكن.

[2]- يوسف فضل حسن، **مقدمة في تاريخ الممالك**، ص 75.

الملك عمارة أبو سكاكين (1555-1563م): في عهده توفى الشيخ عبد الله جماع وخلفه ابنه الشيخ عجيب المانجلك، ويسمى بسيد العادات، وأنشأ نظام حكم الدواويين والقضاء وعين الشيخ عبد الله العركى بن مؤسس الطريقة القادرية وأصبح أول شخص مسؤول عن القضاء.

الملك عدلان (1605-1612م): فى عهده حدث خلاف بين الفونج حيث خرج عجيب المانجلك على سلطة الدولة المركزية مما اضطر حكومة سنار لمقابلته فى معركة بين العيلة فونج (العيلفون حاليا) والحلفايا وتحديدا كركوج بالقرب من الجريف، قتل فيها الشيخ عجيب المانجلك وفر ولديه الأمير العجيل لدنقلا والأمير عثمان الى البجا، ويقال ان العثمان من ذريته ،ولما رأى الملك عدلان اضطراب حبل الأمن فى مملكته جاء للولى الكامل الشيخ إدريس ود الأرباب، ويقال أنه يمت بصلة للشيخ عجيب بأمه، وحلف له الملك اليمين إذا رجع الأمير العجيل أن ينزل منزل والده، فذهب الشيخ إدريس إلى دنقلا وأحضر الأمير العجيل وتم الصلح واستمر الحلف.

الملك بادى أبو دقن بن رباط (1643- 1678م): عرفت في عهده مملكة الفونج عصرها الذهبي، حضر ديوان الشيخ عبد القادر الجيلانى، اشتهر بالجود وأحضر العلماء من المغرب والحجاز والأزهر، وبنى مسجد سنار العتيق، وقصره المكون من خمس طوابق، وأسس مخازن للسلاح، وتوسعت المملكة في عهده فقد غزت جيوشه بلاد الشلك، وهزمت جيوشها التي كانت تتمركز في منطقة النيل الأبيض، وكانت تشكل غارات مستمرة على القبائل العربية التى كانت تسكن بالجزيرة، وغزى أيضا جبال تقلي بهدف التوسع التجاري فدخل في حرب مع ملكها الذي خضع لملك الفونج بل قام بغزو مناطق هناك مثل جبال النوبة، وجبال الداير بين سهول كردفان، بذلك سيطر على كل المناطق التي كانت تمدهم بالرقيق[1].

الملك بادى أبو شلوخ ود نول (1724- 1762م): أشهر ملوك سنار حيث انتصر على أياسوس ملك الحبشة، وأخضع حكم المسبعات لحكمه، وكان وزيره وعديله زعيما للهمج أبو لكيلك ورغم نجاحاته نفى إلى كسلا (فونج كسلا) وهى بداية ضعف ملوك الفونج وبداية نفوذ الهمج.

الملك بادى السادس بن طبل (1791-1821م): حكم 29 سنة وهو آخر ملوك الفونج وبدأ فى عهده الفتح والذى شهد اضطرابات قادها الجعليين وملوك البطاحين والشكرية، قتل فيها عوض الكريم أبوسن زعيم الشكرية، فتم الصلح وتزوج زعيم الشكرية من ستنا بنت الملك عدلان وتم إعطائهم أرضا هدية، وزيره محمد ود عدلان ود بادى ود رجب صاحب المقولة المشهورة فى رده للخديوى محمد على باشا "لا يغرنك ما لقيت من الجعليين والشايقية، نحن الملوك وهم الرعية، ويكن معلومك أن سنار محمية بجرد أدهمية وصوارم هندية ورجال يوالون القتال بكرة و عشية"، وهو مدفون فى رونقا عاصمة مشيخة خشم البحر، وهى قرية بريفى السوكى ولا زالت مقبرته واضحة المعالم.

[1]- قيصر موسى الزين، المرجع السابق، ص 60.

2- مظاهر حضارة مملكة الفونج:

أ- النظام السياسي والإداري:

ضمت السلطنة أقاليم أو مشيخات متباينة الحجم، ومختلفة الأعراق والثقافات، بعضها كان موجودا ربما من قبل تأسيس السلطنة نفسها، وتم إخضاعها مثل كيانات الشايقية والجعليين والعبدلاب، وبعض المناطق الأخرى التي نشأت كتقسيم إداري، تم ضمه للمملكة مؤخرا مثل مناطق تقلي وكردفان. وحكم السلاطين كافة المملكة مباشرة في البداية حتى ثورة عجيب المانجلك مطلع القرن 17م، وبعد هزيمة عجيب الكبير تمت التسوية مع أبنائه بأن يحكموا كافة الجزء الشمالي من السلطنة نيابة عن سلاطين الفونج.

ونظام الفونج السياسي نظام إقطاعي، حيث تم تقسيم السلطنة إلى مجموعة اقطاعات، يقوم بإدارتها شيخ ينوب عن السلطان، ويقدم له جزية سنوية وكان ذلك شأن الأقاليم التي قاموا بفتحها. وبذلك أصبحت السلطنة مكونة إداريا من عدة أقاليم لكل إقليم رئيس معلوم، وسميت هذه الأقاليم بـ"**المشيخات**" أو "**المانجليات**" مفردها مانجلية نسبة للمانجل وهو حاكم للسلطان مباشرة. وقسمت بعض هذه الأقاليم إلى مقاطعات صغيرة تضم كل منها مجموعة قرى صغيرة مستقرة بجانب المجموعات الرعوية، وتعتبر القرية أصغر وحدة في الهرم الإداري، وهذه التقسيمات الإدارية لم تكن بهذه الدقة بل كانت تشكل إطار نظري فقط للهيكل الإداري في سنار حيث فقد الأقاليم من حيث المساحة، والجغرافية الاقتصادية، والنشاطات السياسية، كما تباينت الأنظمة الإدارية بين الرعاة من جانب والسكان المستقرين من جانب آخر، كما اختلفت نظم الإدارة عند المزارعين في المناطق النيلية عن أولئك في المناطق المطرية[1].

وبعضها في مناطق أخرى نشأت كتقسيم إداري أو تم ضمه مؤخرا مثل مناطق تقلي وكردفان، ويعتقد أن سلاطين الفونج حكموا كافة أقاليم المملكة مباشرة في البداية حتى ثورة عجيب المانجلك في مطلع القرن 17م، وبعد هزيمة عجيب الكبير تمت تسوية مع أبنائه بأن يحكموا كافة الجزء الشمالي من السلطنة نيابة عن سلاطين الفونج، وبالتالي أصبحت كل كيانات الجزء الشمالي من السلطنة خاضعة لنفوذ أولاد عجيب، وهم بدورهم مسؤولون أمام السلاطين في سنار[2]. وكان للقرية أهمية كبيرة في الوحدة السياسية في النظام الإداري للمملكة، والتي تكونت من مجموعة عائلات كما هو معروف لدى القبائل العربية، تخضع لزعيم القبيلة وغالبا ما يكون ذو سمعة طيبة وشخصية مهمة في فض النزاعات المحلية، وإكرام وإيواء المسافرين عبر القرية، وهو الوسيط بين الدولة وسكان القرية، وهذا يوضح أهمية الرابطة العشائرية في التنظيم الاجتماعي في سنار.

وبغض النظر عن هذه الاختلافات يرى الباحث أحمد حسين عبد الرحمن آدم بأن دعائم السلطنة قامت على نظام مركزي من جانب ونظام لا مركزي من جانب آخر، حيث تمتع السلطان بالسلطة المطلقة في الأرض والناس، وترك أمور الإدارة اليومية في مختلف أقاليم السلطنة للمشايخ والمناجل ونوابهم الأدنى في الترتيب الإداري. ولعل النظام الإداري للسلطنة اعتمد السلطة المركزية للسلطان والتي دعمها بالروابط السياسية والاجتماعية والدينية كما اعتمد على نظام لا مركزي مستندا على جهاز بيروقراطي متين ومتكامل[3].

---

[1]- أحمد حسين عبد الرحمن آدم، المرجع السابق، ص 149.

[2]- يوسف فضل حسن، "سلطنة الفونج الإسلامية: دورها في تاريخ سودان وادي النيل"، مجلة دراسات إفريقية، عدد 22، رمضان 1320هـ/ديسمبر 1999م، ص 57.

[3]- أحمد حسين عبد الحمن آدم، **الدلالات الآثارية**، ص 42.

البلاط "مجلس السلطان":

وجد عدة أعوان في العاصمة كانوا يساعدون السلطان في تدبير أمور الدولة، هناك مجلس مكون من عشرين رجلا خمسة منم يحيطون بالملك، وهناك أشخاص لهم صفات رسمية مثل **سيد القوم** الذي يكون في الغالب خال السلطان أو الشيخ، والذي يقع على عاتقه قتل الملك الذي يتم خلعه بواسطة مجلس السلطان، بالإضافة إلى الملكة الأم وعبيد السلطان[1].

أما قصر السلطان بالعاصمة سنار يحتوي على تنظيم إداري متكامل، خصصت بعض الأماكن به لمهمات الحكومة، وديوان الجلوس الذي له ديوانان أحدهما خارج عن القصر الكبير والآخر داخل القصر، كما خصص لكل منهم ديوان مختصا به يعالج فيه قضاياه المختلفة فيما يتعلق بأتباعه، إضلفة لبيوت الحريم.

كانت الاحتفالات تجري وفق قواعد محددة ومعروفة يجب اتباعها في حضرة السلطان، وهناك بعض الطقوس التي كانت تمارس في حضرته مثل خلع الأحذية والطاقية وتعرية الكتفين من الملابس، وحني الرأس، وغض البصر، ولا يسمح بالبصق على الأرض في حضرته. واستمر هذا الوضع على هذه الصورة وقد صحبه نوع من التعديل في فترات مختلفة إلا أن التعديل الواضح كان في منتصف القرن 18م حيث تضخم حجم البلاط بعد استيعاب عدد كبير من رجال الدين وبعض الأرابيب من النبلاء الهامشيين الذين يتم وضعهم في طبقة الفقرا "رجال الدين" بعد إمام جامع سنار. كما ظهرت وظائف أخرى في البلاط مثل الأطباء والخياطين والحجام والمستشارين الدينيين وغيرهم[2].

النبلاء:

قسمت طبقة نبلاء الفونج على أساس الأرض والتي مثلت أحد مؤسسات ممارسة السلطة حيث كان المالك الأول للأرض هو الملك، والذي بدوره قسم القدر الأكبر منها على قلة من النبلاء البارزين، وقد كانت سلطة هؤلاء النبلاء حكم الأقاليم، وكان النبيل يلقب "بالمانجل" و"الملك" و"الشيخ" حسب مكانته في المملكة. وهناك بعض الأراضي الخاصة لنبلاء آخرين أقل شأنا من سابقيهم الذين يستخدمونها عند حدوث ضائقة لأحد أفراد العائلة حيث لهم ممتلكات خاصة أقل حجما وهي في الأساس هبة من السلطة الحاكمة في البلاد.

وكانت الأرض تقسم إلى اقطاعات للنبلاء من الدرجة الثانية الذين اكتسبوا صفتهم هذه من ارتباطات الزواج مع أسرة المانجل، ووحدات الأراضي المملوكة على هذا المستوى الثاني للاقطاعات الفرعية تسمى "**الأقسام**"، وحكامها يطلق عليهم لقب "**ملك**"، وتعرف أحيانا "ملك"، والأقسام مثل الأقاليم لها حدود معروفة، وامتلاك الأرض في مستوى الأقسام يختلف في الأسلوب عن الأنماط في المستوى الأعلى من التنظيمين، فالأرض التي تمتلكها أسرة السلطان تظل ثابتة، كذلك تظل الأرض الممنوحة لحكام الأقاليم ذات وضعية واضحة ومؤقتة نسبيا. وتستمر العلاقة بين حاكم الإقليم والعاصمة سنار أثناء حكمه من سن الشباب حتى تخليه عن الحكم، ولذلك فإن حكام الأقاليم يتوقع منهم أن يقضوا فترات طويلة من حياتهم العملية في سنار.

حاشية السلطان:

تألفت من شاغلي الوظائف الإدارية البلاطية أو العسكرية من جانب، وشاغلي الوظائف السياسية مثل حكام الأقاليم من جانب آخر، بجانب النبلاء ثم طائفة العلماء من الخطباء والأئمة والمؤذنين والكتبة وغيرها من الوظائف التي أخذت طريقها إلى

[1]- يوسف فضل حسن، المرجع السابق، ص 65.

[2]- أحمد حسين عبد الحمن آدم، **الدلالات الآثارية**، ص 70.

البلاط بحلول القرن 18م، وبالرغم من اللامركزية في الحكم في سنار إلا أن السلطان اعتبر قمة الهرم الإداري بكل أفرعه، ورأس السلطنة الذي يجمع في يده مطلق السلطات على الناس والأرض.

أمين السلطان: بمثابة الوزير والراعي الأول لشئون البلاط، ويبدو أن هذا المنصب قد غطت عليه وزارة الهمج عند قيامها بعد عزل السلطان بادي الرابع وربما بقي منه الجانب الطقوسي فقط.

الجندي: يسمى أحيانا بجندي السوق، وهو الشخص الذي كان يتولى وظيفة الأمن الداخلي وحكم المدينة وربما مراقبة السوق أيضا.

سيد القوم: شخصية لها خطرها في البلاط، ويبدو أنه كان يقوم بوظيفة مراقبة أمن السلطان، وهو الوحيد الذي كان يقوم بوظيفة إعدام الملك نفسه في حال عزله من قبل كبار الفونج، وفي العادة كانت هذه الوظيفة توكل لخال الملك، **السواكرة مقدم:** المسؤول عن أمراء البلاد، **القوارية مقدم:** أمين الخزينة ويعين تحته مجموعة من المعاونين يسمون **بالجرايين** أي جامعي الضرائب[1].

مقدم الخيل: وهو قائد عام الخيالة من الرقيق، و**مقدم القواويد** وهو قائد عام المشاة من الرقيق أيضا، **مقدم العدة:** مسئول المعدات الحربية، **مقدم السلاطية:** يرأس حملات صيد الرقيق، وهناك ألقاب أخرى في الوثائق مثل **مقدم "بيت الهدوم"** الذي كان مسئولا عن حفظ أزياء الدولة ووكيل الدار وشيخ الحواكرة ووكيل حوش خال الملك. وظيفة **سيد الكلام** والذي يبدو أنه كان ينظم عملية الإذن بالحديث في حضرة السلطان، و**وظيفة العكاز** وهو الشخص الذي كان يحمل عصا السلطان ويفصل في المنازعات نيابة عنه حيث يؤدي الفرقاء القسم أمام عصا السلطان ورمز سلطته.

3- النظام السياسي والحربي:

كان نظام الحكم ملكيا وراثيا بقيادة **عمارة دنقس**، ولكن ما يميز نظام الحكم هو الشورى واللامركزية، وهذا ما ساعد على نجاح المملكة لعقود عديدة ضمن إطار الحرية والاستقلال الذاتي داخل المملكة.

وتميز جيش مملكة الفونج بالقوة العظمى، وتألف من عدة جيوش أكبرها وأقواها هو **جيش السلطان** نفسه يتألف عادة من الرقيق المدربين من المشاة والخيالة لابسي الدروع وذوي التسليح الجيد، وكافة الرجال وأفراد الطبقة الحاكمة من الأمراء والنبلاء يعتبرون بمثابة فرسان تتم تنشئتهم وتدريبهم على فنون القتال منذ الصغر تحت رعاية مقدم السواكرة، ولكل شيخ أو ملك جيشه المكون من الرقيق وأعيانه القادرين على حمل السلاح، وفي حالة الحرب والعدوان يقام استنفار قومي يأتي بموجبه حكام الأقاليم بجيوشهم. وكان للجيوش نشاط مستمر يشمل الحملات الدورية لاصطياد الرقيق أو الغارات على المجاورين بغرض النهب أو الاسترقاق وحراسة القوافل التجارية وحفظ النظام داخل السلطنة. وانتصر الجيش السناري على طلائع الدولة العثمانية عام 1517م، حيث كان الجيش هو مصدر قوة هذه المملكة حتى أنه كان بالنهاية السبب الرئيسي في القضاء على ملوك الفونج بقيادة الشيخ محمد أبو لكيك قائد الجيش، وتحولت السلطة إلى الهمج عام 1821م[2].

4- النظام القضائي:

كان القضاء قائما على أساس النظام الإسلامي من حيث تطبيق العدالة، والشريعة الإسلامية، وغلب عليه فقه الإمام مالك لأنه المذهب السائد في السودان، كما كان هناك حضور للمذهب الشافعي كمرجعية للقضاة خاصة في منطقة أربجي، وهذا يعني

[1]- أحمد حسين عبد الحمن آدم، **الدلالات الآثارية**، ص 77.

[2]- قيصر موسى الزين، المرجع السابق، ص 65.

تعايش المذهب المالكي مع غيره من المذاهب الفقهية، فكانت مملكة الفونج هي فاتحة النظام القضائي في السودان، إذ أن التاريخ لم ينقل شيئا عن النظم القضائية في العهود السابقة، ولم يكن التنظيم الإداري للقضاء بالفونج يختلف عما كان متعارفا عليه في الدول الإسلامية إذا استثنيا المسميات والمصطلحات، فقد عرفت المملكة ثلاث أنواع من المحاكم: محاكم القرى الصغيرة، محاكم المشايخ، ومحكمة سنار[1].

أ- **محاكم القرى الصغيرة**:

تنقسم هذه المحاكم استنادا إلى الوضعية الاجتماعية والعلمية للأشخاص الذين يباشرون النظر في القضايا المرفوعة إليها إلى قسمين: محاكم رجال الشريعة البيضاء، ومحاكم الأجاويد.

محاكم رجال الشريعة البيضاء: يتيح هذا النوع من المحاكم للمتخاصمين أمامه قدرا من الحرية مقارنة بالمحاكم الأخرى، لتمكينهم من الدفاع عن أنفسهم، ومن القيام والجلوس أثناء ذلك إذا لزم الأمر. ويباشر النظر في القضايا المرفوعة قضاة اشتهروا بغزارة العلم، وحسن الخلق، والتقوى، والزهد. وكانوا يطبقون القوانين الإسلامية الشرعية، وبخصوص الأحكام الصادرة فبإمكان المتخاصمين قبولها، أو أخذ مكتوب بمضمون الحكم عنها ثم عرضه على قاضي المشيخة أو قاضي سنار، الذي بإمكانه إقرار الحكم عن كان موافقا للشرع، أو تبديله عن كان مناقضا[2].

محاكم الأجاويد: تتميز عن محاكم رجال الشريعة البيضاء باستمداد أحكامها من الأعراف الاجتماعية السائدة، وسهولة جلساتها, أما الأجاويد القائمين عليها استمدوا مكانتهم في المجتمع من تثبتهم بقيمه، وتفانيهم في العمل على تأصيلها والحفاظ عليها، وليس لتفقههم في الدين. وكان لهم حق النظر في جميع القضايا التي تعرض عليهم حتى قضايا القتل، وكانوا يجنحون إلى الود والتسامح في أحكامهم حتى يحافظوا على تماسك المجتمع، فنجدهم مثلا يحكون على القاتل الميسور بالعفو، وعلى القاتل الفقير بالدية.

ب- **محاكم المشايخ**:

توجد في كل مشيخة من المشايخ التابعة للملكة محكمة صغرى إلى جانب النوعين السابقين من المحاكم، وتتميز المحاكم الصغرى بأنها تلي محكمة سنار في الرتبة، وبتعيين السلطة الحاكمة لقضاتها، ووضع القوانين واللوائح والنظم التي تحدد صلاحياتها. وتتكون محكمة المشيخة في الحالات العادية من قاض واحد ونائب له، أما إذا كان بالمشيخة قضايا ومشاكل كثر قد يعين بالمحكمة أكثر من قاض -من واحد إلى ثلاثة-، وقد يباشر أحدهم الحكم والاثنان الباقيان يصبحان مستشارين له، أو يتناوبون في الحكم.

وتختص هذه المحكمة بالنظر في القضايا الزراعية والجرائم الصغيرة كالسرقة البسيطة والمشاجرات، والمسائل المدنية، والأحوال الشخصية، وإقامة القيم على المحجور، وتعيين الأوصياء على القصر، والنظر في قضايا الأوقاف، والرهن والتخارج[3] والتقارض، ومباشرة الإشهادات في البيع والشراء...الخ، أما القضايا الجنائية فليست من اختصاصها، فإذا عرضت عليها تحولها لمحكمة سنار، وهذا لا يمنعها من السعي في إقناع الطرفين بالصلح. وكانت جلساتها علنية لكل من يرغب في الحضور، وتعقد في أي مكان وزمان يتفق عليه قضاتها، ولم تكن هناك دفاتر أو سجلات تسجل عليها أقوال المدعي والمدعى عليه، وشهادات الشهود، فكان القاضي يستمع للجميع ثم يعرض أقوالهم ويستعرض أدلتهم وبياناتهم ثم يصدر حكمه، ثم يأمر القاضي كاتبه بكتابة الحكم

---

[1]- عبد القادر عثمان محمد، "النظام القضائي بمملكة الفونج"، عدد 22، ديسمبر 1420هـ/1999م، مجلة دراسات إفريقية، ص 166، 158.

[2]- المرجع نفسه، ص 158.

[3]- **التخارج**: يقصد به في لغة القضاء التنازل عن النصيب في الميراث مقابل مبلغ محدد من المال لا يشترط فيه أن يكون مساويا للنصيب المتخارج عليه.

الصادر فيسلمه للمحكوم له بعد أن يمهره القاضي بإمضائه وختمه. وإذا لم يقتنع أحد الطرفين بالحكم فبإمكانه أن يستأنف مرة أخرى أمام المحكمة أو يرفه قضيته لمحكمة سنار[1].

ج- محكمة سنار:

تعد محكمة سنار قمة الجهاز القضائي وهي بمثابة محكمة الاستئناف حاليا، وتتكون من قاض يتم تعيينه من قبل السلطان ويساعده عدد من العلماء المشهود لهم بالعلم، أما الكتاب فيتم اختيارهم من قبل القاضي على أساس الإلمام باللغة العربية وحسن الخط. وكانت تعتمد في النظر للقضايا على قواعد الفقه المتفق عليها بين المالكية. ويتوقف تنفيذ الأحكام على نوعية القضية المنظور إليها فالقضايا الخاصة بالأحوال الشخصية تقع مسؤولية تنفيذها على دائرة اختصاصات القاضي، أما القضايا الكبرى كجرائم القتل والمسسائل التي تمس أمن المملكة أو تؤثر على التعايش السلمي بين القبائل، والتي تكون عقوبتها إما القتل أو النفي فإن مسؤولية تنفيذها من واجب السلطان أو المشايخ[2].

5- النظام الاقتصادي:

مثلت الأرض مصدر الثروة الأول في سنار حيث كانت تمثل أهمية مركزية، وقد تم تصنيف المجتمع في سنار بناءا على العلاقة بالأرض، وبناءا على ذلك اهتم الفونج بالأرض ومسحها فخصصوا موظف يقوم بمسح الأرض يسمى "**المحاصي** "ففي قرى الشمال انحصرت الأراضي الصالحة للزراعة في الشريط الضيق الممتد على ضفتي النيل مما زاد من أهميتها[3]. ونسبة لأهمية الأرض في منطقة الشمال كانت مرجعا مهما في الصراعات الاجتماعية والسياسية التي تنشب بين الأفراد والجماعات .أما المنطقة الوسطى فالمساحة شاسعة والزراعة المطرية لا تحتاج إلى تكاليف وبالتالي لم يكن هناك صراع لكن غلب عليها نشاط اجتماعي أرفع وهو الرعي الذي كان مصدر النزاع، أما في الجنوب فقد سادت المعادن والبضائع النفيسة غير الرعوية والزراعية من جلود حيوانات وعسل وذهب وغيرها والتي كانت تحتاج إلى غذاء من الخارج للرقيق الذين يعملون في حقول هذه المعادن

وكانت بعض الضرائب والالتزامات مستمدة من علاقة المزارع بمالك الأرض، واشتمل البعض الآخر على التزامات تدفع فقط كعقوبات على الأفراد أو المجموعات لدى إساءتهم السلوك، بعضها ضرائب خراجية، وبعضها هدايا عرفية للسادة، وبعضها عقوبات، وهناك ثلاثة أنواع من الضرائب على الأرض مثل الشرور والسيل والمضار والتي لم تكن ذات تفسير معروف لكنها تعنى الضرائب على الأرض. كما أن هناك ضرائب أخرى مثل تجهيز لوازم المناسبات الخاصة للسيد، بالإضافة إلى تجهيز طعام العسكر وغيرها. أما عملية جمع الضرائب فقد كانت توكل إلى **الملك** "حاكم المنطقة" والذي يكون عرضة للتفتيش من **المانجل** "حاكم الإقليم" والذي بدوره يراقب من قبل السلطان ويقوم بالتحصيل مجموعة من الجرايين والذين يتبعون لمقدم **القوارية** "أمين الخزينة"[4].

أما الموارد الطبيعية اختلفت باختلاف الجغرافية الاقتصادية للمملكة، المناطق الشمالية اعتمدت على الزراعة المروية من سواقي وطمي وغيرها، واعتمدت المنطقة الوسطى في سهول الجزيرة والبطانة على الزراعة المطرية، أما المنطقة الجنوبية توفرت على المعادن والموارد التجارية الأخرى مثل العاج والعسل وريش النعام وغيرها، وشكل الرعي والزراعة الأنشطة الاقتصادية الرئيسة في السلطنة عدا المنطقة الجنوبية. وعملية إنتاج الغذاء تعتمد على الفلاحين الذين يعتبرون أهم الحرفيين في السلطنة، كما كانت

[1]- عبد القادر عثمان محمد، المرجع السابق، ص ص 159-160.

[2]- المرجع نفسه، ص 161.

[3]- قيصر موسى الزين، المرجع السابق، ص 61.

[4]- بابكر فضل المولى حسن، **مظاهر الحضارة**، ص 53.

هناك مشروعية للحكام في تنظيم العلاقة بين الحكام والمحكومين في استخلاص فائض الإنتاج الرعوي والسيطرة عليه[1]. وكان لهذا التنوع في الأنشطة داخل السلطنة أثره في تحريك عملية النشاط التجاري بين مختلف المجموعات السكانية في السلطنة، وكانت هناك ثلاثة مستويات للتجارة، وهي:

أ- **النظام التجاري المحلي:** يقوم على نطاق القرى والمجموعات السكانية، ويكون غالبا بين المزارعين والحرفيين والتجار المحليين والمجموعات الرعوية المتاخمة لمناطق الاستقرار.

ب- **نظام تجاري إقليمي:** وأحيانا قومي، وهذا مجاله السوق ويسمى **الفاشر** الذي يغطي احتياجات المجتمع في النظام التجاري، كما كانت لكل فئة من الرعاة والمزارعين أسواق خاصة وفي مواسم معينة في بعض الأحيان، وفرضت السلطنة ضرائب في شكل مكوس تجارية حكمت انتقال البضائع داخل أسواق السلطنة.

جـ- **التجارة السلطانية على المستوى القومي**: وهي بمثابة القمة والمحصلة النهائية للتجارة الداخلية، بجانب تجارة السلطنة الخارجية مع الدول المجاورة والتي كانت حكرا على السلطان الذي كان يبعث بقوافله المحملة ببضائع الجنوب إلى أسواق مصر والحجاز واليمن وأثيوبيا، ويستورد بالمقابل إما معدات حربية أو بعض متطلبات القصر من بضائع استهلاكية، كالمنسوجات القطنية والحريرية والمفارش والتوابل الأوروبية والعطور والمرايا. وكان للتجارة الخارجية دور مهم وكبير في السلطنة فساهمت في بناء المدن وربط أجزاء المملكة المختلفة، ودخول السودان لمرحلة التجارة العالمية. ومن أبرز مميزات التجارة الخارجية هو تمكن السلطان من الحصول على سلع وأشياء غير متاحة لغيره من الخواص والعوام، الأمر الذي ساعده في السمو بمكانته الاجتماعية مثل سلع الصابون، القرنفل، الأقمشة القطنية المصرية، خشب الصندل، المسك، ملابس الجوخ والحرير وغيرها، كذلك كانت خيول السلطان من أجود أنواع الخيول وأسلحته الأكثر تطورا وتنوعا بجانب تعدد الأطعمة المستوردة، كما ساهمت التجارة الخارجية أيضا في أسلمة أجهزة الدولة المختلفة. وكان للروح القبلية دورا كبيرا في إعاقة تنظيم التجارة الخارجية، بجانب أن النشاط التجاري كان منصبا على دور الوسيط وما يعرف اليوم بالتاجر الصغير[2].

أما التبادل التجاري كان قائما على نظام المقايضة خاصة مع سكان الأرياف، بالإضافة الى ذلك كانت بعض قطع النسيج المحلي التي مقدارها أربعة وعشرون ذراعا هي وحدة التعامل، واستمر ذلك الأمر حتى فترات متأخرة. ومع ذلك وردت بعض الإشارات لوجود العملات في سنار حيث ذكر الرحالة روبيني أنه حمل هدية إلى السلطان عمارة دنقس وهي مبلغ 700 ريال، ولم تكن هناك عملات باسم السلطنة السنارية أو المشيخات المحلية لكن وجدت بها بعض العملات عبارة عن قطع فضية صغيرة في ثلاثة أحجام، وكانت العملات الأسبانية والعثمانية والمصرية هي السائدة، وكانت معظم هذه العملات يحتفظ بها للتبادل التجاري مع التجار الأجانب أو لسداد ثمن بضاعة مستوردة من مكان بعيد.

6- الوضع الديني:

من الثابت تاريخيا أن سلطنة سنار كانت أول كيان سياسي كبير يعتنق حكامه الإسلام الذي اعتبر منذئذ الدين الرسمي للدولة، ولم يكن سودان وادي النيل يشكل جزءا من الإمبراطورية الإسلامية، لكن مجاورته لمصر التي فتحها المسلمون في مطلع فتوحاتهم الكبرى جعله متاخما مباشرا للمسلمين ولمصر التي مثلت أهم الولايات في الإمبراطورية الإسلامية والتي كانت لها علاقات خاصة ببلاد النوبة منذ فترات قديمة .كما أن اتفاقية البقط التي عقدت بين المسلمين وحكام السودان بعد فتح المسلمون لمصر في

[1]- يوسف فضل حسن، **مقدمة في تاريخ الممالك**، ص 90.

[2]- **المرجع نفسه**، ص 110 .

عام 641م قد فتحت الباب أمام الهجرات العربية والإسلامية والتي توجت بقيام دولة الفونج في مطلع القرن 16م، ومن ناحية أخرى نجد أن مملكة المقرة عندما حكمها النوبة المسلمين كانت منطقة محددة جدا ولم تكن لها إقليمية وعالمية دولة الفونج التي شملت أجزاء واسعة من البلاد

الإسلام في سنار:

لا يعرف بشكل واضح متى وبواسطة من اهتدى حكام الفونج الأوائل الى الإسلام حيث أشير الى أن عمارة دنقس أول حكام الفونج كان مسلما كما أن ملوك الفونج ربما صاروا مسلمين بحثا عن التجارة كذلك تشير بعض الروايات الشفاهية أن عمارة دنقس قد أسلم من أجل إحباط اجتياح السلطان سليم الأول لدولته والذي استولى على مصر والنوبة السفلى في ذات الوقت الذي سيطر فيه الفونج على الجنوب وتشير القصة في ذلك إلى أن السلطان سليم بعد استيلائه على مصر عام 1517م أرسل جيشا إلى النوبة وأسس قواعد في سواكن ومصوع مما هدد استقلال البجة والحبشة، ورأي عمارة دنقس في ذلك تهديدا لمملكته فأرسل رسالة فحواها خطاب الأنساب، ويرى البعض أن الإسلام فرض على الفونج بالقوة بواسطة عبد الله جماع وقد ورد ذلك في روايات العبدلاب السماعية، من جهة أخرى يرى بعض المؤرخين بأن الفونج من أصل أموي عربي وبالتالي فهم مسلمون بالضرورة، وتشير الدلائل الى أن الوجود المؤسس للإسلام كان معدوما وأن انتشاره كان محدودا[1].

7- الوضع الثقافي:

أ- العلماء:

قام العلماء بافتتاح مراكز لتدريس القرآن الكريم وعلومه ونشر التعاليم الإسلامية بصفة عامة، وبمضي الزمن أخذت بعض المؤسسات الدينية المستقرة مثل الخلاوي والمساجد وظائف متعددة بعضها تعليمية كمؤسسات لتخريج العلماء بجانب كونها أماكن للعبادة. وبمرور الزمن زاد عدد العلماء وانتشروا في البلاد وأقاموا المساجد والخلاوي لتعليم القرآن وعلوم الدين وقصدهم طلب العلم من السلطنة ومن خارجها، وأرسى هؤلاء العلماء دعائم العائلات الدينية المرموقة، ومن أشهرها عائلة أولاد جابر وهم من أوائل رواد العلم في السودان حيث كانوا أول من افتتح مدارس تعليم القرآن والفقه في السلطنة، وقد قدم إبراهيم بن جابر من مصر عام 1570م وأسس مسجد "ترنج" بدار الشايقية وهو أول من درس خليل ببلاد الفونج.

وكان حصيلة هذا النشاط التعليمي الإسلامي ظهور ثلاثة محاور ابتدأت في النصف الثاني من القرن 16م في السودان، وهي تعميق أسلمة المجتمع بنشر تعاليم الشريعة الإسلامية وحث الناس على أتباعها، بالإضافة الى افتتاح مراكز العلم المختلفة من خلاوي ومساجد والتي أدت الى ظهور مؤسسة اجتماعية أساسها تلك المؤسسات الدينية، بالإضافة الى طائفة العلماء ورجال الدين والذين احتلوا مراكز اجتماعية مرموقة في حياة المجتمع السناري حيث صاروا مراجع للفتوى والشورى[2].

ب- المتصوفة:

كان "للعلماء والمتصوفة" دور مهم في النواحي الاجتماعية والسياسية، حيث صار بعضهم فقيها للسلطة والبعض الآخر وسيطا بين السلطنة وعامة الناس بغرض حل مشاكلهم، بينما عارض السلطة مجموعة أخرى والذين سموا بأصحاب الكرامات والخوارق، وكان للتصوف دور كبير في حياة المجتمع السناري، وأطلق عليه البعض الإسلام الشعبي ذلك لأنه وجد قبولا مطلقا من عامة الناس بجانب الترحيب به من قبل الملوك أيضا. وكان انتشار الطرق الصوفية في السودان أوسع منه في أي مكان آخر، وقد

[1]- يوسف فضل حسن، المرجع السابق، ص: 114.

[2]- أحمد حسين عبد الحمن آدم، المرجع السابق، ص 130.

كانت لهم قدرة كبيرة على بث الطمأنينة في النفوس وقضاء مصالح الناس، بجانب دورها في إضعاف الولاء القبلي وروح العصبية التي غلبت على المجتمع وذلك بتشجيع الإخاء والتعاون بين مريدي الطريقة الواحدة[1].

وبمرور الزمن بدأت السلطنة تعطي تنازلا آخرا لهم ولمراكزهم فأعطتهم في البدء حق بناء مؤسسات دينية لا تخضع لإشراف أي من مؤسسات السلطنة الموجودة ورموزها، لها حق استغلال الأراضي الزراعية المحيطة بهم لدعم مراكزهم وإعفائهم من الضرائب والالتزامات المفروضة على العامة. وكان للشيخ حق إدارة شئون المنطقة التي تحيط بهم مع اعتماد وكيل يرعى شئون السلطنة في المنطقة المعنية، ثم حق الإدارة "الحكم" الكامل على مجمل المنطقة التي يوجد بها مركز الشيخ بما في ذلك حق الفصل في المنازعات وحق تمليك الأراضي الزراعية كذلك حق توريثها والتصرف بها على أي وجه من الوجو. فتمكن رجال الدين والمتصوفة من توسيع دائرة نفوذهم ليس جغرافيا وإنما من خلال معالجة قضايا كانت تعالج سابقا بواسطة السلطة بحكم القوانين العرفية مثل تنظيم مؤسسة الزواج، الوراثة، الجريمة ويتصل هذا بموضوع القضاء، فقاموا بإرساء نظام قضائي جديد مثل إدخال عقوبة الغرامة بدلا عن عقوبة الجلد، والتي بدورها رفعت الرصيد المادي حيث كان الأغنياء يدفعون الغرامة بالنقود والذهب، بينما كانت عقوبة الجلد والإهانة مصير من لا يملكون دفع هذه الغرامة.

ومع القرن 18م ازداد نفوذ هذه المجموعات وأصبحوا يشاركون في النشاط التجاري مشاركة واسعة، كفقهاء اهتموا بتوثيق الملكية والفصل في النزاعات المدنية وبناء نظام الملكية الخاصة والتجارة. وعلى الصعيد السياسي أصبحت الطوائف الدينية طرفا أصيلا في حلف مدن الشمال التجاري الإقليمي، والذي أصبح يوجه مجريات الأمور السياسية بما في ذلك تعيين الملوك وعزلهم بل أصبح منصب الملك نفسه عرضة للبيع والشراء، كذلك تعاظمت الأهمية الاقتصادية لمجتمعاتهم المستقلة لدرجة أصبحت معها محورا ترتكز عليه القبائل الرعوية التي لم تعد تدين بالولاء الكلي لسنار كذلك تزايدت مكانة رجال الدين في مقابل طبقة النبلاء واستمر قياسها من خلال زواج رجال الدين من أسر النبلاء حيث تزوج الشيخ إدريس بن الشيخ عبد الرحمن بن جابر بملكة كجبي، وعلى الرغم من أن الزواج من طبقة النبلاء كان يعتبر مدعاة للسخرية إلا أنه أصبح يمثل مصدر قوة لهم فيما بعد. ولكن بدخول رجال الدين والمتصوفة إلى مجال العمل السياسي فقدوا أهم ميزة تميزهم عن غيرهم من عامة الناس وهي هيبة الشيوخ وابتعادهم عن الدنيا[2].

8- سقوط المملكة:

شهدت مملكة الفونج في النصف الثاني من القرن 18م أحداثا تاريخية مهمة، أدت لتفكك المملكة بالتدريج، من أهمها وفاة الوزير دوكة الذي كان أعظم الوزراء في عهد السلطان بادي أبو شلوخ الذي اتسم بالعدل ولكن بعد وفاة وزيره استبد بالسلطة، فاعتمد السلطان بادي على الرقيق من النوبة، الذين آتى بهم من جبال تقلى عقب حروب الفرنج، ومكن لهم وقام بإعطائهم بعض الوظائف الهامة، وبالمقابل طرد الأعيان التقليديين (أهل الأصول) فأثار ذلك حفيظة كبار الفونج، ففقد السلطان دعم أهله وحاشيته، بالتالي ساعد أهل الأصول الهمج بقيادة كبيرهم أبو لكيلك وقائد الجيوش في الاستيلاء على المناصب الإدارية المهمة داخل المملكة، فخلع الملك لطغيانه ونصب مكانه ولده نصر بن بادي وصارت له السلطة الاسمية وصار هو وزيرا له وله السلطة الفعلية، مما أدى فيما بعد –بين خلفهم- وصار الوزراء الهمج في مقدروهم عزل وتنصيب ما يريدون من الملوك مما أدى لقيان سلسلة من الصراعات بين الفونج والهمج.

---

[1]- قيصر موسى الزين، المرجع السابق، ص 80.

[2]- أحمد حسين عبد الحمن آدم، المرجع السابق، ص 145.

وبعد وفاة الوزير محمد بن أبي لكيك (1776-1777م) حاول الفونج بقيادة السلطان إسماعيل ثم ابنه السلطان عدلان التخلص من حكم الهمج بقيادة بادي ولد رجب ولكنهم لم يفلحوا، فشهدت الأربعون سنة الأخيرة من حكم المملكة الكثير من الفتن والاضطرابات وسلسة من الثورات والحروب الأهلية، والتي كان يقودها زعماء القبائل والمشيخات بسبب الضعف الذي مزق كيان الدولة وانعكس بالتبعية على حكم السلاطين، حتى أصبحت فترات الحكم قصيرة بسبب عدم الاستقرار، وانتشرت الفوضى داخل البيت الحاكم، وضعفت مكانة رجال الدين وانحط الملوك حتى يقال أنه في إحدى سنوات حكم السلطان بادي السادس بن طبل (1791-1821م) مات أحد الفقهاء في سجنه عطشا، واختفاء العلماء في ظروف غامضة[1].

كما شهدت تلك الفترة تمرد العديد من القبائل وخروجها عن طاعة السلطان، فخرجت قبائل التاكا بالشرق، وقبائل الشكرية بالوسط، وأيضا انفصلت الشايقية في أواخر القرن 17م[2].

وتعطل التجارة فتدهورت الحياة الاقتصادية لغياب الأمن واستعار الحروب القبلية، فاستعان بعض السودانيين بمحمد علي باشا ليضع حدا لتلك الحروب.

كل تلك العوامل ساهمت بشكل قوي في إضعاف مملكة سنار، وعندما زحف الجيش التركي-المصري (1820-1821م) مع قدوم إسماعيل باشا وجد المملكة تحتضر، واستمر بالزحف نحو سنار وقابله رجال الدين، وقدموا له فروض الطاعة، فأمنهم على أنفسهم، وسلم السلطان بادي ابن طبل نفسه، فدخل إسماعيل باشا سنار ظافرا عام 1821م معلنا بذلك نهاية الممالك الإسلامية بالسودان[3].

[1]- قيصر موسى الزين، المرجع السابق، ص 95.

[2]- يوسف فضل، المرجع السابق، ص ص 60-64.

[3]- المرجع نفسه، ص ص 60-64.

المحاضرة الحادية عشر: سلطنة دارفور/ الفور الإسلامية (849-1292هـ/1445-1875م)

1- الموقع الجغرافي:

يتمتع إقليم دارفور بموقع فريد جعله مركزيا وهامشيا في الوقا نفسه، فالإقليم يقع غربا على هامش السودان، ومنطقة شرق إفريقيا، وعلى طرف الصحراء الكبرى، وعلى هامش إفريقيا الأستوائية. ولكن هذا الوضع الملتبس والهامشيجعل دارفور تحتل موقعا وسطيا وتصبح ملتقى بين كل هذه المناطق. فمن جهة ظلت لقرون معبر الحجاج والمسافرين من غرب القارة إلى شرقها، كما كان لها طريق مباشر مع مصر وهو "درب الأربعين" المشهور، الذي كان ينقل من التجارة بين دارفور ومصر أضعاف ما تنقل الطرق الأخرى بين مصر وبقية انحاء السودان، ولهذا السبب كانت أيضا موطنا لنشأة بعض أقدم الممالك في المنطقة[1]. وتقع دارفور في أقصى الجزء الغربي من السودان بين خطى عرض 10 و16 وخطى طول 30.22 و27 شرقا. تحدها من الشمال الغربي بجمهورية ليبيا الشعبية ومن الغرب بدولة تشاد، من الجنوب الغربي بجمهورية أفريقيا الوسطى، ومن الجنوب ببحر العرب وبشمال غرب بحر الغزال أما من الشرق يفصلها كثبان كردفان، ومن الشمال الشرقي الإقليم الشمالي[2].

خريطة مملكة الفور/ دارفور

2- ممالك دارفور القديمة:

ترجح الروايات المحلية أن الداجو هم أقدم سكان دارفور، وأول من أسس دولة فى دارفور، حكموا خلال القرنين 13 و14م، وعرف الداجو باسم التاجوين واقتصر نفوذ وحكم الداجو على الجزء الجنوبي الشرقي من دارفور، إلى أن فقدوا السيطرة على الطرق التجارية، ثم أعقبهم التنجور وتركز سلطانهم على الجزء الشمالي من دارفور. ويرجح بعض المؤرخين قيام مملكتى الداجو والتنجر جنبا إلى جنب حتى القرن 16م واحدة في الشمال وأخرى في الجنوب.

وتفرق الداجو وانحصر أكثرهم وظلوا يسيطرون على المنطقة الواقعة شرق وجنوب شرق جبل مرة. والداجو كالتنجور والفور لم يتخذوا لهم عاصمة واحدة بل كثيرا ما تنقلوا من موقع لآخر. وتختلف الآراء حول أصول التنجور وبداية مملكتهم، و يزعم

---

[1]- عبد الوهاب الأفندي، **أزمة دارفور نظرة في الجدور والحلول الممكنة**، أبو ظبي، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، عدد 139، 2009م، ص ص 23-24.

[2]- أحمد عبد القادر أرباب، **تاريخ دارفور عبر العصور**. ج 1، الخرطوم، مطبعة الجامعة، ط1، 1998م، ص 21.

بعضهم أنهم عباسيون من منطقة دنقلة، وادعوا بأنهم من بنى هلال، ويرجح أن لهم صلة بالبديات أحد فروع قبيلة التيبو، ويذهبون أنهم أول قبيلة تدخل اللغة العربية إلى دارفور، ويرى آخرون أنهم من النوبيين، وهناك رأي ثالث أنهم ينتمون إلى قبائل الفور[1].

وفى تاريخ يصعب تحديده نجح التنجور في بسط نفوذهم على دارفور وأجزاء من وداي، وبدأ تاريخ دارفور يتضح معهم، وفي عهدهم اختلط العرب بالفور فظهرت طبقة الكنجارة، ومنها خرجت أسرة كيرا التي انتقل إليها الحكم من التنجور. وفى أواخر القرن 13م وبعد فترة اضطراب شديدة لازمت احتلال البرنو القصير لدارفور، بدأ الفور بقيادة الكيرا، وهم فرع من الكنجارا وهى واحدة من قبائل الفور الرئيسية، في توطيد زعامتهم وانتزاع السلطة من الداجو و التنجور، وانتقل الحكم من التنجور في عام 1445م إلى الفور، فاستقر الحكم والملك على النظام الإسلامي، واستمر حتى نهاية السلطان علي دينار في 1916م. واشتهرت سلطنة دارفور بالعدل والأمن فبدأت إليها هجرات عربية من الشمال والشرق والغرب، فعمرت الأسواق والدروب والمشاغل، ومثلت دولة إسلامية مستقلة في شمال أفريقيا عن الخلافة العباسية[2].

3- معنى كلمة دارفور:

أطلقت كلمة فور على السكان الأصليين من الزنوج لإقليم دارفور أطلقها عليهم السلاطين الأوائل الذين كانوا من البربر وحكموا دارفور، ولم يكونوا ذو بشرة سوداء أي أن السلاطين الذين خلفوهم وأخذت بشرتهم في السوداد نظرا لزواجهم من زنجيات. فتذكر بعض المصادر أن دارفور قديما كانت موطنا للعديد من السلالات الأفريقية، ثم وفد إلى هذا الإقليم العديد من الهجرات المتتالية في حضارة متباينة من مجموعات حامية وسامية، ولعل انفتاح إقليم دارفور على جيرانه، وعدم وجود حواجز طبيعية تعوق الهجرة والتنقل كان من الأسباب التي شجعت على تدفق الهجرات إلى داخل الإقليم، ومن بين أهم دوافعها آنذاك الاستقرار السياسي والاقتصادي، نتيجة وفرة المياه وصلاحية الأرض للسكن والزراعة والرعي والانتقال من مكان إلى آخر، ووفرة المعادن كالحديد والنحاس التي تستخرج بطريقة بسيطة، وكل هذه المقومات وغيرها سهلت الهجرة إلى الإقليم. وإن كان التقسيم الأهم هو ذلك القائم بين الرعاة من جهة والمزارعين المستقرين من جهة أخرى، لأن هذا التمايز كان الأساس لبدء الصراع.

4- سكان دارفور:

يصنف البعض سكان دارفور على أساس عرقي (العرب وغير العرب)، أو على أساس سبل كسب العيش (البقارة، الأبالة، المزارعين، سكان المدن)، أو على أسس لغوية-ثقافية (العرب، المستعربون، المستعربون جزئيا، غير العرب). ويرى البعض أنه من الأنسب اعتماد تصنيف يجمع بين الأصل العرقي والوظيفي، مقسما السكان إلى رعاة-عرب (الأبالة والبقارة)، ومزارعين-أفارقة، وسكان المدن. ولكن الإشكالية في هذا التقسيم أن الزغاوة هم من الرعاة ولكنهم لا يعتبرون أنفسهم عربا[3].

كما قامت بالإقليم سلطنات وزعامات قبلية صغيرة شبه إقطاعية متفرقة، تكونت من عناصر حامية وسامية وزنجية، وأقدم المجموعات الحامية هي "التورا" التي استقرت بجبل مرة. تألفت هذه الزعامات القبيلة من التنجر والزغاوة والميدوب والبرش والبرقو في شمال وشرق دارفور، والفور والبيقو البرتي وأبو طاب بجبل سي، والفولا والبولو والدنقو والنيقة والشالا وبايا وغيرها من

1- عماد الدين آدم محمد عبد الرحمن محمد، **الأثر المتبادل بين سلطنة الفور والقبائل في تشكيل مجتمع دارفور**، رسالة ماجستير غير منشورة، قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة النيلين، السودان، 2017م، ص 10.

2- حليمة عبد الرحمن بكر صندل، **أثر التمازج بين قبائل دار فور العربية وغير العربية في الفترة ما بين (1445-1916م) دراسة تحليلية من منظور تاريخي**، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة النيلين، 2014م، ص 10.

3- عبد الوهاب الأفندي، المرجع السابق ص 27.

القبائل التي تعيش غرب وجنوب دار فور[1]. وكل تلك الزعامات تمازجت وتصاهرت فيما بينها رغم أن معظمها كانت وثنية، ونظرا لوجود علاقات سياسية واقتصادية قوية نشبت بينها حروب داخلية عدة مرات أدت إلى تفتيت وحدتها حتى أصابها الضعف، فنزحت بعضها إلى البلاد المجاورة لدار فور كتشاد ووداي وأفريقيا الوسطى، لكن معظمها كانت وثنية اتجهت نحو جنوب السودان، منها: السارا والكارا والرونقة والبندا فأقام جزء منهم بأم دافوق على الحدود الجنوبية الغربية، أما المورو وأبو كايا والبايا نزحوا إلى غرب الاستوائية وشرقها، ووصل بعضهم إلى مدينة نملي بأقصى جنوب السودان، أما البنقة والفرتيت والفورقي استقروا غربي بحر الغزال وآثر بعضهم البقاء بجنوب غربي دار فور، فصاهروا الفور حتى أثروا فيهم وأصبحوا يتحدثون بلهجة الفور.

أ- **أصل الفور:**

لم يسجل التاريخ المدون تفاصيل أصولهم بوضوح إلا مع القرن 18 و 19م، ولم يعرف عنهم متى نزحوا إلى أوطانهم التي عرفوا بها الآن، ولا من أين جاءوا، ذلك لأنه لم يكن هناك تدوين إلا لأنساب بعض القبائل والأسر العربية، فقيل بأن أصل السلاطين من أسرة كيرا، وقيل بأنهم من أصل عرب بني هلال ينسبون إلى أحمد سفيان (أحمدالمعقور) الذي جيئ به سلطانا لدارفور، ويقولون بأن الدم العربي نتج عن مصاهرة التنجر للفور، والتنجر ينتمون لبني هلال الذين سكنوا الجزء الشمالي لجبل مرة في منطقة طره التي نشأت فيها الدولة الكيراوية، وقيل بأنهم ينتمون للجعليين من بني العباس. أما أصل الفور المعروف أنهم من أقدم القبائل والعناصر البشرية التي عاشت في تراب الجزء الغربي والجنوبي من دارفور وفي المنطقة الشمالية والشرقية من سفح جبل مرة[2].

والفور شعب شبه زنجي مجهول الأصل، ويرجح بيتون أنهم مزيج من الزنوج (الحاميين)، ويقول آخرون أنهم جزء من النوبة. وهنالك روايتين في تعريف كلمة فور، تقول إحداهما بأن الفور أبناء فر (Fir) يطلق عليهم جميعا اسم "الفرتيت"، وهذا ما لا يذكره الفور أنفسهم فلا يوجد في تاريخ الفور أن شخصا اسمه فور انحدر منه الناس، بل يعتبرون أنفسهم أمة. والرواية الثانية تقول بأن الفرتيت كانوا في القديم يعيشون غربي جبل مرة ثم نزحوا إلى بحر الغزال بعد أن حمل عليهم أول السلاطين المسلمين في دارفور، وهناك شواهد أن الفرتيت كانوا شعبة من شعب الفور، وأنهم نزحوا فعلا أو بعضهم أخرج من جبل مرة عندما لم يعد لهم مكان لممارسة الحياة على طريقة الجاهلية[3].

ويكتنف تاريخ منبت الكيرا (الكيرة) الأسرة المالكة شيء من الغموض لندرة المصادر المحلية، ومعظم ما جاء عن تاريخ المملكة هو تسجيل للروايات الشفاهية التي جمعها براون (1793-1796م)، ومحمد بن عمر التونسي (1803-1811م) ودي كادلفان ودي بروفرى (1829م) والرحالة الألماني ناختيقال (1874م) وسلاطين (1881-1882م)، وما جمعه نعوم شقير، وما ألفه ما كمايكل وأركل اعتمادا على تلك الروايات، وما جمع مؤخرا[4].

ويذكر التونسي أن صالح مؤسس مملكة واداي وسليمان سولونق ومسبَّبع جد المسبَّعات كانوا إخوة من قبيلة فزارة، وأن تلك الممالك نشأت في وقت واحد[5]. ويؤكد أوفاهي الذى توفرت له دراسة تاريخ الفور من مصادر متعددة أن النظام السياسي والتواريخ المتأخرة لممالك الفور ووداي والمسبعات كان متطابقا، خاصة وأن المملكتين الأخيرتين كانتا تحت سيطرة الأولى لفترة إبان

---

[1]- حليمة عبد الرحمن بكر صندل، المرجع السابق، ص 24.

[2]- سبيل آدم سبيل، **قبائل دارفور**. الخرطوم، دار عزة للنشر والتوزيع، 2004م، ص ص 10-11.

[3]- الأمين محمود محمد عثمان، **سلطنة الفورالإسلامية (1400-1916م)-دراسة تحليلية**-. الخرطوم، 2011م، ص ص 104- 105.

[4]- يوسف فضل حسن، **مقدمة في تاريخ الممالك الإسلامية**، ص 103.

[5]- التونسي، المصدر السابق، ص 39.

عظمتها، ونجد في بعض الروايات ما يرجح أن مملكتي الفور ووداي تأسستا على أيدى مسلمين مستعربين قدموا من وادى النيل يعرفون بالجعلين أو العباسيين[1].

وذكر أحد المؤرخين "بأن صفة فور في الأساس ثقافية ولغوية، وتوسع الفور باحتواء مجموعات أخرى أثناء وقبل زمن السلاطين". أن كلمة فور التي أصبحت اليوم اسم لمجموعة قبلية كبيرة أصلها في دارفور وانتشرت في أغلب بقاع السودان، لا معنى لها بذاتها في لغة الفور، أما الفور أنفسهم فإنهم مجمعون على أنهم سكان دارفور الأصليون، وأن آباءهم الأوائل هم أصحاب الآثار التي تنتشر في رقعة جبلية واسعة تشكل الامتداد الطبيعي لجبل مرة وتضم سلسلة جبال فور نونج التي عليها قصور أورى وعين فرح. ويمكن القول أنه في مرحلة من المراحل التاريخية أطلق على السكان الأصليين الذين سكنوا جبل مرة وكانت لهم حضارة اسم الفور، وبعد دخول الإسلام في دارفور أراد الناس أن يعبروا عن أصل مرحلتين، ما قبل الإسلام المهيمن، والعصر الذى تحول فيه كل المجتمع إلى الإسلام. وكلمة فور لا تعنى شيء في لغات القبائل التي كانت على اتصال قديم بالفور، ويكون الفور هم الذين سموا أنفسهم بهذا الاسم مثلما أطلقوا على القبائل الأخرى في دارفور أسماء بلغة الفور إلا أنها غير معللة فمثلا سموا الزغاوة مريدا والعرب سولو نقا. وهكذا يكون الاسم القديم لسكان جبل مرة الأصليون هو الفور، فسمى سكان العصر الجاهلي عهد ما قبل الإسلام باسم "التورا"، وسمي من تمازج بالعناصر الوافدة على دارفور وانصهروا به "التنجور".

ب- **شعوب الفور**: ينقسمون إلى ثلاث شعوب أساسية، وهي:

1- كُنجارا (Kongara): شعبة من الفور امتزجت بدماء عربية أساسها بين هلال أو التنجر، وهم بدورهم عرب لا يعرفون غير اللغة العربية، قيل بأنهم زحوا من النوبة المسيجية، وقيل بأنهم جاءوا من تونس والمغرب، وقيل بأنهم من عرب بني هلال زحفوا عن طرق الصحراء الليبية.

2- تُموركا (Tomorka): أكثر الشعوب عددا رغم قلة بطونهم مقارنة مع بطون الكنجارا، اشتهروا ببسالتهم في القتال، تقع دارهم شرق دار المساليت، وتعني كلمة تموركا "المتخلفون حضاريا" في لغة الفور، ويرجعون في أصولهم إلى خليط من الفور والفرتيت.

3- كَراكيت (Krakeriet): هم سكان جبل المرة، وهم من أصول قبائل البندة وكارا الجنوبية، ويتكلمون نفس لغة الفور مع اختلاف في المخارج وبعض الكلمات[2].

5- نشأة سلطنة الفور:

لم يحدد المؤرخون حتى الآن وعلى وجه الدقة كيف نشأت سلطنة الفور الإسلامية، وقد ثبت أن للفور علاقاتهم الوطيدة بمملكة التنجر الإسلامية بشمال دارفور، وكانت لهم العلاقات ذاتها مع سلطنة الداجو بجنوب دارفور. ولكن المجمع عليه أن الفور ظهروا كمملكة أو سلطنة إسلامية على يد السلطان سليمان صولون، وذهب المؤرخ أوفاهي إلى أن الكيرا هم أكبر وأهم فروع الفور التي عددها البعض بـ 99 فرعا، فقال: "أن الكيرا وبمعونة الفرع الثاني والذي يليهم في الأهمية وهم الكنجارا قد استطاعوا معا أن يوحدوا قبائل الفور وفروعها كلها والقبائل المتداخلة والمتصاهرة معهم في ق 16م"، ثم جمعت كل تلك القبائل والأجناس العديدة لتصير كيانا واحدا، وقيام الدولة الإسلامية الوليدة بدارفور كان للقبائل العربية المنتشرة حول جبل مرة ووقوفها خلف سليمان صولون في الصراع دور حاسم فيه، حيث أخضع أولا ملوك شبه السود المحيطين بجبل مرة أخضعها لسلطانه ثم دخل كثير منهم

[1]- يوسف فضل حسن، المرجع السابق، ص 93، 103.

[2]- سبيل آدم سبيل، المرجع السابق، ص ص 13-23.

الإسلام، ثم اتجه بعدها إلى ملوك السود البعيدين عن الجبل من الناحية الجنوبية فاستسلموا جميعا، وصار كل فرع وقبيلة بمرور الزمن والتزاوج بطنا عريقا في كيان الفور، وهكذا تكونت قبيلة أو مجتمع الفور[1].

وتحول مملكة دارفور إلى مملكة إسلامية أشار إليه نعوم شقير فى كتابه تاريخ وجغرافية السودان حيث نقل على لسان الشيخ الطيب محدين -أحد علماء دارفور الذين لجأوا إلى مصر أواخر 19م- قوله: "إن بعض العباسيين الذين تفرقوا بعد سقوط الدولة العباسية اتجهت جماعة منهم إلى الجنوب ونزلت تونس وكان ضمن هذه المجموعة شقيقان، علي وأحمد سفيان، وكان علي أكبر الأخوين ولكن وقع خلاف بينهما، فقام على أثره علي بضرب أخيه سفيان فعقره، ولذلك سمي أحمد المعقور، وتفرق الأخوان بعد الخلاف، فسار أحمد المعقور إلى دارفور يحيط به بعض معاونيه، فاستقبلهم أحد ملوك دارفور ويدعى "شاو دور شيت" وأحسن استقبالهم وأشركهم فى حكم البلاد، وزوج أحمد المعقور بابنته الوحيدة خيرة التى ولدت له ولدا أسماه سليمان، وهو الذى تولى الحكم بعد جده دور شيت، وبويع ملكا سنة 1445م، وهو بذلك يعد أول سلالة السلاطين العرب الذين حكموا دارفور نحو 443 سنة وكان آخرهم السلطان على دينار".

وهناك رواية أخرى تنسبهم لعرب بني هلال مفادها أن أعراب بني هلال قدموا إلى دارفور بزعامة أبو زيد الهلالي، وأول ما دخلوا دارفور استقروا في جبل تيجي شمال مليط، فحدث خلاف عقر فيه أبو زيد عرقوب أخيه أحمد فلقب بـ"أحمد المعقور"، ثم رجع أبو زيد الهلالي إلى تونس مع عدد من عشيرته وعند مشارف تونس اغتيل على يد ذياب، وفي رواية أن السلطان شاو دور شيت رحب بأولئك القوم، وزوج أحمد المعقور بابنته خيرة، التي أنجبت له ابنا أسماه جده سليمان واعتنى بتربيته، وحفظ القرآن مبكرا، فنشأ متدينا معتدلا، فأعجب به جده ثم غزا السلطان شاو دور شيت بلاد القرعان، ثم أدركته المنية فأوصى لابن ابنته سليمان، ثم رجع أحمد المعقور وابنه مع الجيش الفاتح واستقروا لمدة بعين فرح بدار زغاوة غرب كتم، وهناك ثارت القبائل العربية واستولى بعدها سليمان صولون على السلطة بمملكة التنجر وصار سلطانا على التنجر والقبائل العربية. وازدهرت مملكة الفور كدولة مسلمة وذاع صيتها حيث استمر سليمان يحكمها مدة 21 سنة حتى وافته المنيه عام 1476م مخلفا ولديه موسى عنقريب ومسبع، فتولى موسى الملك خلفا لوالده وجعل أخاه مسبع واليا على كردفان بعد أن دخلها فاتحا بعون أخيه، وسميت الدولة هناك بمسبعات نسبة لمسبع هذا[2].

والفروع الرئيسية للسكان هي قبائل: الداجو، التنجور، الفور، الزغاوة والنوابية، والمسبعات ثم جاءت قبائل أخرى مهاجرة من وادي باقرمي[3]. ويبدأ التاريخ سلطنة الفور عام 1740م حين تولى السلطان سليمان صولون السلطنة، واتخذ من بلدة طرة عاصمة له، حتى وصلت السلطنة أقصى اتساع لها في عهد السلطان محمد تيراب (1768-1787م) حيث وصلت في بعض الأحيان إلى مشارف أم درمان الحالية شرقا وضمت جزء كبير من كردفان، وغربا حتى حدود سلطنة وداي[4].

6- انتشار الإسلام:

تعددت العوامل في انتشار الإسلام في دارفور قبل قيام سلطنة دارفور الإسلامية قبيل منتصف القرن 15م بزمن طويل، هذه العوامل كانت تؤتي ثمارها منذ أن انتشر الإسلام في بلدان غرب أفريقيا ووسط أفريقيا المعروفة جغرافيا باسم بلاد السودان

[1]- يوسف فضل حسن، المرجع السابق، ص 90.

[2]- سبيل آدم سبيل، المرجع السابق، ص ص 14-15.

[3]- المرجع نفسه، ص ص 40-42

[4]- يوسف فضل حسن، المرجع السابق، ص 93.

الغربي والأوسط منذ القرن 11م، حيث كان يمر حجاج هذه البلاد في طريقهم إلى بيت الله المقدس بإقليم دارفور، إضافة إلى الاتساع في حركة التجار العرب وغير العرب من المسلمين في هذا الإقليم والتي لاقت ترحيبا من سكان الإقليم؛ وهو ما ساعد على انتشار مسيرة الإسلام وتوطيد العربية لغة القرآن الكريم، والتخاطب في شتى المجالات الثقافية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية[1].

أ- مراحل انتشاره:

يصعب تحديد تاريخ دخول الإسلام إلى دارفور، وقصة أحمد المعقور تعطى دلالات على كيفية دخول الإسلام وقبول الناس له ولكن النمو الإسلامي ظل متباطئا حتى عام 1640م، وتشرح الروايات عن العلماء الذين وفدوا إلى دارفور ما بين مبتدأ وصول الإسلام في بلاط سلاطين الفور إلى عهد سليمان الثاني الذى يعود إليه الفضل في فتح أبواب دارفور للعلماء المسلمين. ويبدوا أن ظروف الاستقرار الأمني كانت لها دوما دور مهم في ترسيخ تعاليم الإسلام، لأن التحول للإسلام كان يتم بالتأثير والقدوة الحسنة في السلوك، وبالتعليم والامتزاج الشامل في المجتمع، وتجنب خلق جزر سكانية أو ثقافية أو اجتماعية من علماء الدين مع السكان الذين سخروا لهم طاقات تقديم المعرفة.

أ- **المرحلة الأولى (1050-1445م)**: وهى مرحلة مجهولة رغم أن سلاطينهم كانوا مسلمين، لكن المعلومات عن هذه الفترة غائبة، ويعتبر إرسال المحمل مرحلة مبكرة للاتصال الوجداني مع العالم الإسلامي.

ب- **المرحلة الثانية (1445-1640م)**: هي مرحلة مدافعة ومفاصلة بين الإسلام والوثنية المتعايشتان منذ قرون إلى جنب، وبدأ فيها الانحياز للإسلام من خلال قانون دالي، وأيضا من خلال ظهور الأسماء الإسلامية لأفراد المجتمع[2].

جـ- المرحلة الثالثة هيمنة الإسلام على الدولة والمجتمع (1640-1916م):

نجد أن الفتح الإسلامي لمصر كان في عام 640م، ويعد هذا التاريخ بداية الاحتكاك أو الاتصال بين الإسلام كدولة وبلاد السودان وتلا ذلك عقد معاهدة الصلح في عام 652م مع إحدى الدول التي كانت تحكم شمال السودان، وتمر قرون عدة قبل ظهور دولة سنار على أرض شمال السودان في عام 1504م، وقرونا أقل من ذلك لظهور أول دولة في غرب السودان بدارفور في العام 1050م، أو حتى لو قلنا إنها ظهرت فى عام 1445م ونقصد بها سلطنة الفور. وباعتلاء السلطان سليمان الثاني عرش الفور في عام 1640م بدأت مرحلة هامة في تاريخ الفور، فمنذ ذلك التاريخ أخذت السلطنة شكلها وهويتها الإسلامية، وحددت حدودها قبل أن تتسع وتصير إمبراطورية على يد السلطان تيراب (1752-1778م)، وهذه المرحلة من مراحل المملكة هي المرحلة التي اصطلح على تسميتها عهد هيمنة الإسلام، وهى مرحلة التي تغلغل فيها الإسلام في المجتمع[3].

اتبع سلاطين الفور وهم يتولون إبلاغ الدعوة للرعية قاعدة أساسية، وهي حب الخير للناس والرحمة بهم، فعندما قاس سلطان الفور ما عنده من تدبير وما جاءه به الداعية الأول ووجد أن الإسلام يفضل ما عنده، انحاز إلى الإسلام واعتنقه ورأى أن النور الذى أنار له حياته الشخصية يجب أن ينير حياة أمته وشعبه، وعندما انطلقت الدعوة من البلاط تم اختصار الطريق للدعاة، فحاكم واحد يخلص للدعوة يغنى عن آلاف الدعاة. والثابت تاريخيا أن الفور هم الذين تحملوا وما زالوا يتحملون حتى اليوم مسئولية إبلاغ دعوة الإسلام للعرب الرعاة، وأن العلماء الذين وفدوا إلى دارفور وكانوا آحاداً وفى فترات متفاوتة كما ذكرنا وجدوا

---

[1]- سبيل آدم سبيل، المرجع السابق، ص ص 43-44

[2]- الأمين محمود محمد عثمان، المرجع السابق، ص ص 268- 269.

[3]- عون الشريف قاسم، **الإسلام والعربية في السودان**. الخرطوم، دار المأمون المحدودة، ط1، 1409هـ/1989م، ص 38.

ظروف الاستقرار مهيأة إليهم فذابوا في مجتمع الفور وانصهروا فيه. ومجتمع الفور يتميز بالاستقرار فان فرص التعلم عندهم أفضل من فرص الرعاة الرحل فكانوا أحفظ لكتاب الله وأدرى بشرائع الإسلام من غيرهم.

ب- بعض أشهر سلاطين الفور:

كان سليمان سلونق أي سليمان العربي أول سلطان يقوم بتأسيس دولة دارفور الإسلامية عام 1445م، ومن هذا التاريخ بدأ حكم الكيرا أو الفور أو الفور الكيرا في دارفور، وقد حزن زعماء التنجر لفقدهم السيطرة على الحكم في دارفور، فكانوا إذا جلسوا مع الفور يلبسون العمامة السوداء. وبلغ عدد سلاطين دارفور 26 خلال عهدها الأول ما بين عامي (1445-1875م)، وكان أشهرهم إلى جانب مؤسسها سليمان الأول السلطان عمر الثاني (بن محمد دورة)، السلطان تيراب، السلطان عبد الرحمن، السلطان محمد الفضل والسلطان إبراهيم.

السلطان سليمان سولونج (1640- 1670م):

استولي على الحكم في السلطنة الصغيرة الضيقة، وتولي باقتدار قيادة رعاياه، وظهرت مواهبه الإدارية والحربية، واستطاع بما لديه من قوة أن يحبط محاولة قام بها التنجر لاسترداد ملكهم الذي فقدوه، وتحالف -كما قيل- مع العرب وضمهم إلي صفه، في حروبه وهم عرب الهبانية والرزيقات والمسيرية، والتعايشة وبني هلبة والمعالية في الجنوب، ومع الحمر في الشرق والزيادية في الشمال، ومع المهرية والمحاميد وبني حسين في الغرب[1]. وتمكن بتحالفه هذا أن يخضع ملوك قبائل المراريت والمساليت في الغرب، والزغاوة في الشمال، والبرقد والتنجر والبيقو في الجنوب والشرق، وقيل إنه خاض 32 معركة، حتى تم له ما أراد لأنه كان محاربا من الطراز الأول، واتسعت سلطنته بدرجة ملحوظة. وبعد ذلك غزا عرب بني جرار غرب إقليم كردفان، وفي تلك الغزوة وقع بعض أتباعه في أيدي خصومه أسر،. وبعد أن أخضع الممالك الصغيرة لحكمه ابتدع نظام نواب السلطان، الذين يحكمون في البلاد باسمه نيابة عنه[2].

عمل جاهدا على نشر وتعميم الإسلام في دارفور، التي لم يكن كل سكانها من المسلمين، وقد ذكر نعوم شقير أن سلاطين المجوس كانوا سبعة، وملوك المسلمين كانوا عشرين ملكا، وأن أولئك الملوك كانوا موزعين في أنحاء دارفور، وذكر أيضا أن كل ممالك المسلمين وممالك المجوس خضعوا لحكمه. فتمكن من السيطرة على أراض كثيرة، فذاع صيته كرجل محارب وسلطان قدير، وباعتباره سلطانا مسلما جعل الإسلام الدين الرسمي للسلطنة، وحارب بدون تهاون أو هوادة ملوك الوثنية، وأدخل بعضهم في الإسلام طوعا أو كرها، كما فعل بالملك **دكومي** ملك التموركة، وهم فرع كبير من الفور، فأسلم ومعه ألف من الناس.

وكان صاحب البر والإحسان كما يلقبه أحفاده، بني المساجد للعبادة، وأقام الخلاوي لتعليم القرآن، وعلوم الدين، ورغب الناس في الدين بالهدايا والألطاف، وأرهب المعرضين والمعارضين، فازداد عدد المسلمين في عهده زيادة واضحة، وأصبح الدين يؤثر في سلوك الناس، وتقاليدهم الموروثة ولكن في بطء. وبدأت جماعات من الأسر الدينية، تدخل دارفور في زمنه مثل الجوامعة، وأسرة الفكي إدريس الذي جاء من أرض النيل إلي طرة حيث كان يعيش السلطان، وصار إماما في جامع السلطان، ومعلما للناس، وظل أبناؤه وأحفاده من بعده يتوارثون الأعمال الدينية في طرة جيلا بعد جيل. ونشطت التجارة في زمنه، واتسعت، فكانت تذهب من

[1]- يوسف فضل حسن، المرجع السابق، ص 97.

[2]- المرجع نفسه، ص 100.

دارفور، حتى أرض النيل، وتجلب الخيل الجياد، وإلي مصر وتجلب الأسلحة ومعدات الحرب، وغيرها من السلع الممتازة في وقتها، كما تصدر إليها أنواعا من منتوجات دارفور[1].

ولم يتفق المؤرخون على الفترة التي حكم فيها، فيستفاد من قول براون أن سليمان سولونج حكم في الفترة من 1640م إلي 1660م، ويوافقه التونسي في بداية حكمه ودي كادلفان يحدد أن عام 1688م هو بداية حكمه، وناختيقال يحدد بدء حكمه بعام 1596م، وشقير الذي اعتبره سليمان الثاني، سجل أنه حكم في الفترة من عام 1695م إلي عام 1715م. وبعد كل ما تقدم ذكر يوسف فضل أنه يميل إلي قبول ما ذهب إليه براون والتونسي من أن عهد سليمان ازدهر عام 1640م أو نحوه[2].

وبعد وفاته تولي الحكم بعده ابنه السلطان موسي (1670-1682م) غير أنه لم يعرف عنه الكثير مثل والده، ولعله لم يحظى بشهرة والده، وقد عاش في نامي بمنطقة طرة، عاش ناعم البال، مطمئن النفس سعيدا بحكمه، محبا للراحة، بيد أن الظروف أجبرته ليخوض حروبا عنيفة ضد القمر، الذين يسكنون في الجهات الغربية من إقليم دارفور، لكنه لم يحرز نجاحا يذكر .وتذكر الروايات بأنه فقد عرشه لفترة من الزمن ثم أعاده، ولا يعرف السبب في ذلك ولا من طرده وحل محله، ولا كيف أعاده. وقالت الروايات أيضا بأن الأمير جنقل المسبعاوي غزا دارفور، بقصد الإطاحة بالسلطان موسى، ولكنه هُزم في تنة وونق» في منطقة غرب جبل مرة، وربما لم يتمكن الأمير جنقل، من أن يتوغل في دارفور حتى يصل غرب جبل مرة إلا بسبب خلو العرش من صاحبه، ولعلها هي الفترة التي فقد فيها السلطان موسى عرشه. ولما عاد السلطان موسى إلى عرشه غزا المسبعات في عقر دارهم في كردفان، بعد هزيمتهم في دارفور. وأزعج الفونج وهدد وجودهم في شرق كردفان بالزوال، حتى جاء وقت كانت كلمته هي الأولي في البلاد، ثم رجع إلي دارفور وبرجوعه خلا الجو للفونج والمسبعات في كردفان.

وكان سلطانا حاكما عادلا محسنا، وإداريا يقظا، وهو الذي غير أو عدل من نظام الحكم الذي كان يعتمد على استخدام نواب السلطان، من أبناء زعماء القبائل في حكم أهلهم، عندما ظهر عدم إخلاصهم له ونزوعهم إلي الاستقلال بحكم مناطقهم، وابتدع نظام تقسيم البلاد إلي أقسام، يحكم كل قسم منها وال ذو لقب معروف

السلطان تيراب بن أحمد بكر (1768م- 1787م):

يأتي ترتيبه 22 في سلسلة سلاطين الفور، وهو من أشهر سلاطين دارفور السلطان محمد تيراب بن السلطان أحمد أَبَّكَر بن السلطان موسى بن السلطان سليمان الثاني.

تولى عرش السلطنة بعد وفاة أخيه السلطان أبو القاسم سنة 1768م، وكان كرسي سلطنة دارفور في جبل مرة، فنقله السلطان إلى بلدة شوبة قرب كبكابية حيث بنى منزلا فاخرا ومسجدا فخما من الطوب الأحمر، و أقام فيه حتى خرج عليه المسبعات في كردفان فجهز لقتالهم. فقد حدث نزاع بين السلطان تيراب وسلطان المسبعات ابن عمه السلطان هاشم، بسبب غارات الأخير على أراضي دارفور، فخرج السلطان تيراب بجيشه لتأديبه، وعندما علم السلطان هاشم بذلك تفرق منه أكثر رجاله، ففر بحاشيته وعائلته واتجه إلى سلطان سنار، فسار السلطان تيراب في أثره حتى وصل قريبا من أم درمان، فقابله جيش العبدلاب الموالي لسلطان سنار لمنعه عن النزول إلى النيل، فأوقع به وكسرهم شر كسرة فانهزم العبدلاب، وبعد هذا النصر الساحق نزل السلطان في أم درمان وأخذ يستعد للزحف على سنار، لكنه لم يمتلك المراكب لعبور النيل، فمكث في أم درمان لأسابيع فمرض واشتد مرضه، فعندها حمله جنده قاصدين دارفور، فمات في بارا سنة 1787م، و لكنهم أكملوا مسيرهم إلى جبل مرة و دفنوه في ترة، وهي المحل

[1]- سبيل آدم يعقوب، المرجع السابق، ص ص 33-34.

[2]- يوسف فضل حسن، المرجع السابق، ص 97.

الذي دفن فيه سلفه من سلاطين دارفور. فخلفه أخوه السلطان عبد الرحمن الملقب بالرشيد الذي نقل عاصمة السلطنة إلى الفاشر، وفي ذريته مُلْك دارفور[1].

كثرت في عهده فتوحات السلطنة فامتدت حدودها شمالا إلى بئر النطرون في الصحراء الكبرى وجنوبا بحر الغزال، وإلى الشرق حتى الضفة الغربية لنهر النيل الأبيض وإلى مكان أم درمان الحالي على الضفة الغربية لنهر النيل، بنى فيها سورا من الطوب الأحمر، ووصلت أراضي السلطنة من جهة الغرب إلى حدود مملكة وداي، وقدر طولها وفق حسابات ذلك الزمان بمسيرة 3 شهور للقوافل طولا ومسيرة شهرين حتى تقطعها عرضا[2].

السلطان عبد الرحمن الرشيد (1787- 1801م):

أجمع أهل الرأى و الحل فى مجلس الشورى الاعلى لسلطنة الفور على اختيار السلطان عبد الرحمان الرشيد خلفا للسلطان تيراب بعد وفاته، فتمت مبايعته بعد هذا الاجماع، وكان من ضمن عادات وتقاليد الفور عندما يتم تنصيب سلطان جديد أن يجلس لمدة اسبوع لاستقبال المهنئين من العلماء والوزراء وأرباب الدولة والمواطنين، وتقام خلالها الاحتفالات فى البلاد كلها، لكن السلطان عبد الرحمن الرشيد وبعد تنصيبه سلطانا منع تلك العادة و باشر فى أداء مهامه، وقبل وصوله إلى دارفور كتب إلى ابن أخيه الخليفة إسحق الذى تركه السلطان تيراب خلفا له فى دارفور، فأرسل له خطابا كي يعزيه على وفاة السلطان، ويخبره بأمر تنصيبه سلطانا، وأن عليه ان يتنحى حتى يستطيع هو أن يؤدى مهامه، إلا أن الخليفة إسحق رفض بل ونصب نفسه سلطانا مخالفا بذلك كل الأعراف والتقاليد التى تنص على ضرورة حصول السلطان الجديد على إجماع الأسرة الحاكمة، وثقة أعيان الدولة، ومباركة مجلس الشورى[3].

فرفض إسحق وأصر على رأيه بل ورد له بخطاب لم يراعى فيه حدود الأدب مع عمه شقيق والده، مما أجبر السلطان عبد الرحمن الرشيد على عقد اجتماع طارئ لأعيان السلطنة ومجلس الشورى للنظر فى هذه المشكلة، فأجمع أهل الرأى والمشورة على محاربة الخليفة إسحق، وبعد أن حقق السلطان عبد الرحمن الرشيد انتصاره على الخليفة، وانتهت بذلك اول المشاكل التى واجهت السلطان عبد الرحمن الرشيد وتمكن من القضاء على الفتنة فى مهدها بعد ان كادت تعصف بكيان الدولة، ثم اقتطع منطقة الضعين للرزيقات مكافأة لهم على مساندته فجعلهم مسؤلين على رعاية أموال الدولة من الأبقار والجمال فصاروا مسؤلين عن أرزاق الدولة، واقتطع للحمر منطقة دار حمر بكردفان التى كانت تتبع لدارفور.

وهو الذي نقل عاصمة سلطنة دارفور إلى مدينة الفاشر التي تبعد عن جبل مرة مسافة 35 كلم، وذلك بعد أن توسعت رقعة السلطنة في عهد سلفه السلطان تيراب، ولربما أراد بذلك مواكبة واقع تحول السلطنة إلى قوة إقليمية تجتمع في ظلالها العديد من القبائل والعرقيات وتعدد المصالح والتوجهات والتحالفات، وما يفرضه ذلك من ضرورة وجود عاصمة قومية مركزية منفتحة الأجواء لهذا التنوع وتلبي حاجات هذا الواقع الجديد. ومن ناحية أخرى بنقل عاصمة السلطنة من داخل جبل مرة إلى فضاء الفاشر الواسع، أسهم بطريق غير مباشر في جعل هذه المدينة مكانا لتعدد الثقافات وامتزاجها رويدا رويدا في بعضها. كما ساهم في انحسار التواجد والحراك الأجنبي في رحم جبل مرة وحفاظ قبائل الفور على عاداتها وتقاليدها وثقافتها المحلية الخاصة بها إلى حد كبير،

[1]- التونسي، المصدر السابق، ص 81.

[2]- يوسف فضل حسن، "القتل الطقسي عند الفونج". مجلة الدراسات السودانية، مجلد 2، عدد 1، 1970م، ص 23..

[3]- يوسف فضل حسن، **الممالك**، ص 79.

ولكن بعد أن تلقحت بالحضارة والثقافة الإسلامية التي ساهمت بشكل مباشر في إثرائها على النحو الذي نلحظه في توجهات أبناء الفور.

وقيل بأن السلطان عبد الرحمن كان في صباه وشبابه شغوفا بنهل العلم، وكان شديد الورع ومنقطعا قبل توليه السلطنة للعبادة وحفظ القرآن والتبحر في أمور الدين. فكان من أهم مظاهر عهده تطبيقه لأحكام الشريعة الإسلامية فقويت شوكة الإسلاميين ورجال الدين وأصبحت لهم السلطة والسطوة. وانتشر في عهده التعليم القائم على العلوم الشرعية والفقهية واللغة العربية، فأرسل الوفود من الطلاب إلى الجامع الأزهر ومكة المكرمة والمدينة المنورة، وأصبح لدارفور أروقة شهيرة بهذه المعاهد العلمية. كما كان له اتصالات ومكاتبات مع الإستانة عاصمة الخلافة الإسلامية التي أطلقت عليه لقب (الرشيد)، ولكن علاقته القوية بالإستانة أصبحت سببا في تدهور علاقته مع المماليك حكام مصر، فقطعوا عليه "طريق الأربعين" شريان تجارته الخارجية من وإلى مصر والعالم فترة من الزمن، إلى أن دخل نابليون بونابرت مصر فكانت بينهما مكاتبات تأييد فرضتها المصالح التجارية، فعادت التجارة وقوافلها تسير بين دارفور ومصر[1].

السلطان على دينار(1898-1916م):

أعاد تأسيس السلطنة في دارفور، بعد سقوط المهدية في أم درمان، واعترف به النظام الإنجليزي المصري في الخرطوم كسلطان لسلطنة دارفور المستقلة، مقابل إتاوة سنوية مقدارها 500 جنية إنجليزي، وعاشت سلطنة دارفور تحت إدارة سلطان علي دينار حتى الحرب العالمية الأولى، حيث أعلن السلطان تحالفه مع الدولة العثمانية المسلمة ضد الإنجليز، حرك الإنجليز حملة عسكرية بعتاد وأسلحة حديثة وثقيلة الى دارفور وقضوا على عرش سلالة (كيرا) الذي استمر قرابة أربعة قرون.

ونجح كل من إسماعيل باشا والزبير باشا في إسقاط مملكة الفور عام 1874م، ولم يستمر الأمر طويلا حتى جاءت الثورة المهدية 1881م فأطاحت بالحكم التركي المصري وأقامت دولة إسلامية ومع أن الثورة كانت وطنية ودوافعها إسلامية فإن أمدها القصير لم يكن كاف لتحقيق الانصهار بين شعبي المملكتين، بل أن التاريخ ليذكر أن أهل دارفور قد قاوموا الثورة المهدية مثل مقاومتهم الحكم التركي المصري حتى أخضعهم الخليفة، حتى إذا جاء الغزو الانجليزي المصري استطاع القضاء على الثورة المهدية ودحر الخليفة في كرري عام 1898م، فقرر بعدها علي دينار إثر مشاورات تمت مع من يوالونه من زعامات القبائل بدارفور أن يعود الى دارفور مستعيدا سلطنة أجداده مستقلا بها منذ 1898م وحتى مقتله وسقوطها بين براثين الانجليز عام 1916م. وبعدئذ بسط الإنجليز يدهم على كل الإقليم الذى حوته الدولة المهدية والذى عرف باسم السودان الإنجليزي المصري وحتى جلائهم عنه عام 1956م[2].

7- الجانب السياسي والإداري:

كان الحكم في دارفور فيدراليا وكانت تسمى بسلطنة دارفور الإسلامية، قسمت البلاد إلى أربع ولايات رئيسية تحت قيادة سلطان البلاد، ويساعده عدد من الوزراء (12 وزيرا)، وكان مجلس وزراء السلطان يقع عليه العبء الأكبر في اختيار السلطان الجديد بعد وفاة السلطان بالتنسيق مع مجلس الشور، وكان المجلس الاستشاري (مجلس الشيوخ) يتكون من 12 عضوا من الأعيان، بما فيهم حكام الولايات الأربع، وكان من اختصاصه مساعدة السلطان في تسيير أمور البلاد، والإسهام في اختيار السلطان الجديد[3].

---

[1]- يوسف فضل حسن، **الممالك**، ص 93.

[2]- المرجع نفسه، ص 103.

[3]- عماد الدين آدم محمد عبد الرحمن محمد، المرجع السابق، ص 20.

وللسلطان مجلس خاص من المقربين وحاشيته يجتمع بهم دوريا ليتباحث معهم في شئون الدولة وسياستها ويعين السلاطين روساء الإدارات الإقليمية وغالبا ما يكونون من عشيرة السلطان أو بطانته، لذلك كان نفوذهم قويا في السيطرة على السلطنة وقيادتها، فجعلوا على كل قسم حاكم يدعي النائب، والذي ينوب عن الملك أو السلطان في إدارة دفة حكم الاقليم أو القسم الذي يليه وجعل مع كل نائب عدة شراتي وتحت الشراتي عدة دمالج وتحت كل دملج عددا من الشيوخ، وكذلك قسموا قبائل البادية فخصص لكل قبيلة أميرا أو ناظرا يجبي الزكاة، وقد أعطى المقدوم سلطات واسعة تصل حد الحكم بالإعدام والفصل في جميع المنازعات، وعليه أن يحضر إلى عاصمة الدولة مرة كل ثلاث سنوات لكي يشهد الاحتفالات بتجديد الطبل السلطاني، ويؤدي خراج الثلاث سنوات عن إقليمه، ويتسلم جزء منه ليصرفه على إدارة إقليمه. وكانت الإدارة تعتمد على توجيهات السلطان وقوة شخصيته، وكانت السلطات المركزية من النوع الملكي المطلق، وكان السلطان يجمع دخل دولته على الطريقة الإسلامية من عشور وفطرة وزكاة ومن الهدايا التي تصله من حكام أقاليمه الأربعة ومن الرعايا، حيث يتولى الصرف على أخصائه وجنوده وإدارة دولته.

القضاء:

تولى سلاطين الفور بأنفسهم تولية القضاة بعد طول تأمل في الرعية، تحريا لاختيار الأمثل، ومع أول سلاطين الفور سليمان بن أحمد سفيان سولنج بدأ الاصلاح القانوني في دارفور. وانقسم القضاء إلى قسمين، وهما:

القضاء الشرعي: أما القضاء الشرعي فهو القضاء النظامي، وكان يتكون من نوعين من المحاكم، وهما المحاكم الكبرى والمحاكم الصغرى. وكانت الفاشر حاضرة السلطنة هي مقر المحكمة الكبرى، أما المحاكم الصغرى نجدها في المدن الإقليمية. وكانت أحكام المحاكم الصغرى تستأنف أمام المحكمة الكبرى التي كانت تصدرها وفق المذهب المالكي بعد مشاورة السلطان.

القضاء العرفي: أما القضاء العرفي يقوم به جماعة من كبار علماء السلطنة بالبوادي والقرى، وهو أشبه (بمحاكم صلح) الأجاويد، والأصل فيه هو الاحتكام إلى الأعراف والتقاليد والعادات، وبعض هذه الأعراف كانت تخالف الشريعة[1].

8- الجانب الاجتماعي:

تعتبر سلطنة الفور من الناحية الاجتماعية دولة سودانية مصغرة لتمتعها بالتنوع العرقي والثقافي، حيث تستوعب السلطنة أكثر من مائة قبيلة ذات أصول عربية وأفريقية تتحدث أكثر من خمسين لهجة محلية، وقد كان هذه المجموعات الإثنية دور مهم في التداخل العرقي وأسهمت بشكل كبير جدا في التكوين الإثني لمجتمع دارفور حتى أصبحت هنالك سمات مشتركة بين السكان والتركيبة الجسمانية والخصائص الفيزيائية كالقوام ولون البشرة والشعر وجمجمة الرأس وتقاطيع الوجه والملامح، وقد نتج عن اختلاط هذه العناصر المتباينة تباين في العادات والتقاليد والأعراف والسلوك والقيم. ولقد ظلت المجموعة السكانية لإقليم دار فور منذ القدم تعيش في سلام فتوثقت علاقاتها مع بعضها من خلال المصالح المتبادلة، للاستفادة القصوى من الثروات الطبيعية المتمثلة في الرعي والزراعة والأرض، والنشاطات الاقتصادية الأخرى كالتجارة وبعض الصناعات اليدوية البسيطة.

وأصبحت سلطنة دارفور من أكثر السلطنات الإسلامية اكتظاظا بالسكان، لأنها تمثل الوسيط التجاري بين شعوب أفريقيا وآسيا والبحر المتوسط، يتكون شعب دار فور من جماعات وقبائل عربية وغير عربية، وشملت القبائل والمجموعات العربية غالبية بقاع السودان الشمالي، وانتشرت في جنوب كردفان وتوغلت في جبال النوبة، وفي دارفور احتلت الربع الجنوبي منها، وأيضا توغلت في

[1]- قاضي المحكمة العليا بجمهورية السودان، "لمحة عن القضاء في السودان"، جامعة نايف الغربية للعلوم الأمنية، الرياض، 1430هـ/2009م، ص4.

جنوب السودان. أما القبائل والمجموعات غير العربية فتجد أن هم السكان الأصليون، ولم يكنوا ابتداء من العرب بل كانوا من الزنوج، واختلطوا بالعرب قبل القرن 15م وتفرعت منهم الأسرة الحاكمة[1].

9- الحياة العلمية:

كان هناك إقبال على تحصيل العلم لأن الشخص بدون علم في مجتمع الفور لا يساوى شيء، وكان المجتمع هو المسئول من تهيئة أسباب تحصيل العلم، فقامت الخلاوي في أطراف كل قرية بعيدا من القرى لتمام العزل والانقطاع للتحصيل، وكان المجتمع هو الذى يتولى إعالة طلاب الخلاوي ومشايخها، والتلميذ عندما يأتي ساعة الإفطار أو العشاء يأخذ إناءه و ينطلق إلى القرية ويطلب الطعام من البيوت[2].

وعندما أسس السلطان سليمان سلونق سلطنة الفور الإسلامية عام (848هـ/1445م) اهتم ببناء المساجد وفتح المدارس وتعمير الخلاوى بالمدن والقرى، كما واصل حفيده السلطان أحمد بكر (1726-1746م) نهج أسلافه في هذا المضمار، فقد شجع هجرة العلماء للعمل بدارفور لنشر دين الإسلام بطريقة علمية مؤسسة، فأرسل رسله للدول المجاورة، فوفد نفر كريم من العلماء الأجلاء من تمبكتو غرب أفريقيا، ومن دار شنقيط، ومن سلطنة البرنو، وسلطنة باقرمي والمغرب ومصر وتونس وفزان والحجاز وسودان وادي النيل بناء على دعوته، دخل هؤلاء العلماء سلطنة دارفور في فترات متعاقبة، واستقروا بها لأداء مهمتهم، فوجدوا من السلاطين الرعاية والاحترام والتقدير والتكريم، فمنحوهم الأراضي والمال الوفير والخدم لراحتهم واستقرارهم، اعترافًا برسالتهم المقدمة، واستقروا بوطنهم الجديد دارفور، ونشطت مدارسهم، وازدهر العلم في ربوع البلاد، وقوي الإسلام، وتبحر الناس في علوم الدين.

أ- **هجرة العلماء لدارفور:**

كما هاجرت إلى دارفور قبائل أخرى ليست عربية الأصل، وكان لها أثرها في نشر الإسلام، نذكر منها قبيلة الفولاني التي جاءت من غرب جالون في القرن 18م، فكان منهم العالم مالك علي الفوتاوي، حفيد العالم عثمان دان فوديو، والعالم التمرو من شمال غرب أفريقيا، وأبو سلامة، والفقيه سراج. أما العلماء الذين وفدوا من سلطنة برنو فنذكر منهم العالم الشيخ طاهر أبو جاموسي الذي تزوج شقيقة السلطان تيراب، أيضا وفد من سلطنة باقرمي علماء مقدرون. أما الميما فكان لهم دور عظيم في نشر الإسلام خاصة أيام سلطنة التنجر بشمال دارفور. كان لهؤلاء العلماء دور كبير في نشر الثقافة الإسلامية، كما كان لهم الفضل في تعليم مذهب الإمام مالك، والكتابة بخط الورش قبل العمل بالخط العمري. واستفاد أهل دارفور من مدارس أخرى كمصر وتونس والحجاز وسودان وادي النيل، إلا أنهم في ذلك العهد تأثروا كثيرا من ثقافة غرب أفريقيا الإسلامية وأيضا المغرب الاسلامي.

ب- **مراكز العلم بدارفور:**

من أشهر مراكز العلم بدارفور **كريو** لمؤسسة مالك الفوتاوي وأسرته، و**مركز كوبي** للعالم عبد الرحمن كاكوم، و**مركز جديد السيل** الذي درس فيه فقهاء الجوامعة، و**مركز هبيلة** للفقيه عبد النبي ساجا، و**مركز شوبا** شمال جبل مرة، و**مركز الدامرة** شمال كتم لمؤسسة الشيخ عبد الباقي المسيري الفليتي، و**مركز كونو** شمال زالنجي. كان بكل قرية مسجد يتعلم فيه القرآن، وكان لكل عالم مسجد بالقرب من منزله يصلي فيه الصلوات الخمس، وبجواره خلاوى المهاجرين، كان بعض المهاجرين يذهب إلى الأزهر

[1]- قاضي المحكمة العليا بجمهورية السودان، المرجع السابق، ص 24.

[2]- الأمين محمود محمد عثمان، المرجع السابق، ص ص 279.

بالتعريف بالقاهرة، حيث بدأت هجرتهم منذ 1850م، وخصص لهم في ذلك الوقت رواق بالأزهر، اسمه رواق دارفور ما زال محتفظا بهذا الاسم إلى يومنا هذا كما هاجر أهل دارفور إلى تونس وغرب أفريقيا طلبا للعلم[1].

ت- العلماء في عهد سلاطين الفور:

هنالك عدد من العلماء اشتهروا بسلطنة دارفور الإسلامية، نذكر منهم العالم عبد الرحمن كاكوم، الذي أتى دارفور من سودان وادي النيل، وهو من أبرز العلماء الذين نشروا العلوم الإسلامية في دارفور، زامن عصره عهد السلطان محمد تيران الذي تولى حكم سلطنة دارفور من 1768م إلى 1787م بعد فترة غادر الفقيه عبد الرحمن كاكوم سلطنة دارفور إلى الأزهر , ودرس كل ما يخص علوم الدين، ومكث هنالك قرابة ثلاثين سنة، وكان يصوم السنة فأطلق عليه الضويمر . أي صايم ديمه ثم عاد إلى دارفور عالما في زمن السلطان عبد الرحمن الرشيد الذي حكم دارفور في الفترة من 1787م إلى 1806م فاستقبله بحفاوة بالغة، واستقر بمدينة كوبي، وشيد مسجده الذي صار معهدًا، وجذب الكثير من طالبي العلم حتى من سلطنة وداي المجاورة لدارفور. ذكر الثقات أن الإمام كاكوم هو الذي أشار للسلطان عبد الرحمن الرشيد بصلاحية الفاشر كعاصمة لدارفور، ظل أحفاد العالم كاكوم يزاولون مهنة العلم والتدريس والإمامية إلى عهد السلطان علي دينار الذي استشهد في نوفمبر 1916م.

ومن مشاهير العلماء في دارفور آنذاك الفقيه حسين ود عماري الذي ولد بطويلة وهو من قبيلة العريفات، سافر إلى الأزهر بصحبة قافلة تجارية، ومكث هناك أكثر من خمس وعشرين سنة، درس فيها علوم الدين الإسلامي وتفقه فيها، ثم عاد إلى السودان، وزار في طريقه دنقلا وشندي وأم درمان وكوستي والأبيض، وكان يقوم بحلقات دراسية في هذه المدن، ثم وصل الفاشر في عهد السلطان محمد الفضل الذي أكرمه وقربه إليه، وجعله معلما ومربيا لأولاده، ثم رئيسا لديوان السلطان. وأيضا من أكابر العلماء فخر الدين بن الفقيه محمد سالم شيخ الشغا، والفقيه سالم شيخ العزيمة، والإمام الضو بن الإمام المصري، إمام السلطان، والعالم عز الدين من الجوامعة حضر من كردفان والقاضي أحمد طه بكوبي، العالم سعد من أهل الخبير والفقيه أبو سلامة بن الفقيه مالك شيخ الموطأ والفقيه الشيخ الدرديري من كردفان.

وكانت علاقة السلاطين بالعلماء وطيدة وحميمة، فالحكام كانوا يهتمون بنشر الدين الإسلامي وازدهاره أشد الاهتمام، وكان للعلماء دور كبير في توثيق الصلات بين دارفور وبلاد مصر وتونس والمغرب والحجاز، فكان دور السلاطين احتضان العلماء والفقهاء في إثراء كل ما يخص الإسلام وتعاليمه. فكان هناك تعاون وثيق بين الطرفين، حيث ضمن السلاطين للعلماء حياة رغدة آمنة مستقرة، كما دعم العلماء السلاطين بدعواتهم وإرشاداتهم ونصائحهم، فاستقام كل شيء في البلاد وتأكد أن ليس هناك اعتماد على غير الإسلام؛ لأن السلطنة كانت محاطة بدول إسلامية، وكان للعلماء دور عظيم في توحيد القبائل وتجميعها بدارفور، وهذا يرجع لفضل التعليم على المجتمع، وعلى سياسة الدولة آنذاك[2].

[1]- يوسف الفضل، **الممالك**، ص ص 117.

[2]- الأمين محمود محمد عثمان، المرجع السابق، ص 283.

المحاضرة: الثانية عشر: ممالك الطراز الاسلامي في بلاد الحبشة (600- 900هـ /1200- 1500م)

ارتبطت بلاد الحبشة بعلاقات مع سكان الجزيرة العربية وعلى وجه الخصوص بلاد اليمن والجنوب العربي، والتي مرت في تلك الأزمان بأوج مجدها وحضارتها القديمة، فكانت مركزا للنشاط التجاري والإشعاع الحضاري الذي تكفلت به جماعة من المهاجرين، ونشرته في بلاد الحبشة والصومال وتطوير الحياة بتلك النواحي. ولما استقر المهاجرون واختلطوا بالسكان المحليين تكونت منهم دولة جديدة على جانب كبير من الرقي والازدهار، وبعد ذلك تدخل الفرس في بلاد الحبشة، كما سيطروا على بلاد العرب وبسطوا نفوذهم على جميع أنحاء الجزيرة العربية مع سنة 602م بسبب تقلص النفوذ البيزنطي عن الشرق. ثم هاجر إليها المسلمون بعد أن أذن لهم الرسول بذلك، نظرا لموقعها الجغرافي ، ولكونها أقرب البلاد المسيحية التي يربطها بالعرب تاريخ مشترك، وتوطدت الصلة بينها وبين الجزيرة العربية بفضل التجارة خاصة تلك الرحلات التجارية التي كانت على عهد مملكة أكسوم[1].

لقد أسس الأحباش خلال القرن 7ق.م مملكة أكسوم وعاصمتها مدينة أكسوم. التي قامت في الشمال الشرقي من إثيوبيا الحالية، وفي سنة 500 ق.م قامت المجتمعات المختلطة الساحلية من الفلاحين المحليين والتجار المهاجرين من جنوب شرق شبه الجزيرة العربية بتطوير لغتهم ونظام كتابتهم، وأصبحت الموانيء منذ القرن الأول موحدة تحت سبطرة مملكة عاصمتها أكسوم وبينما كانت مدينة مروي تنهار كانت مدينة أكسوم تزدهر. وكانت مميزة لمعمارها من الحجارة المميز ولاسيما أعمدة إستلا (مادة) المنقوشة والأعمدة الحجرية. وفي منتصف القرن الرابع تحول الملك عيزانا Ezana للمسيحية وارتبط بالكنيسة القبطية المصرية. وفي القرن السابع م. أصبح البحر الأحمر تحت سيطرة المسلمين وفقدت أكسوم تجارتها واتصالها بالمحيط الهندي. وتلاشت المملكة في القرن العاشر، وأصبحت تابعة للكنيسة بإثيوبيا[2].

1- الممالك الإسلامية في شرق إفريقيا:

بظهور الإسلام في القرن 7م أخذت الصلات مع ساحل شرق إفريقيا طابعا يختلف عن فترة ما قبل الإسلام؛ إذ إن العرب المسلمين سيطروا على الساحل، وبسطوا نفوذهم، وشييوا مدنا على طول الساحل بالرغم من عدم وجود وحدة سياسية تجمع كل هذه المدن. وقد كان لوجودهم الأثر الواضح، فهم الذين أخذوا بأيدي السكان الأصليين في مسالك الحضارة، وأضفوا على حياتهم طابعا ثقافيا واجتماعيا وإسلاميا، وظهر في المنطقة مجتمع جديد نتيجة لامتزاج الدماء العربية بالدم الإفريقي، وعُرف المجتمع بالمجتمع السواحلي، وتفرد بمميزاته الثقافية. ومن أبرز مظاهر ذلك المواءمة بين الإسلام والتقاليد المحلية بما لا يتعارض مع تعاليم الإسلام، كما ازدهرت التجارة في مدن الساحل، وعم الرخاء، وارتفعت مستويات الحياة، وانتشر الإسلام واللغة العربية[3].

أ- الموقع الجغرافي:

شرق إفريقيا حاليا يشمل دول إثيوبيا والصومال وكينيا ويوغندا وتنزانيا ورواندا وبورندي، ونعني هنا بساحل شرق إفريقيا المطل على المحيط الهندي، وبخاصة المنطقة الممتدة من مقديشو في الشمال إلى سفالة في الجنوب، ومنطقة الساحل هي التي أوصلت الحضارة الإسلامية والروابط التجارية الثقافية إلى داخل الهضبة في شرق إفريقيا. وشهدت المنطقة هجرات وتحولات سكانية، وأبرز من هاجروا إليها أهل عمان وأهل حضرموت الذين استوطنوا بعض الجزر والمناطق الساحلية في هجرات صغيرة،

---

[1]- محمد حسن الزيدي، "هجرة العرب المسلمين إلى شرق إفريقيا". مجلة المؤرخ العربي، عدد 23، 1983م، ص: 96.

[2]- الأمين محمود محمد عثمان، المرجع السابق، ص 283.

[3]- محمد حسن الزبيدي، المرجع السابق، ص 104.

فطبعت المنطقة بلغتها ودينها كما اختلطوا بالسكان المحليين، ثم توالت هجرات من الإحساء والبحرين وعمان وحضرموت واليمن بشكل أوسع بهدف الاستيطان الدائم. ثم كان الساحل الشرقي لإفريقيا ملاذاً للفارّين إليه من شبه الجزيرة العربية في القرون الأولى لانتشار الدعوة الإسلامية، ثم في عصور إسلامية لاحقة في عهد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان (65-86هـ) قدمت هجرات عربية فرارا من التنكيل والبطش السياسي في دولة بني أمية إلى شرق إفريقيا، ودعموا جهود تأسيس المدن الإسلامية بعد أن انضموا لمن سبقهم.

وفي الفترة من 75- 85هـ كانت أبرز الهجرات السياسية المكونة من سليمان وسعيد أبناء عباد بن الجلندة من قبيلة الأزد العمانية، والتي كانت تحكم عمان في فترة بني أمية، كانوا يؤيدون عبد الله بن الزبير في ثورته في خلافة عبد الملك بن مروان، الذي وجه إليهم الحجاج بن يوسف الثقفي سنة 75هـ/ 694م، فكان ملاذهم منه ساحل إفريقيا الشرقي، ثم كانت هجرات الزيدية من اليمن في 57م، فانتشروا في ساحل بنادر، وتوغلوا في الداخل، واتسع ملكهم حتى ضم مدينة مقديشو، مدينة أسسها العرب المسلمون، وباستقرار هذه الجماعات في شرق إفريقيا ظهرت إرهاصات قيام الممالك الإسلامية في شرق إفريقية؛ إذ تحولت الإقامة إلى نظام اجتماعي وسياسي يدير شؤونهم الداخلية، ويحدد العلاقات الخارجية مع من حولهم، تطورت التجمعات إلى قيادة مركزية، فبدأت الممالك والسلطنات[1]، وكان عددها سبعة، وسماها بعض المؤرخين "بدول الطراز الإسلامي" ، لأنها كانت على جانب البحر كالطراز له، وسمي ملوكها ملوك عدل أو ملوك زيلع.

كان تكوين هذه السلطنات أو الممالك يتسم بالطابع السلمي المتمثل في العامل التجاري أو الاقتصادي بعيدا عن أي دافع عسكري أو جهادي، إذ إن المسلمين لم يحاولوا فتح منطقة القرن الإفريقي (بلاد الحبشة) عن طريق القوة لأنها كانت مهجر صحابة رسول الله ﷺ، وبالتالي قيام هذه الدويلات والممالك الإسلامية لم يكن إلا من نتائج الهجرات العربية والإسلامية التي وفدت إلى المنطقة رغم أن تلك الممالك أو السلطنات لم تكن موحدة ومرتبطة بعضها ببعض.

1- سلطنة شوا الإسلامية (283- 688هـ/884- 1288م):

تأسست هذه السلطنة في إقليم شوا سنة 283هـ/884م على يد أسرة عربية مخزومية بزعامة أحد سادتهم وهو ود بن هشام المخزومي، وعلى الرغم من أن هذه السلطنة تعد من أقدم السلطنات الإسلامية التي قامت في منطقة القرن الإفريقي إلا أنها لم ترد في كتابات المؤرخين والرحالة إلا في فترة متأخرة على تاريخ تأسيسها، والمعروف أن هذا التجاهل والسكوت هو السمة الغالبة من

[1]- محمد حسن الزبيدي، المرجع السابق، ص 113.

قبل المؤرخين حول أخبار المنطقة، ويشارك في ذلك أيضا منطقة الساحل الشرقي الإفريقي وما ذكره المؤرخون بخصوص سلطنة شوا الإسلامية لا يعدوأن يكون مجرد ذكرها بأنها أحد أقاليم الحبشة[1].

تمكن مؤسسوها من الاختلاط بالسكان المحليين فكسبوا ثقتهم وودهم، فلا غرابة أن تستقطب هذه السلطنة أرضية شاسعة عمرت إلى فترة زمنية طويلة امتدت إلى قرابة أربعة قرون، وازدهرت بها حياة الاقتصادية حيث نمت وانتعشت الحركة التجارية بسبب وقوعها على طرق القوافل التجارية، وكانت ترتبط بالأجزاء الداخلية للمنطقة والمدن الساحلية التي لها نشاط تجاري مع العالم الخارجي، ويشير بعض الباحثين إلى أن أهم هذه الطرق التجارية ذلك الطريق الذي كان يسير بمحاذاة نهر هواش حتى هضبة شوا، وهذا الطريق كان يستخدمه التجار الزيالعة أو الذين يستخدمون ميناء زيلع من غير أهل زيلع.

وفي الفترة الأخيرة من عمر هذه السلطنة حدثت اضطرابات ومنازعات داخلية على الحكم أدى إلى الاضمحلال السياسي والضعف9 العسكري، وتسبب هذا الأمر في نشوب الفوضى في داخل السلطنة عموما، ورغم هذه المنازعات والفوضى الداخلية والوضع المتردي لسلطنة شوا الإسلامية إلا أنها دخلت صراعا مريرا مع سلطنة إفات الإسلامية في آخر عمرها، وأثناء هذا الصراع ضاعفت سلطنة إفات كل ما لديها من القوة، وبعد حملات عسكرية متتالية جعلت سلطنة شوا الإسلامية تنهزم هزيمة نكراء، بل وانتهى أمرها على يد سلطنة إفات الإسلامية بعد أن استطاعت ضمها إلى حوزة ممتلكاتها، وذلك عام 688هـ/1289م، وهكذا انتهت سلطنة شوا بعد أن استكملت ما يقرب أربعة قرون ابتداء من عام 283هـ/896م إلى أن أتى سقوطها عام 688هـ/1289م[2].

2- **إمارة لامو**: أنشأها أزد عمان بزعامة سعيد وسليمان بن عباد بن الجلندة 65هـ/684م، وهي من أقدم الإمارات ظهورا في المنطقة حول منطقة أرخبيل لامو، وهي أقدم الإمارات الإسلامية في المنطقة، ويذكر الطبري حول هجرة آل الجلندي إلى شرق أفريقيا إثر الصراع الذي نشب بينهم وبين الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان إذ استطاعت جيوشه إلحاق الهزيمة بهما والقضاء على نفوذ أهل عمان، وبانهزامهم هاجر أزد عمان بقيادة الأخوين سعيد وسليمان أبناء عبد الجلندي حملا ذراريهما ومن معهما من قومهما، ولحقا ببلد من بلاد الزنج.

3- **إمارة باتا (Pata)**: إن الأصل في تأسيسها يرجع إلى حكم الخليفة عبد الملك بن مروان، الذي شهد عهده تأسيس المسلمين لعدة مدن على الساحل الشرقي لأفريقيا، كماليندي، وزنجبار، وممباسا، ولامو، وكلوة، وباتا، وعندما سقطت الدولة الأموية وقامت الدولة العباسية اعتمد الخليفة هارون الرشيد على ما كان للدولة الأموية من ممتلكات في شرق أفريقيا، فعزم على تدعيها ومن أجل ذلك شجع الكثير من العناصر وخاصة من الفرس على الإقامة في تلك الإمارات. وكانت إمارة باتا عظيمة، حيث كانت أولا إمارة آهلة بالسكان من قبائل أصيلة، ثم أتت القبيلة النبهانية بقيادة سليمان بن مظفر النبهاني الذي تزوج من أميرة سواحيلية هي ابنة إسحاق حاكم باتا، ثم ورث الملك وأصبح أميرا شرعيا، ثم نقل بلاطه إلى جزء كبير من شرقي أفريقيا، وتأسست الأسرة النبهانية في مدينة باتا وقامت هذه الإمارة الإسلامية في ظلهم بدور بارز في تاريخ الإسلام في شرقي أفريقيا. وقد نشطت الحركة التجارية في عهدهم نشاطا عظيما وتوافد على سلطنتهم التجار المسلمون من كل مكان، وسارت قوافل المسلمين التجارية من ممباسا مارة بموشي ونايروبي الحالية حتى وصلت إلى بحيرة فكتوريا وغربي إفريقيا. فقد ذكر ابن ماجد الملاح العربي الشهير- في القرن التاسع الهجري- إن طريق استجلاب الفلفل قديماً هو بلاد الكانم.

---

[1]- حسن إبراهيم حسن، المرجع السابق، ص 117.

[2]- محمد حسن الزبيدي، المرجع السابق، ص: 115.

4- مملكة مقديشو:

مدينة مقدشو من المدن الساحلية المشهورة في منطقة شرق إفريقيا المطلة على المحيط الهندي، وأخذت المدينة دورا رياديا في الحضارة العربية الإسلامية عبر العصور الإسلامية الزاهية، غير أن المؤرخين القدامى لم يدونوا تاريخا محددا في تأسيس هذه المدينة رغم ورود اسمها في كتاباتهم، ولكن بعض الباحثين ينسبون تأسيس مدينة مقدشو إلى جماعة عربية مهاجرة من شرق الجزيرة العربية (ساحل الخليج العربي) وبالذات ولاية الأحساء بقيادة إخوة سبعة من قبيلة الحارث العربية في القرن 3هـ/9م.

حين يذكر بعض المؤرخين أن تأسيسها يرجع إلى عام 920م على يد قرامطة البحرين الذين نزحوا إلى منطقة سواحل شرق إفريقية، ويسكنها قديما بعض العناصر الحامية ووصل هؤلاء في ثلاث سفن محملة بالرجال والعتاد والحربي فرارا من ظلم حاكمهم واضطهاده السياسي. وبعد وصول هؤلاء إلى المنطقة اصطدموا بجماعة الزيدية الذين سبقوهم إلى المكان حتى اضطر الزيدية للنزوح نحو الداخل والاندماج مع السكان الأصليين في المنطقة. وعلى هذه الرأي يظهر أن الزيديين كانوا في مدينة مقديشو أو منطقة بنادر قبل مجيء قبيلة الحارث بقيادة الإخوة السبعة، وأن مقديشو كانت كغيرها من المدن الساحلية في منطقة القرن الإفريقي، مما يضعف القول القائل بأن الإخوة السبعة هم الذين أسسوا المدينة، وهناك من ينسب تأسيسها إلى جماعة من الشيرازيين وصلوا إلى المنطقة في القرن 4هـ/10م[1]. ومع كل هذه الآراء و الأقوال يظهر لنا أنه من الصعوبة بمكان تحديد فترة زمنية معينة في تاريخ تأسيس مدينة مقديشو، ولاسيما إذا عرفنا أن هناك من يذكر بأن مدينة مقدشو كانت موجودة قبل تلك الفترات المشار إليها آنفاً ، بل هناك من يشير إلى حكومة مقرها مقدشو كان يحكمها أسعد الحميري قبل ظهور الإسلام، وهو تاريخ أقدم بكثير بما أشرنا إليه سابقاً من الأقوال في تأسيس المدينة[2].

5- **سلطنة كلوة (902-365هـ/975-1499م):**

أسسها الشيرازيون بقيادة علي بن الحسن الشيرازي، وعاصمتها كلوة، كانت مركزا مهما لنشر الإسلام والثقافة الإسلامية.، وقد سيطرت على مناجم الذهب والحديد في روديسيا الحالية، وأخضعت لنفوذها جزر بمبا وزنجبار، وامتد نفوذها إلى جزر القمر، واعترف بسلطانها من قِبل سلاطين المدن والسلطنات الممتدة من مقديشو شمالا إلى سفالة وموزمبيق جنوبا، وهي الأعظم مقاماً ورفعة، وهي مدينة ساحلية عظيمة العمارة، ومن أشهر مدن الساحل، وعمارتها متقنة، وكلها من الخشب، ويقال بأنه كان بها ثلاثمائة وستون مسجدا[3]. **خريطة ممالك الحبشة**

[1]- علي إبراهيم طرخان، المرجع السابق، ص: 125.

[2]- بدرية يوسف عبد الرحمن، "**مملكة جبرت كبرى ممالك الطراز الإسلامي**". مؤتمر الدولي الإسلام في إفريقيا، 2006م، الخرطوم،: جامعة إفريقيا العالمية، وزارة الارشاد والأقاف، ليبيا منظمة الدعوة الاسلامية العالمية، ص: 7.

[3]- محمد حسن الزبيدي، المرجع السابق، ص: 113.

كما نشأت بعد ذلك سلطنات عُرفت باسم «ممالك الطراز الإسلامي» في منطقة القرن الإفريقي، وقد عُرفت بـ «بلاد الزيلع»، وهي البلاد المقابلة لبر اليمن على أعالي بحر القلزم والمحيط الهندي، وقد عُرفت باسم «ممالك الطراز» لأنها على جانبي البحر كالطراز له. ومن دول الطراز التي اشتهرت سبع ممالك، وهي مملكة ايفات أو أوفات جبرت، ومملكة هدية، مملكة داراو، مملكة بالي، مملكة أربيني، مملكة شرخا، مملكة دارة، وقد تحدث المؤرخون، كالعمري والقلقشندي، عن دول الطراز الإسلامى من حيث الموقع والجغرافيا والمساحة والقوة العسكرية. وما هو جدير بالذكر هنا؛ أنه بالنظر في نشأة ممالك الطراز الاسلامي، وما شهدته منطقة القرن الإفريقي بسبب الهجرات المتبادلة من جزيرة العرب وبلاد الأحباش، يبدو لنا الأثر في لغة الجعييز، وهو الاسم الذي عُرفت به اللغة الحبشية القديمة، وتنسب إلى قبيلة Geez ، فقد أصبحت هذه اللغة هي لغة التخاطب، والأجعزيات قبيلة عربية هاجرت إلى بلاد الحبشة، واستقرت في الجانب الشمالي الشرقي منها. وقد تعاظم نفوذ هذه القبيلة في بلاد الحبشة، وأصبحت لغتهم لغة الدين والكتابة حتى القرن الثالث عشر الميلادي، ثم غلبت عليهم اللغة الأمهرية التي حكمت منذ ذلك الوقت، والأمهرية لغة من اللغات السامية كلغة الجعيز والتجرينية، وقد تأثرت اللغات بعضها ببعض فيما يُعرف عند علماء اللغة بالاقتراض اللغوي، كما هو معروف في اللغة السواحلية التي احتوت على كلمات عربية؛ مما يدل على تأثرها باللغة العربية، وتأثرت العربية بلغة الحبشة، وصارت الألفاظ المقترضة جزءا من العربية، وهي ظاهرة معروفة في تطور اللغات، ومن بين هذه الممالك نذكر:

ايفات جبرت: تعتبر مملكة "إيفات جبرت" من أكبر وأقوى ممالك الطراز، وُنسب إليها المؤرخ عبد الرحمن بن حسن الجبرتي، الذي ولد في مصر في حي الأزهر بالصنادقية، ودرس فيه على يد والده وعلى مشايخ الأزهر، وأشهر كتبه كتابه "عجائب الآثار في التراجم والأخبار"، وكتاب "مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس"، وكانت تمثل مركزا للتجارة ومنارة للعلم. وممن اشتهر من ملكوها الإمام أحمد إبراهيم قران، وتعني الأعسر، وقد ضمّ إليه معظم الدويلات الصغيرة، وضمّت جماعات من التغراي والأمهرة وقبائل الحبشة والصومال. وأصل الجبرت من المهاجرين العرب الذين دخلوا من الجزيرة العربية إلى بلاد الحبشة في فترة الخلاف السياسي في الدولة الإسلامية، نسبهم البعض إلى بني خزيمة، بينما يرى آخرون أنهم ينتمون إلى عقيل بن أبي طالب، وتذهب رواية أخرى إلى نسبتهم إلى عثمان بن عفان ﷺ، والقول الفصل أنهم عرب ينتمون إلى القبائل القرشية[1].

اشتهروا بالتمسك بالدين، ومذهبهم الغالب المذهب الشافعي، وعُرفوا بالتقوى والأمانة في العبادة، وقد انتهت الدولة باستشهاد الإمام أحمد بن إبراهيم قران في معركة مع الحبشة النصرانية بمعاونة الأوروبيين. وينتشر الجبرت في معظم مدن إثيوبيا وقراها، وقد عمل النصارى على تشتيتهم في مناطق مختلفة وتغيير أسمائهم وفقاً للمناطق التي يستقرون فيها بدلاً من اسم الجبرت، وينتشرون الآن في كلٍّ من إريتريا والصومال والسودان الذي اختلطوا فيه ببعض القبائل كالجعليين في بعض بطونهم، كما ينتشرون في اليمن والمملكة العربية السعودية بين مكة والمدينة، وفي منطقة وادي قديد ووادي قليص، ويوجدون في مصر والشام والعراق، وممن اشتهر منهم عبد الرحمن بن حسن الجبرتي، واشتهر في العصر الحديث الشيخ عبد المجيد الجبرتي إمام الحرم النبوي الشريف وقاضي مدينة رسول الله ﷺ وعضو هيئة التمييز[2].

وامتدت حدودها على أراضي شاسعة في منطقة القرن الإفريقي التي عرفت باسم "بلاد الزيلع"، وهي البلاد التي تحيط بهضبة الحبشة من الشرق والجنوب الشرقي، وتتمثل الآن فيما يعرف بجيبوتي والجزء الجنوبي من إقليم إريتريا وسهول الدناكل

[1]- بدرية يوسف عبد الرحمن، المرجع السابق، ص 4.

[2]- المرجع نفسه، ص 10.

وتمتد جنوبا وتضم الجزء الشرقي من حوض نهر عواش، والهضبة الصومالية بما فيها من منطقة هرر والأوجادين، وشرقا تشمل جزءا كبيرا مما يعرف الآن بالصومال الشمالي (الإنجليزي سابقا) بما فيه من موانئ زيلع وبربرة[1].

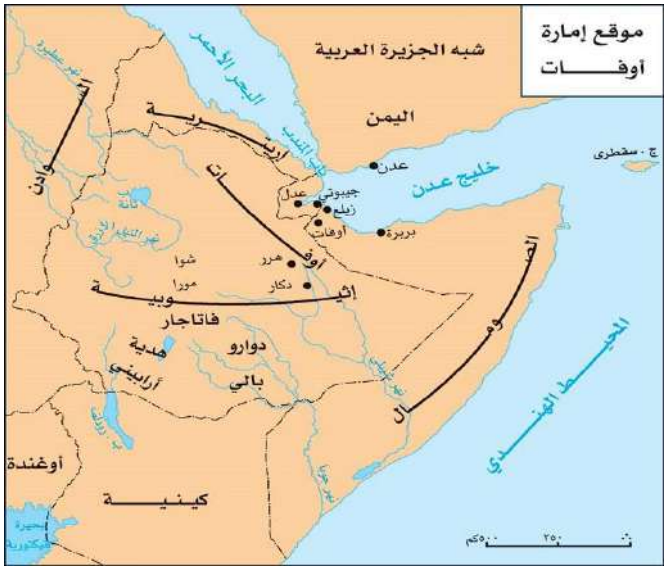

الجانب الاقتصادي:

امتهنت مملكة أوفات، التجارة البرية والبحرية، نظرا لموقعها الجغرافي المهم في جنوب الهضبة الحبشية، جعلها تتحكم بطرق القوافل التي تصل البحر الأحمر وخليج عدن بداخل الحبشة، أي بين ميناء زيلع على الساحل الصومالي الشمالي، والمناطق الداخلية، وقد نشطت الحركة التجارية برعاية هذه السلطنة حتى أصبح لها علاقات قوية بكل من مصر وبلاد اليمن وغيرها من الأقطار "البحر أحمرية" بصفة خاصة.

ومن منتجات المملكة قصب السكر والحبوب وثمار الفواكه والخضراوات، كما تتوافر على سلع مهمة للتجارة كالجلود والعاج والصمغ والذهب والبهار، ونظرا لاحتواء هذه السلطنة على جزء كبير من وادي نهر عواش وعلى جزء كبير من الهضبة الصومالية، فقد توافر لديها قدر مهم من الأرض الخصبة والمياه اللازمة للزراعة بما يكفي حاجة السكان، وجاد فيها كثير من المزروعات وأشجار الفواكه التي لم يكن بعضها معروفا في مصر والشام والعراق. كما عرفت أوفات، بتربية الأغنام والأبقار والخيل فتدفقت الأموال عليها، وقد هيأ لها ذلك الوضع الاقتصادي زعامة دول الزيلع الإسلامية، كما هيأ لها موقعها الإستراتيجي الممتاز بأن تكون حلقة الوصل بين ممالك الطراز الإسلامي الأخرى ودول العالم الإسلامي المختلفة وخاصة في مصر والحجاز واليمن[2].

علاقاتها الخارجية مع ملوك الحبشة:

مكانتها الجغرافية وازدهارها الاقتصادي، حمّل المملكة أعباء الكفاح والجهاد ضد الحبشة النصرانية، حيث كانت أول الممالك الإسلامية خروجا على ملك الحبشة، وذلك في عهد الملك حق الدين بعد أن ضمت إليها عددا من الممالك الأخرى. وتقول بعض المراجع التاريخية، على قلتها، إن الحرب كانت سجالاً بين أوفات ومملكة الأحباش، وقد استطاعت أوفات في فترة وجيزة أن تفرض سلطانها على معظم الدويلات والممالك الإسلامية، وتعلن زعامتها على الممالك الإسلامية المجاورة لها في بلاد "الزيلع"، وهو ما

[1]- علي إبراهيم طرخان، المرجع السابق، ص 123.

[2]- عائد عميرة، "تاريخنا المنسي مملكة أوفات أقوى السلطنات الإسلامية في بلاد الزيلع". مجلة نون بوست الالكترونية، ديسمبر 2018م، ص 1.

كان يتعارض مع مشاريع ملوك الحبشة الجدد، وتمكنت في عهد الإمام أحمد إبراهيم قراي أن تدمر وتقضي على مملكة الأمحرا الحبشية، وظلت على ذلك فترة من الزمان.

يعتبر احتلال الأحباش لزيلع بمثابة إسدال الستار على سلطنة أوفات التي احتلها الأحباش نهائيا، ولم يدم هذا الأمر طويلاً، فمع تولي الأسرة "السليمانية" عرش الحبشة عام 669هـ/1270م، بدأت مملكة أوفات وتوابعها من الإمارات الإسلامية في التراجع، حيث شن الملك ياجبياصيون حملة صليبية عنيفة ضد إمارة "عَدَل" التابعة لأوفات، بعد أن استشعر خطر الاتحاد الإسلامي الذي كانت تدعو إليه سلطنة "أوفات". وبعد سنوات من ذلك استطاع المسلمون تقوية مراكزهم ودعم سلطانهم على طول منطقة الساحل، وفي سنة 698هـ/1299م، قام شيخ مجاهد يدعى محمد أبو عبد الله بحشد قبائل "الجَلا" و"الصومال" وأعدهم للجهاد وقام بغزو الحبشة، ولم تعمد الحبشة إلى المقاومة بسبب بعض المتاعب الداخلية، واضطر ملكها إلى التنازل للمسلمين عن بضع ولايات على الحدود نظير الهدنة. واختار ملوك الحبشة السلام لعقود، إلى أن قوي سلطانهم، فقاموا بغزو "أوفات" في سنة 728هـ من جميع الجهات وأسروا ملكها حق الدين، ووضعوا يدهم على مملكته وعلى مملكة فطجار الإسلامية وجعلهما ولاية واحدة وعين عليها صبر الدين وهو شقيق حق الدين بشرط الاعتراف بسيادة الحبشة.

امتدت الحرب بين الحبشة وأوفات لعقود طويلة وحاول صبر الدين إرجاع ملك أبائه إلا أنه فشل في ذلك، وانتهت خلال فترة حكمه استقلال الممالك الإسلامية في أوفات وهدية وفطجار ودوارو، وعين عليها ملك الحبشة جلال الدين أخا صبر الدين حاكمًا، فقبل على أن يكون تابعًا للحبشة، وهكذا اتسعت مملكة الحبشة وضعف أمر المسلمين، ويعتبر احتلال الأحباش لزيلع بمثابة إسدال الستار على سلطنة أوفات التي احتلها الأحباش نهائيًا، ولم يعد يسمع بها أحد، وانتهى دورها في الجهاد، وتفرق أولاد سعد الدين العشر مع أكبرهم صبر الدين الثاني، وهاجروا إلى شبه الجزيرة العربية حيث نزلوا في جوار ملك اليمن الناصر أحمد بن الأشرف[1].

2- مظاهر الحضارة الإسلامية:

النظم والإدارة:

لقد أدت الممالك الإسلامية التي غطت أجزاء واسعة في بلاد غربي إفريقيا وشرقي إفريقيا، كغانا ومالي وصنغي وكانم و برنو وغيرها دورا مهما، وأسهمت إسهاما ايجابيا في نقل الفكر الإسلامي إلى داخل إفريقيا، ففي مجال النظم السياسية والإدارية حكم الملوك المظاهر الإسلامية في حياتهم وأنظمة بلادهم، وحمل البعض لقب الإمام ولقب البعض بلقب أمير المؤمنين، وعملوا بمبدأ الشورى الوارد في قوله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾[2]، من هؤلاء إسكيا محمد ملك صنغاي 1453م، وبعض مايات دولة كانم، وكان النظام السائد في كانم نظاماً ملكياً انتخابياً في كلّ الأوقات، وقد كان العلم والكفاية والعدالة أهم شروط الرئاسة عندهم، كما استخدم ملوك برنو لقب خليفة، ولقب أمير المؤمنين، وكذلك الحال في الخلافة السكتية[3].

كما عرفت ممالك إفريقيا نظام الوزارة منذ دخول الإسلام إليها، وقد عرف بدولة مالي باسم صندكي، وكان عمل الوزراء مقصورا على تنفيذ أوامر الخليفة، والإلمام بشؤون الإدارة والمال وأحوال الولايات، ومن المناصب التي عرفتها ممالك إفريقيا الإسلامية الكتابة والحجابة، وقد ذكر العمري والقلقشندي أن ملك مالي يستعين بطائفة من الكتّاب الذين يلمّون إلماماً تاماً بالقراءة

---

[1]- عائد عميرة، المرجع السابق، ص ص 4-5.

[2]- سورة الشورى، الآية 38.

[3]- حسن إبراهيم حسن، المرجع السابق، ص ص 152-153.

والكتابة. كما حافظت هذه الممالك على النظام المالي الذي سار وفق النظم الإسلامية المستمدة من تعاليم القرآن الكريم، مثل الزكاة والجزية والغنيمة، وكانت تُدفع لبيت المال[1].

القضاء:

كان مستقلا عن السلطة التنفيذية، ويطبق الشريعة الإسلامية، وقد عملت هذه الممالك بنظام المظالم، وكان خلفاء الدولة الصكتية ينظرون المظالم بأنفسهم، كما كان في أول دولة الإسلام، كما ظهرت ولاية الحسبة (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)، وازدهرت هي الأخرى في خلافة صوكتو للحاجة لهذا المنصب لضبط أمور الدولة في الاجتماع والاقتصاد.

التعليم:

شهدت الممالك الإفريقية نهضة علمية، فكانت المدن مليئة بالعلماء والفقهاء والأئمة، وكانوا يتمتعون بالاحترام، ويمنحون الرواتب السخية. وكان الطلب مشتداً على الكتب، وقد راجت تجارة الكتب، ويذكر ابن بطوطة أنه رأى كتاب (المدهش لابن الجوزي) في إحدى مدن مالي، وقد اشتهرت مدن شتى بالعلم، وبرزت المراكز الثقافية، وأهم مركز ثقافي في تنبكت في مسجد سنكري أو جامعة سنكري. وقد انتشرت المدارس في جميع المدن، والتعليم ينصبّ على تعليم القرآن واللغة العربية، وكانت اللغة العربية هي لغة الدواوين الحكومية والمراسلات الدولية والتجارة، وهي اللغة السائدة كما يقول توماس أرنولد: «غدت اللغة العربية هي لغة التخاطب بين قبائل نصف القارة الإفريقية». هذا، وقد تركت اللغة العربية أثرها في اللغات المحلية، ويظهر ذلك جليا في لغة الهوسا، وفي اللغة السواحلية، وفي اللغة الأمهرية، ولا يزال الحرف العربي يستخدم في هذه اللغات. وللممالك الإسلامية في التاريخ القديم اهتمام بالتعليم، مثل مملكة مالي، صنغاي، سوكوتو، إذ كان لها دور كبير في نشر التعليم، وبدأت أولى تجارب التعليم النظامي، وعلى سبيل المثال ففي الدولة الإمامية في فوتاتورو بالسنغال بنى الشيخ عبد القادر كُن 40 مسجدا جامعا، يضم كل واحد منها حلقات علمية للصغار والكبار لدراسة القرآن الكريم والعلوم الشرعية واللغوية، وأسّس المدارس القرآنية والحلقات العلمية في أنحاء البلاد، وفي عهده أسست مدينة جولون، وأضحت مدرستها من أشهر المدارس في الدولة المتخصصة في الدراسات الأدبية واللغوية، وأنجبت علماء في اللغة والأدب[2].

العمارة والمدن:

ظهرت في هذا المجال مدن عدة أشهرها مالي وكومبي صالح، جني، تمبكتو، وغيرها من المدن، فتم تخطيط المدن، وانتشر فن الزخرفة في الأبواب والشبابيك والجدران، ونظام النقش والحفر، واستخدمت الفسيفساء والرخام الملوّن، وقصور ومساجد مدينة مكوة تؤكد رقي هذا الفن. وكانت المدن التي ظهرت عبارة عن مراكز حضارية تجارية حصينة ومنيعة، تحميها القوة البرية الضاربة، وتتسع الأسوار والحدائق الغنّاء، والمباني المزينة بالإطارات والنقوش الخشبية الزاهية والرسوم المعدنية البارزة، ويحيط بالمدن في بعض الإمارات سور كبير مبني من اللبن، وخندق متسع يجري فيه الماء للدفاع عنها إذا ما تعرضت للخطر، ونموذج ذلك بعض مدن إمارات بلاد الهوسا، وكانت مدينة كلوة على الساحل الشرقي من أحسن المدن وأتقنها عمارة، وقد شهدت ازدهاراً ورخاء في القرن 6هـ/12م، كما بنيت المساجد الكبيرة بالحجارة، كما في كيزيمكازي KIZIMKOZE جنوب جزيرة زنجبا[3].

---

[1]- سيد أحمد العراقي، **نظام الحكم في الخلافة الصكتية**، جامعة الخرطوم، 1983م، ص 44.

[2]- حسن إبراهيم حسن، المرجع السابق، ص 154.

[3]- محمود محمد الحويري، **ساحل شرق إفريقية في فجر الإسلام حتى الغزو البرتغالي**. القاهرة، مطبعة القاهرة الجديد، 1986م، ص 29.

كما كانت مملكة مالي تتحكم في مناجم الذهب في مدينة ونقارة، ولذلك فقد كانت واسعة الثراء، وعُرف ملكها بملك الذهب، وهذه نماذج على سبيل المثال لا الحصر. وما أن حل القرن الحادي عشر الميلادي حتى نشأت مدن إسلامية في خريطة ساحل شرق إفريقيا، حملت السمات والطابع الاسلامي، وقضت على التأثيرات الخارجية، فكانت مقديشو وبراوة، قسماتو، بات، لامو، زنجبار، مكوة، موزمبيق، سفالة، وقد كانت المدن التي ذكرت بالجزر لطيفة الهواء معتدلة المناخ، امتازت بالموقع الحصين لوقوعها على البحر، أو قريبة من الساحل كجزيرة زنجبار وميسة وكلوة[1].

3- الجانب الاجتماعي:

أما في المجال الاجتماعي؛ فقد انصهر العرب المسلمون مع سكان هذه المناطق، ونتج من ذلك الانصهار مجتمع جديد، وثقافة جديدة، تعتمد في جوهرها على دين الإسلام، وكان نتاج ذلك ظهور طائفة من العلماء في معارف وفنون مختلفة، وأبرز هؤلاء المؤرخ عبد الرحمن الجبرتي 1168هـ /1754م وغيره من العلماء، فضلاً عن بروز مجتمع حضاري تُمارس فيه نظم الحكم، وتُطبق فيه الشورى، وحسن الإدارة. كما انتشرت اللغة العربية في مساحات واسعة من بلاد القرن الإفريقي والساحل الشرقي، ليس ذلك فحسب، بل أصبحت المدن التي ذكرت مراكز للإشعاع الحضاري والثقافي والفكري، محافظة على ذلك حتى بعد مجيء المستعمر الأوروبي، وعلى روح ومكونات الثقافة الإسلامية، ولا تزال المساجد والمدارس الإسلامية تنتشر في كل البقاع، وهو ما أسّس لقيم من الأخلاق في مجال العادات والتقاليد، وخصوصاً أن الزواج حتى يومنا هذا يتم وفقاً للنظم والتقاليد الإسلامية.

4- المجال الاقتصادي:

وفي مجال الاقتصاد؛ اشتغل التجار بنقل المحاصيل، فازدهرت تجارة البحر، ونقلت المعادن كالعاج والذهب والمحاصيل وريش النعام، العسل، الجلود، اللؤلؤ، اللبان، الموز والصمغ، فراجت هذه البضائع في بلاد الشام والعراق، وأضحت منسي وزنجبار وكلوة، كالمدن الفينيقية التي اشتهرت في البحر الأبيض المتوسط كصيدا وصور. وفي المجال الصناعي؛ تم استخراج النحاس والذهب والفضة والحديد، واعتمد أهل الساحل على الذهب والحديد في معاشهم، وكانت سفالة مصدراً للذهب الذي يدخل الدولة الإسلامية، حتى عُرفت (بسفالة الذهب).

الزراعة والحيوان:

ارتقت الزراعة في الممالك الإسلامية الإفريقية، ونموذج دولة مالي ذات الأرض الخصبة يوضح ذلك، فكانت تنتج القطن والقمح والذرة وهو أكثر حبوبهم، ويزرعون الأرز، ولهم حبوب تشبه الخردل، ومن الخضروات اللوبيا والقرع والباذنجان، ومن حيواناتهم الخيل، ومن الطيور الإوز والدجاج والحمام، وقد وفدت إليهم هذه الحاصلات والحيوانات من مصر. وأدخل المسلمون تربية الماشية من إبل وأغنام، وانتشرت تجارة الجلود، وعرفت المنطقة بتصديره.

بفضل الإسلام تحولت هذه المناطق إلى قيم الحضارة الإسلامية، وكان نتاج ذلك حضارة عظيمة في شرقي القارة وغربها وفي ممالك الطراز، فكانت براوة، وهي جزيرة عربية على الساحل الشرقي لإفريقيا، مكانا لانتشار العلوم العربية والإسلامية، من ثم فلا بد من العناية بمناطق ساحل إفريقيا الشرقي ومنطقة القرن الإفريقي وغرب إفريقيا، والاهتمام بالدور العلمي والسياسي الذي اتسمت به في نهضتها، بما يخدم التراث والثقافة الإسلامية، ويرسخ لحفظ جذوة الإسلام وحضارته، ويجذر لها في هذه المناطق[2].

[1]- إبراهيم 9علي طرخان، المرجع السابق، ص 119.

[2]- محمود محمد الحويري، المرجع السابق، ص: 35.

المحور الخامس

انتشار الإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء

المحاضرة الثالثة عشر: دور الفقهاء والتجار والهجرات في نشر الإسلام

إن انتشار الإسلام بإفريقيا جنوب الصحراء ترتبت عنه نتائج سياسية واقتصادية واجتماعية أحدثت تغييرا شاملا للبنية والسمات العامة للقارة، وكانت هذه التغييرات محل جدل وحوار بين الباحثين والمؤرخين والمهتمين بالدراسات الإفريقية، بين معارض ومؤيد، فكان انتشار الاسلام ببلاد السودان مرحلة هامة وحساسة في تاريخ المنطقة، فانتقاله ووصوله لهذه المنطقة لم يأت من فراغ، ومن بين العوامل التي كانت سببا في انتشاره جهود الدعاة والعلماء إضافة للعامل الاقتصادي أي بالنشاط التجاري، أما عامل الفتوحات الإسلامية فلم يكن له دور كبير في نشر الإسلام بالسودان الغربي والأوسط عكس السودان الشرقي، وكذا الهجرات البربرية والعربية كان لهما دور هام، ودون إغفال دور الطرق الصوفية والحركات الاصلاحية خلال القرن 19م

1- **مراحل انتشار الإسلام ببلاد السودان:**

المرحلة الأولى:

ترتبط بداية دخول الإسلام في إفريقيا ارتباطا وثيقا بتاريخ الفتوحات الإسلامية في مصر و شمال إفريقيا و الأندلس، وتبدأ المرحلة الأولى من انتشار الإسلام في عام 641م عندما فتحت مصر على أيدي المسلمين، وتنتهي في عام 1050م بانسياب الإسلام و تسربه إلى أن وصل "بلاد التكرور"، ففي عهد الخليفة الأموي معاوية اتجه عقبة بن نافع وأسس مدينة القيروان، ووصلت الموجة الأولى للمسلمين إلى مراكش، وفي سنة 711م وصلت الموجة الثانية إلى المحيط والأندلس. وظل الإسلام مرتكزا على المدن لأن المسلمين لم يكونوا بكثرة حتى يتغلغلوا في الريف، ولم يمس البادية وذلك لقلة المسلمين العرب، ولوجود الخلاف بين البربر والعرب وتعريب شمال إفريقيا الذي لم يكتمل إلا في القرن 11م.

ولقد هاجرت قبائل بني هلال و بني سليم إلى شمال أفريقيا وكانت أعدادها هائلة، وكما يقول ابن خلدون أنها خربت المدن والزرع وأنهت كل حضارة موجودة[1]، كما نتج عنها هجرة بعض قبائل البربر غربا وجنوبا، وأدت هذه الهجرة إلى امتصاص بعض قبائل البربر مما نتج عنه انتشار الإسلام في كل بادية شمال إفريقيا، أي أن هذه الهجرة الجماعية أدت إلى أن يترك الإسلام المدن ويتسرب بهدوء للريف وما وراء الصحراء.

أما تسرب الإسلام إلى غرب إفريقيا فقد بدأ منذ القرن السابع بعد دخوله مصر، وكانت التجارة الصحراوية في أيدي التجار المسلمين، ويمكن القول أنه منذ ذلك الوقت بدأ الدين الإسلامي يتسرب عبر الصحراء في بلاد السودان (حسب المفهوم الجغرافي)، وتتحدث المصادر العربية عن مسلمين في غرب إفريقيا واعتناق الملوك الإسلام. أول هذه المصادر كتاب البكري الذي يتضح من قوله أن وجود الإسلام قد سبق اعتناق الملوك له في القرن 11م بمدة طويلة، وقال أنه رغم أن ملوك غانا لم يكونوا من المسلمين فإن وزراء الملك وكتابه من المسلمين، ووصف عاصمة المملكة بأنها مدينتان إحداهما للمسلمين وأخرى جامعة وأن بها 12 مسجدا[2].

كما ساهمت القبائل البربرية في نشر الإسلام بعد اعتناقهم له، وبعد أن استقرت الحياة الإسلامية في شمال إفريقيا، وبدأت العلاقات التجارية عبر الصحراء مع شعوب جنوب الصحراء، فحمل التجار المسلمون عربا و بربرا دينهم في رحلاتهم التجارية إلى

[1]- ابن خلدون، **العبر**، ج 11، ص 33.

[2]- البكري، المصدر السابق، ص 175.

ربوع أواسط غرب إفريقيا قادمين من الشمال على ظهور جمالهم. ومن خلال تلك الرحلات بدأ الإسلام يأخذ طريقه وكانت الصحراء بمثابة البحر الذي تخللته طرق القوافل التجارية، وعن طريق هذه المسالك نقل العرب والبربر دينهم وتجارتهم إلى غرب إفريقيا، فكان انتشار الإسلام خلال الفترة الممتدة من القرن 2 إلى غاية القرن 4هـ (8-10م)، بفضل التجار والدعاة الإباضية والصفرية.

المرحلة الثانية:

انتشر فيها الإسلام بفضل قبائل الصحراء، فالمعروف أن قبائل الطوارق قد أسلمت حوالي القرن 5هـ/11م، فقام المرابطون أو الملثمون بنشر الإسلام بين البربر أولا، والقطب الروحي لحركتهم هو الشيخ عبد الله بن ياسين الجزولي الذي توفي عام 451هـ/1059م، ثم اتجهوا جنوبا إلى بلاد السودان حيث كانت مملكة غانا، فكان انتشار الإسلام خلال القرن 5هـ/11م بفضل جهاد المرابطين في المنطقة.

المرحلة الثالثة:

كانت على أيدي زعماء كبرى الأسر الإفريقية الحاكمة كأسرة "كايتا" ملوك مملكة مالي الإسلامية، فقد كان الماندجو، أكثر تحمسا للإسلام و الدعوة له، و من أشهر ملوكهم الملك منسى موسى (1307-1332م) والذي استطاعت قواته أن تضم عددا من المدن المجاورة، فساهم زعماء القبائل الكبرى في أسلمة المنطقة خلال القرن 6هـ/12م.

المرحلة الرابعة:

كان انتشار الإسلام فيها -العصر الحديث عند نهاية القرن 18م وبداية القرن 19م- في أرض الهوسا (نيجيريا) على يد قبائل الفلاني، التي اشتد حماسها لنشر الإسلام، بفضل القبائل الإفريقية وبفضل جهود أصحاب الطرق الصوفية وأصحاب الحركات الإصلاحية[1].

2- **دور الدعاة:**

لقد كان للدعاة دور مهم في نشر الإسلام بالمنطقة حالهم حال التجار وإن كان هؤلاء يهتمون بالتجارة والدعوة معا، أما الدعاة فكان اهتمامهم الأول هو الدعوة، وكان غالبية التجار لا تجيد الفقه والفكر الإسلامي وليس منهم من يستطيع التفرغ لذلك، لذا كانوا يستقدمون معهم العلماء والفقهاء لتعليم وتثقيف الناس بأمور دينهم ودنياهم، فأصبحوا دعاة لهذا الدين، وكان البعض منهم يشيدون المدارس والمساجد، ويختار الطلبة النجباء لارسالهم للمعاهد الإسلامية كفاس والقيروان والأزهر...الخ فيعودون دعاة لبلدانهم[2].

3- **الحركة التجارية:**

لم تقف الصحراء يوما عائقا بين اتصال شمال إفريقيا بالسودان الغربي والأوسط منذ العهود الأولى التي سبقت انتشار الإسلام، فكانت أولى خطوات هذا الاتصال هي الحركة التجارية، وما أنتجته من علاقات اقتصادية نقلت معها المؤثرات الحضارية من الشمال إلى الجنوب عن طريق المسالك التجارية.

1- المسالك التجارية بين شمال إفريقيا والسودان الغربي والأوسط:

[1]- دريد عبد القادر نوري، "انتشار الإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء: دراسة في خطوات الانتشار والأسباب والوسائل"، مجلة كلية العلوم الإسلامية، العراق، مجلد 1، عدد 1، 1428هـ/2007م، ص 5.

[2]- عطية مخزوم الفيتوري، المرجع السابق،ص 105.

لقد انتشر الإسلام انتشارا سريعا وهادئا، دون اللجوء للعنف عبر الطرق التجارية الممتدة من شمال إفريقيا عبر الصحراء الكبرى أو على طول المحيط الأطلسي[1]، ونقصد بمجموع الطرق التجارية المنطلقة من شمال إفريقيا طرق المغرب الأقصى والمغرب الأوسط والمغرب الأدنى إضافة إلى طرق مصر. واهتمت الدول القائمة ببلاد المغرب الإسلامي ومصر بالتجارة، التي هي حجر أساسي في سياستها، لذا عملت للسيطرة على التجارة للانتفاع بأرباحها[2].تعددت الطرق التجارية بسبب زيادة حركة القوافل التجارية مما أدى إلى صعوبة تحديدها، كما أن المؤرخين والباحثين اختلفوا في بدايات هذه الطرق ونهاياتها، وبما أن الطرق التجارية هي المحرك الرئيسي للتجارة، اهتم بها الجغرافيون والرحالة فأبرزوا مراحلها، ومسافاتها، والمخاطر التي تحف بها وتهدد سالكيها، أو تسهيلاتها[3].

أ- مسالك المحور الشرقي:

نقصد بالمحور الشرقي مجموعة الطرق المتجهة من الشرق إلى الغرب أو العكس، وكان هذا المحور الشرقي ينطلق من مناطق متعددة من أهمها واحات مصر وإفريقية وبعض أجزاء من المغرب الأوسط باتجاه ممالك السودان الغربي عبر واحات فزان، وكان هذا المحور قائما قبل فترة بعيدة نسبيا من زمن ابن حوقل في القرن الرابع الهجري.

وتنطلق عدة طرق من هذا المحور نذكر منها:

أ- الطريق الرابط بين أودغشت والقيروان: عرف انتعاشا كبيرا خلال منتصف القرن 5هـ/11م لأن معظم ساكنة مدينة أودغشت كانوا من أهل إفريقية.

ب- الطريق الرابط بين الواحات المصرية وغانة: طريق خطراتحفه المخاطر البشرية فقد كان معرضا لهجمات قطاع الطرق، كما كانت تهدده المخاطر الطبيعية المتمثلة في العواصف الرملية، لذا هجره التجار كما ذكره ابن حوقل "براري عظيمة، ورمال كانت سالفة الزمان مسلوكة، وفيها الطريق من مصر لغانة، فتواترت الرياح على قوافلهم ومفردتهم، فأهلكت غير قافلة وأتت على غير مفردة، وقصدهم أيضا العدو فأهلكهم غير دفعة، فانتقلوا عن ذلك الطريق وتركوه لسجلماسة". فأصبحت القوافل تنطلق من مصر عبر الطريق الساحلي المحاذي لشواطئ البحر الأبيض المتوسط إلى أن تصل سواحل المغرب الأقصى، ثم تتجه إلى سجلماسة، ومنها تسلك إحدى طرق المحور الغربي لتصل إلى المراكز التجارية الصحراوية أو السودانية[4].

ج- الطريق الرابط بين طرابلس وغدامس ينطلق هذا الطريق من طبرقة وطرابلس وإفريقية باتجاه بلاد السودان الغربي عبر الصحراء، ويبدأ من طرابلس، ويحتاج المسافر لثلاثة أيام من المسير في الصحراء للوصول إلى جبل نفوسة، ومنه سبعة أيام أخرى للوصول إلى غدامس التي يربطها طريقان بتادمكة[5]، يقع المسافر في الأول منها أربعون مرحلة في الصحراء والماء

---

[1]- شوقي الجمل وإبراهيم عطا لله، المرجع السابق، ص97.

[2]- الطاهر أحمد، **إفريقيا فصول من الماضي والحاضر**، القاهرة، دار المعارف، د.ت.ن، ص 46.

[3]- ميلود بن حاج، "العلاقات التجارية ما بين دول المغرب الأوسط وممالك السودان الغربي"، مجلة العبر للدراسات التاريخية والأثرية، المجلد 3، العدد 19، يناير 2020م، ص 205.

[4]- الناني ولد الحسين، المرجع السابق،ص 282.

[5]- **تادمكة:** تسمى اليوم "السوق"، تقع إلى الشمال من مدينة غاو شمال جمهورية مالي. ينظر: حسين بوبيدي، "التجارة والتجار في إفريقيا الغربية من خلال المصادر الأوربية ق 14-16م"، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة قسنطينة 2، مجلد 6، عدد 1، جوان 2020، هـ9، ص 332.

فيها على مسيرة اليومين والثلاثة[1]. والطريق الثاني كما ذكر البكري قليل المياه حيث تتواجد على مسافات تقدر بمسيرة أربعة أيام، وفي بعض الجهات بعد أحدى عشر يوما وتحدد المجابات في هذا الطريق.

د- طريق القيروان سجلماسة عبر البوادي: يبلغ طوله 46 مرحلة وقيل 53 مرحلة، يبدأ من القيروان قاطعا البادية مارا على مدن سماطة ونفطة وقسطيلية انتهاء إلى سجلماسة، ومنها يستكمل الطريق مساره نحو السودان الغربي[2]، وأشار الأصطخري إلى وجود طريق آخر كذلك تقدر مسافته بـ120 مرحلة.

2- مسالك المحور الأوسط:

إن الطرق التي ربطت المغرب الأوسط ببلاد السودان الأوسط والغربي سواء عبر الصحراء الوسطى مباشرة مثل طريق تيهرت-كوكو (يفقد دوره لصالح طرق سجلماسة ونول لمطة بالتدريج نظرا لصعوبته)، أو يميل نحو الشرق حيث وارجلان، ثم أصبحت توات فيما بعد محطة اجتماع للقوافل المتجهة جنوبا نحو تادمكة وكوكو، وبهذا شكل هذا المسلك نقطة الاتصال التجارية الأولى بين منطقة جنوب الصحراء مع شمال إفريقيا وهو سابق للقرن 2هـ/8م، وظل يحكم المبادلات التجارية بين واحات إفريقية (قصطيلة ووارجلان) مع تادمكة وجاو وغانة حتى القرن 5هـ/11م مع بسط المرابطين نفوذهم على المغرب الأقصى[3]، فاختل توازن التجارة على هذا المسلك، فقد أهميته التجارية على امتداد القرون الثلاثة اللاحقة، ثم استرجعها ابتداء من القرن 8هـ/14م مع النهضة الحفصية في عهد السلطان أبي العباس (772-796هـ/1370-1394م) التي منحت كل الحظوظ لاستعادة هذا المسلك لنشاطه عبر تمبكت، وفي نفس الوقت بدأ المسلك الغربي في التراجع[4].

ومن بين أهم المسالك في هذا المحور:

أ- مسلك تيهرت-وارجلان-غاو أو المرور عبر أودغشت: كان مستعملا منذ النصف الثاني من القرن 3هـ/9م من قِبل الرستميين.

ب- مسلك المسيلة-وارجلان-كوكو أو تادمكة: وهو الطريق الذي صار يسلك في العهد الفاطمي بعد تأسيس مدينة المسيلة في محاولة لاحتكار تجارة الصحراء.

جـ- مسلك قسنطينة-وارجلان-بلاد السودان: لقد تمكنت قسنطينة من أن تمثل ملتقى للقوافل خاصة بعد الهجرة الهلالية، حيث استفادت من حصانتها لتمثل بديلا للمسيلة وغيرها.

د- طريق تاهرت سجلماسة: ارتبطت مدينة سجلماسة بمدينة تيهرت عبر طريق ويبدأ هذا الطريق من أوزكا[5] وهي على ثلاث مراحل من تيهرت، ويتجه نحو سجلماسة سبع مراحل في قرى غير مأهولة بالسكان، وفي بعض هذا الطريق مفازة حتى يصل

---

[1]- عمرو منصور، المرجع السابق، ص 87.

[2]- ابن حوقل، المصدر السابق، ص 92.

[3]- حسين بوبيدي، **محاضرة التبادل التجاري بين المغرب الإسلامي وبلاد السودان: شبكة الطرق التجارية**، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة عبد الحميد مهري، قسنطينة 2، 2021/2020، منصة التعليم عن بعد، ص 3، الرابط الالكتروني:

https://elearning.univ-constantine2.dz/elearning/course/view.php?id=727

[4]- أحمد مولود ولد أيده الهلال، **مدن موريتانيا العتيقة قصور ولاته وودان وتيشيت وشنقيط**، تقديم عبد الودود ولد الشيخ، مركز الدراسات الصحراوية، درا أبي الرقراق للطباعة والنشر، الرباط، 2014، ص 227.

[5]- **أوزكا:** تكتب بالألف المقصورة وألف المد أي أوزكي مدينة بالمغرب وهي أول الصحراء ومنها إلى سجلماسة ثلاثة عشر يوم ومنها نول لمطة سبعة أيام وهي ليست بكبيرة. ينظر: العبدري، المصدر السابق، ص 45.

إلى مدينة سجلماسة ومنها يتجه السائر جنوبا باتجاه بلاد السودان حيث يسير في صحراء مفازة خمسين مرحلة حتى يصل إلى أودغست قبل أن يستكمل المسير نحو بلاد السودان الغربي.

3- مسالك المحور الغربي:

تمدنا المصادر الوسيطية ببعض المعلومات اليسيرة حول المسالك والطرق عبر الصحراء والتي كان يسلكها التجار الوافدون من أطراف الصحراء منذ القدم مع المغرب الأقصى[1]، لتعاطي التجارة مع بلاد السودان بواسطة الطريق اللمتوني الذي كان يربط مضارب هذه القبيلة في الشمال بالسوس الأقصى، ولكن هذا الطريق لم يكتسب صبغة تجارية قبل قيام دولة المرابطين، بعد أن كان المسلك الشرقي -الذي يتحكم فيه تجار تيهرت الإباضيين- البوابة التجارية الوحيدة التي تربط غانة عبر تادمكة بواحات إفريقية قبل ظهور المسلك الغربي في القرن 5هـ/11م الذي نافس المسلك الشرقي بفضل وجود مناجم الملح به[2].

تأسس المسلك الغربي على أنقاض الطريق اللمتوني، ولم يكن سالكا أثناء القرن 4هـ/10م لأن ابن حوقل لم يشر إليه، وبدأ يستمد أهميته مع المرابطين خلال القرن 5هـ/11م، مما أدى إلى تغيير كبير في توازن التجارة الإفريقية خلال هذه الفترة، وقد ذكره البكري بأنه يبدأ من درعة العليا ويعرج على إيجلي وأغمات وأناجيم وتوجنين ووارن وعقلة النمادي فأودغشت.

وبعد تراجع دور هذه الأخيرة حلت محلها مدينة ولاته فأصبح منذ القرن 7هـ/13م يربط سجلماسة بولاته مرورا بتغازة، وهو المسلك الذي حفر عليه أبناء المقري عددا من الآبار باعتبار أن ولاته كانت أقصى المحطات على هذا المسلك، ومع ضعف الدولة المرينية انسابت فلول من الهجرات العربية من بني حسان إلى الصحراء الغربية مما كان سببا في توجيه ضربة قوية لهذا المسلك فلم يعد آمنا، فحلت تمبكت محل ولاته خلال القرن 9هـ/15م كأهم حاضرة تجارية بالمنطقة، ثم استعاد المسلك الغربي نشاطه مع الدولة العلوية.

وانقسمت المسالك التي تصل المغرب الأقصى بالسودان الغربي عامة وبأقاليم نهر النيجر خاصة إلى مسالك أساسية وأخرى فرعية، ومن بين المسالك القديمة طريق "الملح والذهب"، الذي وجد قبل ظهور مملكة غانة القديمة أي قبل القرن 3م، وكان الطريق مستعملا من طرف قبائل سوننكة وونغارة، على العموم لقد استقطب المحور الغربي الكثير من تجار المغربين الأدنى والأوسط والتجار المشارقة بسبب خصوصياته، فظلوا يفضلونه على غيره من الطرق منذ القرن الثاني لغاية منتصف 6هـ/12م[3].

د- طريق سجلماسة أودغشت:

كثرة الطرق بين المدينتين باعتبارهما عاصمتين سجلماسة بالنسبة للضفة الشمالية للصحراء الكبرى، وأودغشت بالنسبة للضفة الجنوبية، ويؤكد حسن الوازن بأن سجلماسة كانت لها علاقة تجارية مع السودان الغربي، وأشار إليه المسعودي فذكر أن طريق تافيلات سجلماسة بلاد السودان كان يمر بتغازا، وهذا المكان ذو أهمية نظرا لتوفر مناجم الملح به، فكان لابد على التجار من المرور به في طريقهم إلى غانة[4].

هـ- طريق سجلماسة غانة:

---

[1]- عمرو منصور، المرجع السابق، ص 90.

[2]- حسين بوبيدي، المرجع السابق، ص 2.

[3]- حسين بوبيدي، المرجع السابق، ص ص 2-3.

[4]- عبد الكريم جودت يوسف، **العلاقات الخارجية للدولة الرستمية**، ج1، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، 1984، ص 249.

ذكر البكري هذا الطريق وسماه بطريق الآبار نظرا لكثرة الآبار فيه، خاصة تلك التي حفرها عبد الرحمن بن حبيب، واشتهر هذا الطريق لاحتوائه على الذهب والمعادن، لكنه طريق بعيد يقدر بمسافة ثلاثة أشهر، وكان تجار المغرب كانوا يجتمعون في سجلماسة ثم يسيرون بقوافلهم نحو غانة مسيرة ثلاثة أشهر ذهابا ومن غانة إلى سجلماسة مسيرة شهر ونصف إيابا.

3- المسالك بين المغرب الأدنى ودولة كانم-برنو:

لقد نشطت تجارة القوافل بين المغرب الأدنى وبلاد السودان عامة ودولة الكانم والبرنو خاصة، رغم صعوبة مناخ الصحراء التي كانت تقطعها القوافل لبلوغ إلا أن هاته الصعوبات لم تكن يوما حاجزا أمام سير القوافل، وذلك بسبب وجود عدة طرق ساعدت على تنقل القوافل وقطع الصحراء فازدهرت التجارة بين الطرفيين، ويمكن تلخيص وهاته الطرق فيما يلي:

أ/الفرع الأول: طريق سرت–مرزق-زويلة- كوار ينطلق هذا الطريق من منطقة سرت ومنه تسير القافلة في صحراء فزان، ويمر بزويلة التي هي أهم مركز تجاري في الصحراء، ثم يسير إلى مناطق الكانم بالسودان الأوسط[1]، وقدر البكري المسافة بين زويلة وبلد الكانم أربعون مرحلة، كما قدر المسافة بين سرت وزويلة اثني عشر يوما، حيث تسير القافلة في خط مستقيم مارة بتلك المناطق التي سبق ذكرها حتى تصل إلى منطقة بحيرة التشاد.

ب/ الفرع الثاني: طريق طرابلس–غدامس–غات–مرزق–تادمكة: يربط هذا مناطق طرابلس بالسودان حيث تمر القافلة على جبل نفوسة وبعد ذلك تتجه إلى غدامس. وهناك طريق داخلي يربط غدامس بمرزق ويتميز هذا الطريق بالربط بين دولة الكانم ومناطق المغرب الأدنى بحكم وقوع غدامس وغات في الجهة الغربية لتلك المناطق وبعدها يصل الطريق إلى تادمكة ثم غانة في بلاد السودان الغربي وبحيرة تشاد في السودان الشرقي.

طرق مصر: من بين الطرق الأكثر ارتيادا الطريق الذي ينطلق من مصر باتجاه دارفور ببلاد السودان الشرقي، والمشهور باسم "درب الأربعين"، أين يتصل بطريق القاهرة ولاتة، وهذا الأخير لم يكن مسلوكا كثيرا، حيث لم يفتح إلا مع أواخر القرن 10هـ/16م، بعد سقوط المملكة النوبية. وجميع الطرق المؤدية إلى السودان الغربي من مصر كانت تخترق الصحراء وتلتقي عند فزان. وهناك طريق آخر ينطلق من مصر ويمر بزويلة وتادمكة وبينها إلى غاو وتمبكتو. بالإضافة إلى هذه المسالك التجارية الأفقية، وجدت مسالك أخرى إعتراضية والتي قد تكون برية أو نهرية عبر نهري النيجر والسنغال، وتشق هذه الطرق مجموع الطرق التجارية الكبرى السابقة الذكر، و تربط مناطق الإنتاج بالاستهلاك أو مناطق البيع والشراء، وهي لا تقل أهمية عن الطرق التجارية الكبرى.

إن مجموع هذه الطرق التجارية التي تخترق الصحراء لا تسير دائما في خط مستقيم بل قد ينحرف مسارها للتعريج على نقاط المياه والمرور بالواحات، كما تلتوي بسبب العوامل الطبوغرافية[2]. ولا تقتصر أهميتها على الناحية الاقتصادية فحسب، بل تعدتها إلى النواحي الحضارية إذ ربطت بلاد السودان الغربي بالعالم الخارجي. ومن هذه الطرق التجارية انتشر الإسلام انتشارا هادئا وتدريجيا على طول خط سير القوافل التجارية حيث نلاحظ أن أكثر التجمعات السكانية المسلمة تتمركز حول الأسواق والمراكز التجارية.

---

[1]- بلهواري فاطمة، "العلاقات التجارية بين بلاد المغرب والسودان الغربي خلال القرن 4هـ/10م". دورية كان التاريخية، عدد 10، ديسمبر، 2010م، ص: 32.

[2]- العربي إسماعيل، **الصحراء الكبرى**، ص 60.

خريطة المسالك التجارية

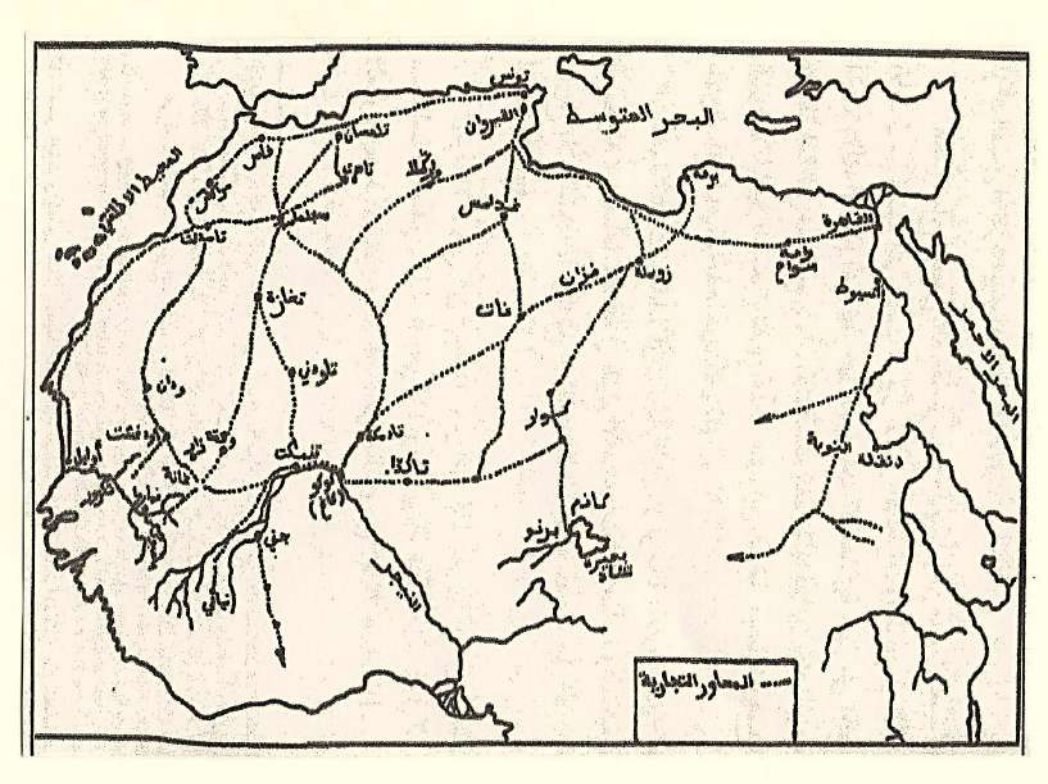

4- هجرات القبائل وحركة التعريب ببلاد السودان

كان لتحركات القبائل وهجراتها دور مهم في نشر الإسلام بإفريقيا الغربية، ومن الغريب أن أغلب القبائل والشعوب التي اعتنقت الإسلام ثم عملت على نشره، كانت شعوب بدوية غير مستقرة تنتقل من أوطانها انتقالا فصليا أو تهجر هذه الأوطان لأسباب اقتصادية، بل كانت التحركات القبلية تكمن وراء الحركة التوسعية التي تمت في غرب إفريقيا، ولم تكن الأوضاع الاقتصادية فقط محركا لهجرة القبائل إنما الأوضاع السياسية التي عاشتها العالم الإسلامي عبر فترات تاريخية معينة ساهمت في دفع موجة الهجرة نحو الجنوب[1].

أ-هجرات القبائل البربرية:

كانت قبائل البربر منذ عهد الروماني والبيزنطي تهاجر من الشمال إلى الجنوب في اتجاه الصحراء هربا من تعسف المحتلين وإرهاقهم بالضرائب وغيرها، وتحت تأثير عدم استقرار السياسي واضطراب الأمن العام وهذه الهجرة الجماعية أو الفردية لا تلبث أن تجد في مراعي حافات الصحراء عاملا مغربا للتوغل في الصحراء لانتجاع الكلأ وللتمنع بحياة الحرية التي لا تجدها حدود[2]. لذلك نستنتج أن الاتصالات والهجرات بين قبائل البربر في الشمال والوطن الذي يجب في الجنوب ظاهرة واضحة منذ القرن 1م، غير أنها لم تتجاوز مجرد انتقالات موسمية لقبائل المغرب عند أطراف الصحراء ثم الاحتكاك ببعض المراكز الأمامية التي أنشأتها الشعوب السودانية، أو مجرد غارات خاطفة على أوطان السودان لاقتناص العبيد ثم العودة بهم إلى

[1]- محمود حسن أحمد، المرجع السابق، ص 56.

[2]- إسماعيل العربي، **الصحراء الكبرى وشواطئها**، ص 194.

أسواق الغرب فضلا عن الاتصال التجاري الحتمي الذي كان يتم بين المغرب وأسواق إفريقيا الغربية. غير أن هذه الهجرات بدأت تأخذ طابعا آخر بعد الفتح الإسلامي من القرن 1هـ/7م لمصر وبلاد المغرب الإسلامي حيث بدأت القبائل تنتشر وتأخذ طريقها إلى الجنوب عبر المسالك الصحراوية في الصحراء الكبرى، وذلك لما بدأ البربر يشعرون بوطأة العنصر العربي، فراحوا يستقرون في مواقع يشعرون فيها بالأمن والطمأنينة خصوصا في الواحات البعيدة.

وأهم القبائل البربرية التي مارست الهجرة في نطاق واسع هما قبيلتا زناتة وصنهاجة، ومن من بين فروع صنهاجة التي انتشرت على طول حافة الصحراء التي تمتد جنوب المغرب الأقصى عبر الصحراء الاسبانية حاليا، وهم التاجكنت ويبدو أنهم ينحدرون من صنهاجة التي اعتنقت الإسلام منذ القرن 3هـ/9م قبل أن تنتشر فروعها على ضفاف نهر السنغال، وفي اتجاه الشمال عبر المغرب الأقصى، كما كان التاجكنت في وقتا من الزمن يسيطرون على تجارة الملح في المناطق التي تمتد بين إيجلي السودان الغربي. كما هاجرت في القرن 3هـ/9م بقية القبائل البربرية أخرى لا يسجل لنا التاريخ اسمها مواطنها الأولى في المغرب، واستقرت بعض الوقت عند مناجم الملح التي تقع إلى جنوب الغربي من جبال تبستي[1].

وفي الحقيقة يمكننا القول أن قبيلتا زناتة وصنهاجة بمختلف فروعها قد ساهمتا في تقلص الممالك الوثنية العديدة التي أقامها السودان على حافات الصحراء الجنوبية بينما توقفت زناتة عند أطراف الصحراء الشمالية، نجد أن صنهاجة قد توغلت في الصحراء الوسطى وفي الصحراء الغربية حيث بسطت نفوذها في القرن 5هـ/11م، وكان من بين القواعد الكبرى التي استولت عليها مدينة أودغست التي كانت ملتقى هاما لفرق القوافل التجارية الصحراوية[2].

ب- هجرات القبائل العربية:

أخذ التيارات الأولى العربية بعيد الفتح الإسلامي بالانتشار من الشمال إلى الجنوب حيث وصلت هذه الهجرات إلى بحيرة تشاد، ودخلت القبائل المهاجرة من شمال إفريقيا في صراع مع القبائل المحلية المقيمة في المنطقة ومن ثم السيطرة عليها، بل استطاعوا أن يكونوا قوة سياسية وحربية لعبت دورا هاما في التاريخ بتلك المنطقة ويمكن القول أن تاريخ الحيرة تشاد بدأ من جراء هذه الهجرات الغربية التي جاءت بالإسلام والحضارة الإسلامية واتخذت هذه الهجرات العربية بثلاث طرق رئيسة في سبيل الوصول إلى بحيرة تشاد هي:

أ- اتجاه الشمالي شرقي يربطها بمصر

ب-اتجاه شمالي شرقي يربطها بمصر

ج- اتجاه شرقي يربطها بالسودان الشرقي ووادي النيل في شرق القارة الإفريقية.

لقد ساعدت طرق القوافل التجارية إلى انتشار الهجرات العربية المهاجرة إلى بحيرة تشاد ومن هنا نرى أن الإقليم بحيرة تشاد كان يتوفر على مزايا جغرافية وسياسية واقتصادية سمحت له بأن يجتذب القبائل المهاجرة إليه حيث المراعي لخصبة ومياه والمعادن إضافة إلى السلع التجارية فهجرات القبائل لكانت من وطأة العرب الفاتحين نزوحا نحو الجنوب[3].

وتزايد الهجرات العربية التي هذه المناطق في شكل هجرات مساهمة لا تعدو جماعات بريئة تلتمس الإذن بالمقام وتخالط السكان ولا تسيء إليهم ولا تفلت قال الحكام وهناك من الشواهد ما يدل على أن سقوط الدولة الأموية 132هـ/750م

[1]- حسين مؤنس، المرجع السابق، ص 370.

[2]- عبد الفتاح مقلد الغنيمي، المرجع السابق، ص ص 17-20.

[3]- إسماعيل العربي، المرجع السابق، ص 44.

وقيام الدولة العباسية قد صحبه قرار كثير من بني أمية وأنصارهم وكان هؤلاء اللاجئون عاملا هاما في نشر الإسلام بين أهل هذه البلاد وعن مخطوطة عربية ترجع تاريخ كتاباتها 1657- 1669م عثر عليها رحالة فرنسا الدولة الأموية واستطاعوا أن يكونوا أسرا مالكة في وسط إفريقيا وان مملكة كانم قامت على أيديهم. وخلال القرن 3هـ/9م والقرون الموالية قد جاءت وفود المسلمين المهاجرين إلى منطقة بخيرة تشاد وأولئك الذين جاهدوا مع عقبة بن نافع في أثناء فتوحاته في إقليم فزان وكوار. ويذكر أن بعض ملوك مملكة الكانم وهو السلطان عثمان بن زينب الكانمي ادعى انه من ولد عثمان بن عفان ﷺ، ومن سلاطينهم من ادعى أيضا النسب العلوي في بني الحسين

ومن القبائل العربية التي استقرت حول حوض بحيرة تشاد قبائل الكانوري وهم قبائل العربية في شمال شرق البحيرة ثم جنوبها، وهم سكان المدن وقد احتلوا بتيد بالعرب الذين جاءوا إلى دلك الإقليم فيما بعد، وقد ادعى الكانمبو إلا نجد إلى أصول عربية جاءت من اليمن وكما سبق ان ذكرنا كانت قد اتجهت هجرات عربية عديدة من إقليم النيل الجنوبي، ثم اتجهت غربا نحو بحيرة تشاد وفي حوالي 9م ظهر شعب الكانمبو لشعب مميز لهم ملكهم وأرضهم ثم جاءت فيما بعد قبائل عربية عبر التبستي ووصل اعقابهم بعض القبائل الأخرى[1]

ومن الهجرات العربية الأخرى التي اندفعت في أيام العصر المملوكي الأول (648- 784م/1250م- 1380م)، هجرة قبيلة هجينة وهي واحدة من خليط القبائل العدنانية والقحطانية وبطونها المختلفة وقد انتشرت هذه القبائل في المنطقة المحيطة بمنطقة محيطة ببحيرة تشاد وافيرقيا الوسطى لتعزز وجود القبائل العربية الاخرى التي وفدت الى المنطقة في فترات سابقة وانتشر الاسلام بانتشار هذه القبائل كما انتشرت اللغة العربية واختلط العرب بسكان السودان. وبعد انهيار المملكة المسيحية 9هـ/ 15م في بلاد النوبة اجتاحت القبائل ووصلت حتى مملكة زغاوة وامتدوا حتى البرنو[2]، ويتضح ذلك لمن خلال الكتابات سلطان البرنو إلى سلطان برقوق بمصر أيام الدولة الظاهرية[3].

ج- الهجرات العربية إلى بلاد النوبة والسودان الشرقي

منافذ الهجرات العربية:

أولا: المنفذ الشرقي من الجزيرة العربية عبر البحر الأحمر:

يعتبر هذا المنفذ من أقدم وأقصر الطرق التي سلكتها الهجرات العربية إلى بلاد النوبة خاصة وإلى القارة الإفريقية عامة، وعرفه العرب قبل الإسلام، وامتدوا على ساحله الشرقي، ومنه أنشؤوا طرق قوافل تسير عليها الإبل إلى المناطق الداخلية في القارة الإفريقية، كما سلكته كثير من القبائل العربية في هجرتها وتجارتها مع القبائل التي تسكن في ساحله الغربي؛ مثلما فعل الحضارمة، وقبائل بلي التي ساكنت البجة في الشرق واختلطوا بهم، وحين جاءت الفتوحات الإسلامية توسعت حركة الهجرة من الجزيرة العربية إلى بلاد العالم كافة، وإلى بلدان إفريقية على وجه الخصوص، وانفتحت منافذ أخرى للهجرة للسودان غير هذا المنفذ، إلا أن ذلك لم يقلل من قيمته كمنفذ من المنافذ التي ساهمت بقسط كبير في الهجرة إلى بلاد إفريقية بعامة، وإلى بلاد النوبة بوجه خاص[4].

---

[1]- عبد الفتاح مقلد الغنيمي ، المرجع السابق، ص ص 20- 21.

[2]- محمود حسن أحمد، المرجع السابق، ص 51.

[3]- القلقشندي، المصدر السابق، ج: 5، ص 269، 332.

[4]- عبد المجيد عابدين، **القبائل العربية في وادي النيل**. القاهرة، 1961م، ص 142.

ثانيا: المنفذ الشمالي عبر النيل وبمحاذاته من مصر:

عرفت المنطقة هذا المنفذ منذ قديم الزمان؛ إذ إنه كان يمثل الطريق التجاري الذي يربط مصر بوسط إفريقيا وبلاد النوبة والبجة، وازدادت أهميته بعد توقيع المعاهدة؛ حيث كفلت بعض بنودها للتجار والمهاجرين والقوافل حق التحرك الحر فيه، وأعطتهم أمانا للتوغل في أعماق البلاد، فأصبح مدخلا للقبائل العربية إلى بلاد النوبة. ويعتبر أحد الباحثين أن هذا المنفذ كان سببا مباشرا في تعريب بلاد النوبة، وأنه أعظم خطرا وأهم دورا من المنفذ الشرقي في أمر هجرة القبائل إلى بلاد النوبة، سواء أكان ذلك قبل الإسلام أم في زمن التوسع الإسلامي، وإن كثرة الحديث عن الهجرة العربية عبر البحر الأحمر كانت بسبب أن بعض القبائل العربية في السودان تدعي أن أسلافها وصلوا من جزيرة العرب مباشرة إلى السودان عبر البحر الأحمر؛ لتأييد دعواهم في الانتساب إلى أصل شريف أموي أو عباسي، أو أنهم سلالة بعض صحابة رسول الله -ﷺ-[1].

وأهمية المنفذ الشرقي كانت في دفع وتوسع حركة الهجرة إلى بلاد النوبة[2]، خصوصا في العهد المملوكي الذي نشطت فيه حركة الملاحة البحرية بين الموانئ الغربية للبحر الأحمر وبين موانئه الشرقية، بسبب الاعتداءات الصليبية المتكررة على طريق برزخ السويس، وهو الأمر الذي أدى لإنعاش مينائي عيذاب، وسواكن اللذينِ وضع المماليك أيديَهم عليهما تماما، بعد تكرار الاعتداء على ممتلكات التجار المصريين المتوفين هناك، هذا ولم يقتصر تأثير المنفذ الشرقي على الجهات التي تقابل الجزيرة العربية فقط، بل تجاوزتها إلى السودان الأوسط وبلاد السودان الغربي أيضا، ويعد المنفذينِ الشرقي والشمالي أهم المنافذ التي سلكتها القبائل العربية المهاجرة إلى بلاد النوبة في تلك الفترة.

ثالثا: المنفذ الشمالي-الغربي (الطريق الليبي):

سلكته القبائل العربية في هجرتها نحو بلاد النوبة والسودان، بعد أن تمكن الإسلام في معظم المناطق الشمالية من القارة الإفريقية، ويسير باتجاه السهول والبراري الواقعة بين النوبة وكردفان ودارفور، وقد ازدادت شهرته بعد أن قامت في مصر وشمال إفريقية دول إسلامية مستقلة عن الخلافة العباسية، ولم يكن له دور فاعل ومؤثر في حركة الهجرة نحو بلاد النوبة لجفافه وصعوبته، بسبب الصحراء وقلة الماء، على أنه كان هناك عدد من الطرق والمنافذ سلكتها القبائل العربية من هذا الاتجاه، ومنها الطريق الذي يبدأ من شنقيط وينتهي إلى تمبكتو، فجاو، وزندر، وكوكوا، وبيدا، ومسنيا، وأبشي، والفاشر، ثم يخترق سهول الجزيرة، حتى ينتهي إلى سواكن، وقد اشتهر هذا الطريق لكونه قد رفد بلاد السودان والنوبة بأعداد كبيرة من العلماء والدعاة الذين ساهموا مساهمات كبيرة في نشر الدعوة الإسلامية، وتوطينها في تلك المناطق[3].

د- شهر القبائل العربية المهاجرة إلى بلاد النوبة:

اتفق معظم الباحثين على أن الجماعات العربية التي هاجرت إلى بلاد النوبة اشتملت على مجموعتين عربيتين، وهما مجموعتا العدنانيين والقحطانيين

العدنانيون: يمثلون الكواهلة والمجموعة الجعلية وبعض القبائل الأخرى، وينتسب الكواهلة إلى كاهل بن أسد بن خزيمة، قدموا إلى بلاد النوبة من جزيرة العرب مباشرة عبر البحر الأحمر، واستقروا في الإقليم الساحلي بين سواكن وعيذاب،

---

[1]- جعفر أحمد صديق، **انتشار الإسلام في القرون الثلاثة الأولى من الهجرة**. قسم الدراسات العليا الحضارية، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى 1408هـ، ص 108.

[2]- مصطفى مسعد، **الإسلام والنوبة**، ص 189.

[3]- مصطفى مسعد: "امتداد الإسلام والعروبة إلى وادي النيل الأوسط". المجلة التاريخية المصرية، عدد 5، 1959م، القاهرة، ص 82.

وينسب إليهم كذلك البشاريون والأمرار وبنو عام. ومن المؤكد أن أولاد كاهل قد عاشوا زمنا في الأقاليم الساحلية الشرقية والمناطق التي تليها، ثم انتشروا انتشارا تدريجيا نحو الغرب. ما المجموعة الجعلية، فيقال أنهم ينتسبون إلى إبراهيم الملقب بـ"جعل" من نسل العباس عم النبي ﷺ، والراجح أن الجعليين لم يكونوا قبيلة واحدة، بل هم مجموعة من القبائل ذات نسب متقارب، هاجرت على دفعات وعلى مدى عدة قرون، وأهم هذه القبائل: الميرقاب، الرباطاب، المناصير، الشايقية، الجوايرة، الركابية، الجموعية، الجمع، الجوامعة، البديرية، الغديان والبطاحين[1]، ومن القبائل العدنانية كذلك: قيس عيلان، كنانة، بنو حنيفة، ربيعة، بنو فزارة، بنو سليم وبنو يونس[2].

القحطانيون: يمثلون المجموعة الجهنية، وأشهر القبائل القحطانية التي هاجرت هي قبائل بلي وجهينة، وتضم قبائلها: قبائل رفاعة، اللحويين، العوامرة، والشكرية سكنوا في النصف الشرقي من سودان وادي النيل، وعلى شاطئ النيل الأزرق والبطانة، وفي كردفان، مثل قبائل دار حامد، بني جرار، الزيادية، البزعة، الشنابلة، والمعاليا، وفي غرب كردفان ودافور تشمل قبائل: الدويحية، المسلمية، الحمر، الكبابيش، المحاميد، الماهرية، المغاربة والبقارة[3].

ما يلاحظ من خلال تتبع هجرة القبائل العربية في بلاد النوبة سرعة اختلاطهم بالسكان النوبيين وغيرهم من السكان المحليين في فترة وجيزة، كذلك لا تكاد تجد أسماء من القبائل العربية في مصر إلا ونجد له نظيرا في بلاد النوبة؛ مما يؤكد أهمية المنفذ الشمالي القادم من مصر عن طريق النيل في أمر الهجرة وتوسعها، بالإضافة إلى أن هذه الهجرات لم تتم في وقت معلوم محدد بفترة زمنية معينة يمكن إحصاؤها وتقديرها.

هـ- لهجرات العربية إلى دارفور:

عندما فتح العرب مصر في أيام عمر بن الخطاب ﷺ، تدفقت أفواج من القبائل العربية نحو مصر طلبا للرزق والجهاد، فكانت هناك القبائل العربية التي ذهبت لتجد لنفسها حياة أفضل من تلك التيكانوا يجدونها في جزيرتهم، ولما وصلوا مصر وجدوا أنها لا تناسبهم، وأخذوا ينزحون جنوبا وراء المراعي وتخفيفا لزحام لأن مصر العديمة الأمطار لا تصلح لقوم رحل، ماشيتهم الجمال، ودخلوا دنقلا واندمجوا في مملكة النوبة وقبائل البجة[4]. ولم تتوقف هذه الموجات المهاجرة إلى السودان عن طريق مصر أو البحر الأحمر مطلقا، وسكن جماعة من المسلمين بلاد معدن الذهب وبلاد العلاقي وعيزاب، وسكن في تلك الديار خلق من العرب من ربيعة بن نزار. وكانت أسوان أهم نقطة التقاء للعرب في مصر، وأكثرهم منتقل من الحجاز، وأسوان وكان العرب ينزحون جنوبا إلى السودان في أواسطه أو شرقه، وكانت أسباب تلك الهجرات كما ذكرها بن سليم الأسواني في كتابه هي أن العرب المسلمين بعد فتح مصر هاجروا إلى السودان من مصر وبلاد العرب أما فرارا من الحكام أو طلبا للرزق حتى ملأوا بلاد النوبة العليا. وكذلك كانت الهجرات عندما انتقل الملك من ذرية الظاهر بيبرس إلى المنصور قيلاوون، فقد بعث سنة 686هـ العساكر إلى النوبة بعد أن العربان من أولاد أبى بكر الصديق وأولاد عمر بن الخطاب وأبناء شريف وشيبان وأبناء كنز الدولة وغيرهم من العرب وبنى هلال، وساروا جميعهم مع النيل متجهين إلى السودان حتى بلغوا دنقلا، ولما أسلمت النوبة في سنة 719هـ، وذلك أيام السلطان الناصر بن قلاوون انقطعت عنهم الجزية، وانتشر العرب وزاد عدد السكان، وكانت أهم تلك القبائل والبطون العربية

---

[1]- نعوم شقير، **جغرافية وتاريخ السودان**. ج1، بيروت، دار الثقافة،1967م، ص ص 62- 65.

[2]- اليعقوبي، المصدر السابق، ج 2، ص 89. جعفر أحمد صديق، المرجع السابق، ص 112.

[3]- جعفر أحمد صديق، **انتشار الإسلام في السودان**، ص 122.

[4]- محمد صالح ضرار، **تاريخ شرق السودان مماليك البجة وقبائلها وتاريخها**، ص ص 50-51.

التي نزحت إلى السودان من جزيرة العرب سواء عن طريق البحر الأحمر بالسفن أو عن طريق خور سيناء و القطر المصري حسبما ورد في كتب المؤرخين، وهي :

1- أبناء أبى بكر الصديق وهم بنو عبد الرحمن بن القاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق، اختلط كثير منهم بقبائل البجة.

2- وأبناء الزبير بن العوام من بنى مصعب بن الزبير، هم جماعة يعرفون بجماعة محمد بن وراق استوطنوا الوجه القبلي أول أمرهم.

3- بنو هلال.

4- بنو العباس هم أكثر القبائل التي هاجرت إلى السودان وتليهم في الكثرة جهينة. الهجرة إلى السودان في أوائل القرن 14م فانطلقت جهينة وحلفاؤها من فزارة نحو الجنوب والغرب تاركين بنى كنز الدولة وأكرمه في شمال النوبة ومسر العليا.

وبسبب نزوح هذه القبائل العربية إلى السودان أصبح الكثير من السودانيين يرجعون نسبهم وأصلهم إلى العرب، والعرب السودان الذين احتفظوا بأنسابهم العربية لم يبعدوا عن الحقيقة قيد أنملة، وأما قبائل البجة التي لا شك في عروبتها فهي قبائل الأمرار والبشاريين والمسلمية والرخوباب وغيرها، كلها تحتفظ بسلاسل أنسابها منذ أن وطئت أقدام أجدادها البلاد واختلطوا بالبجة سكان البلاد الأصليين، أما هجرة العرب إلى السودان الشرقي واختلاطهم بالبجة فقد كان أساسه الرغبة الملحة في تعدين الذهب في جبالهم كما كانت تفعل الأمم السابقة التي جاورت البجة، ولم يكن التعدين من السهولة بمكان لأنه تسبب عن هروب كثيرة بين العرب والبجة[1].

5- حركة التعريب ببلاد السودان الغربي والأوسط:

الهجرات العربية التي تركت أثرا واضحا هي هجرة قبيلة **بني هلال وبني سليم** إلى الشمال الإفريقي والذين كانت غزواتهم في القرن 5هـ/11م وانتشارهم جنوبا في الصحراء الكبرى، سببا في انتشار الدماء العربية وانتشار حركة التعريب والتعرب[2]، المتمثلة في نشر الدم الغريب واللسان العربي في المغرب الإسلامي ونشر الإسلام كذلك، وتمكنت هذه القبائل أن تعبر مراكش وتفتح منطقة آدرار وتصل إلى السنغال الأدنى نهاية القرن 5هـ/11م مثل بني حسان ثم استداروا نحو الشرق ومن أدلة انتشار النفوذ العربي أنه قلما أن نجد حاكما في السودان الغربي أن وينتسب بعض حكامه إلى صل عربي بعضهم يدعى نسبا علويا أو أمويا أو عباسيا أو بعضهم يدعى يمانيا. وتحت تأثير هذه الهجرة تعربت عناصر كثيرة من السكان الصحراء الأصليين بل ومن قبائل البربرية المهاجرة أيضا، ولو أن القبائل الواقعة في جنوب المغرب الأقصى والتي كانت معتصمة بجبال الأطلس والأطلس الصحراوي وعلى كل حال لم يكن يحل 6هـ/12م حتى كانت جميع القبائل الواقعة في جنوب طرابلس في الجنوب التونسي قد اختلطت بسكان السودان على أن حركة التعريب هذه التي جاءت في مرحلة تالية ستشمل موريتانيا أيضا أول محور آخر لتعريب الصحراء العربية كانت دائما ولا تزال أهم دعامة لانتشار الاسلام. فكان لهجرات بني هلال وبني سليم سببا في هجرات قبائل كثيرة من البربر الى منطقة الصحراء ثم توغلها نحو الجنوب الى منطقة السينغال والنيجر، ويرى أحد المؤرخين أن هوارة والواتة نفزاوة هاجرت نحو الجنوب الى بعد غارات العرب الهلاليين مباشرة ومن هجرات الطوارق منطقة النيجر والسينغال وظلت هجراتهم تؤثر في هذه الجهات حتى القرن 12هـ/18م[3].

---

[1]- محمد صالح ضرار، المرجع السابق، ص ص 50-51.

[2]- عبد الفتاح مقلد الغنيمي، المرجع السابق، ص 21.

[3]- محمود حسن أحمد، المرجع السابق، ص 51، 59.

المحاضرة الرابعة عشر : الطرق الصوفية والحركات الإسلامية الحديثة

1-الطريقة القادرية:

ظهرت في بعض المدن في السودان الغربي وكأنها مراكز لنفوذ الإسلامي بين الوثنيين ومن العواصم المتعددة وفي بعض الأحيان المتنقلة[1]، ودخلت الطريقة القادرية عن طريق بلاد شنقيط -موريتانيا حاليا-، وأصبح سيدي علي الكنتي قطبا للطريقة، ويرجح يوسف كيوك أن قدوم الطريقة القادرية كان مع بداية القرن 12م على يد مجموعة من المهاجرين القادريين من كنته بإقليم توات على يد مهاجرين من توات 9 هـ/ 15م واتخذوا من ولاتة أول مركز للقادرية، وعندما انتقلت قبائل كنته في القرن 15م لتوات حملت معها الطريقة، ثم امتد نفوذها إلى تمبكتو في نفس السنة ولم يمضي زمن طويل حتى عجت البلاد الإفريقية بالدعاة القادريين من الفقهاء والمعلمين وقد وصلت طلائعهم إلى مدينة تمبو في فوتاجالون بغينيا، وكينكا مسردو في نهر غامبيا[2].

وكان التطور الحقيقي للقادرية في السودان الغربي خلال القرن19م على يد قبائل الفلاني بمناطق الهاوسا وإقليم سوكوتو، كما انتشرت دعاة القادرية في أرجاء السودان الغربي من السنغال إلى مصب نهر النيجر. كما تعتبر من أوسع الطرق مكانا بفروعها الكثيرة في السودان الشرقي، وكان مركزها في أواسط السودان، واقترن دخولها باسم تاج الدين البهاري البغدادي عام 1577م، من تلاميذه الشيخ عجيب المانجلك ومحمد سوار الذهب وعبد الله دفع الله العركي، وبعد وفاة البهاري نشب صراع حول الخلافة مما أضعف وحدتها[3].

خريطة توزع القادرية

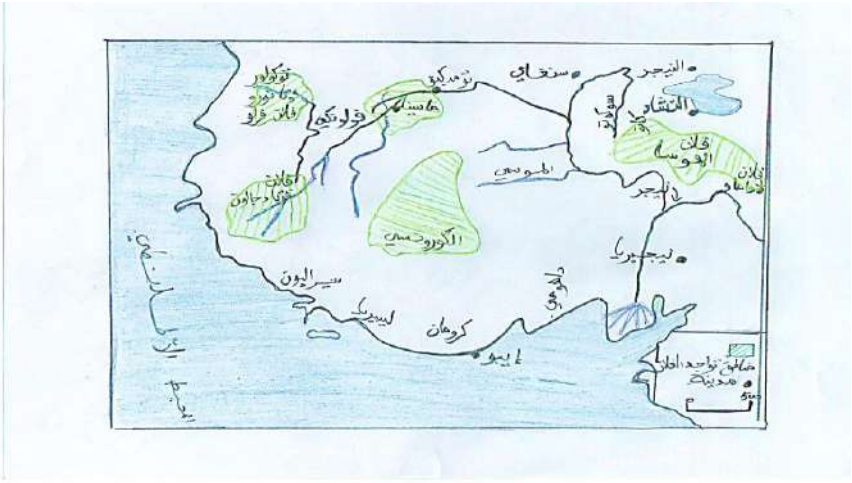

- دورها في نشر الإسلام:

من الناحية الدينية شكلت القادرية همزة وصل بين العالم الإسلامي والسودان الغربي وهذا الجسر عبرت من خلاله باقي الطرق الصوفية الأخرى في العالم الإسلامي والمغرب الإسلامي تأخذ طريقها إلى السودان الغربي باعتبارها أول طريقة وطأت أرض افريقية الغربية[4]، وقد عاش الكثير من دعاة القادرية بين الشعوب الوثنية التي رحبت بهم باعتبارهم فقهاء متعلمين فكانوا

---

[1]- عمار هلال، المرجع السابق، ص 121.

[2]- يحي بوعزيز، **تاريخ إفريقيا الغربية**، ص 17.

[3]- مودة عادل أحمد سيد أحمد، **دراسة قبة الشيخ بربر بن الحسين في شبشبه**. مذكرة بكارليوس غير منشورة، قسم الآثار، كلية الآداب، جامعة السودان، أوت 2013م، ص 14.

[4]- عمار هلال، المرجع السابق، ص 112.

يدعون إلى الدين والعلم معا، ويرسلون من يود المزيد من العلم إلى مدن شمال إفريقيا أو طرابلس أو فاس أو تلمسان أو حتى القاهرة وكان الدعاة القادريون يؤسسون المدارس ويشرفون عليها وكان نشاطهم في الدعوة يقوم على الإرشاد السلمي وأيضا التمسك بالفضيلة التي تجعل من الداعي قدوة صالحة لغيره[1]. كما تعتمد على الإنتاج والحكمة في المجتمعات الوثنية بطريقة سلمية لا مجال للعنف فيها ويرجع سبب نهوض الإسلام في السودان الغربي بين قبائل الفولان والتكرور أساسا لتطور القادرية في المنطقة وقد تزعم الحركة الدينية رجال محليون ذو كفاءة سياسية وعسكرية عالية، ومن دعاة القادرية السودانيين الذين لعبوا دورا يذكر في نشر الإسلام والحركة العربية وحاربوا الوثنية عثمان بن فودي، وابنه محمد بيلو أخوه عبد الله الشيخ احمد لوبو الماسيني الشيخ أحمد الكونتي[2].

2- **الطريقة التجانية:**

ظهرت في أول أمرها في السودان الغربي بواسطة محمد الحفيظ بم مختار الحبيب، و كان توسع الحقيقي للطريقة التيجانية في السودان الإفريقية الفرنسية سابقا من المناطق المحيطة بنهر النيجر الأعلى، كما انتشرت خصوصا في السينغال والمناطق المتاخمة له وشرق تشاد، وأول القبائل الإفريقية التي هرعت إلى صفوف التيجانية هم قبائل التكرور.

دورها في نشر الاسلام:

كان للتيجانية أكثر من دور خاصة في غرب إفريقيا بحيث لم يقتصر دورها على الجانبين الديني والاجتماعي فقط بل تعداه ذلك ليشمل ميادين عدة منها الميدان السياسي الذي ساهمت فيه بظهور عدد من الدويلات والإمارات التي استندت أساسا على تعاليم ومبادئ التيجاني لإعلان قيامها مثل دولة الحاج عمر بن فوتي والشيخ أحمدو وغيرها. أما التطور العام الذي عرفته التيجانية بالسودان الغربي حين تبنى الحاج عمر مسؤولية نشر الإسلام في المناطق الوثنية وأعلن الجهاد ضدها وزاد من انتشار التيجانية حتى أوصلها إلى إمارة "سوكوتو" وقبائل بامبارا الوثنيين، والإمارات الصغيرة الوثنية في الفوتاجالون.

وعرفت التيجانية في القرن 12هـ/19م انتشارا واسعا جدا من تمبكتو إلى المحيط الاكلسي بفضل دعاة التيجانيين الذين أعلنوا الجهاد وبظهور الطريقة السنوسية بدأت التيجانية تتراجع أمام السنوسية في هذه الحقبة وجه التيجانيون أنظارهم إلى إفريقيا الوسطى ومنطقة الطوارق ولم يقتصر نشاطهم ودورهم على البحث الدعاة فقط بل اتخذوا من التجارة وسيلة لنشر طريقتهم فأنشأ القوافل التجارية وفي الفترة التي تدهورت فيها أحوال التيجانية للمغرب ازدهرت في السودان الغربي وظهرت بمظهر القوة والتأثير في جميع الأواسط الإفريقية وان كان دورها السياسي في غرب افريقية لا يستهان به مما يدل على ذلك قيام عدة دول محلية وبتأثير منها وبقيادة من زعماء الأفارقة التجانيين[3].

3-**الطريقة السنوسية:**

وصلت إلى السودان الغربي عن طريق عين صالح في الجنوب الجزائر ثم غدامس ثم مناطق الطاسلي، وبعد أن توفي شيخ الطريقة كانت السونسية قد انتشرت انتشارا واسعا في القسم الشرقي من الصحراء الكبرى بليبيا وفي تبستي وتشاد وواحة آيير- آهير- وصلت دعوة السونوسيون إلى نيجيريا الشمالية عبر أراضي النيجر وتغلغل في القسم الجنوبي من إفريقيا الغربية والقسم الذي تسوده الغابات الكثيفة ، وتكثر فيه القبائل الوثنية ووصل بعض التجار الدعاة السونوسيون لواء الدعوة إلى

[1]- نعيم قداح، المرجع السابق، ص 89.

[2]- يحي بوعزيز، **تاريخ إفريقيا الغربية**، ص 17.

[3]- عمار هلال، المرجع السابق، ص،ص 126-127.

ساحل الذهب وفولتا العليا وبفضل الطريقة السنوسية وصل الإسلام حتى الكاميرون ، كما وصلت حتى الواحات الصحراوية في السودان الغربي[1].

دورها في نشر الإسلام:

عملت الطريقة السونوسية في السودان ونافست الطريقتين السابقتين القادرية والتجارية واستطاعت في وقت وجيز أن تقضي على روح العداء والتنافس الذي كان سائدا بين القبائل فيما بعد كان لها دور كبير في نشر تعاليم السونوسية كان لها نشاط ملحوظ خاصة في مقاومة الرقيق حيث عمل الشيخ السونوسي على اشتراء الرقيق وتعليمهم في زاويته "بجغبوب" بالصحراء الليبية ومن ثم يعملون كدعاة لدين الإسلامي استطاعت أن تتماشى مع الأوضاع السياسية والاجتماعية والثقافية للمناطق التي انتشرت فيها بالسودان الغربي[2] جماعة الطريقة السنوسية هي الأخرى بين الدين والسياسة التي لم يكن لها سوى معنى واحد ذلك الوقت، وهو مواجهة الاستعمار الأوربي، وبفضل دقة التنظيم وروح الطاعة ونشاط الدعاة وحماسهم وتدفق الجماهير المستمر عليها، لم تلبث السنوسية أن اتخذت مظهر حكومة عمومية تحمي الطرق التجارية وتدبر ميزان العدل طبقا لأحكام الشريعة الإسلامية وتحمي الضعيف، كما نجحت في إقامة سلطة تمسك بزمام الأمور وتشرف على الفرد والجماعة[3].

وبعد وصول هذه الطرق الصوفية غالى السودان الغربي وتحقيقها لأهدافها بدأت بالظهور طرق صوفية اتخذت شكلا افرقيا منها التي تفرعت عن طريق القادرية وهي الطريقة المريدية الإفريقية والتيجانية التي تفرعت عنها العمارية وكذا الطرق الإفريقية الأخرى. وهكذا كان للطرق الصوفية دور كبير في نشر الإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء وقد نشط دعاة هذه الطرق في الدعوة للإسلام ساعدهم في ذلك خصائص الإسلام الذاتية من سهولة ويسر وما ينعم به الداخل فيه من مساواة وعدالة واحترام ذاتي كما ساعدها ما قام به التجار والدعاة واستمرارهم في أداء دورهم من خلال الإشراف على الكتاتيب القرآنية والمدارس العربية التي أقاموها في المنطقة ومن خلال الدور الثقافي الذي قامت به الكتاتيب والزاوايا[4].

رغم أن الطرق الصوفية لم تظهر إلا في العصر الحديث إلا أنها قامت بدور جليل في سبيل نشر الإسلام في السودان الغربي و أن تعطي دفعا جديدا للإسلام، بعد فترة من الركود. و لقد تبلورت هذه العوامل الخارجية لانتشار الإسلام ببلاد السودان الغربي لتعطي نتائجها في المرحلة الثانية، وذلك سوف نلحظه من خلال النتائج التي ترتبت عن انتشار الإسلام بالمنطقة العوامل الخارجية.

الحركات الإسلامية الحديثة

1- حركة عثمان دان فودي الفولاني:

هو الشيخ عثمان بن محمد بن عثمان بن صالح بن هارون بن محمد بن جب بن محمد بن ثرب بن أيوب بن ماساران بن يوب باب بن جكل الملقب بابن فودي، وتعني كلمة فودي بلغة الفلان الفقيه، العالم وهو لقب يطلق على والده الذي ناله بالتدريب و العلم[5]. ولد يوم الأحد 17 نوفمبر 1754م، بقرية مارت في أرض جوبير التابعة لأرض غالمي (Galmi)، نشأ في بيئة علمية توارثت

[1]- حسن إبراهيم حسن، المرجع السابق، ص 46.

[2]- عمار هلال ، المرجع السابق، ص 132.

[3]- عبد الرحمن الماحي، المرجع السابق، ص 233.

[4]- عمار هلال، المرجع السابق، ص 135.

5- علي أيوب ناجي، المرجع السابق، ص 63.

العلم عن كبارها منذ القرن 8هـ/15م[1]، وهاجرت قبيلته الفولانية إلى بلاد الهوسا من فوتا تورو بقيادة الشيخ موسى الجد الأكبر لعثمان دان فودي. وحسب بعض الروايات فإن هذه الهجرة كانت بسبب الصراع حول السلطة مما دفع بالقبائل الفلانية بالهجرة إلى الشرق للبحث عن حياة أفضل[2].

ونشأ الشيخ عثمان نشأة دينية حيث حفظ القرآن الكريم على يد والده محمد فودي وجدته رقية وأمه حواء، ودرس اللغة العربية وحفظ الأحاديث وساعده في ذلك والده لتمكنه من اللغة وقواعدها ثم ارتحل مع أسرته إلى بلدة ديجيل من إمارة جبير، ودرس العلوم العربية والإسلامية على يد الشيخ عبد الرحمن بن محمد ومختصر خليل على يد عمه عثمان بن الأمين ولازمه سنتين وأخذ طباعه في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ثم انتقل إلى بلاد الطوارق بالتحديد إلى بلدة أغاديس أين أخذ العلم عن الشيخ جبريل بن عمر الذي يعد من أكبر علماء السودان في ذلك الوقت فصاحبه لمدة سنة، وعنه سمع لأول مرة بضرورة العودة إلى التعاليم الإسلامية الصحيحة ونبذ كل البدع والخرافات التي لا تتفق مع الكتاب والسنة، ودرس الفقه على يد الشيخ محمد بن عبد الله. وعندما عزم هذا الشيخ على السفر إلى الحج رافقه إلى بلدة أغاديس ثم أمره بالعودة لأنه لم يستأذن والده فعاد وكله أسف، فنظم قصيدة في شوقه إلى بلاد المقدس.

وبفضل نشأته العلمية والدينية كون رصيدا علميا كبيرا ساهم فيما بعد في إثراء رصيده الثقافي فقام بتأليف عدة كتب حيث كان الشيخ منهمكا في التأليف على الرغم من اشتراكه في المعارك العسكرية وانشغاله في التدريب والوعظ فقد كان يؤلف وينظم الشعر الكثير باللغة الفولانية حيث كتب 90 مخطوط بالعربية كما كتب عن المرأة[3]. ومن بين مؤلفاته: إحياء السنة وإخماد البدعة،إرشاد الأمة إلى تسير الأمة، أصول العدل لولاة الأمور وأهل الفضل، الأمر بموالاة المؤمنين والنهي عن موالاة الكافرين، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بيان البدع الشيطان التي أحدثها الناس في الملة المحمدية،بيان وجوب الهجرة على العباد، تبشير الأمة لبيان بعض المناقب القادرية.

وتمحورت دعوته الإصلاحية في خمسة محاور أساسية:

- ما فرضته الشريعة من الأصول و الفروع الظاهرة والباطنة.
- ما يتعلق بإتباع السنة وترك البدع والمنكرات.
- رد الأوهام والآراء الخاطئة في أذهان الطلبة مما تلقوه من علم الكلام وتكفيرهم لعامة الناس بلا مبرر شرعي.
- إخماد البدع الشيطانية التي احدها الناس في الإسلام.
- تعليم العلوم الشرعية و تبسيط مشكلاتها و تقريبها لأذهان العوام.

وبالتالي مرت دعوته الإصلاحية بثلاثة مراحل: مرحلة الدعوة 1774-1803م، مرحلة الجهاد وإنشاء الدولة الإسلامية 1803-1810م ومرحلة توطيد ركائز الدولة الإسلامية الجديدة 1810-1817م.

1- المرحلة الأولى: (1774-1803م)

وهي مرحلة الجهاد القولي، حيث كان الشيخ عثمان يعض ويرشد، ويدرس باللغات العربية والفلانية والهوسية حتى يبلغ رسالته لكل الناس ولا يحرم منها أحدا، وبسبب الوسط الذي كان يعيشه حيث تسوده الأفكار والعادات والبدع الخرافية

1- أحمد محم الكاني، **الجهاد الإسلامي في غرب إفريقيا**. الزهراء للإعلام العربي، ط2، 1986م، ص 59.

2- عمر عبد الرحمن الماحي، المرجع السابق، ص 127.

3 - Monteil Vincent, Op.cit, P 80.

كان يوصف عمله بالشاق والصعب في الدعوى إلى الله وتصحيح العقائد وهدم الخرافات عن طريق الوعظ التعليمي في سبيل نشر دعوته[1]. فكان يوصل دعوته وإصلاحاته إلى كل شرائح المجتمع السوداني وحتى لهجة التماجك التارقية كان يدرس بها وكان يدل على اهتمامه بتوسيع الدعوة وإيصالها إلى الجميع وبكل اللهجات وذلك هو شأن المصلحين الكبار[2].

واهتم الشيخ عثمان كذلك بنظم الشعر الإصلاحي الذي يدعوا إلى مكارم الأخلاق والوحدة في الله وخدمة المثل العليا التي تساعد على الطهر الخلقي وحسن المعاملة والاقتداء برسول الله صلي الله عليه وسلم و صحابته الكرام. وواصل عمله الدعوي والإرشاد وقسم ناس زمانه بالسودان إلى ثلاث فئات:

- الفئة الأولى: مسلمة مظهرا ومخبرا.
- الفئة الثانية: تظهر الإسلام وتعمل أعمال الكفار، وحكم عليها بالكفر.
- الفئة الثالثة: لا صلة لها بالإسلام إطلاقا، وهي كافرة بالأصالة.

وبمرور الزمن تمكن من تكوين مجموعة من الطلاب، عكفوا على مساعدته في تبليغ دعوته الإصلاحية إلى كل الجهات ولنسخ كتبه ونشرها بين الناس كذلك، فاتسعت دعوته وبلغت معظم المجتمعات السودانية في المنطقة. كما اهتم بالتعليم فكان يمارسه في المدارس القرانية المعروفة باسم ماكارونتا الو وهي مقسمة إلى الو: من الكلمة العربية الله وماكارونتا: تعني إسلامي والتي مازالت إلى غاية اليوم بنيجيريا. وتتبع نظم التعليم الكلاسيكية القديمة التي ورثها منذ قرون عن أجداده معتمدا على: تفسير ا8لقرآن: تفسير الجلالين، يعلمنا الحديث: في الصحيحين البخاري والنووي، الفقيه: مختصر خليل، رسالة بن أبي زيد القيرواني، كتب المالكية، الموطأ، تحفة الحكام لابن عاصم[3].

وبالتالي تمكن من أن يحرر شعبه من الأفكار السائدة بينهم و ينور طريقهم، فمن العادات التي كانت سائدة انه كان للملوك والسلاطين أماكن خاصة يؤمنون بضرورة تقديم الأضاحي لها مثل الغابات والصخور الكبيرة والبحر وهذه الأضاحي كانت دائما من الصنف البشري فكانوا يؤمنون أن هذه العادات هي مبعث قوتهم فان أبطلوها ضعفت شوكتهم وقلت أرزاقهم[4]. ولذا تخوف أمراء إمارة جوبير منه ومن دعوته، و سعوا إلى التقرب منه من اجل إسكاته ووضع حد لانتشار سمعته وأفكاره والحد منها على الأقل، فكانت المناسبة في عيد الفطر عام 1200هـ الموافق لـ1788م، حيث قام الأمير باوا بدعوة عدد من العلماء لتكريمهم و تهنئتهم بالعيد وقدم للشيخ عثمان مبلغ 500 مثقال ذهبا، فرفضه و قال للأمير باوا " إنني أطلب بدلا منها خمسة أمور:

1- السماح لي بحرية التجول والتنقل للدعوة في سبيل الله.
2- عدم اعتراض يستجيب لدعوتي.
3- توقير كل عالم يلبس العمامة.
4- إطلاق سراح المسجونين السياسين.
5- عدم فرض الضرائب الباهض على الرعية."

[1] - يحي بوعزيز، المرجع السابق، ص 214.
[2] - أحمد محمد الكاني، المرجع السابق، ص 67.
[3] - Josèphe Cuoq, Op.Cit.p: 268.
[4] - سكينة بوبكي، المرجع السابق. ص 86.

وبهذه المطالب كشف الشيخ عن اتجاهه السياسي ومانيته مستقبلا واضطر الأمير باوا إلى القبول بمطالبه لتجنب الاصطدام به وسخط أتباعه وتمردهم عليه. وبالتالي فقد تمكن الشيخ عثمان بن فودي من لم كلمة الحق في عدد الإتباع الذين انضموا إلى دعوته إضافة إلى توحيد كلمة المسلمين و م شملهم عن طريق الأمر بالمعروف النهي عن المنكر.

2- المرحلة الثانية: الجهاد و إعلان الدولة الإسلامية:

وفي هذه المرحلة أعلن الشيخ عثمان بن فودي الجهاد الفعلي ضد الكفار، وهذا بسبب السخط والضغط الذي مارسه أمراء جوبير عليه وعلى أتباعه، فقام بعدة معارك كان النصر حليفه فيها وفي الأخير تمكن من إنشاء دولة إسلامية قوية. والمميز في هذه الرحلة أنه قبل إعلان الجهاد سنة 1804م، قام الشيخ بإرسال رسالة إلى الناس بعنوان وثيقة ابن فودي أمير المؤمنين إلى جميع أهل السودان داعيا فيها جميع الناس للدخول في طاعته ونبذ ما يتبعونه من الكفر والبدع والظلم و الفجور[1].

3- المرحلة الثالثة: مرحلة توطيد دعائم الدولة الإسلامية الجديدة

تميزت هذه المرحلة بعمل إداري مكثف لإرساء قواعد الدولة الإسلامية الجديدة، حيث حل المشاكل المعقدة في مختلف الميادين من أهمها: كيفية تسيير الأمور اليومية، وتنسيق الأعمال بين الإمارات المختلفة خاصة الإمارات التي لم تسبق لها أي خبرة إدارية في الماضي، والعلاقة بين سوكوتو وبعض المجموعات التي بايعت الشيخ عثمان على السمع والطاعة مع الاحتفاظ بكيانها الخاص كمجموعات الطوائف التي اقرها الشيخ على الحكم الذاتي تحت ظل الخلافة السكتية[2]. من هنا نجد أن كلا من المرحلة الثانية والثالثة كانت مهمة أيضا في سير الحركة الإصلاحية للشيخ عثمان و بالتالي فقد قام بوضع الأسس الصحيحة لبناء الدولة الإسلامية، وتشيدها على المبادئ السمحة المتزينة بالعقيدة الصحيحة والمبادئ السامية.

النتائج المترتبة عن الحركة الإصلاحية اعثمان بن فودي الفلاني:

أ- النتائج السياسية:

- تجديد نظام الحكومة الإسلامية و هذا بعد انتصار الشيخ عثمان على ملوك بلاد الهوسا.
- إقامة دولة إسلامية مقسمة إلى حوالي 30 إمارة.
- إنشاء حكومة بها مؤسسات ودواوين ومناصب عربية كالوزير و القاضي والوالي والمحتسب.
- حمل الشيخ عثمان لقب أمير المؤمنين وحمل أبناؤه لقب الخليفة من بعده[3].
- عملت هذه الحركة على دفع حركة المد الإسلامي سلميا وبالتالي استطاعوا إيقاف النزاعات والحروب التي كانت قائمة، بين القبائل الوثنية بسبب الانقسامات العربية التي كانت تعاني منها إمارات الهوسا.
- قام الشيخ عثمان ومحمد بلو بتأسيس إدارة قائمة على التشريع والقرآن، وفرضوا الزكاة، ووضعوا وزراء و آجية (Agiya)، وزوغي صاحب الخزينة كما وضعوا رئيسا للشرطة يسمى (Sarkine Dagaria)[4].

[1]- أحمد محمد الكاني، المرجع السابق. ص 84.

[2]- عبد الرحمن عمر الماحي، المرجع السابق. ص 140.

[3]- محمد علي باري وسعيد ابراهيم كريدية، المرجع السابق. ص 194.

[4]- Cornevin Robert, Opcit, P: 377.

ب- النتائج الثقافية:

- أصبحت اللغة العربية رسمية في تلك الدولة مما ساعد على انتشارها وبالتالي زادت المراكز العلمية من مدارس، معاهد، وكانت العلوم والآداب تلقى اهتماما في المدارس العلمية، حتى أصبحت لغة الهوسا تكتب بحروف عربية حتى جاء الاستعمار الأوروبي واستبدلها بالحروف اللاتينية.

- أصبح يطلق على النصف الأول من القرن 19م بالعصر الذهبي بسبب الإنتاج الغزير للشيخ عثمان وأخيه عبد الله وابنه محمد بلو، من خلال الكتب التي ألفها رواد الدولة والتي شملت مختلف فروع العلم والمعرفة.

- أصبحت اللغة العربية لغة المعاملات التجارية ولغة التأليف والكتابة والمراسلات وتركت بصماتها قوية واضحة في لغة الهوسا ولغة الفلاني.

ج- النتائج الاجتماعية:

- تحسين أحوال المسلمين في نيجيريا و غرب إفريقيا.

- عادت بالإسلام إلى الخطى السليمة وسيرة السلف الصالح كما قضت على كل الخرافات والبدع التي كانت سائدة في المنطقة و التي لا تتلاءم مع التعاليم الإسلامية الصحيحة.

عملت على دفع حركة المد الإسلامي إذ أرسل الفلاني واعظيهم و رجالهم إلى أقاليم الوثنيين لنشر مبادئ الإسلام، ولم يعتمدوا على الجهاد مما ساعد في نشر الإسلام ورفع لوائه، إنما اعتمدوا على الطرق السلمية.

2- حركة الشيخ محمد الأمين الكانمي (ت: 1835م):

المولد والنشأة:

ولد ونشأ الشيخ محمد الكانمي في بحيرة التشاد، وتلقى تعليمه في جامع الأزهر لمدة خمس سنين وبعدها انتقل إلى القدس أين مكث سنتين ثم زار الحرمين وجاور مكة مدة ثلاث سنوات، وسنتين بالمدينة، ونفسها بفاس، كما زار طرابلس والقيروان وتلمسان وتمبكتو. اشتهر بالعلم والتقوى والصلاح فكثر حوله الأتباع والتلاميذ من جميع القبائل في حوض بحيرة التشاد مما مكنه من الجلوس على عرش مملكة بورنو الإسلامية، وعندما تولى الحكم واجه أولا أنصار الشيخ عثمان دان فوديو الذين غزوا بلاده، كما اهتم بنشر الدعوة الإسلامية في جنوب نيجيريا والكاميرون، وحاول إرجاع جميع الأقاليم التي كانت خاضعة لمملكة بورنو لكنه لم يفلح في ذلك[1].

حركته:

واستنكر على جماعة الشيخ عثمان المنطق الثوري وهو الخروج على السلطة وفتك الدماء، كما شكك في شرعية الجهاد نفسها، فالفساد قد عم البلاد كلها ولم يقبل المجاهدين في بلاده خاصة وأنه يرى بوجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خاصة مع وجود علماء كبار فلا يجوز أن ينادي أحد بالجهاد. فقد أنجد سلطان بورنو **أحمد بن دوناما** عندما قدم إلى بلاده هربا من قوات الشيخ عثمان بقيادة الماهر مختار، وتعلون شعبي البرنو الكانوري وشعب الكانمبو بقيادة محمد الكانمي لوقف دعوة الشيخ عثمان الفودي إلى أن توفي عثمان بن فودي **1817م** وخلفه ابنه محمد بللو كأمير للبلاد (على القسم الشرقي)[2].

[1]- عبد الفتاح الغنيمي، المرجع السابق. ص 212.

[2]- عبد الرحمن عمر الماحي، المرجع السابق. ص 145.

واستمرت المراسلات بين الطرفين وفي سنة **1824م** حصل تفاهم بينهما مع الأمير **أحمد بللو** خليفة والده عثمان، فقد رأى الشيخ محمد الكانمي أنه من الحكمة والحنكة السياسية أن يتفاهم مع الفولاني بعد مراسلات مع محمد بلل والتي ذكرها هذا الأخير في كتابه "إنفاق الميسور"، فبعث الكانمي إليه برسالة جاء في فحواها أنهما أهل دين واحد هو الإسلام وأنه بين برنو وبلاد الفولاني بعض القبائل التي تزال تعيش على الوثنية، ولا تعبد الله فهم قوم جور يجوز فرض الجزية عليهم ودعوتهم لدخول الإسلام وعرض محمد بللو سلطان سوكوتو أن تظل هذه القبائل حدا فاصلا بين برنو وبين سلطان الفولاني على أن يحترم كل منهما حدود الآخر.

ويعتبر هذا اعتراف ضمني من طرف الشيخ محمد الكانمي بمشروعية الجهاد في بلاد الهاوسا والبلدان المجاورة، وأقرّ المجاهدون محمد الكانمي كحاكم مستقل على بلاد البرنو وانتهى الصراع بين الحركتين، فالأولى كانت تهدف إلى إقامة دولة إسلامية تقضي على مل رواسب الجاهلية والعادات الوثنية، أما الثانية فكانت تهدف إلى الإبقاء على هذه الأوضاع، وإن كان ولا بد من القيام بالإصلاح فيكون عن طريق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا عن طريق الجهاد، ولعل عيش وتنقل الكانمي في بلاد المشرق أدى به إلى اتخاذ مثل هذا الموقف، كما أنه عارض الكرامات والتوسل بالأولياء الطرق الصوفية الأمر الذي أدخله في نزاع مع الأمير محمد بللو والحاج عمر الفوتي، وعارض أيضا وفكرة المهدوية ولكنه أخذ بالمذاهب الأربعة، وتوفي الشيخ محمد الكانمي سنة **1835م** وخلفه ابنه الأكبر **محمد بن محمد الكانمي** في الحكم والدعوة الإسلامية[1].

3- الشيخ أحمد لوبو الماسني (ت: 1260هـ/1844م):

المولد والنشأة:

تلقى تعليمه في مدينة جني حيث درس الفقه والتفسير والحديث واللغة والتاريخ الإسلامي، وكان متصوفا متبعا للطريقة القادرية، ثم عاد إلى بلاده "ماسينا" وبدأ في نشر دعوته للإسلام وجهاد الإحيائيين ولا يتم ذلك إلا بالرجوع إلى الكتاب والسنة. عارضه حكام ماسينا في ذلك فتنقل مع أتباعه إلى منطقة "روندي سبرو" عرب جنّي ومنها أعلن الجهاد ضد الحكام، وهاجم العلماء الذين اعتبرهم أداة طيعة في يد الحكام "البصارا" لعدم قيامهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتطبيق الشريعة ثم أعلن نفسه أميرا للمؤمنين وسيطر على جنّي وماسينا وتمبكتو وكآرتا، وأسس مدينة "حمد الله" سنة **1815م** لتكون عاصمة لدولته التي كانت تضم منطقة مالي وبوركينافاسو، ووضع لها نظاما إداريا حازما لمحاربة الظلم والبدع.

حركته:

كما شكل لجنة تتألف من مائة عضو لدراسة الوضع في البلاد، وبعد أشهر من العمل قدمت له اللجنة مقترحاتها، فألف الشيخ الماسني مجلسا للشورى يتألف من أربعين عالما يرأسه أحد كبار العلماء، وبناء على المجلس قسمت البلاد إلى خمس إمارات وعلى رأس كل واحدة منها أمير يساعده أحد العلماء الذي تكون له سلطة قضائية استقلالي، ولو استلزم الأمر تقديم الأمير للمحاكمة أمام مجلس الشورى في العاصمة. كما أنشأ نظاما عسكريا دقيقا للدفاع عن البلاد، وقسم عاصمته إلى سبعة أحياء يشرف قاض خاص على كل حي منها، وعين قاض للقضاة على رأس هؤلاء الحكام، كما طبق سياسة استقرار البدو الرحل في قرى ثابتة لتسهيل عملية الدفاع عنها[2].

[1]- محمد علي باري وسعيد ابراهيم كريدية، المرجع السابق، ص 200.

[2]- عبد الفتاح مقلد الغنيمي، المرجع السابق، ص 217.

أما في الجانب الاقتصادي فقد استصلح الأراضي الزراعية وأقام نظاما اقتصاديا إسلاميا، فأنشأ بيت المال وأهم موارده الزكاة، والجزية، والخراج، والغنائم، والمكوس والغرامات التي تدفعها القرى والمدن المجاورة التي تحدث تمردا. وبهدف تحسين الوضع الثقافي والتعليمي للسكان فقد أنشأ حوالي ستمائة مدرسة في العاصمة وحدها، كما اعتنى بالناحية الدينية فأمر ببناء المساجد في كل قرية، وكان يصلي بالناس ويلقي الدروس في المسجد. وبالنسبة للعلاقات الخارجية مع جيرانه فقد تبادل السفراء مع الشيخ عثمان دان فوديو وتوطدت العلاقة بينهما، وبفضله انتشر الإسلام وانتعشت الدولة الماسينية اقتصاديا واجتماعيا وثقافيا فتوافد عليها الطلاب والتجار من كل حدب وصوب.

وتميزت حركة أحمد لوبو الماسني بأنه آمن وادعى المهدية وأنه مبعوث العناية الإلهية لإنقاذ المجتمع الإسلامي في غرب أفريقيا لمحاربة الوثنية لحدّ الانتساب لآل البيت، وأشاع تنبؤات تشير لظهور المهدي في المجتمع الإفريقي، فأرسل الرسائل إلى المسلمين من مصر شرقا إلى مراكش غربا يشير فيها إلى أنه الإمام الثاني عشر وأنه المهدي المنتظر. وبعد وفاته ثار الناس على ابنه أحمد الثاني ولكنه تمكن في الأخير من السيطرة على الوضع وإعادة الأمن والاستقرار للبلاد، وبعد وفاة **أحمد الثاني** سنة **1852م** خلفه ابنه **أحمدو الثالث** الذي تغلبت عليه قوات عمر بن سعيد الفوتي واستولت على عاصمته سنة **1862م**، وانتهت بذلك دولة ماسينا وبدأت المنطقة تنضوي تحت لواء حركة إصلاحية جديدة[1].

3- **الحاج عمر بن سعيد الفوتي (1797-1864م):**

المولد والنشأة:

ولد الحاج عمر الفوتي في قرية حلوار من بودور على الحدود السنغالية الموريتانية إلى الشرق من مدينة سانت لويس سنة **1797م**، كان والده من كبار العلماء الذين نشروا الدعوة بالسنغال لذا تلقى تعليمه الابتدائي في خلوة والده، حيث حفظ القرآن واللغة العربية والتوحيد والتفسير والحديث والتاريخ الإسلامي وغيرها من العلوم. وقام برحلة للحج سنة **1826م** مارا عبر طريق المغرب وفاس وتلمسان والقيروان وبرقة ومكة والمدينة وغيرها من الأمصار، حيث تلقى العلم عن شيوخها وأدبائها ووجد القبول بين علماء سوريا والقدس عكس القاهرة إذ واجه مشاكل حول بعض المسائل الفقهية والاعتقادية[2].

وخلال عودته زار مملكة برنو في عهد الشيخ محمد الأمين الكانمي وأقام بها مدة ثلاث سنوات عام **1833م** ووقع بينهما خصام فاضطر لمغادرة برنو إلى سوكوتو التي أقام بها ثمان سنوات أين أعجب بدعوة الشيخ عثمان بن فودي، وتزوج من ابنة أحمد بللو سنة **1837م**، ولما توفي هذا الأخير رحل الشيخ عمر الفوتي التكروري مع زوجته عائشة إلى دولة ماسينا ثم ارتحل بعدها إلى إمارة سيجو فطردته سلطاتها فرحل إلى كانجابا ثم إلى منطقة "**كان كان**" واستقر بها مدة سبع سنوات يعظ الناس ويعلم مبادئ الطريقة التيجانية، فالتف حوله العديد من الأتباع والأعوان في كل منطقة أقام بها مما أدخله في نزاع بإقليم برنو مع الحاج محمد الأمين الكانمي الذي فكر في اغتياله، كما دخل في نزاع مع فقهاء مملكة سوكوتو بالرغم من حماية وتأييد أميرها محمد بللو له فغادرها سنة **1837م** بعد وفاة أميرها.

بداية حركته:

ذهب إلى دولة ماسينا وحاول كسب الأنصار لكنه فشل فعاد إلى وطنه "**فوتا تورو**" ولم تقبل به الحكومات هناك فأعلن الجهاد سنة **1849م** وفكر في بناء مجتمع جديد، وقام بغزوة إمارة "**البمبارا**" في كآرتا مركز الوثنية سنة **1854م** وألحق

[1]- عبد الرحمن عمر الماحي، المرجع السابق، ص 150.

[2]- عمر أحمد سعيد، "دور حركات التجديد الإسلامي في غرب إفريقيا"، مجلة دراسات إفريقية، عدد 6، رجب 1410هـ/فبراير 1990م، ص 130.

بجيشها الهزيمة واستولى على أهم مدنها. وأمل في مساعدة أمير سوكوتو له لشن هجوم على القبائل الوثنية بإمارة سيجو، فرض ذلك فاتجه للغرب لمهاجمة بعض الإمارات السنغالية وهناك اصطدم بالقوات الفرنسية سنة **1857م** ثم رجع إلى الشرق وأثناء اصطدامه مع قوات دولة ماسينا قتل سنة **1864م** قبل أن يثبت أركان دولته الإسلامية.

كان قد عين ابنه **أحمدو** خليفة له فأخذ مكانه وتطلع لإقامة علاقات تجارية وثقافية وسياسية مع الدول المجاورة ومع الفرنسيين في حوض السنغال ومع الإنجليز في غامبيا وسيراليون، فسار على نهج والده لتطبيق مبادئ الشريعة الإسلامية والعمل على استتباب الأمن والاستقرار داخل البلاد. وبعد مؤتمر برلين سنة **1884-1885م** تم احتلال دولة التكرور من قبل فرنسا فاضطر أحمدو للانتقال إلى نيورو، وبعدها توفي سنة **1898م** قبل أن يصل إلى دولة سوكوتو فخلفه أبنه **محمد** باسيرو. وهكذا انتهت الدولة الإسلامية التي أسسها الحاج عمر بن سعيد الفوتي التكروري بمجرد القضاء على قواتها العسكرية، ولجوء أميرها إلى سوكوتو واحتلال ماسينا سنة **1893م**.

وأهم ما ميز حركته أنها نجحت في تقوية روابط الوحدة بين المسلمين في غرب أفريقيا لأنها أقامت دولة أكثر مركزية من دولة سوكوتو أو دولة الشيخ أحمدو لوبو الماسينية. كما أنه نادى غيره من المصلحين بالتربية الروحية عن طريق ممارسة أوراد الطريقة التيجانية وهي أحدث من القادرية التي انتهجها كل من عثمان الفودي وأحمدو لوبو، واعترض على التقليد والمحاكاة وانتهج مبدأ الاجتهاد الشخصي وعارض الكرامات ولكنه لم يعارض التوسل بالصالحين. كما أن جهاده وقع خارج بلاده في فوتا تورو مما ساعد على تحقيق النجاح لحركته الإصلاحية، خاصة وأن الشعب التكروري كان دائما محبا للعلماء والدعاة الذين ظهروا بعد حركة المرابطين فوجد الحاج عمر فوتي تأييدا من علماءها، إضافة لتأثره بفكرة المهدوية رغم أنه لم يدعها، وارتبط بعامل الهجرة التي اعتبرها أمرا ضروريا من بلاد الكفار قبل البدء في الجهاد. ومما يأخذ عليه قسوته مع خصومه، كم أن النظام الذي وضعه لدولته لم يكن متينا، فكان رعاياه يطيعونه لهيبته وتقاه، ولم يضع نظاما محكما لدولته لذا عندا خلفه ابنه أحمدو حكم العاصمة وما حولها في حين خرج البمبارا عم حكمه وأسرع أخواه **حبيبو ومختار** بإعلان انفصالهما وانضما إلى الفرنسيين[1].

[1]- عمر أحمد سعيد، المرجع السابق، ص ص 130-131.

ثبت

المصادروالمراجع

ثبت المصادروالمراجع

القرآن الكريم

أولا: المصادر:

1-ابن أبي أحمر أبي الوليد إسماعيل، **تاريخ الدولة الزيانية بتلمسان**. تح: هاني سلامة، مكتبة الثقافة الدينية للنشر والتوزيع، ط1، 2001م.

2- الإدريسي الشريف الحسني، **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**. مج: 1، بور سعيد، مكتبة الثقافة الدينية، 1422ه/2002م.

3- الأرمني صالح، **تاريخ الشيخ أبي صالح الأرمني**. أكسفورد، 1894م.

4- الأصطخري أبو إسحاق إبراهيم، **المسالك والممالك**. تح: محمد جابر عبد العالي الجيني، مر: شفيق غربال، القاهرة، دار القلم، 1961م، ط1.

5- ابن بطوطة، **تحفة النظارفي غرائب الأمصاروعجائب الأسفار**. تح: على المنتصر الكتامي، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1982م، ط98.

6- البكري أبو عبيد الله، **المغرب في ذكربلاد إفريقية والمغرب**. القاهرة، دار الكتاب الإسلامي، ب.ت.ن

7- بن عثمان محمد بلو فودي، **إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور**. تح: بهيجة الشاذلي، الرباط، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، 1996م، ط1.

8- ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة في تاريخ ملوك مصروالقاهرة**. القاهرة، دار الكتب المصرية، 1963م.

9- التنبكتي أحمد بابا، **نيل الابتهاج بتطريز الديباج**. تح: عبد الحميد عبد الله الهرامة، طرابلس، كلية الدعوة الاسلامية، ط1، 1989م، ج: 1.

10- التونسي محمد بن عمر، **تشحيذ الأذهان بصورة بلاد العرب والسودان**. تح: خليل محمود عساكر، مصطفى محمد مسعد، مر: محمد مصطفى زيادة، القاهرة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر، الدار المصرية للتأليف والترجمة، 1965م.

11- ابن حجر العسقلاني ، **تهذيب التهذيب**. تح تع: مصطفى عبد القادر عطاء، بيروت: دار الكتب العلمية، 1415ه، ط1.

12- ابن حزم الأندلسي، **رسائل ابن حزم الأندلسي**. ج: 2، تح: إحسان عباس، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1981م.

13- الحموي شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت، **معجم البلدان**، بيروت، دار صادر، 1397ه/1977م، ط1، ج: 5.

14- الحميري عبد المنعم، **الروض المعطارفي خبرالأقطار**. تح: إحسان عباس، بيروت: مكتبة لبنان، ط1984،2.

15-ابن حوقل أبو القاسم النصيبي، **صورة الأرض**. بيروت، دار مكتبة الحياة، 1979م.

16- ابن خلدون عبد الرحمن، **المقدمة**. بيروت، دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، ط1، 1968م.

17- // // ، **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**. بيروت، دار الكتاب اللبناني للنشر، 1968م، ط1، مج: 6

18- الدمشقي شمس الدين، **نخبة الدهر في عجائب البر والبحر**. بيتربورغ، المطبعة الأكاديمية للإمبراطورية المقدسة، 1926م.

19- ابن أبي زرع علي الفاسي، **الأنيس المطرب بروض القرطاس في إخبار المغرب ومدينة فاس**. الرباط، دار المنصور للطباعة والوراقة، ط1، 1973م.

20- السعدي عبد الرحمن، **تاريخ السودان**. تح تع تق: حماه الله ولد السالم، بيروت، دار الكتب العلمية، 1433هـ/2012م.

21- ابن سعيد المغربي، **كتاب الجغرافيا**. تح: إسماعيل العربي، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1982م، ط2.

22- ابن عبد الحكم أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله، **فتوح مصر والمغرب**. ليدن، 1920م.

23- القزويني زكريا بن محمد بن محمود، **آثار البلاد وأخبار العباد**. بيروت، دار صادر، د.ط، د.ت.ط.

24- القلقشندي أبو العباس أحمد، **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**. القاهرة، المؤسسة الوطنية للتأليف والنشر، 1963م، ج: 5.

25- ابن ماجه، **سنن ابن ماجة**. ج: 2، تح: محمد فؤاد عبدالباقي، مطبعة مصطفى الحلبي، مصر ،د.ت.ن.

26- محمود كعت، **تاريخ الفتاش في ذكر الملوك وأخبار الجيوش وأكابر الناس وتكملته تذكرة النسيان في أخبار ملوك السودان لابن المختار**. تح تق: حماه الله ولد السالم، بيروت، دار الكتب العلمية، 1433هـ/2012م، ط1.

27- المسعودي على بن الحسين، **التنبيه والإشراف**. ليدن، 1976م.

28- المقديسي محمد بن أحمد، **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**. تق: شاكر لعيبي، أبو ظبي، دار السويدي للنشر والتوزيع، 2003م، ط1.

29- المقريزي تقي الدين أحمد بن علي، **الذهب المسبوك في من حج من الخلفاء والملوك**. تح تع: جمال الدين الشيال، بورسعيد، مكتبة الثقافة الدينية، 1420هـ/2000م، ط1.

30- // // : **الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الاسلام**. تح تع د: عبد النعيم ضيفي عثمان عبد النعيم، القاهرة، المكتبة الأزهرية للتراث، 2006م.

31- // // : **البيان والأعراب عمن بأرض مصر من الأعراب**. تح: القاهرة، 1961م.

32- // //: **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار**. ج: 1، القاهرة، المطبعة الأميرية، 1970م.

33- الوزان حسن بن محمد الفاسي، **وصف إفريقيا**. تر: محمد حجي ومحمد الأخضر، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1983م، ط2.

34- اليعقوبي محمد بن نافع، **تاريخ اليعقوبي**. ج: 2، بيروت، دار صادر، ب.ت، ط.

ثانيا: المراجع العربية:

35- أحمد شلبي، **موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية**.

36- أحمد طاهر، **إفريقيا فصول بين الماضي والحاضر**. القاهرة، دار المعارف، د.ط، د.ت.ط.

37- أحمد عبد القادر أرباب، **تاريخ دارفورعبرالعصور**. ج: 1، الخرطوم، مطبعة الجامعة، 1998م، ط1.

38- أحمد نجم الدين فليحة، **إفريقية**. بغداد، جامعة بغداد، 1978م.

39- إسماعيل العربي، **حاضر الدول الإسلامية**. الجزائر، مؤسسة الكتاب، ط1، 1984م.

40- أمين محمود محمد عثمان، **سلطنة الفورالإسلامية (1400-1916م)-دراسة تحليلية-**. الخرطوم، 2011م.

41- بابكر فضل المولى حسين أحمد، **مظاهر الحضارة في دولة الفونج الإسلامية**. الخرطوم، منشورات الخرطوم عاصمة الثقافة العربية، 2004م.

42- باري محمد علي كريدية وسعيد إبراهيم، **المسلمون في غرب إفريقيا (تاريخ وحضارة)**. بيروت، دار الكتب العلمية، 2007م، ط1.

43- بلعالم محمد باي، **الرحلة العلية إلى منطقة توات.** ج:2.، الجزائر: دار هومة، د.ط، د.ت.ط.

44- // // **قبيلة فلان في الماضي والحاضر وما لها من العلوم والمعرفة والمآثر**. الجزائر، دار هومة، 2004 م/1425هـ.

45- بنرمضان زوليخة، **المجتمع والدين والسلطة في إفريقيا الغربية ما بين القرنين 5و10هـ/11و16م**. ج: 3، الرباط، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1436هـ/2015م، ط1.

46- بوعزيز يحي، **تاريخ إفريقيا الغربية الإسلامية من مطلع القرن 16م إلى مطلع القرن 20م**. الجزائر، دار هومة للطباعة والنشر، 2001م، ط1.

47- جعفر أحمد صديق، **انتشارالإسلام في القرون الثلاثة الأولى من الهجرة**. قسم الدراسات العليا الحضارية، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى، 1408هـ

48- حسن إبراهيم حسن، **انتشارالإسلام في القارة الإفريقية**. القاهرة، مطبعة السنة المحمدية، ط2، 1964م.

49- حسن حافظي العلوي، **سجلماسة و إقليمها في القرن الثامن الهجريالرابع ميلادي**. المملكة المغربية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1425هـ/1997م.

50- حسن سليمان محمود وجلال الشاويش، **تاريخ السودان في العصورالقديمة**. القاهرة، دار مصر للطباعة.

51-حسن محمد جوهر وحسين مخلوف، **السودان (أرضه، تاريخه، حياة شعبه)**. مصر، دار الكتب، 1970م.

52- حمد صالح ضرار، **تاريخ شرق السودان مماليك البجة وقبائلها وتاريخها**. مكتبة التوبة، ط1، 1433هـ/2012م.

53- خليفات عوض محمد، **مملكة ربيعة العربية في وادي النيل (ق 3هـ/9م)**. عمان، ط1، 1403هـ/1983م.

54- الدالي الهادي مبروك، **التاريخ السياسي والاقتصادي لإفريقيا في ما وراء الصحراء من نهاية القرن الخامس إلى بداية القرن الثامن عشر**. القاهرة، الدار المصرية اللبنانية، ط1، 1999م.

55- دندش عصمت عبد اللطيف، **دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا السمراء**. الجزائر، وزارة الثقافة، 2007م، ط1.

56- زاهر رياض، **الممالك الإسلامية في غرب إفريقيا**. مصر، مكتبة أنجلو، 1968م، ط1.

57- زبادية عبد القادر، **الحضارة العربية والتأثير الأوروبي في إفريقيا الغربية جنوب الصحراء**. الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1989م، ط1.

58- // // : **مملكة سنغاي في عهد الأسقين (1493/1591م)**. الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، د.ط.

59- زكري عبد الرحمن، **تاريخ الدولة الإسلامية السودانية في إفريقيا الغربية**. القاهرة، المؤسسة العربية الحديثة، 1974م.

60- سبيل آدم سبيل، **قبائل دارفور**. الخرطوم، دار عزة للنشر والتوزيع، 2004م.

61- سيد أحمد علي عثمان العقيد، **دارفور والحق المر (الماضي، الحاضر، المستقبل: دراسة تحليلية من منظور تاريخي)**. القاهرة، الدار العربية للنشر والتوزيع، ط1، 2007م.

62- الشاطر بصيلي، **معالم تاريخ سودان وادي النيل**. الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1969م.

63- شقير نعوم، **جغرافية وتاريخ السودان**. ج: 1، بيروت، دار الثقافة،1967م.

64- الشكري أحمد، **الإسلام والمجتمع السوداني إمبراطورية مالي (1230-1430م)**. مركز الدراسات الصحراوية، الرباط، دار أبي الرقراق للطباعة والنشر، 2015م.

65- شوقي الجمل، **تاريخ وحضارات السودان**. ج: 1، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، 1969م.

66- شوقي عطا لله والجمل إبراهيم، **تاريخ المسلمين بإفريقية ومشكلاتهم**. القاهرة، دار الثقافة للنشر، 1996م، ط1.

67- الشيخلي إبراهيم صباح والألوسي عادل محي الدين، **تاريخ الإسلام في إفريقيا وجنوب شرق آسيا**. بغداد، كلية الآداب، 1987م.

68- ضرار صالح ضرار، **تاريخ السودان الحديث**. الدار السودانية للكتب، الخرطوم، 1395هـ.

69- // // : **هجرة القبائل العربية إلى وادي النيل مصر و السودان**. السودان، مكتبة التوبة، ط2، 1421هـ/2001م.

70- طاهر أحمد، **إفريقيا فصول من الماضي والحاضر**. القاهرة: دار المعارف، د.ت.ن.

71- طرخان إبراهيم علي، **إمبراطورية برنو الإسلامية**. القاهرة، الهيئة المصرية للكتاب، 1975م.

72- عبد الرحمن حميدة، **أعلام الجغرافيين العرب ومقتطفات من آثارهم**. دمشق، دار الفكر، 1995م.

73- عبد الظاهر حسن عيسى، **الدعوة الاسلامية في غرب إفريقيا وقيام دولة الفولاني**. القاهرة، الزهراء للإعلام، 1991م.

74- عبد الله عبد الرحمن الأمين، **العربية في السودان**. ج: 1، بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1967م.

75- عبد الله عبد الماجد إبراهيم، **الغرابة الجماعات التي هاجرت من غرب إفريقيا واستوطنت سودان وادي النيل ودورهم في تكوين الهوية السودانية**. دار الحاوي،ط 1، 1998م.

76- عبد المجيد عابدين، **القبائل العربية في وادي النيل.** القاهرة، 1961م.

77- عبد الوهاب الأفندي، **أزمة دارفور نظرة في الجدور والحلول الممكنة**. أبو ظبي، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، ع: 139، 2009م.

79- عثمان سيد أحمد إسماعيل البيلي، **جوانب من الإسلام والثقافة العربية الإسلامية في إفريقيا**. أم درمان، مركز

80- محمد عمر بشير للدراسات السودانية، جامعة أم درمان الأهلية، 2005م.

81- العربي إسماعيل، **الصحراء الكبرى وشواطئها**. الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1983م، ط1.

82- العفيفي عبد الحكيم، **موسوعة 1000 مدينة إسلامية**. أوراق شرقية للطباعة و النشر، بيروت، 2000م.

83- عون الشريف قاسم، **الإسلام والعربية في السودان**. الخرطوم، دار المأمون المحدودة، 1409هـ/1989م، ط1.

84- الغنيمي عبد الفتاح مقلد، **حركة المد الإسلامي في غربي إفريقيا**. القاهرة، مكتبة نهضة الشرق، 1985م، ط1.

85- فضل كلود دكو، **الثقافة الإسلامية في تشاد في العصر الذهبي لإمبراطورية كانم.** طبعة كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ليبيا، 1998م.

86- الفلاتي عبد الرحيم، **الفلاتة في إفريقيا ومساهمتهم الإسلامية والتنموية في السودان**. الكويت، دار الكتاب الحديث، 1994م.

87- الفيتوري عطية مخزوم، **دراسات في تاريخ شرق إفريقيا وجنوب الصحراء مرحلة انتشار الإسلام**. بنغازي، 1997م.

88- قداح نعيم، **حضارة الإسلام وحضارة أوربا في إفريقيا الغربية**. الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، د.ت.ط، ط2

89- قيصر موسى الزين، **فترة انتشار الإسلام والسلطنات**. القاهرة، مكتبة غريب، 1998م.

90- كاني أحمد محمد، **الجهاد الإسلامي في غرب إفريقيا**. الزهراء للإعلام العربي، ط2، 1986م.

91- الماحي عمر عبد الرحمان، **الدعوة الإسلامية في إفريقيا الواقع والمستقبل**. الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1992م، ط1.

92- محمود إسماعيل، **الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري.** الدار البيضاء، دار الثقافة، 1406هـ/ 1985م، ط2.

93- محمود حسن أحمد، **الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا**. القاهرة، دار الفكر العربي، 2002م، ط1.

94- محمود شاكر، **تشاد**. بيروت، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 1292هـ/1972م، ط1.

95- مدحت عبد البديع عبد الباقي، **تاريخ الشعوب الإسلامية الحديث في إفريقيا**.

96- ناجي علي أيوب، **لمحات عن الإسلام في نيجيريا بين الأمس واليوم**. الكويت، دار الكتاب الحديث، ط1، 1996م.

97- الناصري أحمد بن خالد، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**. تح: جعفر ومحمد الناصري، بيروت،1997م، ط1.

98- ناعمي مصطفى، **الصحراء من خلال بلاد تكنة تاريخ العلاقات التجارية والسياسية**. الرباط، منشورات عكاظ، ط1، 1988م.

99- الناني ولد الحسين، **صحراء الملثمين دراسة لتاريخ موريتانيا وتفاعلها مع محيطها الإقليمي خلال العصر الوسيط من منتصف القرن 2هـ/8م الى نهاية القرن 5هـ/11م**. تق: محمد حجي، بيروت، دار المدار الإسلامي، 2007م، ط1.

100- نبيلة محمد، **تاريخ إفريقيا الإسلامية**. القاهرة، دار المعرفة الجامعية، 2007م

101- هلال عمار، **الطرق الصوفية ونشر الإسلام في غرب إفريقيا للصحراء**. الجزائر، وزارة الثقافة، 2007م.

102- وجدي محمد، **دائرة معارف القرن العشرين**. بيروت، دار المعرفة، 1971م، ط1، مج: 5.

103- يوسف فضل حسن، **مقدمة في تاريخ الممالك الإسلامية في السودان الشرقي (1450-1821م)**. الخرطوم، دار سودتاك المحدودة، ط4، 1422هـ/2002م.

104- // // : **انتشار الإسلام في إفريقيا**. الخرطوم، أعمال الخدمات السريعة، 1979م.

<u>المذكرات والرسائل والأطاريح الجامعية:</u>

105- أحمد حسين عبد الرحمن آدم، **الدلالات الآثارية للامتداد السياسي والديني لدولة الفونج بين الشلالين الرابع والثالث**. رسالة ماجستير غير منشورة، إش: إنتصار صغيرون الزين، كلية الآداب، قسم الآثار، جامعة الخرطوم، السودان، 2004م.

106- بوبكي سكينة، **الحركة العلمية بالهوسا في السودان الغربي خلال القرن التاسع عشر ميلادي**. أطروحة ماجستير غير منشورة، جامعة وهران، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، قسم: الحضارة الإسلامية، 2009/2008م.

107- جعفر أحمد صديق، **انتشار الإسلام في القرون الثلاثة الأولى من الهجرة**. قسم الدراسات العليا الحضارية، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى 1408هـ.

108- حليمة عبد الرحمن بكر صندل، **أثر التمازج بين قبائل دار فور العربية وغير العربية في الفترة ما بين (1445-1916م) دراسة تحليلية من منظور تاريخي**. رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة النيلين، 2014م.

109- سعيد سامي، **العلماء ومجتمع السودان الغربي خلال العصر الإسكي (1493-1591م)**. ج: 1، أطروحة دكتوراه غير منشورة، عين الشق كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الحسن الثاني، الرباط، 2001/2000م.

110- عماد الدين آدم محمد عبد الرحمن محمد، **الأثر المتبادل بين سلطنة الفور والقبائل في تشكيل مجتمع دارفور**. رسالة ماجستير غير منشورة، إش: عصام الدين محمود، قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة النيلين، السودان، 2017م.

111- القمر ربيع، **معاهدة البقط**. رسالة ماجستير غير منشورة، كلية العلوم الاجتماعية، قسم التاريخ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، 1412هـ.

112- مزدلفة عمر محمد ثاني، **التاريخ الاجتماعي لمجموعة الفلاني بجنوب النيل الأزرق في الفترة (1900-2006م)**. مذكرة ماجستير غير منشورة، كلية الدراسات العليا، قسم الدراسات الإفريقية والآسيوية، جامعة الخرطوم، 2007م.

113- موده عادل أحمد سيد أحمد، داسة قبة الشيخ بربر بن الحسين في شبشبه. مذكرة بكارليوس غير منشورة، إش: عبد الرحمن إبراهيم سعيد، قسم الآثار، كلية الآداب، جامعة السودان، أوت 2013م.

ثالثا: المقالات والدوريات:

114- أنجاي مصطفى، "من كانم إلى صوكوتو موجز التاريخ السياسي للسودان الأوسط". مجلة قراءات إفريقية، الخرطوم، السنة 14،ع: 35، جانفي 2018م.

115- بابكر فضل المولى حسين، "تقويم الدور الحضاري للدولة الفونج". المؤتمر الدولي الإسلام في إفريقيا، 26-2006/11/27م، الكتاب 14، ليبيا، وزارة الإرشاد والأوقاف.

116- بلهواري فاطمة، "العلاقات التجارية بين بلاد المغرب والسودان الغربي خلال القرن 4هـ/10م". دورية كان التاريخية، ع: 10، ديسمبر، 2010م.

117- بوعزيز يحي، "طرق القوافل والأسواق التجارية بالصحراء الكبرى". مجلة الثقافة، ع: 59، 1980م، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.

118- جوزيف أومارا وخديجة صفوت، "سرديات رحلات العبور التاريخية وأسلمة سلطنة الفونج في القرن السادس عشر، أثر بعض تنويعات الرحالة والتجار على التاريخ الإسلامي والتاريخ الشعبي"، السودان وإفريقيا في مدونات رحالة الشرق والغرب، ندوة الرحالة العرب والمسلمين، دورة ابن حوقل، أبوظبي، دار السويدي للنشر والتوزيع، 2006م، ط1.

119- حديدي الحسين، "الممالك الإسلامية بغرب إفريقيا وإشعاع الحياة الفكرية بها في العصر الوسيط وبداية الحديث". مجلة قراءات إفريقية، السنة 14،ع: 35، جانفي 2018م.

120- حمد حمد كنان ميغا، "مظاهر الثقافة الإسلامية العربية في تمبكتو وغاوو وجني في عهد الأساكي". مجلة قراءات إفريقية، ع: 3، ذو الحجة 1429هـ/ ديسمبر 2008م.

121- دريد عبد القادر نوري، "انتشار الإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء: دراسة في خطوات الانتشار والأسباب والوسائل". مجلة كلية العلوم الإسلامية، العراق، مج: 1، ع: 1، 1428هـ/2007م.

122- ربيع محمد قمر الحاج، "الهجرات العربية إلى بلاد النوبة والسودان الشرقي وآثارها الاجتماعية". مجلة دراسات إفريقية، السنة 21، ع: 33، جمادى الأولى 1426هـ/جويلية 2000م.

123- ربيع محمد قمر الحاج، "قراءة جديدة في نصوص معاهدة البقط". مجلة الدارة، الرياض، سنة 21، ع: 2، الرياض، محرم/ صفر/ ربيع الآخر 1416هـ.

124- سعود بن حمد الخثلان، "دور التجار المسلمين في رواج التجارة بين بلاد المغرب والسودان الغربي فيما بين القرنين الثالث والخامس الهجريين (9/11م)". مجلة جامعة الملك بن عبد العزيز، ع: 5، 1412هـ/1992م.

125- سيسوكو سيكيني مودي، "نزعة تمبكتو في وحدة العالم الإفريقي". مجلة الثقافة الإفريقية، ع: 1، 1961م، الجزائر، الشركة الوطنية للكتاب.

126- الشيخلي إبراهيم صباح، "تطور الوجود العربي في صحارى فزان ما بين القرنين الأول والسادس الهجريين". المجلة العربية للعلوم الإنسانية، ع: 23، مج : 6، سنة 1986م.

127- عبد المحسن ثريا محمود وغازي مطر أزهار، "إمارات الهاوسا دراسة في التاريخ الحضاري والثقافي". كلية التربية الأساسية، جتمعة ديالى، العراق.

128- عطية عبد الكامل، "الروابط التجارية بين شمال وجنوب الصحراء الكبرى من خلال المصادر العربية والرحالة الأوروبيين بين القرنين 15-19م". دورية كان التاريخية، ع: 23 ، مارس 2014م.

129- علي يعقوب، "الثقافة الإسلامية في إمبراطورية برنو الإسلامية". قراءات إفريقية، ع: ، سنة 2014م.

130- عمار مرضي الجميلي، "المؤثرات الإسلامية في مملكة برنو الإفريقية". ع: 13، سنة 2011، مجلة كلية الإمام الأعظم، بغداد.

140- عوض خليفات، "العرب والنوبة في صدر الإسلام"، مجلة دراسات تاريخية، جامعة دمشق، رجب 1402هـ/1982م.

141- قاسم وهب، "أخبار النوبة والبجة في مصنفات الجغرافيين العرب خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين (التاسع والعاشر للميلاد". السودان وإفريقيا في مدونات رحالة الشرق والغرب، ندوة الرحالة العرب والمسلمين، دورة ابن حوقل، أبوظبي، دار السويدي للنشر والتوزيع، 2006، ط1.

142- مصطفى مسعد،"البجة والعرب في العصور الوسطى". مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة، مج: 21، ع: 9 .

143- يوسف فضل حسن، "سلطنة الفونج الإسلامية: دورها في تاريخ سودان وادي النيل". مجلة دراسات إفريقية، ع: 22، رمضان 1320هـ/ديسمبر 1999م.

رابعا: المقالات الالكترونية

144- بلهواري فاطمة، "العلاقات التجارية بين بلاد المغرب والسودان الغربي خلال القرن 4هـ/10م". دورية كان التاريخية، ع: 10، ديسمبر، 2010م.

145- عبد الله الفكي البشير، "قراءة في صورة شعوب القرن الإفريقي في كتابات الرحالة والجغرافيين العرب والمسلمين وتأثيراتها الممتدة". صحيفة التغيير الإلكترونية، بتاريخ: 4/8/ 2013م. الرابط: : www.mubarek . org .inst

146- عبد الله عبد الرزاق إبراهيم، "دور تمبكتو الجغرافي والاقتصادي في التجارة الصحراوية" عن موقع:

147- عطية عبد الكامل، "الروابط التجارية بين شمال وجنوب الصحراء الكبرى من خلال المصادر العربية والرحالة الأوروبيين بين القرنين 15-19م". دورية كان التاريخية، ع: 23 ، مارس 2014م.

148- مصطفى مسعد ، "امتداد الإسلام والعروبة إلى وادي النيل الأوسط". المجلة التاريخية المصرية، ع: 5، 1959م، القاهرة. الرابط: info1https://www.altaghyeer.

خامسا: الكتب المعربة:

149- بازل دفسن، **إفريقيا تحت أضواء جديدة**. تر: جمال أحمد، بيروت، دار الثقافة، 1961م، ط1.

150- بوركهارت جون لويس، **رحلات بوركهارت في بلاد النوبة والسودان**. تر: فؤاد أندراوس، مصر، مطبعة المعرفة.

151- بولم دنيس، **الحضارات الإفريقية**. تر: علي شاهين، بيروت، دار مكتبة الحياة، د.ط، د.ت.ط.

152- جوان جوزيف، **الإسلام في ممالك إمبراطوريات إفريقيا السوداء**. تر: محمد السويقي، القاهرة، دار الكتب الإسلامية، دار الكتاب المصري، بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1404هـ/ 1984م، ط1.

153- جوان جوزيف، **الإسلام في ممالك وإمبراطوريات إفريقيا السوداء**. تر: مختار السويفي، القاهرة، بيروت، دار الكتاب المصري، دار الكتاب اللبناني، د.ط ، د.ت.ن.

154- رولاند أوليفر وجون فيج، **موجز تاريخ إفريقية**. تر: دولت أحمد صادق، مر: محمد السيد غلاب، مصر، الدار المصرية للتأليف والترجمة، 1385هـ/1965م.

155- شارل أندري جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية، تعريب: محمد مزالي وبشير سلامة، تونس: الدار التونسية للنشر، ط2: 1983، ج: 2.

156- فيج . جي . دي، **تاريخ غرب أفريقيا**. تر: السيد يوسف نصر، القاهرة، دار المعارف، ط1، 1982م.

157- ماكيفيدي كولين، **أطلس التاريخ الإفريقي**. تر: مختار السويفي، مر: محمد العزل موسى، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب،1987م.

سادسا المراجع الأجنبية:

158- CORNEVIN Robert, **Histoire des Peuples de L'Afrique Noir**. Paris, Ed Berger-Levrauts, 1962.

159- CUOQ Josèphe, **les musulmans en Afrique**. Paris, Ed Larousse, 1978.

160- MAGE Abdon-Eugene**, Voyage dans le Soudan occidental en 1872.** Paris, Ed Hachette, 1837.

161- MONTEIL Vincent, L'Islam noir. Paris, Ed Le Seuil, 1963.

162- COQUERY-VIDROVITCH (Catherine), **Histoire des villes d'Afrique noires, des origines à la colonisation**. Paris: Ed Albin Michel, 1993.

163- TADEUSZ Lewicki : **Histoire Générale de l'Afrique : l'Afrique du VII au XI siècle**. Unesco/nea, directeur, m.er.fasi. Codirecteur : IHREBH France, imprimerie Bourges, 1990.

164- TAUXIER Louis, **Mœurs et Histoire des Peules (Peuls du Fouta Djallon, Peuls de** Macina, Peuls d'Issa Ber). Paris, Ed Payot, 1937.

المقالات والدوريات الأجنبية:

165- LY Madina, "L'empire du mali à traverse les sources portugaise", R.A. Z. N°= 6,7 1977, Alger: C.N.E.H.

166- MONTEIL Vincent, L'Islam noir. Paris, Ed Le Seuil, 1963.

167- PALMER H .R, "History of katsina". Journal of the Royal African Society". (Apr 1927), Vol :26 , No 103.

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

العنوان	الصفحة
مقدمة	5-1
المحور الأول: المجال الجغرافي والبشري لإفريقيا جنوب الصحراء و أقسام السكان	
المحاضرة الأولى: المجال الجغرافي لإفريقيا جنوب الصحراء	13-7
المحاضرة الثانية: المجال البشري لإفريقيا جنوب الصحراء وأقسام السكان	31-14
المحور الثاني: ممالك السودان الغربي	
المحاضرة الثالثة: مملكة غانة	45-33
المحاضرة الرابعة: ممالك السينيغامبيا مملكة التكرور	50-46
المحاضرة الخامسة: مملكة مالي الإسلامية	63-51
المحاضرة السادسة: مملكة السنغاي	75-64
المحور الثالث: ممالك السودان الأوسط	
المحاضرة السابعة: مملكة الكانم برنو	92-77
المحاضرة الثامنة: ممالك بلاد الحوصا/ الهاوسا	100-93
المحور الرابع: ممالك السودان الشرقي	
المحاضرة التاسعة: بلاد النوبة	110-102
المحاضرة العاشرة: مملكة الفُونج الإسلامية	125-111
المحاضرة الحادية عشر: مملكة دارفور	138-126
المحاضرة الثانية: الحبشة وممالك الطراز	147-139
المحور الخامس: انتشار الإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء	
المحاضرة الثالثة عشر: دور الدعاة والتجار والهجرات في نشر الإسلام	160-149
المحاضرة الرابعة عشر: الطرق الصوفية والحركات الإسلامية الحديثة	170-161
قائمة المصادر والمراجع	172
فهرس الموضوعات	182